

# الرد على الجهمية والزنادقة

فيما شكوا فيه من متشابه القرآن

وتأولوه على غير تأويله

---

ويليه كتاب

## السنة

كلامها لإمام أهل السنة والجماعة الإمام

أحمد بن حنبل

رحمه الله تعالى ورضى عنه

---

بتحقيق

محمد حامد الفقي

عفا الله عنه . وثبته بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة

مطبعة السنة المحمدية

١٧ شارع شريف باشا الكبير - القاهرة  
ت ٧٩.١٧

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أخبرنا أبو طاهر المبارك بن المبارك بن المعطوش في كتابه :

أن أبا الغنائم محمد بن أحمد بن المهدي بالله . أجاز لهم :

أن أبا القاسم عبد العزيز بن علي الأرجي . أجاز لهم :

عن أبي بكر عبد العزيز ، المعروف بـ غلام الخلال .

قال : أنبأنا أبو بكر الخلال . قال :

أخبرني الخضر بن المثني الكندي . قال :

أنبأنا عبد الله بن أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - قال :

هذا ما أخرجه أبي - رحمه الله - في « الرد على الزنادقة والجهمية » فيما

شكَّت فيه من متشابه القرآن . وتَأَوَّلَتْهُ على غير تأويله .

قال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ورضي عنه .

الحمد لله الذى جعل فى كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم .  
يدعون من ضلَّ إلى الهدى . ويصبرون منهم على الأذى . يحيون بكتاب الله  
الموتى . ويبصرون بنور الله أهل العمى . فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ؟ وكم  
من ضال تائه قد هدوه ؟ فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم !  
ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ،  
الذين عقدوا ألوية البدعة ، وأطلقوا عقال الفتنة . فهم مختلفون فى الكتاب ،  
مخالفون للكتاب . مجمعون على مفارقة الكتاب . يقولون على الله ، وفى الله ، وفى  
كتاب الله : بغير علم . يتكلمون بالمتشابه من الكلام . ويخدعون جهال الناس  
بما يشبهون عليهم . فعوذ بالله من قتن المضلين .

### باب بيان ما ضلت فيه الزنادقة

من متشابه القرآن

قال أحمد فى قوله عز وجل ( ٤ : ٥٦ ) كلما نَضَجَتْ جلودهم بَدَّلْنَاهُمْ جلوداً  
غيرها ) قالت الزنادقة : فما بال جلودهم التى عَصَتْ قد احترقت ، وأبدلهم جلوداً  
غيرها ؟ فلا نرى إلا أن الله يعذب جلوداً لم تذب ، حين يقول « بدلناهم جلوداً  
غيرها » فشكوا فى القرآن . وزعموا أنه متناقض .

فقلت : إن قول الله « بدلناهم جلوداً غيرها » ليس يعنى جلوداً غير جلودهم .  
وإنما يعنى بدلناهم جلوداً غيرها : تبديلها تجديدها . لأن جلودهم إذا نضجت  
جددها الله . وذلك : لأن القرآن فيه خاص وعام ، ووجود كثيرة ، وخواطر  
يعلمها العلماء .

وقوله عز وجل ( ٧٧ : ٣٥ ، ٣٦ ) هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم  
فيعتذرون ) ثم قال فى آية أخرى ( ٣٩ : ٣١ ) ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم  
تختصمون ) فقالوا : كيف يكون هذا من الكلام المحكم ؟ قال « هذا يوم لا ينطقون »

ثم قال في موضع آخر « ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » فزعموا أن هذا الكلام ينقض بعضه بعضاً . فشكوا في القرآن .

أما تفسير « هذا يوم لا ينطقون » فهذا أول ما تبعث الخلائق على مقدار ستين سنة لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعتذرون . ثم يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون . فذلك قوله ( ٣٢ : ١٢ ) ربنا أبصرنا وسمعنا . فارجعنا نعمل صالحاً ( فإذا أذن لهم في الكلام . تكلموا واختصموا . فذلك قوله ( ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ) عند الحساب ، وإعطاء المظالم . ثم يقال لهم بعد ذلك ( ٥٠ : ٢٨ ) لا تختصموا لديّ ( أى عندى ) وقد قدمت إليكم بالوعيد ( أى في الدنيا . فإن العذاب مع هذا القول كائن .

وأما قوله ( ١٧ : ٩٧ ) ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ) وقال في آية أخرى ( ٧ : ٥٠ ) ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ( فقالوا : كيف يكون هذا من الكلام المحكم ؟ ) ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ) ثم يقول في موضع آخر : إنه ينادى بعضهم بعضاً . فشكوا في القرآن من أجل ذلك .

أما تفسير ( ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ) ( ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ) فإنهم أول ما يدخلون النار ، يكلم بعضهم بعضاً ، وينادون ( ٣٤ : ٧٧ ) يا مالِكُ ليقض علينا ربك . قال : إنكم ما كثون ) ويقولون ( ١٤ : ٤٤ ) ربنا أخبرنا إلى أجل قريب ) ( ٢٣ : ١٠٦ ) ربنا غلبت علينا شقوتنا ) فهم يتكلمون حتى يقال لهم ( ٢٣ : ١٠٨ ) اخسثوا فيها ولا تكلمون ) فصاروا فيها عمياً وبكماً وصماً . وينقطع الكلام . ويبقى الزفير والشهيق . فهذا تفسير ما شككت فيه الزنادقة من قول الله .

وأما قوله ( ٢٣ : ١٠١ ) فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ) وقال في آية

أخرى (٣٧ : ٢٧ ، ٥٠ ، ٥٢ : ٢٥ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ) فقالوا :  
كيف يكون هذا من المحكم ؟ فشكوا في القرآن من أجل ذلك .  
فأما قوله عز وجل « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » فهذا عند النفخة  
الثانية إذا قاموا من القبور لا يتساءلون . ولا ينطقون في ذلك الموطن . فإذا  
حوسبوا ودخلوا الجنة والنار : أقبل بعضهم على بعض يتساءلون . فهذا تفسير  
ما شككت فيه الزنادقة .

وأما قوله ( ٤٣ ، ٤٢ : ٧٤ ما سألكم في سقر ؟ قالوا : لم نك من المصلين )  
وقال في آية أخرى ( ١٠٧ : ٤ فويل للمصلين ) فقالوا : إن الله قد ذمّ قوماً لأنهم  
كانوا يصلون . فقال « ويل للمصلين » وقد قال في قوم : إنهم إنما دخلوا النار  
لأنهم لم يكونوا يصلون . فشكوا في القرآن من أجل ذلك . وزعموا أنه متناقض .  
قال : وأما قوله « فويل للمصلين » فإنما عنى بها المنافقين ( الذين هم عن  
صلاتهم ساهون ) حتى يذهب الوقت ( الذين هم يراءون ) يقول : إذا رأوا الناس  
صلا ، وإذا لم يروهم لم يصلوا . وأما قوله « ما سألكم في سقر ؟ قالوا : لم نك  
من المصلين » فيعنى الموحدين المؤمنين . فهذا ما شككت فيه الزنادقة .

وأما قوله عز وجل ( ٣٠ : ٢٠ خلقكم من تراب ) ثم قال ( ٣٧ : ١١ من  
طين لازب ) ثم قال ( ٢٣ : ١٢ من سلاله ) ثم قال ( ١٥ : ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٣ من  
حمأ مسنون ) ثم قال ( ٥٥ : ١٤ من صلصال كالفخار ) فشكوا في القرآن . وقالوا :  
هذا ملاسة . ينقض بعضه بعضاً .

فنقول : هذا بدء خلق آدم . خلقه الله أول بدئه من تراب . ثم من طينة  
حمراء وسوداء وبيضاء ، من طينة طيبة وسبخة . فكذلك ذريته : طيب وخبيث  
أسود وأحمر وأبيض . ثم بلّ ذلك التراب فصار طيناً . فذلك قوله « من طين » .  
فما لصق الطين بعضه ببعض صار طيناً لازباً . يعنى لاصقاً . ثم قال « من سلاله  
من طين » يقول : مثل الطين إذا عُصِرَ أنسلَّ من بين الأصابع . ثم نتن فصار

حَمَّاءَ مَسْنُونًا . فخلق من الحمأ . فلما جَفَّ صار صَلصَالًا كالفخار . يقول : صار له صلصلة كصلصلة الفخار . له دَوِيٌّ كدوى الفخار . فهذا بيان خلق آدم .

وأما قوله « ٣٢ : ٨ من سلالة من ماء مهين » فهذا بدء خلق ذريته من سلالة ، يعنى النطفة إذا انسَلَّت من الرجل . فذلك قوله « من ماء » يعنى النطفة « مهين » يعنى ضعيف . فهذا ما شككت فيه الزنادقة .

وأما قوله ( ٧٣ : ٩ رب المشرق والمغرب ) ، ( ٥٥ : ١٧ رب المشرق ورب المغربين ) ، ( ٧٠ : ٤٠ رب المشارق والمغارب ) فشكوا في القرآن ، وقالوا : كيف يكون هذا من الكلام المحكم ؟ .

فأما قوله « رب المشرق والمغرب » فهذا اليوم الذى يستوى فيه الليل والنهار . أقسم الله بمشرقه ومغربيه . وأما قوله « رب المشرقين ورب المغربين » فهذا أطول يوم في السنة ، وأقصر يوم في السنة . أقسم الله بمشرقيهما ومغربيهما . وأما قوله « رب المشارق ورب المغرب » فهى مشارق السنة ومغاربها . فهذا ما شككت فيه الزنادقة .

وأما قوله ( ٢٢ : ٤٧ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ) وقال في آية أخرى ( ٣٢ : ٥ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ) وقال في آية أخرى ( ٧٠ : ٤ ، ٥ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . فاصبر صبراً جميلاً ) فقالوا : كيف يكون هذا من الكلام المحكم . وهو ينقض بعضه بعضاً ؟

قال : أما قوله « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » فهذا من الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض ، كل يوم كألف سنة . وأما قوله « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة » فذلك أن جبريل كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم ويصعد إلى السماء في يوم كان

مقداره ألف سنة . وذلك أنه من السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام . فهبوط :  
خمسمائة عام . وصعود : خمسمائة عام . فذلك ألف سنة .

وأما قوله « في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » فيقول : لو ولي حساب  
الخلائق غير الله ما فرغ منه في يوم مقداره خمسون ألف سنة ، ويفرغ الله منه في  
مقدار نصف يوم من أيام الدنيا ، إذا أخذ في حساب الخلائق . فذلك قوله  
( ٢١ : ٤٧ وكفى بنا حاسبين ) يعني سرعة الحساب .

وأما قوله ( ٦ : ٢٢ ، ٢٣ ويوم نحشهم جميعاً . ثم نقول للذين أشركوا : أين  
شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا  
مشركين ) فأنكروا أنهم كانوا مشركين وقال في آية أخرى ( ٤ : ٤١ ولا يكتُمون  
الله حديثاً ) فشكوا في القرآن . وزعموا أنه متناقض .

فأما قوله « والله ربنا ما كنا مشركين » فذلك : أن هؤلاء المشركين إذا  
رأوا ما يتجاوز الله عن أهل التوحيد ، يقول بعضهم لبعض : إذا سألنا نقول : لم  
نكن مشركين . فلما جمعهم الله وجمع أصنامهم ، وقال « أين شركاؤى الذين كنتم  
تزعمون ؟ » قال الله عنهم « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا  
مشركين » فلما كتموا الشرك ختم على أفواههم . وأمر الجوارح فنطقت بذلك .  
فذلك قوله ( ٣٦ : ٦٥ اليوم نحتم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم . وتشهد أرجلهم  
بما كانوا يكسبون ) فأخبر الله عز وجل عن الجوارح حين شهدت . فهذا تفسير  
ما شككت فيه الزنادقة .

وأما قوله عز وجل ( ٢٠ : ٥٥ ويوم تقوم الساعة يُقسَمُ الجرمون : ما لبثوا  
غير ساعة ) وقال ( ٢٠ : ١٠٣ يتخافتون بينهم : إن لبثتم إلا عشرا ) وقال  
( ٢٠ : ١٠٤ إن لبثتم إلا يوماً ) وقال ( ١٧ : ٥٢ إن لبثتم إلا قليلاً ) ومن أجل  
ذلك شككت الزنادقة .

فنقول : أما قوله « إن لبثتم إلا عشرا » فذلك إذا خرجوا من قبورهم . فنظروا



إلى ما كانوا يكذبون به من أمر البعث ، يقول بعضهم لبعض : إن لبثتم في القبور إلا عشر ليال . واستكثروا العشر ، فقالوا : إن لبثتم في القبور إلا يوماً . ثم استكثروا اليوم ، فقالوا : إن لبثتم إلا قليلاً . ثم استكثروا القليل . فقالوا : إن لبثتم إلا ساعة من نهار . فهذا تفسير ما شككت فيه الزنادقة .

وأما قوله ( ٥ : ١٠٩ ) يوم يجمع الله الرسل ، فيقول : ماذا أُجبتُم ؟ قالوا : لا علم لنا ) وقال في آية أخرى ( ١١ : ١٨ ) ويقول الأَشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ) فقالوا : كيف يكون هذا ؟ يقولون : لا علم لنا . وأخبر عنهم : أنهم يقولون « هؤلاء الذين كذبوا على ربهم » فزعموا أن القرآن ينقض بعضه بعضاً . فنقول : أما قوله « يوم يجمع الله الرسل ، فيقول : ماذا أُجبتُم ؟ » فإنه يسألهم عند زفرة جهنم . فيقول : ماذا أُجبتُم في التوحيد ؟ فتذهب عقولهم عند زفرة جهنم ، فيقولون : لا علم لنا . ثم ترجع إليهم عقولهم من بعد ، فيقولون : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم . فهذا تفسير ما شككت فيه الزنادقة .

وأما قوله ( ٧٥ : ٢٢ ، ٢٣ ) وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ) وقال في آية أخرى ( ٦ : ١٠٣ ) لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ) فقالوا : كيف يكون هذا ؟ يخبر أنهم ينظرون إلى ربهم ، ويقول في آية أخرى « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » ؟ فشكوا في القرآن . وزعموا أنه ينقض بعضه بعضاً فنقول : أما قوله « وجوه يومئذ ناضرة » فيعني الحُسن والبياض « إلى ربها ناظرة » يعني تعابن ربها في الجنة . وأما قوله « لا تدركه الأبصار » فيعني في الدنيا دون الآخرة . وذلك : أن اليهود قالوا لموسى ( ٤ : ١٥٢ ) أرنا الله جهرة . فأخذتهم الصاعقة - الآية ) « أرنا الله جهرة » . فأخذتهم الصاعقة . فأتوا . وعوقبوا لقولهم « أرنا الله جهرة » وقد سأل مشركو قريش النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا ( ١٧ : ٩٢ ) أو أتى بالله والملائكة قبيلاً ) فلما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم هذه المسألة قال الله تعالى ( ٢ : ١٠٨ ) أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى

من قبل ؟ ) فأَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ يَخْبِرُ : أَنَّهُ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ . أَيْ أَنَّهُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا دُونَ الْآخِرَةِ . فَقَالَ « لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ » يَعْنِي فِي الدُّنْيَا . أَمَا فِي الْآخِرَةِ : فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ . فَهَذَا تَفْسِيرٌ مَا شَكَّتْ فِيهِ الزُّنَادِقَةُ .

وَأَمَّا قَوْلُ مُوسَى ( ٧ : ١٤٣ ) سُبْحَانَكَ تَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ) وَقَالَ السَّحْرَةُ ( ٢٦ : ٥٢ ) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ) وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ( ٦ : ١٤٦ ) إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِأَشْرِيكَ لَهُ . وَبِذَلِكَ أَمَرْتُ . وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ) قَالُوا : فَكَيْفَ قَالَ مُوسَى « وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ » وَقَدْ كَانَ قَبْلَهُ إِبْرَاهِيمُ مُؤْمِنًا ، وَيَعْقُوبُ وَإِسْحَاقُ . فَكَيْفَ جَازَ لِمُوسَى أَنْ يَقُولَ « وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ » ؟ وَقَالَتِ السَّحْرَةُ « أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ » وَكَيْفَ جَازَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَقُولَ « وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » وَقَدْ كَانَ قَبْلَهُ مُسْلِمُونَ كَثِيرٌ . مِثْلَ عَيْسَى وَمَنْ تَبِعَهُ ؟ فَشَكُّوا فِي الْقُرْآنِ ، وَقَالُوا : إِنَّهُ مُتَنَاقِضٌ . فَنَقُولُ : أَمَا قَوْلُ مُوسَى « وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ » فَإِنَّهُ حِينَ قَالَ ( ٧ : ١٤٣ ) رَبُّ ارْتِنِي أَنْظِرْ إِلَيْكَ . قَالَ : لَنْ تَرَانِي ) وَلَا يَرَانِي أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا إِلَّا مَاتَ . ( فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا . وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا . فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ : سُبْحَانَكَ تَبَّتْ إِلَيْكَ . وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ) يَعْنِي أَوَّلَ الْمُصَدِّقِينَ : أَنَّهُ لَا يَرَاكَ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا إِلَّا مَاتَ .

وَأَمَّا قَوْلُ السَّحْرَةِ « أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ » فَيَعْنِي : أَوَّلَ الْمُصَدِّقِينَ بِمُوسَى مِنْ أَهْلِ مِصْرَ مِنَ الْقَبْطِ .

وَأَمَّا قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » فَيَعْنِي مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَهَذَا تَفْسِيرٌ مَا شَكَّتْ فِيهِ الزُّنَادِقَةُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ ( ٤٠ : ٤٦ ) أَدْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ) وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى ( ٥ : ١١٥ ) إِنِّي أَعَذَّبْتُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ) وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى

( ٤ : ١٤٥ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ) فشكوا في القرآن ، وقالوا : إنه ينقض بعضه بعضاً .

فنقول : أما قوله « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » فيعنى عذاب ذلك الباب الذى هم فيه .

وأما قوله « فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين » فذلك : أن الله مسخهم قردهً وخنزير . فعذبهم بالمسخ ما لم يعذب به سواهم من الناس .  
وأما قوله « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار » فلأن جهنم لها سبعة أبواب : جهنم ، وأظى ، والحطمة ، وسقر ، والسعير ، والجحيم ، والهاوية . وهم في أسفل درك فيها .

وأما قوله تعالى ( ٦ : ٨٨ ليس لهم طعام إلا من ضريع ) ثم قال ( ٤٤ : ٤٣ ، ٤٤ ) إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ) فقد أخبر : أن لهم طعاماً غير الضريع . فشكوا في القرآن ، وزعموا أنه متناقض .

فنقول : أما قوله « ليس لهم طعام إلا من ضريع » فيقول : ليس لهم طعام في ذلك الباب إلا من ضريع . ويأكلون الزقوم في غير ذلك السبب . فذلك قوله « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم » فهذا تفسير ما شككت فيه الزنادقة .

وأما قوله ( ٤٧ : ١١ ) ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا . وأن الكافرين لا مولى لهم ) ثم قال في آية أخرى ( ١٠ : ٣٠ ) ثم رُدوا إلى الله مولاهم الحق ) فقالوا : كيف يكون هذا من الكلام المحكم ؟ يخبر أنه مولى من آمن . ثم يقول « وأن الكافرين لا مولى لهم » فشكوا في القرآن .

فنقول : أما قوله « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا » فيقول : ناصر الذين آمنوا « وأن الكافرين لا مولى لهم » يقول : لا ناصر لهم ، وأما قوله « ثم رُدوا إلى الله مولاهم الحق » فلأن في الدنيا أرباباً باطلة<sup>(١)</sup> فهذا ما شككت فيه الزنادقة .

---

(١) وأولياء يؤلهونه ويتولونهم ، ويستشفعون بهم في قضاء حاجاتهم . ويخافونهم ويفزعون إليهم . معتقدين أنهم يتولون شئونهم ، وتفريج كرباتهم ، وإغاثة لهفاتهم .

وأما قوله ( ٦٠ : ٨ إن الله يحب المقسطين ) وقال في آية أخرى ( ٧٢ : ١٥ )  
وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ) فقالوا : كيف يكون هذا من الكلام المحكم ؟  
فنقول : أما قوله « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » فيعني العادلين  
بالله ، الجاعلين له عدلا . من خلقته ، فيعبدونهم مع الله .

وأما قوله ( وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ) فيقول : اعدلوا فيما بينكم وبين  
الناس . إن الله يحب الذين يعدلون . وقال في آية أخرى ( ٢٧ : ٦٠ . إله مع الله ؟  
بل هم قوم يعدلون ) يعنى بشركون<sup>(١)</sup> . فهذا تفسير ما شكت فيه الزنادقة .

وأما قوله ( ٩ : ٧١ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ) وقال في  
آية أخرى ( ٨ : ٧٢ والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى  
يهاجروا ) وكان - عند من لا يعرف معناه - ينقض بعضه بعضا .

فنقول : أما قوله « والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء  
حتى يهاجروا » فيعني من الميراث ، وذلك : أن الله حكم على المؤمنين - لما هاجروا  
إلى المدينة - : أن لا يتوارثوا إلا بالهجرة . فإن مات رجل بالمدينة مهاجراً مع النبي  
صلى الله عليه وسلم ، وله أولياء بمكة لم يهاجروا : كانوا لا يتوارثون . وكذلك إن  
مات رجل بمكة ، وله ولي مهاجر مع النبي صلى الله عليه وسلم : كان لا يرثه المهاجر .  
فذلك قوله « والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء » من  
الميراث « حتى يهاجروا » فلما كثر المهاجرون رد ذلك الميراث إلى الأولياء ،

---

(١) يشركونهم في عبادة الله ، لأنهم يعتقدون أنهم مساوون لله في صفاته إذ  
لا يمكن أن يدعو الإنسان ميتاً إلا وهو يعتقد عن قرارة نفسه : أنه ليس ميتاً موت  
عامة البشر . بل إنه إنما انتقل . لأنه لم يكن في حياته كحياة بقية البشر . إذ أنه من  
نور ربهم . ففيه من خصائص الرب وصفاته . فهو لذلك واسطة بين البشر والرب .  
ولذلك ردوا على الرسل جميعاً بأنهم ليسوا أهلاً للرسالة بين الرب والبشر ، لأنهم  
بشر مثل عامة البشر . وأما أولياؤهم ومقدسومهم . فهم الجديرون أن يكونوا وسائط  
بين الله وخلقهم . لأنهم وسط في الخلق والصفات بين الرب والبشر .

هاجروا أو لم يهاجروا . وذلك قوله ( ٨ : ٧٥ ) وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين ) .

وأما قوله « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » فيعنى في الدين ، والمؤمن يتولى المؤمن في دينه . فهذا تفسير ما شككت فيه الزنادقة .

وأما قوله لإبليس ( ٥١ : ٤٢ ) إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ) وقول موسى حين قتل النفس ( ٢٨ : ١٥ ) هذا من عمل الشيطان ) فشكوا في القرآن . وزعموا أنه متناقض .

فقول : أما قوله « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » فيقول : عبادى الذين استخلصهم الله لدينه فليس لإبليس عليهم سلطان أن يضلهم في دينهم ، أو في عبادة ربهم . ولكن يصيب منهم من قبل الذنوب . فأما الشرك : فلا يقدر إبليس أن يضلهم عن دينهم . لأن الله سبحانه استخلصهم لدينه .

وأما قول موسى « هذا من عمل الشيطان » فيعنى : من تزوين الشيطان ، كما زين ليوسف <sup>(١)</sup> ولآدم وحواء . وهم عباد الله المخلصون . فهذا تفسير ما شككت فيه الزنادقة .

وأما قول الله للكفار ( ٤٥ : ٣٤ ) وقيل : اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ) وقوله في آية أخرى ( ٢٠ : ٥٢ ) في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ) فشكوا في القرآن .

فقول : أما قوله « فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا » فيقول : نترككم في النار « كما نسيتم » كما تركتم العمل للقاء يومكم هذا .

وأما قوله « في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى » فيقول : لا يذهب من حفظه ولا ينساه .

---

(١) لعله يقصد همه بامرأة العزيز . وذلك في الواقع دليل على قوة إيمان يوسف عليه السلام ، وصدقه في إحسانه وإخلاصه . وأن الشيطان لم يقدر عليه ، مع توفر الأسباب .

وأما قوله تعالى ( ٢٠ : ١٢٤ ، ١٢٥ ونحشره يوم القيامة أعمى . قال : رب لم حشرتني أعمى ، وقد كنت بصيراً ؟ ) وقال في الآية الأخرى ( ٢٢ : ٥٠ فَبَصَّرْكَ اليوم حديد ) فقالوا : فكيف يكون هذا من الكلام المحكم ؟ فيقول « إنه أعمى » ويقول « فبصرك اليوم حديد » فشكوا في القرآن .

فنقول : أما قوله « ونحشره يوم القيامة أعمى » فمن حجته . قال « رب لم حشرتني أعمى » عن حجتي ؟ « وقد كنت بصيراً » بها مخصوصاً لها . فذلك قوله ( ٢٨ : ٦٦ فَعَمَّيت عليهم الأنبياء يومئذ ) يقول : الحجج ( فهم لا يتساءلون ) .

وأما قوله « فبصرك اليوم حديد » فذلك : أن الكافر إذا خرج من قبره شَخَصَ بصره ، ولا يَطْرَفُ بصره حتى يعاين جميع ما كان يُكذِّبُ به من أمر البعث . فذلك قوله ( لقد كنت في غفلةٍ من هذا . فكشفنا عنك غطاءك .

فبصرك اليوم حديد ) يقول : غطاء الآخرة . فبصرك يُجِدُ النظر ، لا يطرف حتى يعاين جميع ما كان يكذب به من أمر البعث . فهذا تفسير ما شككت فيه الزنادقة .

وأما قوله لموسى ( ٢٠ : ٤٦ إني معكما أسمع وأرى ) وقوله في موضع آخر ( ٢٦ : ١٥ إنا معكم مستمعون ) فقالوا : كيف قال « إني معكما » وقال في آية أخرى « إنا معكم مستمعون » فشكوا في القرآن من أجل ذلك .

فنقول : أما قوله « إنا معكم » فهذا في مجاز اللغة . يقول الرجل للرجل : إنا سنجرى عليك رزقك . إنا سنفعل بك كذا .

وأما قوله « إني معكما أسمع وأرى » فهو جائز في اللغة . يقول الرجل الواحد للرجل : سأجرى عليك رزقك . أو سأفعل بك خيراً .

\* \* \*

قال الإمام أحمد رحمه الله : وكذلك الجهم وشيعته . دعوا الناس إلى التشابه من القرآن والحديث . فضلوا . وأضلوا بكلامهم معشراً كثيراً .

فكان مما بلغنا من أمر الجهم عدو الله : أنه كان من أهل خراسان ، من

أهل تَرْمُذٍ . وكان صاحب خصومات وكلام . وكان أكثر كلامه في الله . فلقى أناساً من الكفار - يقال لهم : السَّمْنِيَّةُ فعرَفوا الجهم . فقالوا له : نكلمك . فإن ظهرت حجبتنا عليك دخلت في ديننا . وإن ظهرت حجبتك علينا دخلنا في دينك .

فكان مما كلموا به الجهم ، أن قالوا له : ألسنت تزعم أن لك إلهاً ؟ قال الجهم : نعم . فقالوا له : فهل رأيت عين إلهك ؟ قال : لا . قالوا : فهل سمعت كلامه ؟ قال : لا . قالوا : أشممت له رائحةً ؟ قال : لا . قالوا : فوجدت له حساً ؟ قال : لا . قالوا : فوجدت له مَجَسًّا ؟ قال : لا . قالوا : فما يدريك أنه إله ؟ قال : فتحير الجهم . فلم يدر من يعبد أربعين يوماً .

ثم إنه استدرك حجة مثل حجة زنادقة النصارى . وذلك : أن زنادقة النصارى يزعمون : أن الروح الذي في عيسى هو روح الله ، من ذات الله . فإذا أراد أن يحدث أمراً دخل في بعض خلقه ، فتكلم على لسان خلقه . فيأمر بما شاء وينهى عما شاء . وهو روح غائب عن الأبصار . فاستدرك الجهم حجة مثل هذه الحجة . فقال للسمنى : ألسنت تزعم أن فيك روحاً ؟ قال : نعم . فقال : فهل رأيت روحك ؟ قال : لا . قال : فسمعت كلامه ؟ قال : لا . قال : فوجدت له حساً ، أو مجساً ؟ قال : لا . قال : فكذلك الله ، لا يرى له وجه . ولا يسمع له صوت ، ولا يُشَمُّ له رائحة . وهو غائب عن الأبصار . ولا يكون في مكان دون مكان . ووجد ثلاث آيات في القرآن من المشابهة ، قوله تعالى ( ٤٢ : ١١ ) ليس كمثل شيء . وقوله ( ٦ : ٣ ) وهو الله في السموات وفي الأرض ) وقوله ( ٦ : ١٠٣ ) لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار )

فبني أصل كلامه على هذه الآيات . وتأول القرآن على غير تأويله . وكذب بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزعم أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه في كتابه ، أو حدث به عنه رسوله : كان كافراً ، وكان من المشبهة .

فأضل بكلامه بشرًا كثيرًا . وتبعه على قوله رجال من أصحاب أبي حنيفة ، وأصحاب عمرو بن عبيد بالبصرة . ووضع دين الجهمية .

فإذا سألم الناس عن قول الله ( ليس كمثله شيء ) يقولون : ليس كمثله شيء من الأشياء . وهو تحت الأرضين السبع ، كما هو على العرش . لا يحلوه منه مكان . ولا يكون في مكان دون مكان . ولم يتكلم ، ولا تكلم ، ولا ينظر إليه أحد في الدنيا . ولا في الآخرة ، ولا يوصف ، ولا يعرف بصفة ، ولا بفعل ، ولا له غاية ، ولا له منتهى ، ولا يدرك بعقل . وهو وجه كله . وهو علم كله . وهو سمع كله . وهو بصر كله . وهو نور كله . وهو قدرة كله . ولا يكون شيئين . ولا يوصف بوصفين مختلفين . وليس له أعلى ولا أسفل . ولا نواحي ولا جوانب ، ولا يمين ولا شمال . ولا هو خفيف ولا ثقيل ، ولا له لون ولا له جسم . وليس هو بمعمول ولا معقول . وكل ما خطر على قلبك أنه شيء تعرفه ، فهو على خلافه . قال أحمد : وقلنا هو شيء . فقالوا : هو شيء لا كالأشياء .

قلنا : إن الشيء الذي لا كالأشياء قد عرف أهل العقل : أنه لاشيء<sup>(١)</sup> . فنند ذلك تبين للناس : أنهم لا يثبتون شيئاً بشيء . ولكمهم يدفعون عن أنفسهم الشنعة بما يقرون في العلانية .

فإذا قيل لهم : من تعبدون ؟

قالوا : نعبد من يدبر أمر هذا الخلق .

قلنا : هذا الذي يدبر أمر هذا الخلق : هو مجهول لا يعرف بصفة ؟ قالوا :

نعم . قلنا : قد عرف المسلمون أنكم لا تثبتون شيئاً بشيء . وإنما تدفعون عن أنفسكم الشنعة بما تظهرون .

قلنا لهم : هذا الذي يدبر أمر هذا الخلق : هو الذي كلم موسى ؟

قالوا : لم يتكلم . ولا يكلم . لأن الكلام لا يكون إلا بجارحة والجوارح عن

الله منفية .

(٢) أخشى أن يكون في الكلام سقط أو تحريف .



فإذا سمع الجاهل قولهم ظن أنهم من أشد الناس تعظيماً لله . ولا يعلم أنهم إنما يعود قولهم إلى ضلالة وكفر ، ولا يشعر أنهم إنما يعود قولهم إلى فرية في الله . قال أحمد : فما يسأل عنه الجهى ، يقال له : تجدد في كتاب الله أنه يخرج عن القرآن أنه مخلوق ؟ فلا يجد .

فيقال له : فتجدد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن القرآن مخلوق ؟ فلا يجد .

فيقال له : فلم قلت ؟ فسيقول : من قول الله (٤٣ : ٣) إنا جعلناه قرآناً عربياً وزعم أن كل مجعول هو مخلوق . فادعى كلمة من الكلام المشابه . يحتاج بها من أراد أن يُلحِد في تنزيلها ، ويتنقى الفتنة في تأويلها . وذلك أن « جعل » في القرآن من المخلوقين على وجهين : على معنى التسمية ، وعلى معنى فعل من أفعالهم وقوله (٩١ : ١٥) الذين جعلوا القرآن عضين ( قالوا : هو شعر ، وأساطير الأولين ، وأضغاث أحلام . فهذا على معنى التسمية . قال (٤٣ : ١٩) وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنانا ) يعنى أنهم سموم إنانا . ثم ذكر على غير معنى التسمية . فقال (٢ : ١٩) يجعلون أصابعهم في آذانهم ( فهذا على معنى فعل من أفعالهم . وقال (٩٦ : ١٧) حتى إذا جعله ناراً ) هذا على معنى فعل . فهذا جعلُ المخلوقين . ثم « جعل » من الله على معنى « خلق » و « جعل » على معنى غير « خلق » والذي قال الله تعالى « جعل » على معنى « خلق » لا يكون إلا خلقاً . ولا يقوم إلا مقام : خلق خلقاً لا يزول عنه المعنى . فإذا قال الله « جعل » على غير معنى « خلق » لا يكون « خلق » ولا يقوم مقام « خلق » ولا يزول عنه المعنى .

فما قال الله « جعل » على معنى « خلق » قوله (١٠٦ : ١) الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ( يعنى : وخلق الظلمات والنور . وقال (٧٨ : ١٦) وجعل لكم السمع والأبصار ) يقول : وخلق لكم السمع والأبصار . وقال (١٧ : ١٢) وجعلنا الليل والنهار آيتين ( يقول : وخلقنا الليل والنهار آيتين .

وقال ( ٧١ : ١٦ وجعل الشمس سراجا ) وقال ( ٧ : ١٨٩ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ) يقول : وخلق منها زوجها . يقول : خلق من آدم حواء . وقال ( ٢٧ : ٦١ وجعل لها رواسي ) ومثله فى القرآن كثير .  
فهذا وما كان على مثاله لا يكون إلا على معنى « خلق »

ثم ذكر « جعل » على معنى غير « خلق » فى قوله ( ٥ : ١٠٣ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ) لا يعنى : ما خلق من بحيرة ولا سائبة . وقال لإبراهيم ( ٢ : ١٢٤ إني جاعلك للناس إماما ) لا يعنى : إني خالقك للناس إماماً . لأن خلق إبراهيم كان متقدماً . وقال إبراهيم ( ١٤ : ٣٥ رب اجعل هذا البلد آمناً ) وقال إبراهيم ( ١٤ : ٤٠ رب اجعلنى مقيم الصلاة ) لا يعنى : اخلقنى مقيم الصلاة . وقال ( ٣ : ١٧٦ يريد الله أن لا يجعل لهم حظاً فى الآخرة ) لا يعنى : يريد الله أن لا يخلق لهم حظاً فى الآخرة . وقال لأم موسى ( ٢٨ : ٧ إنا رآدوه إليك وجاعلوه من المرسلين ) لا يعنى : خالقوه من المرسلين . لأن الله وعد أم موسى أن يرده إليها ، ثم يجعله من بعد ذلك رسوله . وقال ( ٨ : ٣٧ ويجعل الخبيث بعضه على بعض ، فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم ) لا يعنى : فيخلقه فى جهنم . وقال ( ٢٨ : ٥ ونريد أن نمنن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة . ونجعلهم الوارثين ) لا يعنى : ونخلقهم أئمة ، ونخلقهم الوارثين . وقال ( ٧ : ١٤٣ فلما تجلّى ربه للجبل جعله دَكًّا ) لا يعنى : خلقه دكا . ومثله فى القرآن كثير .

فهذا - وما كان على مثاله - لا يكون على معنى « خلق » فإذا قال الله « جعل » على معنى « خلق » وقال « جعل » على غير معنى « خلق » فبأى حجة قال الجهمي « جعل » على معنى « خلق » ؟ .

فإن رد الجهمي « جعل » إلى المعنى الذى وصفه الله فيه ، وإلا كان من الذين يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون .

فلما قال الله ( ٤٣ : ٣ إنا جعلناه قرآناً عربياً ) يقول : جعله عربياً . جعله

جعلاً على معنى فعل من أفعال الله ، على غير معنى « خلق » وقال في سورة الزخرف<sup>(١)</sup> ( إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ) وقال ( ٢٦ : ١٩٤ ، ١٩٥ ) لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ) وقال ( ١٩ : ٩٨ ) فإنما يسرناه بلسانك ) فلما جعل الله القرآن عربياً . ويسره بلسان نبيه صلى الله عليه وسلم : كان ذلك فعلاً من أفعال الله تبارك وتعالى ، جعل القرآن به عربياً مبيناً . وليس كما زعموا معناه : أنزلناه بلسان العرب . وقيل « بيناه » يعنى هذا بيان لمن أراد الله هداه . ثم إن الجهمى ادعى أمراً آخر - وهو من المحال - فقال : أخبرونا عن القرآن : أهو الله ، أو غير الله ؟

فادعى في القرآن أمراً يروم الناس . فإذا سئل الجاهل عن القرآن : هو الله ، أو غير الله ؟ فلا بد له من أن يقول بأحد القولين .

فإن قال « هو الله » قال له الجهمى : كفرت . وإن قال « غير الله » قال : صدقت . فلم لا يكون غير الله مخلوقاً ؟ فيقع في نفس الجاهل من ذلك ما يميل به إلى قول الجهمى .

وهذه المسألة من الجهمى هي من الأغاليط .

والجواب للجهمى إذا سأل ، فقال : أخبرونا عن القرآن : هو الله ، أو غير الله ؟ قيل له : إن الله جل ثناؤه لم يقل في القرآن : إن القرآن أنا : ولم يقل : غيرى وقال : هو كلامى . فسميناه باسم سماه الله به . فقلنا « كلام الله » فمن سمي القرآن باسم سماه الله به كان من المهتدين . ومن سماه باسم من عنده : كان من الضالين . وقد فصل الله بين « قوله » وبين « خلقه » ولم يسمه قولاً . فقال ( ٧ : ٥٤ ) ألا له الخلق والأمر ) فلما قال « ألا له الخلق » لم يبق شيء مخلوق إلا كان داخلاً في

---

(١) هي بعينها الآية السابقة . لأنها لم ترد في القرآن إلا في سورة الزخرف . ووردت في سورة يوسف ( ١٢ : ٢ ) إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون .

ذلك . ثم ذكر ما ليس بخلق فقال « والأمر » فأمره هو : قوله . و« تبارك الله رب  
العلين » أن يكون قوله خلقاً .

وقال ( ٤٤ : ٣ ، ٤ ) إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين . فيها يُفترق كل  
أمر حكيم ) يقول : القرآن هو أمر من عندنا . وقال ( ٣٠ : ٤ ) الله الأمر من قبل  
ومن بعد ) يقول : الله القول من قبل الخلق ومن بعد الخلق . فالله يخلق ويأمر .  
وقوله غير خلقه . وقال ( ٦٥ : ٥ ) ذلك أمر الله أنزله إليكم ) وقال ( ١١ : ٤٠ ) حتى  
إذا جاء أمرنا وفار التنور ) .

## باب

بيان ما فصل الله بين « قوله » و« خلقه » و« أمره »

وذلك : أن الله - جل ثناؤه - إذا سمى الشيء الواحد باسمين ، أو ثلاثة  
أسماء : فهو مرسل غير مفصل مقيد . وإذا سمى شيئين مختلفين لا يدعهما مرسلين  
حتى يفصل بينهما .

من ذلك قوله ( ١٢ : ٧٨ ) يا أيها العزيز ، إن له أباً شيخاً كبيراً ) فهذا شيء  
واحد سماه بثلاثة أسماء . وهو مرسل . ولم يقل : إن له أباً ، وشيخاً ، وكبيراً .  
وقال ( ٦٦ : ٥ ) عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات  
مؤمنات قانتات ثابتات عابدات ساجدات ) ثم قال ( ثيبات وأبكاراً ) فهذا شيء  
واحد فهو مرسل . فلما ذكر شيئين مختلفين فصل بينهما . فذلك قوله « ثيبات »  
فلما كانت « البكر » غير « الثيب » لم يدعه مرسل حتى فصل بينهما . فذلك  
قوله « وأبكاراً » وقال ( ٣٥ : ١٩ - ٢١ ) وما يستوى الأعمى ) ثم قال ( والبصير )  
فلما كان البصير غير الأعمى فصل بينهما . ثم قال ( ولا الظلمات ولا النور ولا الظل  
ولا الحرور ) فلما كان كل واحد من هذه الأشياء غير الشيء الآخر فصل بينهما .  
وقال ( ٥٩ : ٢٣ ، ٢٤ ) الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر

سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور ) فهذا كله اسم شيء واحد . فهو مرسل ليس بمفصل . فكذلك قال الله ( ٧ : ٥٤ ) ألا له الخلق والأمر ) لأن الخلق غير الأمر . فهو مفصل .

### باب

بيان ما أبطل الله أن يكون القرآن إلهاً وحياً ليس بمخلوق

قوله ( ٥٣ : ١-٤ ) والنجم إذا هوى . ما ضلَّ صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى ) قال : وذلك أن قريشاً قالوا « إن القرآن شعر » وقالوا « أساطير الأولين » وقالوا « أضغاث أحلام » وقالوا « تقوِّله محمد من تلقاء نفسه » وقالوا « تعلمه من غيره » .

فأقسم الله بالنجم إذا هوى - - يعني القرآن إذا نزل - فقال « والنجم إذا هوى ما ضلَّ صاحبكم » يعني محمداً « وما غوى ، وما ينطق عن الهوى » يقول : إن محمداً لم يقل هذا القرآن من تلقاء نفسه . فقال « إن هو » يقول : ما هو - يعني القرآن - إلا وحى يوحى . فأبطل الله أن يكون القرآن شيئاً غير الوحي بقوله « إن هو إلا وحى يوحى » ثم قال « علمه » يعني علم جبريلُ محمداً صلى الله عليه وسلم . وهو « شديد القوى ، ذو مرة فاستوى » إلى قوله « فأوحى إلى عبده ما أوحى » فسمى القرآن « وحياً » ولم يسمه خلقاً .

### باب

ثم إن الجهمى ادعى أمراً آخر ، فقال : أخبرونا عن القرآن ، هو شيء ؟ فقلنا : نعم هو شيء . فقال : إن الله خالق كل شيء . فلم لا يكون القرآن من الأشياء المخلوقة ؟ وقد أقررتم أنه شيء .

فلعمري لقد ادعى أمراً أمكنته فيه الدعوى . ولبَّس على الناس بما ادعى . فقلنا : إن الله سبحانه لم يسم كلامه في القرآن شيئاً . إنما سمى شيئاً الذي

كان بقوله . ألم تسمع إلى قوله تبارك وتعالى ( ١٦ : ٤٠ ) إنما قولنا لشيء ) فالشيء ليس هو قوله . إنما الشيء الذى كان بقوله . وقال فى آية أخرى ( ٣٦ : ٨٣ ) إنما أمره ) ثم قال ( إذا أراد شيئاً ) فالشيء ليس أمره . إنما الشيء : الذى كان بأمره . ومن الأعلام والدلالات : أنه لا يعنى كلامه مع الأشياء المخلوقة . قال الله للريح التى أرسلها على عاد ( ٤٦ : ٢٥ ) تدمر كل شيء بأمر ربها ) وقد أتت تلك الريح على أشياء لم تدمرها : منازلهم ومسكنهم ، والجبال التى بحضرتهم . فأنت عليها تلك الريح ولم تدمرها . وقد قال « تدمر كل شيء » فكذلك إذا قال « خالق كل شيء » لا يعنى نفسه ، ولا عمله ، ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة . وقال الملكة سبأ ( ٢٧ : ٢٣ ) وأوتيت من كل شيء ) وقد كان ملك سليمان شيئاً ولم تؤتته . وكذلك إذا قال « خالق كل شيء » لا يعنى كلامه مع الأشياء المخلوقة . وقال الله لموسى ( ٢٠ : ٤١ ) واصطنعتك لنفسى ) وقال ( ٣ : ٣٠ ) ويحذركم الله نفسه ) وقال ( ٦ : ٥٤ ) كتب ربكم على نفسه الرحمة ) وقال ( ٥ : ١١٦ ) تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ) ثم قال ( ٣ : ١٨٥ ) كل نفس ذائقة الموت ) فقد عرف من عقل عن الله : أنه لا يعنى نفسه مع الأنفس التى تذوق الموت . وقد ذكر الله عز وجل نفسه . فكذلك إن قال « خالق كل شيء » لا يعنى نفسه ، ولا عمله ، ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة . فى هذا دلالة وبيان لمن عقل عن الله .

فرحم الله من فكر ورجع عن القول الذى يخالف الكتاب والسنة ، ولم يقل على الله إلا الحق . فإن الله قد أخذ ميثاق خلقه . فقال ( ٧ : ١٦٩ ) ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب : أن لا يقولوا على الله إلا الحق ) وقال فى آية أخرى ( ٧ : ٣٣ ) قل : إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا . وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ) وقد حرم الله أن يقال عليه الكذب . وقد قال ( ٣٩ : ٦٠ ) ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ) أعاذنا الله وإياكم من فتن المضلين .

وقد ذكر الله كلامه في غير موضع من القرآن . فسماه « كلاماً » ولم يسمه خلقاً . قال ( ٢ : ٣٧ فتلقى آدم من ربه كلمات ) وقال ( ٢ : ٧٥ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ) وقال ( ٧ : ١٤٣ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ) وقال ( ٧ : ١٤٤ إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ) وقال ( ٤ : ١٦٤ وكلم الله موسى تكليماً ) وقال ( ٧ : ١٥٨ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ) فأخبرنا الله أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يؤمن بالله وبكلام الله . وقال ( ٤٨ : ١٥ ) يريدون أن يبذلوا كلام الله ) وقال ( ١٨ : ١١٠ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ) وقال ( ٩ : ٦ ) وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ) ولم يقل : حتى يسمع خلق الله . فهذا منصوب بلسان عربي مبين ، لا يحتاج إلى تفسير . هو مبين بحمد الله .

### باب

وقد سألت الجهمي : أليس إنما قال الله ( ٢ : ١٣٦ قولوا : آمنا بالله ) و ( ٢ : ٨٣ ) وقولوا للناس حسناً ) و ( ٢٩ : ٤٦ ) وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ) وقال ( ٣٣ : ٧٠ ) وقولوا قولاً سديداً ) و ( ٣ : ٦٤ فقولوا شهدوا بأننا مسلمون ) وقال ( ١٨ : ٢٩ ) قل الحق من ربكم ) وقال ( ٦ : ٥٤ قل سلام ) ولم نسمع الله يقول : قولوا : إن كلامي خلق . وقال ( ٥ : ١٧١ ) ولا تقولوا ثلاثة . انتهوا ) وقال ( ٤ : ٩٤ ) ولا تقولوا لمن أتى إليكم السلام لست مؤمناً ) وقال ( ٢ : ١٠٤ ) لا تقولوا راعنا ) وقال ( ٢ : ١٥٤ ) ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات ) وقال ( ١٨ : ٢٢ ) ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ) وقال ( ١٧ : ٢٣ ) ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما ) وقال ( ٢٨ : ٨٨ ) ولا تدع مع الله ألهاً آخر ) وقال ( ٦ : ١٥١ ) ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ) وقال ( ١٧ : ٢٩ ) ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ) وقال ( ١٧ : ٣٤ ) ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ) وقال ( ١٧ : ٣٤ )

ولا تقرّبوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن) وقال (١٧ : ٣٧ ولا تمش في الأرض مَرَحًا) ومثله في القرآن كثير . فهذا مما نهى الله عنه . ولم يقل لنا : لا تقولوا إن القرآن كلامي . وقد سمعت الملائكة كلام الله كلاماً . ولم تسمه خلقاً . وذلك قوله ( ٣٤ : ٢٣ حتى إذا فُزِعَ عن قلوبهم . قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلي الكبير ) وذلك أن الملائكة لم يسمعوا صوت الوحي ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم كذا وكذا سنة . فلما أوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم سمعت الملائكة صوت الوحي كوقع الحديد على الصفا . فظنوا أنه أمر من أمر الساعة ففزعوا ، وخرروا لوجوههم سُجَّدًا . فذلك قوله « حتى إذا فُزِعَ عن قلوبهم » يقول : حتى إذا انجلى الفزع عن قلوبهم ، رفعت الملائكة رءوسهم . فسأل بعضهم بعضاً . فقالوا : ماذا قال ربكم ؟ ولم يقولوا : ماذا خلق ربكم ؟ فهذا بيان لمن أراد الله هداة .

### باب آخر

ثم إن الجهمي ادعى أمراً ، فقال : أنا أجد آية في كتاب الله تدل على أن القرآن مخلوق .

فقلنا : في أي آية ؟ فقال : قول الله تبارك وتعالى ( ٢١ : ٢ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ) فزعم أن الله قال للقرآن « محدث » وكل محدث مخلوق . فلعمرى لقد شبّه على الناس بهذا . وهي آية من المتشابهة . فقلنا في ذلك قولاً . واستعنا بالله . ونظرنا في كتاب الله . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

اعلم أن الشيتين إذا اجتمعا في اسم يجمعهما . فكان أحدهما أعلى من الآخر ثم جرى عليهما اسم مدح . فكان أعلاهما أولى بالمدح ، وأغلب عليه . وإن جرى عليهما اسم ذم أو اسم أدنى . فأدناهما أولى به . ومن ذلك قول الله في كتابه ( ٢ : ١٤٣ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ) وقوله ( ٧٦ : ٩ عيناً يشرب بها عباد الله ) يعني الأبرار دون الفجار . فإذا اجتمعوا في اسم الإنسان واسم العباد . فالعنى في



قول الله جل ثناؤه « عينا يشرب بها عباد الله » يعنى الأبرار دون الفجار . لقوله إذا انفرد الأبرار ( ٨٢ : ١٣ إن الأبرار لفي نعيم ) وإذا انفرد الفجار ( ٨٢ : ١٤ وإن الفجار لفي جحيم ) وقوله ( ٢ : ١٤٣ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ) فالمؤمن أولى به . وإن اجتماعا فى اسم « الناس » لأن المؤمن إذا انفرد أعطى المدح . لقوله ( ٢ : ١٤٣ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ) وقال ( ٣٣ : ٤٣ وكان بالمؤمنين رحيما ) وإذا انفرد الكفار أجرى عليهم اسم الذم فى قوله ( ١١ : ١٨ ألا لعنة الله على الظالمين ) وقال ( ٥ : ٨٠ أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ) فهؤلاء لا يدخلون فى الرحمة . وفى قوله ( ٤٢ : ٢٧ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ) فاجتمع المؤمنون والكفار فى اسم « العباد » والكفار أولى بالبغى من المؤمنين . لأن المؤمنين انفردوا ومدحوا فيما بسط لهم من الرزق . وهو قول الله ( ٢٥ : ٦٧ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ) وقوله ( ٢ : ٣ ) ومما رزقناهم ينفقون ) وقد بسط لداود وسليمان بن داود ، ولذى القرنين ، وأبى بكر ، وعمر - ومن كان على مثالم من بسط له - فلم يبخ . وإذا انفرد الكافر وقع عليه اسم « البغى » فى قوله لقارون ( ٢٨ : ٧٦ فبغى عليهم ) ونمرود بن كنعان حين آتاه الله الملك . فحاج إبراهيم فى ربه وفرعون حين قال موسى ( ١٠ : ٨٨ ربنا إنك آتيت فرعون وملاؤه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ) فلما اجتمعوا فى اسم واحد وجرى عليهم اسم « البغى » كان الكافر أولى به ، كما أن المؤمن أولى بالمدح . فلما قال الله تبارك وتعالى ( ٢١ : ٢ ) ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ) فجمع بين ذكرين : ذكر الله ، وذكر نبيه . فأما ذكر الله إذا انفرد لم يجر عليه اسم « الحدث » ألم تسمع إلى قوله ( ٢٩ : ٤٥ ولذكر الله أكبر ) وقوله ( ٢١ : ٥٠ وهذا ذكر مبارك ) فإذا انفرد ذكر النبى صلى الله عليه وسلم فإنه جرى عليه اسم « الحدث » ألم تسمع إلى قوله ( ٣٧ : ٩٦ والله خلقكم وما تعملون ) فذكر النبى صلى الله عليه وسلم . وذكر له عملا . والله له خالق ومحدث . والدلالة على أنه جمع

بين ذكرين قوله ( ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ) فأوقع عليه الحدث عند إتيانه إيانا . وأنت تعلم أنه لا يأتينا بالأنباء إلا مبلغ ومدكر . وقال الله تعالى ( ٥١ : ٥٥ و ذكر . فإن الذكرى تنفع المؤمنين ) وقال ( ٨٧ : ٩ فذكر إن نفعت الذكرى ) وقال ( ٨٨ : ٢١ فذكر . إنما أنت مذكر ) فلما اجتمعوا في اسم « الذكر » جرى عليهم اسم « الحدث » وذكر النبي إذا نفردهم عليه اسم خلق . وكان أولى بالحدث من ذكر الله الذي إذا انفرده لم يقع عليه اسم خلق ولا حدث . فوجدنا دلالة من قول الله تعالى ( ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ) إلى النبي صلى الله عليه وسلم . لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يعلم . فعلمه الله . فلما علمه الله كان ذلك محدثاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> .

### باب

ثم إن الجهمي ادعى أمراً ، فقال : إنا وجدنا آية في كتاب الله تدل على أن القرآن مخلوق .

فقلنا : أي آية ؟

فقال : قول الله تعالى ( ٤ : ١٧١ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ) وعيسى مخلوق .

فقلنا : إن الله منعك الفهم في القرآن . عيسى تجرى عليه ألقاظ لا تجرى على القرآن . لأن الله يسميه مولوداً ، وطفلاً ، وصبيّاً ، وغلاماً يأكل ويشرب . وهو مخاطب بالأمر والنهي . يجرى عليه اسم الخطاب والوعد والوعيد . ثم هو من

(١) وقد يفهم من « محدث » أيضاً : أنه جديد في كل زمان ، كأنه نزل عليهم في يومهم ، يحدثهم بما يحتاجون إليه في شئونهم وما يصلحها . ويهديهم إلى الصراط السوي ، ويخرجهم من ظلمات ما يحيط بهم من الفتن التي حيرتهم ، وأخذوا يتصايحون ، طالبين العلاج والنخرج ، والحياة الهيئة لهم ولجتمعتهم . لأنه أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض . والله أعلم .

ذرية نوح ، ومن ذرية إبراهيم . ولا يحل لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى . هل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال في عيسى ؟ وليكن المعنى في قول الله جل ثناؤه ( ٤ : ١٧١ ) إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ) حين قال له « كن » فكان عيسى بكن . وليس عيسى هو « كن » ولكن بكن كان . فكان من الله قول . وليس « كن » مخلوقاً . وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى . وذلك أن الجهمية قالوا : عيسى روح الله وكلمته ، إلا أن الكلمة مخلوقة . وقالت النصارى : عيسى روح الله من ذات الله . وكلمة الله من ذات الله . كما يقال : إن هذه الخرقه من هذا الثوب <sup>(١)</sup> .

وقلنا نحن : إن عيسى بالكلمة كان . وليس عيسى هو الكلمة . وأما قول الله تعالى « وروح منه » فيقول : من أمره كان الروح فيه <sup>(٢)</sup> ، كقوله ( ٤٥ : ١٣ ) وسخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعاً منه ) يقول : من أمره . ويفسر « روح الله » إنما معناه : أنها روح بكلمة الله خلقها الله . كما يقال : عبد الله ، وسما الله ، وأرض الله .

### باب

ثم إن الجهمي ادعى أمراً آخر . فقال : إن الله يقول ( ٢٥ : ٥٩ ) الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ) فزعم أن القرآن لا يخلو أن يكون في السماء أو في الأرض ، أو فيما بينهما .

---

(١) لأنهم يقولون : إنه النور الأول الذي فاض وانثق من الله . والله يريد عليهم هذا ويقول ( إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب . ثم قال له : كن فيكون ) خلق من غير أب . وبقية البشر يخلقهم الله من أبوين ، فيقول لكل واحد منهم - بعد تسويته من تراب ثم من نطفة - كن فيكون .

(٢) كما كان في كل بشر ممن خلق . فإن الله ينفخ فيه من روحه كما أخبر ربنا . والله أعلم بذلك كيف يكون .

فشبهه على الناس . وليس عليهم . فقلنا له : أليس إنما أوقع الله جل ثناؤه  
« الخلق » على « المخلوق » في السموات وفي الأرض وفيما بينهما ؟ .

فقالوا : نعم . فقلنا : هل فوق السموات شيء مخلوق ؟ قالوا : نعم . فقلنا :  
فإنه لم يحمل ما فوق السموات مع الأشياء المخلوقة . وقد عرف أهل العلم : أن فوق  
السموات السبع : الكرسي ، والعرش ، واللوح المحفوظ ، والحجب ، وأشياء كثيرة  
ولم يسمها . ولم يجعلها مع الأشياء المخلوقة . وإنما وقع الخبر من الله على  
السموات والأرض وما بينهما .

وقلنا فيما ادعوا : إن القرآن لا يخلو : إما أن يكون في السموات أو في  
الأرض ، أو فيما بينهما .

فقلنا : إن الله تبارك وتعالى يقول ( ١٥ : ٨٥ وما خلقنا السموات والأرض  
وما بينهما إلا بالحق ) فالخلق الذي خلق به السموات والأرض قد كان قبل  
السموات والأرض . والحق قوله . وليس قوله مخلوقاً .

باب بيان ما جحدت الجهمية من قول الله تعالى

( ٧٥ : ٢٢ ، ٢٣ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة )

قال أحمد - رحمه الله تعالى - فقلنا لهم : لم أنكرتم أن أهل الجنة ينظرون  
إلى ربهم ؟ .

فقالوا : لا ينبغي لأحد أن ينظر إلى ربه . لأن المنظور إليه محدود موصوف  
إنما ترى الأشياء بفعله .

فقلنا : أليس الله يقول ( ٧٥ : ٢٣ إلى ربها ناظرة ) ؟ .

فقالوا : إنما تنظر إلى ثواب ربها . وإنما ينظرون إلى فعله وقدرته . وتأويله  
من القرآن ( ٢٥ : ٤٥ ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ) فقالوا : إنه حين قال  
( ألم تر إلى ربك ) أنهم لم يروا ربهم ، ولكن المعنى : ألم تر إلى فعل ربك .

فقلنا : إن فعل الله لم يزل العباد يرونه . وإنما قال ( وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ) .

فقالوا : إنما ينظرون الثواب من ربهم . فقلنا : إنها مع ما تنظر الثواب هي ترى ربها .

فقالوا : إن الله لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة . وتلوا آية من المتشابه من قوله جل ثناؤه ( ٦ : ١٠٣ لا تدركه الأبصار ) وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرف معنى قول الله ( لا تدركه الأبصار ) وقال « إنكم سترون ربكم » وقال الله لموسى ( ٧ : ١٤٣ لن تراني ) ولم يقل : لن أرى . فأيهما أولى أن يتبع : النبي صلى الله عليه وسلم حين قال « إنكم سترون ربكم » أم قول الجهمي حين قال : لا ترون ربكم ؟ .

والأحاديث في أيدي أهل العلم عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن أهل الجنة يرون ربهم » لا يختلف فيها أهل العلم . ومن حديث سفيان عن أبي إسحاق عن عامر بن سعد في قوله تعالى ( ١٠ : ٢٦ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ) قال « النظر إلى وجه الله » ومن حديث ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال « إذا استقر أهل الجنة في الجنة نادى مناد : يا أهل الجنة ، إن الله قد أذن لكم في الزيارة . قال : فيكشف الحجاب . فيتجلى لهم - وذكر الحديث » .

قال أحمد رحمه الله : فينظرون إلى الله . لا إله إلا هو . وإنا نرجو أن يكون جهم وشيعته ممن لا ينظرون إلى ربهم . ويحببون عن الله . لأن الله قال ( ٨٣ : ١٥ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ) فإذا كان الكافر يحجب عن الله والمؤمن يحجب عن الله ، فما فضل المؤمن على الكافر ؟ .

فالحمد لله الذي لم يجعلنا مثل جهم وشيعته . وجعلنا ممن اتبع ولم يجعلنا ممن ابتدع . والحمد لله وحده .

باب بيان ما أنكر الجهمي من أن يكون الله كلم موسى  
قلنا : لم أنكرتم ذلك ؟ قالوا : إن الله لم يكلم ولا يتكلم . إنما كَوّن شيئاً  
فعبّر عن الله . وخلق صوتاً فأسمعه . وزعموا أن الكلام لا يكون إلا من جوف  
ولسان وشفنتين .

قلنا : هل يجوز أن يكون المكون غير الله ، أن يقول ( ٢٠ : ١١ ، ١٢  
يا موسى ، إني أنا ربك ) ويقول ( ٣٠ : ١٤ ) إني أنا الله لا إله إلا أنا . فاعبدي  
وأقم الصلاة لذكرى ) و( إني أنا ربك ) فمن زعم أن ذلك غير الله فقد ادعى  
الربوبية . ولو كان كما زعم الجهمي : أن الله كون شيئاً كان يقول ذلك المكون  
« يا موسى إن الله رب العالمين » ولا يجوز أن يقول « إني أنا الله رب العالمين » وقد  
قال جل ثناؤه ( ٤ : ١٦٤ ) وكلم الله موسى تكليماً ) وقال ( ٧ : ١٤٣ ) ولما جاء موسى  
لميقاتنا وكلمه ربه ) وقال ( ٧ : ١٤٤ ) إني اصطفتك على الناس برسالاتي وبكلامي )  
فهذا منصوص القرآن .

وأما ما قالوا : إن الله لم يتكلم ولا يكلم ، فكيف يصنعون بحديث الأعمش  
عن خيثمة عن عدى بن حاتم الطائي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
« ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه ترجمان » .

وأما قولهم : إن الكلام لا يكون إلا من جوف وفم وشفنتين ولسان . فنقول :  
أليس قال الله للسماوات والأرض ( ٤١ : ١١ ) اثنيا طوعاً أو كرهاً . قالتا أتينا طائعين )  
أتراها قالت بجوف وفم وشفنتين ولسان وأدوات ؟ وقال ( ٢١ : ٧٩ ) وسخرنا مع  
داود الجبال يسبحن ) أتراها سبحت بجوف وفم ولسان وشفنتين ؟ والجوارح إذا  
شهدت على الكافر فقالوا ( ٤١ : ٢١ ) لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذي  
أنطق كل شيء ) أتراها نطقت بجوف وفم ولسان ؟ ولكن الله أنطقها كيف شاء  
وكذلك الله تكلم كيف شاء من غير أن نقول بجوف ولا فم ولا لسان ولا شفنتين .  
قال أحمد رضي الله عنه : فلما خنقته الحجج قال : إن الله كلم موسى ، إلا أن

كلامه غيره . فقلنا : وغيره مخلوق ؟ قال : نعم . فقلنا : هذا مثل قولكم الأول .  
إلا أنكم تدفعون عن أنفسكم الشنعة بما تظهرون . وحديث الزهري قال « لما سمع  
موسى كلام ربه قال : يارب ، هذا الذى سمعته هو كلامك ؟ قال : نعم يا موسى ،  
هو كلامى . وإنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان . ولى قوة الألسن كلها . وأنا  
أقوى من ذلك . وإنما كلمتك على قدر ما يطيق بدنك . ولو كلمتك بأكثر من  
ذلك لمت . قال فلما رجع موسى إلى قومه قالوا له : صف لنا كلام ربك . فقال :  
سبحان الله ! وهل أستطيع أن أصف لكم ؟ قالوا : فشبّه . قال : هل سمعتم  
أصوات الصواعق التى تقبل فى أحلى حلاوة سمتموها ؟ فكأنه مثله » .

وقلنا للجهمية : من القائل يوم القيامة ( ٥ : ١١٦ يا عيسى ابن مريم ، أنت  
قلت للناس : اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ ) أليس الله هو القائل ؟ قال :  
قالوا : يُكَوِّنُ الله شيئاً ، فيعبر عن الله كما كونه فعبر لموسى .

قلنا : فمن القائل ( ٧ : ٦ ، ٧ فلنساءن الذين أرسل إليهم ولنساءن المرسلين .  
فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ) أليس الله هو الذى يسأل ؟ قالوا : هذا كله  
إنما يُكَوِّنُ شيئاً فيعبر عن الله .

فقلنا : قد أعظمت على الله الفرية ، حين زعمتم أنه لا يتكلم . فشبهتموه بالأصنام  
التي تعبد من دون الله . لأن الأصنام لا تتكلم ولا تتحرك ، ولا تزول من مكان  
إلى مكان .

فلما ظهرت عليه الحجة قال : إن الله قد يتكلم . ولكن كلامه مخلوق .  
قلنا : وكذلك بنو آدم كلامهم مخلوق . فقد شبهتم الله بمخلقه حين زعمتم أن  
كلامه مخلوق . ففي مذهبكم : قد كان فى وقت من الأوقات لا يتكلم حتى خلق  
التكلم . وكذلك بنو آدم كانوا لا يتكلمون حتى خلق لهم كلاماً . وقد جمعتم بين  
كفر وتشبيه . فتعالى الله عن هذه الصفة .

بل نقول : إن الله لم يزل متكلماً إذا شاء . ولا نقول إنه كان ولا يتكلم حتى

خلق كلاماً . ولا نقول : إنه قد كان لا يعلم حتى خلق علماً . ولا نقول : إنه كان ولا قدرة حتى خلق لنفسه قدرة . ولا نقول : إنه كان ولا نور له حتى خلق لنفسه نوراً . ولا نقول : إنه كان ولا عظمة له حتى خلق لنفسه عظمة .

فقال الجهى لنا - لما وصفنا الله عن الله هذه الصفات - : إن زعمتم أن الله ونوره والله وقدرته ، والله وعظمته . فقد قلتم بقول النصارى ، حين زعمتم أن الله لم يزل ونوره . ولم يزل وقدرته .

قلنا : لا نقول إن الله لم يزل وقدرته . ولم يزل ونوره . ولكن نقول : لم يزل بقدرته ونوره . لا متى قدر ، ولا كيف قدر .

فقالوا : لا تكونون موحدين أبداً حتى تقولوا : قد كان الله ولا شيء .

فقلنا نحن نقول قد كان الله ولا شيء . ولكن إذا قلنا : إن الله لم يزل بصفاته كلها ، أليس إنما نصف إلهاً واحداً بجميع صفاته ؟ وضر بنا لهم في ذلك مثلاً .

فقلنا : أخبرونا عن هذه النحلة : أليس لها جذع وكرب وليف وسعف وخوص ووجار ، واسمها اسم شيء واحد ، وسميت نحلة بجميع صفاتها ؟ فكذلك الله - وله المثل الأعلى - بجميع صفاته إله واحد . لا نقول : إنه قد كان في وقت من الأوقات ولا قدرة له حتى خلق قدرة . والذي ليس له قدرة هو عاجز . ولا نقول : قد كان في وقت من الأوقات ، ولا يعلم ، حتى خلق العلم . والذي لا يعلم هو جاهل . ولكن نقول : لم يزل الله عالماً قادراً مالِكاً . لا متى ولا كيف ؟ وقد سمي الله رجلاً كافرأ اسمه الوليد بن المغيرة الخزومي فقال ( ٧٤ : ١١ ، ١٢ ذرى ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا ممدوداً ) وقد كان هذا الذي سماه وحيداً له عينان وأذنان . ولسان وشفتان ويدان ورجلان وجوارح كثيرة . فقد سماه الله وحيداً بجميع صفاته . فكذلك الله - وله المثل الأعلى - هو بجميع صفاته إله واحد .



## باب بيان ما أنكرت الجهمية أن يكون الله على العرش

فقلنا: لم أنكرتم أن يكون الله على العرش؟ وقد قال جل ثناؤه (٢٠: ٥)  
الرحمن على العرش استوى) وقال (٥٧: ٤) خلق السموات والأرض في ستة أيام  
ثم استوى على العرش) وقال (٢٥: ٥٩) ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل  
به خبيراً).

فقالوا: هو تحت الأرض السابعة كما هو على العرش. فهو على العرش. وفي  
السموات. وفي الأرض. وفي كل مكان. لا يخلو منه مكان. ولا يكون في  
مكان دون مكان. وتلوا آية من القرآن (٦: ٣) وهو الله في السموات وفي  
الأرض).

فقلنا: قد عرف المسلمون أما كن كثيرة ليس فيها من عظيم الرب شيء.  
فقالوا: أى مكان؟ قلنا: أجسامكم وأجوافكم، وأجواف الخنازير،  
والحشوش، والأماكن القذرة. ليس فيها من عظيم الرب شيء. قد أخبرنا أنه  
في السماء. فقال (٦٧: ١٦، ١٧) أمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض  
فإذا هي تمور؟ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً؟) وقال (٣٥: ١٠)  
إليه يصعد الكلم الطيب) وقال (٣: ٥٥) إني متوفيك ورافعك إلی) وقال  
(٤: ١٥٨) بل رفعه الله إليه) وقال (٢١: ١٩) وله من في السموات والأرض  
ومن عنده) وقال (١٦: ٥٠) يخافون ربهم من فوقهم) وقال (٧٠: ٣) ذى المعارج  
تخرج الملائكة والروح إليه) وقال (٦: ١٨) وهو القاهر فوق عباده) وقال  
(٢: ٢٥٥) وهو العلى العظيم) فهذا خبر الله، أخبرنا: أنه في السماء. ووجدنا كل  
شيء أسفل منه مذموماً. يقول الله جل ثناؤه (٤: ١٤٥) إن المنافقين في الدرك  
الأسفلى من النار) وقال (٤١: ٢٩) وقال الذين كفروا ربنا أرننا الذين أضلنا  
من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين).

وقلنا لهم : أتعلمون أن إبليس كان مكانه ، والشياطين مكانهم ، فلم يكن الله مجتمع هو وإبليس في مكان واحد ؟ .

وإنما معنى قوله جل ثناؤه ( ٦ : ٣ وهو الله في السموات وفي الأرض ) يقول هو إله من في السموات ، وإله من في الأرض . وهو على العرش ، وقد أحاط علمه بما دون العرش . ولا يخفى من علم الله مكان . ولا يكون علم الله في مكان دون مكان . فذلك قوله ( ٦٥ : ١٢ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير . وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ) .

ومن الاعتبار في ذلك : لو أن رجلاً كان في يده قدح من قوارير صاف ، وفيه شراب صاف . كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح ، من غير أن يكون ابن آدم في القدح . والله المثل الأعلى . قد أحاط بجميع خلقه ، من غير أن يكون في شيء من خلقه .

وخصلة أخرى : لو أن رجلاً بنى داراً بجميع مرافقها ، ثم أغلق بابها . وخرج منها كان ابن آدم لا يخفى عليه كم بيت في داره ؟ وكم سعة كل بيت ؟ من غير أن يكون صاحب الدار في جوف الدار . فإن الله - وله المثل الأعلى - قد أحاط بجميع ما خلق ، وعلم كيف هو ، من غير أن يكون في شيء مما خلق . قال أحمد رحمه الله .

### باب بيان ما تأولت الجهمية

من قول الله تعالى ( ٥٨ : ٧ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . إن الله بكل شيء عليم ) . قالوا : إن الله عز وجل معنا وفينا .

فقلت : لم قطعتم الخبر من أوله ؟ إن الله عز وجل يقول ( ٥٨ : ٧ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ) فأخبر جل ثناؤه : أنه يعلم ما في السموات

وما في الأرض . ثم قال ( ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ) يعنى إلا الله بعلمه رابعهم ( ولا خمسة إلا هو ) يعنى الله بعلمه ( سادسهم . ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم ) يعنى بعلمه فيهم ( أينما كانوا . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . إن الله بكل شىء عليم ) ففتح الخبر بعلمه . وختم الخبر بعلمه . ويقال للجهمى : إن الله إذا كان معنا بعظمة نفسه . فقل له : هل يغفر الله لكم فيما بينه وبين خلقه .

فإن قال : نعم ، فقد زعم أن الله بائن من خلقه . وأن خلقه دونه . وإن قال : لا . كفر .

### باب

إذا أردت أن تعلم أن الجهمى كاذب على الله - حين زعم : أن الله في كل مكان . ولا يكون في مكان دون مكان - فقل له : أليس الله كان ولا شىء ؟ فيقول : نعم . فقل له : حين خلق الشىء خلقه في نفسه أو خارجاً من نفسه : فإنه يصير إلى ثلاثة أقاويل . واحد منها : إن زعم أن الله خلق الخلق في نفسه . كفر حين زعم أن الجن والإنس والشياطين في نفسه . وإن قال : خلقهم خارجاً من نفسه . ثم دخل فيهم : كان هذا أيضاً كفوفاً ، حين زعم أنه دخل في مكان وحش قدر ردىء . وإن قال : خلقهم خارجاً من نفسه ، ثم لم يدخل فيهم . رجع عن قوله أجمع . وهو قول أهل السنة .

### باب

إذا أردت أن تعلم أن الجهمى لا يقر بعلم الله ، فقل له : إن الله يقول ( ٢ : ٢٥٥ ) ولا يحيطون بشىء من علمه ) ويقول ( ٤ : ١٦٦ ) لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه ) ويقول ( ١١ : ١٤ ) فإن تولوا فاعلم أنما أنزل بعلم الله ) ويقول ( ٤١ : ٤٧ ) وما تخرج من ثمرات من أكامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ) . فيقال له : تقر بعلم الله ، هذا الذى أوقفك عليه بالأعلام والدلالات أم لا ؟

فإن قال : ليس له علم كفر . وإن قال : لله علم محدث كفر . حين زعم أن الله قد كان في وقت من الأوقات لا يعلم حتى أحدث له علماً فعلم . فإن قال : لله علم ، وليس مخلوقاً . ولا محدثاً : رجع عن قوله كله . وقال بقول أهل السنة .

### باب بيان ما ذكر الله في القرآن « وهو معكم »

وهذا على وجوه . قال الله جل ثناؤه لموسى ( ٢٠ : ٤٦ ) إني معكما ) يقول : في الدفع عنكما . وقال ( ٩ : ٤٠ ) ثانی اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن . إن الله معنا ) يقول : يعنى في الدفع عنا . وقال ( ٢ : ٢٤٩ ) كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين ) يقول : في النصر لهم على عدوهم . وقال ( ٤٧ : ٣٥ ) فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأتم الأعلان ، والله معكم ) في النصر لكم على عدوكم . وقال ( ٤ : ١٠٨ ) ولا يستخفون من الله وهو معهم ) يقول : بعلمه فيهم . وقال ( ٢٦ : ٦١ ، ٦٢ ) فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى : إنا لمدركون . قال : كلا ، إن معى ربي سيهدين ) يقول : في العون على فرعون . فلما ظهرت الحججة على الجهمي بما ادعى على الله : أنه مع خلقه . قال : هو في كل شيء ، غير مماس لشيء ، ولا مباين . فلم يحسن الجواب . فقال : بلا كيف . فخدع جهال الناس بهذه السكامة . وموّه عليهم .

فقلنا له : أليس إذا كان يوم القيامة ، إنما هو الجنة والنار ، والعرش والهواء ؟ قال : بلى .

فقلنا : أين يكون ربنا ؟ فقال : يكون في كل شيء ، كما كان حينما كان في الدنيا في كل شيء .

فقلنا : فإن في مذهبكم : أن ما كان من الله على العرش : فهو على العرش . وما كان من الله في الجنة فهو في الجنة . وما كان من الله في النار فهو في النار . وما كان من الله في الهواء فهو في الهواء . فعند ذلك تبين كذبهم على الله جل ثناؤه . وزعمت الجهمية أن « الله » في القرآن إنما هو اسم مخلوق .

فقلنا : قبل أن يخلق هذا الاسم ما كان اسمه ؟ قالوا : لم يكن له اسم . فقلنا : وكذلك قبل أن يخلق العلم كان جاهلاً لا يعلم . حتى خلق لنفسه علماً . وكان لانور له حتى خلق لنفسه نوراً . وكان لا قدرة حتى خلق لنفسه قدرة : .  
فعلم الخبيث أن الله قد فضحه ، وأبدى عورته حين زعم أن « الله » في القرآن إنما هو اسم مخلوق .

وقلنا للجهمية : لو أن رجلاً حلف بالله الذي لا إله إلا هو كاذباً كان لا يحنث لأنه كان حلفه بشيء مخلوق . ولم يحلف بالخالق .

ففضحه الله في هذه ، وقلنا له : أليس النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء من بعدهم والحكام والقضاة إنما كانوا يحلفون الناس بالله الذي لا إله إلا هو . فكانوا في مذهبكم مخطئين ؟ إنما كان ينبغي للنبي عليه السلام ولمن بعده في مذهبكم : أن يحلفوا بالذي اسمه الله . وإذا أرادوا أن يقولوا لا إله إلا الله ، يقولوا : لا إله إلا الذي خلق الله . وإلا لم يصح توحيدهم .

ففضحه الله بما ادعى على الله الكذب . ولكن نقول : إن الله هو الله . وليس الله باسم ، إنما الأسماء شيء سوى الله ، لأن الله لم يتكلم ، فبأي شيء خلق الخلق ؟ أموجود عن الله أنه خلق الخلق بقوله وبكلامه ؟ .

وحين قال (١٦ : ٤٠) إنما قولنا لشيء إذا أردناه ، أن نقول له : كن فيكون فقالوا : إنما معناه قولنا : إذا أردناه يكون .

فقلنا لهم : فلم أخفيتم « أن نقول له ؟ » فقالوا : إنما معنى كل شيء في القرآن : معانيه . وقال الله مثل قول العرب . قال الحائظ . وقال النخلة . فسقطت .

فالجهمية لا يقولون بشيء .

فقلنا : على هذا أفتيتم ؟ قالوا : نعم . فقلنا : فبأي شيء خلق الخلق إن كان الله في مذهبكم لا يتكلم ؟ فقالوا : بقدرته . فقلنا : هي شيء ؟ فقالوا : نعم . فقلنا : قدرته مع الأشياء المخلوقة ؟ قالوا : نعم . فقلنا : كأنه خلق خلقاً بخلق . وعارضتم

القرآن وخالقموه ، حين قال الله جل ثناؤه ( ٤٠ : ٦٣ خالق كل شيء ) فأخبرنا الله أنه يخلق . وقال ( ٣٥ : ٣ هل من خالق غير الله ؟ ) فإنه ليس أحد يخلق غيره . وزعمتم أن الذى خلق الخلق غيره . فتعالى الله عما يقول الجهمية علواً كبيراً .

## باب

بيان ما ادعت الجهمية : أن القرآن مخلوق

من الأحاديث التي رويت أن « القرآن يجيء في صورة الشاب الشاحب . فيأتي صاحبه ، فيقول : هل تعرفني ؟ فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا القرآن الذى أظلماتُ نهارك ، وأسهرت ليلك . قال : فيأتي به الله - فيقول : يارب الخ » . فادعوا أن القرآن مخلوق من قبل هذه الأحاديث .

فقلنا لهم : القرآن لا يجيء إلا بمعنى أنه قد جاء « من قرأ ( قل هو الله أحد ) فله كذا وكذا » ألا ترون أن من قرأ ( قل هو الله أحد ) لا تجيئه ، بل يجيء ثوابه . لأننا نقرأ القرآن . فيقول « يارب » ويجيء ثواب القرآن . وكلام الله لا يجيء . ولا يتغير من حال إلى حال . وإنما معنى أن القرآن يجيء : إنما يجيء ثواب القرآن . فيقول : يارب الخ .

باب ما تأولت الجهمية من قول الله تعالى

( هو الأول والآخر )

فزعوا : أن الله هو الأول قبل الخلق . فقد صدقوا ، وقالوا : يكون الآخر بعد الخلق . فلا يبقى شيء ، ولا أرض ولا جنة ولا نار ، ولا ثواب ولا عقاب ، ولا عرش ولا كرسى . وزعموا أن شيئاً مع الله لا يكون هو الآخر كما كان . فأضلوا بهذا بشراً كثيراً .

وقلنا : أخبر الله عن الجنة ودوام أهلها فيها . فقال ( ٩ : ٢١ لهم فيها نعيم مقيم ) فإذا قال الله جل وجهه « مقيم » وقال ( ٩ : ٢٢ خالدين فيها أبداً ) وقال

(١٣ : ٣٥) أكلها دائم وظلها فإذا قال الله « دائم » لا ينقطع أبدا . وقال (١٥ : ٤٨ وما هم منها بمخرجين) وقال (٤٠ : ٣٩) وإن الآخرة هي دار القرار) وقال (٢٩ : ٦٤) وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون) وقال (١٨ : ٣) ما كثرين فيها أبدا) وقال (٣ : ١٠٧) وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون) وقال (٥٦ : ٣٢ ، ٣٣) وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة) ومثله في القرآن كثير . وذكر أهل النار فقال (٣٥ : ٣٦) لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) وقال (٢٩ : ٢٣) أولئك يئسوا من رحمتي) وقال (٧ : ٤٩) لا ينالهم الله برحمته) وقال (٤٣ : ٧٧) ونادوا : يا مالك ليقض علينا ربك) وقال (٩٨ : ٦) خالدين فيها أولئك هم شر البرية) وقال (٤ : ٥٦) كلما نضجت جلودهم بدلناهم بجلوداً غيرها) وقال (٣٢ : ٢٠) كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) وقال (١٠٤ : ٨) إنها عليهم مؤصدة) ومثله في القرآن كثير . فأما السماء والأرض : فقد زالتا . لأن أهلها صاروا إلى الجنة والنار . وأما العرش : فلا يبید ولا يذهب . لأنه سقف الجنة . والله عليه . فلا يهلك ولا يبید . وأما قوله (٢٨ : ٨٨) كل شيء هالك إلا وجهه) فذلك أن الله أنزل (٥٥ : ٢٦) كل من عليها فان) فقالت الملائكة : هلك أهل الأرض . وطمعوا في البقاء . فأنزل الله : أنه يخبر عن أهل السموات والأرض : إنكم تموتون . فقال : كل شيء من الحيوان هالك . يعنى ميت إلا وجهه . فإنه حي لا يموت . فأيقنوا عند ذلك بالموت .

\* \* \*

وقلنا للجهمية - حين زعموا أن الله في كل مكان - لا يخلو منه مكان .  
فقلنا : أخبرونا عن قوله جل ثناؤه (٧ : ١٤٣) فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) لم تجلى للجبل ، إن كان فيه بزعمهم ؟ فلو كان فيه - كما يزعمون - لم يكن

يتجلى لشيء هو فيه . ولكن الله - جل ثناؤه - على العرش . وتجلي ، ولم يكن فيه ، ورأى الجبلُ شيئاً لم يكن رآه قبل ذلك .

وقلنا للجهمي : الله نور ؟ فقال : هو نور كله . فقلنا : فالله قال ( ٣٩ : ٦٩ )  
وأشرقَت الأرض بنور ربها ( فقد أخبر الله جل ثناؤه : أن له نورا .

فقلنا : أخبرونا - حين زعمتم أن الله في كل مكان . وهو نور - فلم لا يضيء البيت المظلم من النور الذي هو فيه . إذ زعمتم أن الله في كل مكان ؟ وما بال السراج إذا دخل البيت يضيء ؟ .

فعند ذلك تبين للناس كذبهم على الله .

فرحم الله من عقل عن الله . ورجع عن القول الذي يخالف الكتاب والسنة ، وقال بقول العلماء . وهو قول المهاجرين والأنصار . وترك دين جهم وشيعته .

والحمد لله رب العالمين . هذا آخره .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

فرغ منه ناسخه الحميدى بن عبد العزيز الرديعان عشية الثلاثاء يوم ١٦ من ذى الحجة سنة ١٣٤٦ هـ .

وجد بأخر النسخة المنقول عنها مانصه :

بما فيه من غلط أو شطب وهى النسخة الوحيدة بالمكتبة المحمودية بالمدينة المنورة .

بلغ مقابلة نهار الأربعاء الذى هو الثلاثين من شهر عاشوراء سنة ١٣٣٣ من الهجرة النبوية على مهاجرها أفضل الصلاة والتسليم على يد الفقير إلى الله عبد المحسن بن أحمد بن فارس . غفر الله له ولوالديه والمسامين آمين .



كتاب

# السُّنَّة

لإمام أهل السنة والجماعة الإمام

أحمد بن حنبل

رحمه الله تعالى ورضى عنه

---



أخبرنا الشيخان المسندان المعمران : القاضى نظام الدين عمر ابن إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلى ، وزين الدين عبد الرحمن بن يوسف بن الحنبلى - مشافهة من الأول ، ومكاتبة من الثانى - قالا .

أخبرنا الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد بن المحب المقدسى - إجازة إن لم يكن سماعاً .

أخبرنا الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن أحمد بن تمام بن حسان الصالحى البكرى - بقراءتى عليه - ليلة الأحد سابع عشرى رمضان سنة ٧٣٨ بالجامع المظفرى .

ح . وأخبرنا الحديث تاج الدين محمد بن الحافظ بن الندى المنفى - فى كتابه - أخبرنا المسند أبو عبد الله محمد بن إسماعيل العبادى - إجازة إن لم يكن سماعاً - قالا . أخبرنا الإمام أبو العباس أحمد بن عبد الدائم . قال ابن تمام : قراءة عليه وأنا أسمع فى ثالث عشرى ربيع الآخر سنة ٨٢٢ . وقال الآخر : إجازة إن لم يكن حضوراً .

أخبرنا الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسى سنة ٥٧٣

أخبرنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفى الأصبهانى - بقراءتى عليه - فى ذى الحجة سنة ٥٢٩

وقال ابن عبد الدائم أيضاً : أخبرنا السلفى إذنا عاماً ، أخبرنا أبو محمد عبد الملك بن الحسن بن علي بن نسيب الأنصارى - بمكة .

أخبرنا أبو عبد الله الحسن بن علي النسوى الفقيه - قدم علينا مكة . أخبرنا أبو محمد . . . بن إسماعيل بن راجى بن معبد بن عبد الله العسقلانى - بعسقلان - أخبرنى أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن .

أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن أبى شيخ الرافعى بن الحسن بن موسى العبادى بن أحمد بن وهب القرشى قال : قال أحمد بن حنبل رضى الله عنه :

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه مذاهب أهل العلم ، وأصحاب الأثر ، وأهل السنة ، المتمسكين بعروتها ، المعروفين بها ، المقتدى بهم فيها ، من لدن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا . وأدركت من أدركت - من علماء الحجاز والشام وغيرها - عليها . فمن خالف شيئا من هذه المذاهب . أو طعن فيها ، أو عاب قائلها . فهو مخالف مبتدع ، وخارج عن الجماعة ، زائل عن منهج السنة ، وسبيل الحق . فكان قولهم :

إن الإيمان قول وعمل ونية . وتمسك بالسنة . والإيمان يزيد وينقص . ويُستثنى في الإيمان ، من غير أن يكون لشك . إنما هو سنة ماضية عن العلماء . فإذا سئل الرجل : مؤمن أنت ؟ فإنه يقول : أنا مؤمن إن شاء الله . ومؤمن أرجو ، أو يقول : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله . ومن زعم أن الإيمان قول بلا عمل . فهو مرجىء . ومن زعم أن الإيمان هو القول ، والأعمال فشرائع : فهو مرجىء . ومن زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص : فقد قال بقول المرجئة . ومن أنكر الاستثناء في الإيمان : فهو مرجىء . ومن زعم أن إيمانه كإيمان جبريل والملائكة فهو جهى .

والقدر خيره وشره ، وقليله وكثيره ، وظاهره وباطنه ، وحلوه ومره ، ومحجوبه ومكروهه ، وحسنه وسيئه ، وأوله وآخره .

والله عز وجل قضى قضاءه على عباده . لا يجاوزون قضاءه ، بل هم كلهم صائرون إلى ما خلقهم له ، واقعون فيما قدر عليهم لآحالة . وهو عدل منه عز وجل والزنا والسرقه ، وشرب الخمر ، وقتل النفس ، وأكل المال الحرام ، والشرك

بالله عز وجل ، والذنوب والمعاصي : كلها بقضاء وقدر من الله عز وجل ، من غير أن يكون لأحد من الخلق على الله حجة . بل لله عز وجل الحجة البالغة على خلقه . لا يسأل عما يفعل . وهم يسألون .

وعلم الله عز وجل ماضٍ في خلقه بمشيئة منه . قد علم من إبليس ومن غيره ممن عصاه - من لدن عصاه إبليس إلى أن تقوم الساعة - المعصية . وخلقهم لها . وعلم الطاعة من أهل الطاعة . وخلقهم لها . فكل يعمل بما خلق له ، وصائر إلى ما قضى الله عليه منه . لم يعد أحد منهم قَدَر الله عز وجل ومشيئته . والله الفعال لما يريد .

ومن زعم أن الله عز وجل شاء لعباده الذين عصوا الخير والطاعة ، وأن العباد شاءوا لأنفسهم الشر والمعصية . يعملون على مشيئتهم . فقد زعم أن مشيئة العباد أغلب من مشيئة الله عز وجل . فأى افتراء على الله أكبر من هذا ؟  
ومن زعم أن الزنا ليس بقدر ، قيل له : أرأيت هذه المرأة حملت من الزنا ، وجاءت بولد . هل شاء الله عز وجل أن يخلق هذا الولد ؟ وهل مضى هذا في سابق علمه ؟ فإن قال : لا . فقد زعم أن مع الله تعالى خالقا . وهذا هو الشرك صريحا .

ومن زعم أن السرقة وشرب الخمر ، وأكل المال الحرام : ليس بقضاء : فقد زعم : أن هذا الإنسان قادر على أن يأكل رزق غيره . وهذا يضارع قول المجوسية . بل كل رزقه الله . وقضى الله عز وجل أن يأكله من الوجه الذي أكله .

ومن زعم أن قتل النفس ليس بقدر من الله عز وجل : فقد زعم أن المقتول مات بغير أجله . وأى كفر أوضح من هذا ؟ بل كان ذلك بقضاء الله عز وجل وقدره . وكل ذلك بمشيئته في خلقه ، وتدبيره فيهم ، وما جرى من سابق علمه فيهم . وهو العدل الحق الذي يفعل ما يريد .

ومن أقر بالعلم لزمه الإقرار بالقدر والمشيئة .

ولا نشهد على أحد من أهل القبلة : أنه في النار لذنوب عمله ، ولا بكبيرة  
أناها ، إلا أن يكون في ذلك حديث . فنروى الحديث كما جاء على ما روى .  
نصدق به . ونعلم أنه كما جاء . ولا تنقض الشهادة .

والخلافة في قریش ما بقى من الناس اثنان . ليس لأحد من الناس أن ينازعهم  
فيها . ولا يخرج عليهم ، ولا نفر لغيرهم بها إلى قيام الساعة .  
والجهاد ماض ، قائم مع الإمام ، برّاً أو فاجراً . ولا يبطله جور جائر ،  
ولا عدل عادل .

والجمعة والحج والعيدين : مع الأئمة ، وإن لم يكونوا بررة عدولاً أتقياء .  
ودفع الصدقات والأعشار والخراج والنفى ، والغنائم : إلى الأمراء ، عدلوا فيها  
أو جاروا . والاقتياد لمن ولاء الله عز وجل أمركم لا تنزع يداً من طاعته . ولا تخرج  
عليه بسيفك . يجعل الله لك فرجاً ومخرجاً ، ولا تخرج على السلطان ، بل تسمع وتطيع .  
فإن أمرك السلطان بأمر - هو لله عز وجل معصية - فليس لك أن تطيعه .  
وليس لك أن تخرج عليه . ولا تمنعه حقه ، ولا تمن على فتنة بيد ولا لسان ، بل  
كفف يدك ولسانك ، وهوأك . والله عز وجل المعين .

والكف عن أهل القبلة . ولا نكفر أحداً منهم بذنوب . ولا نخرجهم عن  
الإسلام بعمل ، إلا أن يكون في ذلك حديث فيروى كما جاء . وكما روى . ونصدقه  
وتقبله . ونعلم أنه كما روى نحو : ترك الصلاة وشرب الخمر . وما أشبه ذلك ، أو  
يبتدع بدعة ينسب صاحبها إلى الكفر والخروج عن الإسلام .

فاتبع الأثر في ذلك ولا تجاوزه .

ولا أحب الصلاة خلف أهل البدع . ولا الصلاة على من مات منهم .  
والأعور الدجال خارج لاشك في ذلك ولا ارتياب . وهو أكذب الكذابين  
وعذاب القبر حق . يُسأل العبد عن دينه ، وعن ربه ؟ ويرى مقعده من النار

والجنة . ومنكر ونكير<sup>(١)</sup> حق . وهما فتانا القبور . نسأل الله عز وجل الثبات .  
وحوض النبي صلى الله عليه وسلم حق ، ترده أمته . وله آنية يشربون بها منه .  
والصراط حق يوضع على شفير جهنم . ويمر الناس عليه . والجنة من وراء ذلك  
نسأل الله عز وجل السلامة في الجواز .

والميزان حق . توزن به الحسنات والسيئات . كما شاء أن توزن .  
والصور حق . ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام فيموت الخلق . ثم ينفخ فيه  
أخرى فيقومون لرب العالمين عز وجل للحساب والقصاص ، والثواب والعقاب .  
والجنة والنار واللوح المحفوظ حق . تستنسخ منه أعمال العباد مما سبقت فيه  
من المقادير والقضاء .

والقلم حق . كتب الله به مقادير كل شيء وأحصاه في الذكر تبارك وتعالى .  
والشفاعة حق يوم القيامة . يشفع قوم في قوم فلا يصيرون إلى النار . ويخرج  
قوم من النار بعد ما دخلوها بشفاعة الشافعين . ويخرج قوم من النار برحمة الله  
عز وجل بعد ما لبثوا فيها ما شاء الله عز وجل ، وقوم يخلدون فيها أبداً . وهم أهل  
الشرك والتكذيب والجحود ، والكفر بالله عز وجل .  
ويذبح الموت يوم القيامة بين الجنة والنار .

وقد خلقت النار وما فيها . وخلقت الجنة وما فيها . خلقهما الله عز وجل .  
ثم خلق الخلق لهما . لا يفنيان ، ولا يفنى ما فيهما أبداً .  
فإن احتج مبتدع بقوله ( ٢٨ : ٨٨ كل شيء هالك إلا وجهه ) ونحو هذا  
من متشابه القرآن .

قيل له : كل شيء مما كتب الله عز وجل عليه الفناء والهلاك هالك . والجنة  
والنار خلقهما الله عز وجل للبقاء لا للفناء ولا للهلاك . وهما من الآخرة لا من الدنيا .

(١) هل في اسميهما حديث صحيح ؟

والحور العين: لا يمتن عند قيام الساعة ، ولا عند النفخة أبدا . لأن الله عز وجل خلقهن للبقاء لا للفناء . ولم يكتب عليهن الفناء ولا الموت . فمن قال خلاف ذلك : فهو مبتدع .

وخلق الله سبع سموات ، بعضها فوق بعض ، وسبع أرضين بعضها أسفل من بعض . وبين الأرض العليا والسماء الدنيا خمسمائة عام . وبين كل سماء من مسيرة خمسمائة عام . والماء فوق السماء السابعة . وعرش الرحمن تبارك وتعالى فوق الماء . والله عز وجل على العرش . وهو يعلم ما في السموات السبع والأرضين السبع . وبينهما وما تحت الثرى ، وما في قعر البحار ومنبت كل شعرة ، وكل شجرة ، وكل زرعة ، وكل نبت ، ومسقط كل ورقة ، وعدد ذلك ، وعدد الحصى والرمل والتراب ، ومثاقيل الجبال ، وأعمال العباد وآثارهم ، وكلامهم وأنفاسهم . ويعلم كل شيء . لا يخفى عليه شيء من ذلك . وهو على العرش . فوق السماء السابعة . وعنده حجب من نار ونور وظلمة وماء . وهو أعلم بها .

فإن احتج مبتدع أو مخالف بقوله تعالى ( ٥٠ : ١٦ ) ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ) أو بقوله عز وجل ( ٥٧ : ٤ ) وهو معكم أينما كنتم ) أو بقوله تعالى ( ٥٨ : ٧ ) ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ) ونحو هذا من متشابه القرآن . قيل : إنما يعنى بذلك العلم . لأن الله تبارك وتعالى على العرش فوق السماء السابعة العليا . يعلم ذلك كله . وهو تعالى بائن من خلقه ، لا يخلو من علمه مكان ، والله تعالى على العرش . وللعرش حملة يحملونه . والله عز وجل على عرشه .

والله تعالى سميع لا يشك ، بصير لا يرتاب ، عليم لا يجهل ، جواد لا يبخل ، حلیم لا يعجل ، حفيظ لا ينسى ، يقظان<sup>(١)</sup> لا يسهو ، قريب لا يغفل . يتكلم ويسمع وينظر ، ويبصر ويضحك ، ويفرح ويحب ، ويكره ويبغض ، ويرضى

(١) لم ترد هذه الكلمة في الكتاب ولا السنة . ولعل الأولى أن يقال

« لا تأخذه سنة ولا نوم »



ويغضب ويسخط ، ويرحم ويعفو ، ويعطي ويمنع ، وينزل تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا كيف يشاء (١١:٤٢) ليس كمثل شئ . وهو السميع البصير) وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرب عز وجل ، يقبلها كيف يشاء ، ويعيها ما أراد . وخلق الله عز وجل آدم عليه السلام بيده ، والسموات والأرض يوم القيامة في كفه . ويخرج قوماً من النار بيده . وينظر أهل الجنة إلى وجهه . ويرونه فيكرّمهم ويتجلى لهم فيعطيهم . ويعرض عليه العباد يوم الفصل والدين . ويتولى حسابهم بنفسه ، لا يولى ذلك غيره عز وجل .

والقرآن كلام الله ، ليس بمخلوق . فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمي كافر . ومن زعم أن القرآن كلام الله عز وجل ووقف ، ولم يقل : مخلوق ولا غير مخلوق : فهو أخبث من الأول . ومن زعم أن ألفاظنا بالقرآن وتلاوتنا له مخلوقة ، والقرآن كلام الله : فهو جهمي . ومن لم يكفر هؤلاء القوم كلهم فهو مثلهم . وكلم الله موسى تكليماً ، من الله سمع موسى يقينا . وناوله التوراة من يده . ولم يزل الله متكلماً علماً . تبارك الله أحسن الخالقين . والرؤيا من الله عز وجل حق . إذا رأى صاحبها شيئاً في منامه يقصها على عالم . وقد كانت الرؤيا من الأنبياء وحياً .

\* \* \*

ومن السنة : ذكر محاسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم أجمعين . والكف عن الذي شجر بينهم . فمن سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو واحداً منهم ، فهو مبتدع رافضى . حُبهم سنة . والدعاء لهم قرابة . والافتداء بهم وسيلة . والأخذ بأثامهم فضيلة .

وخير هذه الأمة - بعد نبيها صلى الله عليه وسلم - : أبو بكر . وخيرهم - بعد أبي بكر - عمر . وخيرهم - بعد عمر - عثمان . وخيرهم - بعد عثمان - علي . رضوان الله عليهم . خلفاء راشدون مهديون . ثم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد  
٤ - مجموعة

هؤلاء الأربعة . لا يجوز لأحد أن يذكر شيئاً من مساوئهم . ولا يظن على أحد منهم . فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته . ليس له أن يعفو عنه ، بل يعاقبه ثم يستتبه . فإن تاب قبل منه . وإن لم يتب أعاد عليه العقوبة . وجلده في المجلس حتى يتوب ، ويراجع .

ونعرف للعرب حقها وفضلها ، وسابقتها . ونحبهم بحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم « سب العرب نفاق . وبفضهم نفاق » .

ومن حرم المكاسب والتجارة وطلب الرزق من وجهه : فقد جهل وأخطأ وخالف ، بل المكاسب من وجهها حلال . قد أحلها الله عز وجل ورسوله . والرجل ينبغي له أن يستعين على نفسه وعياله من فضل ربه تبارك وتعالى . فإن كان لا يرى الكسب فهو مخالف .

وكل واحد أحق بما له : الذي ورثه ، أو استفاده ، أو أصابه ، أو كسبه . لا كما يقول المتكلمون المخالفون ، وأصحاب البدع والمرجئة . وهم الذين يزعمون : أن الإيمان مجرد النطق باللسان ، وأن الناس لا يتفاضلون في الإيمان . وأن إيمانهم وإيمان الملائكة والأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - واحد . وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص . وأن الإيمان ليس فيه استثناء . وأن من آمن بلسانه ولم يعمل فهو مؤمن حقاً .

هذا كله قول المرجئة . وهو أخبث الأقاويل .

و « القدرية » فهم الذين يزعمون : أن الاستطاعة والمشيئة والقدرة لهم . وأنهم يملكون لأنفسهم الخير والشر ، والضر والنفع ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلالة بدءاً ، من غير أن يكون قد سبق لهم ذلك من الله عز وجل ، أو في علم الله عز وجل . وقولهم يضارع قول المجوسية والنصرانية .

و « المعتزلة » الذين يقولون قول القدرية . ويكذبون بعذاب القبر والحوض .

ولا يرون الصلاة خلف أحد من أهل القبلة والجمعة ، إلا من كان على هواهم .  
ويزعمون أن أعمال العباد ليست في اللوح المحفوظ .

و «النصيرية» وهم قدرية . وهم أصحاب الحبة والقيراط والدائق . يزعمون أن  
من أخذ حبة أو دانقاً أو قيرطاً حراماً فهو كافر . وقولهم يضاهى قول الخوارج .  
و «الجهمية» وهم أعداء الله . فهم الذين يزعمون أن القرآن مخلوق . وأن الله  
عز وجل لم يكلم موسى . وأن الله عز وجل لم يتكلم . وأنه عز وجل لا يرى .  
ويقولون : ليس لله عز وجل عرش ولا كرسى . وكلاماً كثيراً . أكره حكايته .  
وهم كفار .

و « الواقفية » وهم الذين يزعمون أن القرآن كلام الله عز وجل . ولا يقولون  
غير مخلوق . وهم شر الأصناف وأخبثها .

و « اللفظية » وهم الذين يزعمون أن القرآن كلام الله عز وجل . ولكن  
ألفاظنا بالقرآن مخلوقة . وهم جهمية .

و « الرافضة » وهم الذين يتبرؤون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم  
ويسبونهم . ويكفرون الأئمة الأربعة - أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلياً - وعماراً  
أيضاً ، والمقداد ، وسلمان رضى الله عنهم .

و « المنصورية » وهم رافضة ، أخبث الروافض . وهم الذين يقولون : أخطأ  
جبريل بالرسالة .

و « السَّبَيْيَّة » وهم رافضة قريب ممن ذكرت .

وصنف منهم يقولون : على في السحاب . وعلى يبعث قبل يوم القيامة .

و « الرشدية » وهم الذين يتبرؤون من عثمان وطلحة والزبير ، وعائشة رضوان  
الله عليهم . ويرون القتال مع كل خارج من ولد على رضى الله عنه .

و « الخشبية » وهم الذين يقولون بقول الزيدية والشيعية .

وأما «الخوارج» ففرقوا من الدين . وفارقوا الملة . وشذوا عن الإسلام . وسلوا

السيف على الأمة . واستحلوا دماءهم . وكفروا من خالفهم ، إلا من قال بقولهم .

وثبت معهم في دار ضلاتهم . ولا يؤمنون بعذاب القبر . ولا يرون الخوض والشفاعة . ولا خروج أحد من النار . ويقولون : من كذب كذبة ، أو أتى صغيرة ، أو كبيرة من الذنوب . ثم مات عليها : فهو في النار خالدًا مخلدًا أبدًا . وهم يقولون بقول النصيرية في الحبة والقيراط .

وهم قدرية مرجئة جهمية رافضة . لا يرون الجماعة إلا خلف إمامهم . وهم يرون تأخير الصلاة عن وقتها . ويرون الصوم قبل رؤية الهلال . والفطر قبل رؤيته . وهم يرون النكاح من غير ولي ولا سلطان . ويرون المتعة . ويرون الدرهم بالدرهمين يبدأ بيد حلالاً . ولا يرون الصلاة في الخفاف ، ولا يرون المسح عليها . ولا يرون لقريش خلافة . ولا لهم في الإسلام شيء .

ومن أسماء الخوارج « الحرورية » وهم أهل حروراء .

و « الأزارقة » وهم أصحاب نافع بن الأزرق .

و « النجدية » وهم أصحاب نجدة بن عامر .

و « الإباضية » وهم أصحاب عبد الله بن إباض .

و « القرية » وهم أصحاب داود بن النعمان .

و « الخرمية » والمشبهة : وهم خارجون عن الملة .

وأصحاب الرأي وهم مبتدعة ضلال ، أعداء السنة والأثر . يبطلون الحديث .

\* \* \*

وقد أحدث أهل الأهواء والبدع والخلاف أسماء شنيعة قبيحة ، يسمون بها

أهل السنة يريدون بذلك الطعن عليهم ، والإزرار بهم عند السفهاء والجهال .

فأما المرجئة : فيسمون أهل السنة « شككا » .

وأما القدرية : فيسمون أهل السنة « مجبرة » .

وأما الرافضة : فيسمون أهل السنة « ناصبة » .

وأما الخوارج : فيسمون أهل السنة « نابتة وحشوية » .

رحم الله عبداً قال الحق واتبع الأثر وتمسك بالسنة .

# الصَّلَاةُ

لإمام أهل السنة والجماعة

أحمد بن حنبل

رحمه الله تعالى ورضى عنه

---



مقدمة

# الصلاة

حقيقتها . ومعناها . وأسرارها . وثمراتها

بقلم

الفقيه إلى عفو الله ورحمته

محمد بن محمد بن أبي

رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية

---

---

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

( الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . أهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين ) ( شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم ) وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن خير خلق الله ، وأهداهم إليه سبيلا ، وأرفعهم عنده درجة : محمد عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

وبعد . فإن « الصلاة » رأس الإسلام وعموده ، وهى الصلة بين العبد العارف لعبوديته ، الناصح لنفسه ، وبين ربه الذى يريه ، ويربى جميع العالمين بنعمه وفضله . وهى آية محبة العبد لربه ، وتقديره لنعمه ، وشكره لفضله وإحسانه .  
ودليل ذلك : بديهى ، يحده المؤمن المصلى الخاشع المحبب من نفسه .

فضلا عما جاء فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة الثابتة المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فإنها المنحة التى منحها الله حبيبه الأعظم صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج - ليلة الوصل الأعظم - بين الرب الحبيب وبين العبد الحبيب ، مكافأة له على ما قام به من العبودية الصادقة للربوبية ، بما لم يسبقه إليه سابق ، ولن يلحقه فيه لاحق . فكانت الصلوة والمنحة الكريمة ، التى تفضل الله بها على عبده ورسوله « الصلاة » لذلك كانت قرّة عين الرسول صلى الله عليه وسلم . وإليها كان يفرح كلما حزّ به أمر ، يناجى فيها حبيبه . ويشكو إليه ، فيستجيب له : يفرح كربه ، وييسر أمره ، ويشرح صدره .

وكانت راحة نفسه من كل ما أهمها . فكان يقول « يا بلال أرحنا بالصلاة » وروى مسلم وأصحاب السنن عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم



« يقول الله عز وجل : قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين . ولعبدى ما سألت  
يقول العبد : الحمد لله رب العالمين . يقول الله : حمدنى عبدى .  
يقول العبد : الرحمن الرحيم . يقول الله : أثنى علىّ عبدى .  
يقول العبد : مالك يوم الدين . يقول الله : تجدنى عبدى .  
يقول العبد : إياك نعبد وإياك نستعين . يقول الله : هذا بيني وبين عبدى ،  
ولعبدى ما سألت .

يقول العبد : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير  
المغضوب عليهم ولا الضالين . يقول الله : هذا لعبدى ، ولعبدى ما سألت .

\* \* \*

والصلاة - وحبها وانتظارها والمسارة إليها ، وأدائها على أكمل الوجوه وأتمها  
ظاهراً وباطناً - هي الآية الصادقة على قدر ما في القلب من حب الله والشوق إلى  
لقائه . والإعراض عنها ، والتكاسل والتباطؤ عن تلبية داعيها ، والتشاغل في القيام  
إليها ، والحرص على تعجيل الفراغ منها وتقرؤها : آية فراغ القلب - حتماً - من حب  
الله ، بل وانشغاله بكرهه ، وحب غيره مما أقامه الشيطان فيه من طواغيت وآلهة  
باطلة . ولن يكون ذلك إلا عند من غلبت عليهم الجاهلية الجهلاء ، والتقاليد  
العمياء ، وزينها لهم شياطين الإنس والجن . وسماها لهم : ديناً ، وإسلاماً .  
ولا يشك مؤمن صادق الإيمان بالله وآياته ، وسننه الكونية ، وأسمائه وصفاته ،  
وكتبه ورسوله : أن تارك الصلاة كافر مشرك ، مكذب بحق الله ووعدته ، ولقائه  
وحسابه وجزائه . قد قطع كل صلة له بالإسلام العلمى والعمل والقلبي . وهدم  
ما يتلفظ به من « لا إله إلا الله » فهو محارب لربه . كاره له ، هارب منه ، لذلك  
يجد التعب والشقاء ، والعناء في الوقوف بين يديه ، وفي مناجاته ، ويجد المتعة  
وراحة القلب ، والسرور في الوقوف مع طواغيته ، ومناجاة آلهته من دون الله . فإنه  
لم يهتم بهم « لا إله إلا الله » ومعرفة ماتنفيه وتثبته ، وما تدعو إلى الكفر به ،

والبراءة منه ، و إلى الإيمان به وإخلاص العبادة له : هدمها بأقواله وعقائده وأعماله .  
فإنه لو عقل لعرف أن « لا إله إلا الله » مركبة من جزأين « لا إله » و « إلا  
الله » ولكل منهما معنى . ومعناها مجتمعا يؤدي معنى . فعنى الجزء الأول :  
أعاهد أن أ كفر بكل طاغوت ومألوه ، وأبرأ منه ، وأعمل جاهداً على أن أنظف  
قلبي من كل خبائثه الجاهلية الطاغوتية . بعد أن أعرفها حق المعرفة . ليكون أهلاً  
أن يعرف ويقفه ويتحلى بشرف الجزء الثاني ، ويتشرف بأن يدين صادقاً مخلصاً  
به . وهو « إلا الله » الذى معناه : أخلصُ عبادتى بجميع معانيها ومقتضياتها . علماً  
وعقيدة وعملاً - لله ربي وحده . على ماتقتضيه وتأمربه « شهادة أن محمداً  
رسول الله » وهو : أنى أعاهد أن لا أعبد الله بالآراء والأهواء والتقاليد للآباء  
والشيوخ والجمهور والرؤساء ولا بما أحدثوا من الآراء والأهواء والبدع ، ولكنى  
أقف فى سبرى فى كل خطوة فى كل شأن من شئون حياتى ، وفى حقوق ربي  
وعبادته : مع ما أحب وشرع ، وأرسل به محمداً صلى الله عليه وسلم .

\* \* \*

ورأس العبادة وأهمها « الصلاة » فمن ضيع الصلاة فهو لغيرها أضيع ، وانقطعت  
كل صلة له بالله ، كما قال الإمام الراشد ، خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، فيما كتب لعالمه « واعلموا أن أهم أمرم عندى :  
الصلاة . فمن ضيعها فهو لغيرها أضيع . واعلموا : أن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ،  
وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل » فمن ضيع الصلاة فلن يكون عابداً لله ، بل يكون  
مستكبراً متمرداً على الله . فهدم « لا إله إلا الله » ونقضها . فلن يعنى عنه ذلك  
اللَّوْكَ وترديد الحروف ، مع الجهالة والعمى والصمم عن فهم المعنى - شيئاً .

وذلك المعنى : هو الذى عناه الله بقوله ( ٢ : ٢٥٦ ) فمن يكفر بالطاغوت  
ويؤمن بالله : فقد استمسك بالعروة الوثقى ) فإن « من يكفر بالطاغوت » يقابل  
« لا إله » و « يؤمن بالله » يقابل « إلا الله » وكذلك قول إبراهيم ( ٢٦ : ٧٦ ،

٧٧ أفرايتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون؟ فإنهم عدوئى ، إلارب العالمين ( فإن قوله « فإنهم عدوئى » يقابل « لا إله » وقوله « إلارب العالمين » يقابل « إلا الله » ويزيد قول إبراهيم عليه السلام شرحاً لمعنى البراءة والعداوة فى « لا إله » قول إبراهيم فى الآية الأخرى (٤٣ : ٢٦ ، ٢٧) إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى ، فإنه سيهدين ) وهكذا قول كل رسول بعثه الله لهداية البشر ، وإتقادهم من ظلم أنفسهم وامتهانها وتحقيرها : بعبادة مخلوق مصنوع مثلهم . بل الذى سخرها الله لهم ، وعبادة الله بغير ما شرع وأحب .

\* \* \*

ولقد ضربت الجاهلية العمياء على قلوب الناس نطاقاً من الظلمات - حين ظلموا أنفسهم بالانسلاخ من آيات ربهم ، فى سمعهم وأبصارهم وعقولهم ، وآياته فى الآفاق ، وهدايته الفطرية والعلمية - فزين لهم شياطين الإنس والجن : التقليد الأعمى للآباء والشيوخ فى دينهم ، الذى هو غذاء قلوبهم ، وعليه تقوم سعادتهم - إن كان دين الحق - أو شقاؤهم : إن كان دين الباطل ، دين الوراثة والتقليد الأعمى ، على غير هدى ولا بصيرة . فذهبوا - بهذا التقليد الأعمى - كالأنعام ، بل أضل سبيلاً . يخبطون فى هذه الظلمات الجاهلية بما أوهمهم أولئك الشياطين : أنه دين وإسلام ، وإنما هو - لو تنبهوا وعقلوا - مشاققة لله ولرسوله واتباع لغير سبيل المؤمنين ، وأوحال من الأباطيل الخرافية ، وحثالات الأهواء والظنون الكاذبة ، يتمرغون فيها ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . فقاموا فى الصلاة عمياً وبكماً وصماً ، لا يعقلون ولا يفهمون ، فلم يكن لها فى أنفسهم أثر ، ولم تنعن عنهم من سوء عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم شيئاً . إذ لم يفتح الله لهم بابه ، ولم ينظر إليهم نظر رحمة ولا قبول ، لأنهم قاموا إليه كالأنعام غافلين ، وكلموه غير واعين ولا عاقلين ، وقلوبهم مليئة بأفذار وخبائث الطواغيت : من الأحبار والرهبان ،

ومن المال والبنين ، والأهواء والشهوات . فلم يكونوا - بتلك الأرجاس - أهلاً أن يذوقوا حلاوة مناجاة الله ، ولا أهلاً أن يتجلى عليهم برحمته ورضوانه ويدخلوا في حضرة قدسه .

ثم سَوَّل لهم الشيطان في ظلمات جاهليتهم هذه ، وأوهمهم : أنهم يقدمون لله ما ينتظره منهم . فظنوا به - سبحانه - ظن السوء ، إذ توهموا في قلوبهم - وإن لم يقولوا بألسنتهم - أنه بحاجة محتاج إليهم وإلى أعمالهم ، منتظر لها ، وهى دَيْنٌ له عندهم ، يستكثر بها . سبحانه ، ثم بخلوا بها عليه ، لأنه - بزعمهم - لم يعطهم من الظروف والأسباب التى تُهَوِّنُ أمر العمل له العبادة عليهم ما أعطى غيرهم . فمنهم من يبخل عليه بها فى أوقاتها . فيجمعها الأيام والسنين ، ويقول لسان حاله لربه : خذ دينك الذى أنت تنتظره . فالآن فقط فرغت لك . وأكثرهم - بل جمهرتهم - أعرضت عنه مرة واحدة ، وولَّتْنا كصبة على عقبيها ، لا نسمع لدعائه ، ولا تستجيب لندائه . لأنه عندهم ليس بالصادق الوعد . ولا الموفى بالعهد .

وكل هذا إنما هو من ثمرات الجاهلية الفارقين فيها ، وظلمات التقليد الأعمى ، وكثرة ما نفث الشيطان فى القلوب من سموم قتالة ، صدتهم عن معرفة الله ، وعن ذكر الله فى سننه وآياته وأسمائه وصفاته . وعن المسارعة إلى توثيق الاتصال به فى جميع الأوقات والحالات .

\* \* \*

وحين تتخلص القلوب من هذه السموم الجاهلية ، وتنقشع عنها غياهب هذا التقليد الأعمى . وتقبل - بيقظة الفطرة السليمة - على ربها وفاطرها وبارئها الغنى الحميد المجيد ، القوى العزيز ، العليم الحكيم ، الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، والذى خلق الإنسان كله فى أحسن تقويم . ثم هداه كله السبيل : إما شاكراً ، وإما كفوراً .

حينئذ تشرق عليها أنوار هداية الفطرة السليمة ، فتفكر فى ملكوت

السموات والأرض وما خلق الله من شيء في نفسها وفي الآفاق . وفيما سخر لها في السموات والأرض ، وفيما أكرمها به من عقل وسمع وبصر . وفيما أنعم عليها من هدى ونور ورحمة - في كتابه وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم - عندئذ ، وعندئذ فقط - يقبل المصلى إلى ربه وَجِلاً خاضعاً خاشعاً ، مسكيناً ذليلاً ضارعاً ، محاولاً التخلص من كل ما عَوَّقَه وصدّه عنه من دين الوراثة الجاهلي . فيعود وقد امتزج بكل ذرة من قلبه ولحمه ودمه : الإيمان الصادق بأنه الرب الكبير المتعال ، الغني الحميد ، الذي ربي جميع العالمين بنعمه وفضله ، وأن إيمان المؤمن وصالح عمله ، لا يزيد في ربوبية الرب ، ولا في ملكه شيئاً ، وأن كفر الكافر وفسوقه وعصيانه ، لا ينقص من ربوبيته ولا من ملكه شيئاً ، وأن من أحسن إفحسانه لنفسه ، ومن أساء فعلها ، وأن كل جانٍ فلا يجنى إلا على نفسه ، ولا يضر إلا هي . ولا يضر الله شيئاً . بل إن كفر الكافر وفسوقه وعصيانه : لن يمنع ربوبية الرب له بجميع خصائصها وصفاتها : من الخلق ، والرزق ، والحياة ، والموت والليل والنهار ، والطعام والشراب والولادة ، وغيرها . ولن يستطيع الكافر الفاسق العاصي - ولو اجتمع معه الجن والإنس - أن يغير ، أو ينقص شيئاً من عبوديته نفسه وعجزه وضعفه ، و فقره الذاتي اللازم له ولكل عبد .

فالعبد عبد مقهور بقهر الرب رضى العبد أو لم يرض . والرب رب قاهر فوق عباده حكيم خبير ، غالب على كل أمر ، قدير على كل شيء ، بيده الخير كله ، غني حميد ، رضى العبد أو لم يرض .

\* \* \*

فإذا ما صدق إيمان القلب بهذا : حرص أشد الحرص على توثيق كل صلة - خوفاً ورجاء ، ورغبة ورهبة ، وذلاً وتعظيماً وضراعة - بربه وحده . واتخذ من كل ما أنعم به عليه ربه سبباً لذلك . وانتظر بفارغ الصبر : دعوة ربه الحى القيوم الرحمن الرحيم ، له إلى الصلاة ، إلى الفلاح ، إلى شرف الوقوف في حضرة الرب

الأكبر الجليل الملك الوهاب . فأقبل فرحاً مسروراً ، مبادراً إلى انتهاز الفرصة -  
التي لعلها أن لا تواتيه مرة أخرى - في هذا الوقت الذي حدده له الرب متفضلاً ،  
ودعاه فيه إليه محسناً ( ٤ : ١٠٣ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً )  
فما أسعدها من ساعة ، وما أبركها من فرصة ، وما أألها من مناجاة .  
وما أشرحها لصدر المؤمنين بها . وصدق الحبيب الأمين صلى الله عليه وسلم  
« جُعِلت قرّة عيني في الصلاة » .

فما أحوج كل مؤمن أن يتشرف بها ، وينعم برضوانها ، ويغسل عن روحه  
وقلبه أوضار وأدران ما يعافس ويخالط من شهوات المال والأهل والولد في سلسبيل  
نهرها ، كما وصى ونصح عبد الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله « مثل الصلاة  
كمثل نهر جار على باب أحدكم ، يغتسل فيه في اليوم والليلة خمس مرات ، فهل  
يبقى عليه ذلك من دَرَن ؟ » .

\* \* \*

ولما كان شأن الصلاة كذلك ، كانت في الحقيقة : تشریفاً للعبد المؤمن  
بمناجاة ربه ، الذي هو أحب إليه من نفسه وماله وولده ، ولن يكون أهلاً لهذا  
الشرف : إلا من عرف الربوبية بأسمائها وصفاتها وحقوقها ، وعرف العبودية  
ومعجزها وضعفها و فقرها المطلق ، وحرص على أن يعطى كل ذى حق حقه كاملاً .  
لذلك : كان لا بد لها من الطهارة الحسية والمعنوية ، والستر الجسمى والقلبي .  
وتولية الوجه شطر بيت الله الحرام ، وتلاوة ما تيسر من كلام الله ، والتكبير ،  
والتسبيح .

فالطهارة : ليكون وحيها كريماً ، مقدرًا شاكراً لما أعطاه وأنعم عليه ربه  
الكريم . ليفتح له ربه الكريم بابه ، ويوفقه لأسباب القبول والرضى . فيتوضأ  
ليطيب ، ويعود وضئاً وحيهاً بتركية نفسه وتطيبها من من رواسبها البهيمية التي

تعوقه عن أن يتأهل لمكاملة ومناجاة الله الجليل الطيب العلى العظيم . الذى لا يجب من العباد ولا من الأعمال إلا الطيب الكريم .

ولما كان تغليب جانب البهيمية هو المعوق للعبد عن القرب من ربه ، إذ هو الباب الذى يدخل منه العدو المضل المبين ، ثم يعمل جاهداً على توسيعه بتدسيس العبد فى أعماق الغفلة والنسيان لآيات الله الكونية والعلمية ، ولنعم الله على الإنسان فى إنسانيته ، التى نفخها فيه من روحه وسخرها له من حوله ، ثم يتخذ العدو منه - بتماذى الغفلة به - مطية إلى الأمانى الكاذبة والتقى ، واتباع الهوى والشهوات .

فكان سر الطهارة : هو العمل على اليقظة من هذه الغفلة ، ومحاولة الإثابة والرجوع إلى الإنسانية الكريمة العاقلة المفكرة ، التى نفخها الله من روحه فى الإنسان ، ليكون بها أهلاً أن يسعد ، وينعم بعبادة ربه . وحده لا يشرك به شيئاً ، ويعبده بما أحب وشرع ، فيحى الحياة الطيبة على هدى ، لا يضل فيها ولا يشقى .

\* \* \*

فوجبات الضوء - التى هى الأحداث - : هى أجلى مظاهر البهيمية فى البشرية . فإن العبد إما يسيء استعمال نعم الله عليه ، ويضعها فى غير موضعها بما يُغلب من البهيمية ، على إنسانيته العاقلة المميزه . ولذلك سميت « ذنوباً » مشتقة من الذنب - الذى هو من خصائص الحيوان البهيم - وهو بهذه الإساءة قد نزل بنفسه ، وأسقطها أن تكون أهلاً لشرف الوقوف مع الرب الجليل العظيم ، ومناجاته بكلامه الطيب ، والإنسان خطأ - ولا بد - وهو لهذا محتاج أشد الاحتياج إلى شرف الوقوف والمناجاة لربه . ليستهديه ، ويستمد منه المعونة على السداد والقصد فى كل خطواته ، وليطرد عن قلبه أنكاد هذه الإساءات وأدناسها ويحط عن نفسه ما أثقلها من هموم وأحزان هذه الرعونات البهيمية . فجعل الله هذا الحدث مذكراً له بما غلب عليه من رعونات وسفاهات الحيوانية ، فيسارع

إلى الوضوء ، أو الغسل ، حريصاً على أن يعود وضيقاً وجيباً بإنسانيته الطيبة .  
ذاكراً عند إمرار الماء على كل عضو ، ما وقع فيه من الإساءة والذنوب بهذا  
العضو ، حريصاً على أن يجمعه إلى نفسه اللوامة . وأن يرد جماع الحيوانية فيه إلى  
الفطرة السليمة بالعقل والرشد .

فإذا ما فرغ : أعلن ظفّره بتجديد الإنابة والرجعة إلى ربه . وجدد إسلاما  
صحيحاً بريئاً من هذه الإساءات ، التي قدرته ومزقته ، فيقول « أشهد أن لا إله  
إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . اللهم اجعلني من  
التوابين . واجعلني من المتطهرين » كذلك أوصانا الحبيب : عبد الله ورسوله  
محمد صلى الله عليه وسلم .

وشرح ذلك في الحديث الذي رواه مسلم ومالك والترمذي عن أبي هريرة  
« إذا توضأ العبد المسلم - أو المؤمن - فغسل وجهه : خرج من وجهه كل خطيئة  
نظر إليها بعينه مع الماء - أو مع آخر قطر الماء - فإذا غسل يديه : خرج من  
يديه كل خطيئة كان بطشتها يده مع الماء - أو مع آخر قطر الماء - فإذا غسل  
رجليه : خرجت كل خطيئة مشّتها رجلاه مع الماء - أو مع آخر قطر الماء - حتى  
يخرج نقياً من الذنوب » ففي هذا ما يرشد الناس إلى هذا السر الكامن في الوضوء  
والغسل لو كانوا يعقلون .

\* \* \*

والماء المطلق : هو أصل الفطرة ، الذي جعل الله منه كل شيء حي . أفلا  
يتفكرون ؟ فإن لم يتيسر له الماء . عاد إلى الأصل الأول للإنسان ، وهو الصعيد ،  
وجه الأرض - الذي خلق الإنسان منه - فضرب بكفيه على الأرض - التي هو  
عليها - ومسح وجهه وكفيه . وفي الحديث الصحيح « جُعِلت لي الأرض كلها لي  
ولأمتي مسجداً وطهوراً . فأينما أدركت رجلاً من أمتي الصلاة ، فعنده مسجده ،  
وعنده طهوره » .



فإن السلامة كل السلامة : إنما هي في الرجوع إلى الفطرة التي فطرك الله عليها سمياً بصيراً عاقلاً مفكراً مميزاً . لتعرف نفسك بعجزها وضعفها وفقرها ، وتعرف الإنسان كله كذلك . وتعرف ربك بعظمته وجلاله ونعمه على الإنسانية ، وعدله المطلق ورحمته وحكمته ، وشهوده وقربه ، وأنه ليس كمثل شيء . وهو السميع البصير ، الرؤوف الرحيم .

فتعود تَوَّاباً منيباً إلى ربك بنفس زاكية ، وبصدر سليم ، وقلب مُبْرَأً من التقاليد الجاهلية ، والحسد والأحقاد والضغائن الشيطانية . ومن كل ما يقدر النفس ويرين عليها . مما يعميها ويصدها عن السبيل السوي القاصد الذي لا يضل فيه الذاكِر لربه ، والحاضر بقلبه ولبه السليم ، اليقظ مع كل حركة وشأن بما تجلّى عليه ربه من الأسماء والصفات فيسعد ولا يشقى .

هذا بعض ما ينبغي أن تستحضره روحك ونفسك الإنسانية العاقلة ، من أسرار الطهارة استعداداً لاتصالك ، وتشرفك بمناجاة الله ربك ، وتهيئوا لتحظى بالمنح والعطايا والصلات منه سبحانه .

فيا سعادة من عقل عن ربه ، وشهد بلبه السليم عدله وحكمته ورحمته ، وتجلّى عليه نور وهدى أسمائه وصفاته ، فدفعه إلى الاهتداء بهدى رسالاته . إنه من المؤمنين المفلحين الذين هم في صلاتهم خاشعون .

\* \* \*

أما الستر : فستران . ستر للجسم والقشر الظاهر . وستر للإنسانية المعنوية العاقلة ، التي هي قلب العبد ولبه . فستر الجسم الظاهر : بما ميزك الله به عن الحيوان من اللباس ، وجعله زينة الإنسانية . فأعتدته من الثياب ، التي أشار إليه ربنا سبحانه بقوله ( ٧ : ٢٦ ) يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يُؤارى سوءاتكم ) ودعا إليها بقوله ( ٧ : ٣١ ) يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ) .

فالمراد منها : ما تقتضيه الفطرة السليمة الحيّة ، اليقظة الحيّة . فالله أولى أن

يستحي منه . ليس المطلوب التنطع وتكلف خلاف ما اعتدت من اللباس الذى تخالط به الناس ، مما اقتضاه حيائك في كل ظرف ومكان بما يناسبه . وليست الزينة : ما يتخذها المداهنون والمتكلفون لسادتهم وكبرائهم . من تزوير الظاهر وتجميله ، ليخفوا ما فى القلوب من بغضاء وحقد وكرهية . فإن ذلك تأباه الفطرة السليمة ، وتمتته الشريعة الرشيدة .

وينبغى أن تعرف مراد الله ربك من الآية بجمع آيات السياق مع بعضها . فإنما نزل ذلك فى شأن ما كانت قریش شرعت - من طريقة شيطانية يبتزون بها الأموال - من التعرى وكشف السوءات والفحشاء ، فيطوف الناس بالبيت عراة كما ولدتهم أمهاتهم ، حيث تقول إحداهن :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

تشير إلى هنا وقد سترته بيدها . فبدا طرفاه . فعابهم الله أشد العيب ، ومقتهم على ذلك أشد المقت ، وذكّر الإنسان بما أكرمه به وميزه عن الحيوان البهيم ، من الثياب التى أشار إلى كرامتها بأنه « أنزلها » وجعلها زينة للإنسان تستر سواته . فأغراه الشيطان - فى ظلمات جاهليته ، واتخاذة الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله - ونزع عنه لباسه ليكشف عن سواته ، ويقبحه صورة ومعنى . وهذا أصل الآية . وهو المراد من الزينة .

فقد روى البخارى ومسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما « أنه وضع ثيابه على المشجّب ، وصلى بثوب واحد . فسأله محمد بن المنكدر ؟ فقال : ليرانى أحق مثلك ، فيعلم أنها السنة » وسأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم « عن الصلاة فى الثوب الواحد ؟ فقال : أو لكلمكم ثوبان ؟ » رواه البخارى ومسلم . وروى البخارى عن عمر بن الخطاب « إذا وسع الله فأوسعوا . جمع رجل عليه ثيابه . صلى فى إزار ورداء ، فى إزار وقميص . فى إزار وقباء ، فى سراويل ورداء ، فى سراويل وقميص ، سراويل وقباء ، فى ثوبان - وهو السراويل القصيرة إلى نصف الفخذ - وقباء ، فى ثوبان وقميص » .

هذا هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهدى أصحابه رضى الله عنهم ، وهم أحرص الناس على هُدَى ، وأطهر قلوباً ، وأبعد عن تكلف وأعلم بما ينبغي من الحياء فى الوقوف بين يدى الله . ولم يحىء فى سنة صحيحة : أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان يتكلف للصلاة خلاف ما يكون عليه ، حافياً أو منتعلاً ، سائر الرأس أو حاسرها . وخير الهدى هديه صلى الله عليه وسلم .

أما الحمقى المنتنعون ، المفسدون لفقرة الله فيهم : فإنهم يقيسون الله سبحانه بالرؤساء الظالمين ، فيتخذون له الوسطاء فى قضاء الحاجات ، وإجابة الرغبات . فهم لذلك يتظاهرون له بمثل ما يتظاهرون لرؤسائهم . فيكون من عادتهم حَسْر الرأس فى كل أوقاتهم ، وهى زينتهم التى ألفوها . فإذا قام أحدهم ليتشبه بالمصلين أو على الأصح ليقلد القرود فى لعبها وعبثها - وهو فى الواقع ليس أهلاً للصلاة ، بما أفسد من فطرته ، وبما عمى بالتقليد الجاهلى المظلم عن دين الحق - عصب رأسه فى غير أدب ولا حياء ، بمنديل كالمراة . وفى الحديث الصحيح « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

\* \* \*

أما الستر المعنوى : فهو أهم من ستر القشر الذى هو الجسد الحيوانى البهيمى بما لا يُقدَّر ، لو كان الناس يعقلون . وهو المشار إليه فى قوله تعالى ( ٢٦:٧ ) ولباس التقوى ذلك خير . ذلك من آيات الله لعلمهم يذكرون ) فإن القلب أرق إحساساً وأشد تأثراً بالمفسدات والعوارض الأجنبية من تأثر الجسم ، وثياب القلب : إنما تحاك من خيوط التقوى . وتنسج بأيدي العلم الصحيح والفقہ فى كتاب الله وسنة رسوله . و « التقوى » أن يعلم ويفهم جيداً : أن ربه قد أقامه فى ميدان جهاد . وجعل له من كل شىء أعطاه فى نفسه ، وفى الآفاق ، ما يتقى به ، ويحذر ما يهلكه ويضره ويشقيه : من الوقوع فى أسر العدو وولايته . فيتروى ويتثبت فى استعمال كل نعمة ، ليسكون فيها على بصيرة وعلم من ربه ، ولتقع فى موضعها ، فيُنصَر

ويَهْزِمُ عدوه ، ويسلم ويتخلص من كل ما يحاول عدوه أن يفتنه به ويزينه له . وهذا هو الذى شرعت الطهارة والستر من أجله . وهو الذى ينبغى أن يقصده ويتوجه إليه العبد المؤمن فى صلاته ، ليكون من المفلحين ( ٢٩ : ٦ ) ومن جاهد فأبما يجاهد لنفسه . إن الله لغنى عن العالمين )

\* \* \*

وأما استقبال البيت الحرام - زاده الله شرفا وكرما - فلأن الله سبحانه قد جعل هذا البيت المكرم : مركز الدائرة للعالم الإسلامى ، فعنده تلتقى قلوبهم ، وإليه تهوى أفئدتهم . فيكون أعون لهم على التعارف والتفاهم ، والتعاون على البر والتقوى ، الذى من أجله أرسل الله الرسل ، وشرع الشرائع ، ليهديهم إلى ما يختلفون فيه من الحق بإذنه ، ويرجعهم إلى الصراط المستقيم ، ثم يدعوهم هذا التوجه المتكرر كل يوم خمس مرات وأكثر ، ويحفزهم إلى الشوق إلى قصده ووجهه ، ليشهدوا منافع لهم فى دنياهم وآخرتهم ، فتتلاقى هناك الأشباح - بعد أن تلاقى الأرواح - ويتم التفاهم والتعاون فى هذه البقعة المشرفة - التى ينبغى أن يعقد المسلمون مؤتمراتهم الإسلامى كل عام فيها - وقد عمتهم رحمة الله ، وحفتهم الملائكة ، وصفت قلوبهم ، وزكت نفوسهم بتلك المناسك والمشاعر ، ليعود كل إلى وطنه بخير زاد وأطيبه ، وأقواه فى كل شأنه : السياسى ، والاقتصادى ، والحربى . وبالجملة فى كل أمرهم الدينى والدنىوى ، فيكونون قوة على غيرهم ، ويدأ على من سواهم ، وتحقق لهم بذلك الخلافة فى الأرض ( ٢٤ : ٥٥ ) وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا . يعبدوننى ، لا يشركون بى شيئا . فمن كفر بعد ذلك . فأولئك هم الفاسقون ) .

\* \* \*

فإذا وُقِّت وهديت فى استعدادك للصلاة وتهيؤك لشرف الوقوف مع الله

ربك ومناجاته إلى ذلك - وأسأل الله لى ولك التوفيق - قمت إلى الصلاة بقلب حاضر وَجِلٍ ، ونفس يقظة مشتاقة ، ظمأى إلى عذب مناجاة ربها . فقامت منتصب القامة . قيام العبد الذليل الخاشع القانت ، الضارع المسكين ، الراجى من الغنى الحميد : أن يمنحه ولا يمتعه . ويسعده ولا يشقيه ، قد حبست كل حسك ومعناك . وكل جوارحك على هذا الموقف الذى أنت أفقر الناس إليه . وأشدهم حاجة إلى الفلاح والربح فيه . قد ألتصقت ذقنك بنحرك ، وقيدت نفسك فى الخدمة بوضع يديك على صدرك ، ثم ناديت ربك ، معلماً عن ذلك وكبريائه ، وعن ضعفك وعظمتك ، مكبراً له على ما هداك « الله أكبر » وأشعرت نفسك ، أنه قد أجابك : ها أنا يا عبدي ، قد أقبلت عليك ، وتوجهت بوجهي الكريم إليك . فتبدأ المناجاة وتستفتح المحادثة مع الحبيب ، الذى هو أحب إليك من نفسك ، والذى بيده لك الخير كله ، وهو على كل شيء قدير ، وقلت بكل تروٍّ وثبت ، مجتمعاً قلبك مع لسانك فى كل كلمة « اللهم باعد بينى وبين خطاياى ، كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم تقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدّنس . اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد » موقناً أوثق اليقين : بأن خطواتك فيما أنعم الله عليك كانت فى غير موضعها الذى أحبه الله لك ، وفيما أعطاك من أسباب العلم والهدى ماتعرفه ، ولكنك بتسرعك : قد خدعك الشيطان عدوك ، وشبّه ولبّس عليك فى سيرك العجل الطائش الآيات والعلامات . فتركت فى بعضها - أو كلها - سبيل الرشد ، سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه . واتبعت خطوات الشيطان وحزبه ، فكانت « خطايا » لصقت بك فأدّتك ، ورائت على قلبك فحجبتك عن أسباب هداة وسعادته ، فأفرحت عدوك ، ومكنته من قيادك . فأنت مشرف على أشد الهلاك ، إن لم يتداركك ربك القوى العزيز الرحمن الرحيم ، فيباعد بينك وبينها ، ويفسل أوضارها عنك بأطيب غسل وأطهره الذى شبهته بالماء والثلج والبرد ، وليس أطيّب غسل وأطهره عند ربك لغسل

تلك الأدران عن قلبك ونفسك إلا آياته البينات - التي تهدي إلى التي هي أقوم -  
وكتابه الكريم ، الذي يزيد قلوب المؤمنين به ، المتفهمين فيه ، الواردين حوضهم  
العذب ظاء فوجدوا فيه شفاء وغذاء وريياً وطُهرًا ، وهدى رسوله صلى الله عليه  
وسلم ، الذي بعثه في الأميين يتلو عليهم آياته ، ويعلمهم الكتاب والحكمة  
ويزكيهم ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين .

فإذا ما سألت ربك هذه المسألة ، واستفتحت مناجاته بهذه الضراعة : تمثل  
لك عدوك ، محاولاً أن يصرفك عن ربك إلى خطواته المزلَّة - مع أهلك ومالك  
وولدك - فبادرت اللجأ إلى الله العظيم ، والاستعاذة به من ذلك العدو الرجيم : من  
همزه ونفخه ونفته . فشعرت بقلبك ، ووجدانك اليقظ الحى : أن ربك قد  
استجاب لك ، وأنت قد أوتيت من المدد والمعونة الربانية الجديدة : ما تغلبت به  
على ذلك العدو ، فخلصت نفسك ، وذهبت بكلك متوجهاً إلى ربك ، فقرأت  
مستعيناً بأسماء ربك وصفاته ، التي تناسب موقفك وحاجتك ، وشكايتك ،  
وبدأت « الحمد لله رب العالمين » الثناء الجميل كله الذى يليق بربى مما يعلمه  
ولا أعلمه ، لربى الذى يرينى ، كما يربى جميع العالمين ، بنعمه وتدييره ، الذى كله  
جميل وحسن ، فله الأسماء الحسنى ، وهل يكون ممن أسماؤه كله حسنى وجميلة :  
إلا كل خير ، وحسن ، وجميل ؟ وكيف لا يكون كذلك ؟ وهو إنما يتجلى على  
ويرينى ويربى جميع العالمين بصفتى « الرحمن الرحيم » وهو الذى يقدر على  
ذلك وحده ، والكل عبده ، يريه ويعطيه ويدبره ، وهو يريد للعبد : أن  
يربو ويسمو ، وينمو بكل ما يعطيه ، وبكل ما يدبره به ، فهو « مالك يوم الدين »  
ويده وحده الجزاء . لا يظلم مثقال ذرة . وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من  
لدنه أجرأ عظيماً . وهل يعقل أن يكون مالك الآخرة بمجزائها وحسابها ، ودرجات  
جنتها ، ودرجات نارها ، ولا يكون مالك الدنيا بمن فيها وما فيها ؟ محال . فهو  
مالك الأولى لأنه رب جميع من فيها يربى بهم وحده بنعمه ، وآلائه وتدييره . لذلك ،

فإني أجدد معه عهداً أسأله المعونة على الوفاء به « إياك نعبدو إياك نستعين » لن  
يُعظّم قلبي أكبر تعظيم ، ويجب أجلّ المحبة ، ولن يقدر ، ولن يخاف ، ولن  
يرجو ، ولن يسأل ، ولن يدعو في ذلة وضراعة ، ولن يؤله : إلا أنت ، يا من  
تربيني وتربي جميع العالمين بنعمك ، ولن أستعين في كل أمر من ديني ودنياي  
إلا بك وحدك . فالكل مثلي عبيد ضعفاء ، فقراء مخلوقون . وأنت الرب الغني  
الحميد فأنت الأول وأنت الآخر . فما من شيء يصل إلّ من أحد إلا وأنت  
الأول فيه . والبادئ به . وما من جزاء . وما من غاية إلا وينبغي أن تسكون  
أنت في قلبي الآخر والمرجع . فإليك المصير في كل أمر وعمل وشيء . وأنت مقلب  
القلوب ، والقاهر فوق عباده . « اهدني الصراط المستقيم » في كل شأنى ، وفي  
كل خطوة من خطواتي ، أزر بصيرتي بهدى الفطرة ، وهدى الرسالة ، وأدم  
شمس تلك الهداية مشرقة على قلبي ومن حولي ، وفي سمعي وفي بصري ، وفي مخي  
وعصبي وروحي ، حتى آخذ كل شأنى في حياتي على بصيرة وعلم . ولأكون  
دائماً على استقامة وقصد ، لا التواء ولا اعوجاج ولا ضلال ، في قولي وعلمي  
وعقيدتي وحالي ومدخلي ومخرجي ، لأسعد فلا أشقى ، وثبتني في كل خطوة حتى  
يكون سبيلي دائماً ( صراط الذين أنعمت عليهم ) فأحظى برقة أحبابك المحلّصين .  
من النبيين ، والصديقين والشهداء والصالحين ، وآنس بصحبة أولئك الأخيار ،  
وأكون بذلك الأنس والنعمة يقظاً حريصاً على معرفة طريق المغضوب عليهم  
ولا الضالين . فأتجنبه وأحذره . فلا يستطيع الشيطان أن يخدعني ويزينه لي باسم  
آباء ولا شيوخ ، ولا هوى نفس ولا شهوة بهيمية ، وإن خدعني مرة أكون سريع  
الإجابة والإجابة إلى رشدي ، والعودة إلى هدى الصراط المستقيم .

\* \* \*

فإذا ما صدقت في هذه المناجاة ، وكنت حاضر القلب ، يقظ النفس شهيداً :  
سمعتُ روحك - وقد عرّجتُ فوق السموات العلى - استجابة ربك لك ،

وشهدت من عذوبة كلام الله ، وحلاوة خطابه ، ما جنت من خيرات ثمرات أم الكتاب : ما يدفعك إلى أن تطيل المناجاة والمكالمة ، فتتلو من القرآن ما تطمئن به نفسك ، وينشرح له صدرك ، ويستنير به قلبك ، مما يعدد عليك فيه ربك من نعمه التي يريك بها . وما يشرع لك من شرائع وما يوجهك به إلى الحياة الطيبة الآمنة ، وما يقص عليك من أخبار رسله وأتباعهم المهتدين . وما أنعم عليهم ربهم من الهدى وأعظام من عز الدنيا والآخرة . وفرحهما ، ومن أخبار أعدائه وأعداء رسله ؛ وما أذاقهم من شديد عقابه ونكاله مما كانوا له أهلاً ، وما ظلمهم الله شيئاً . ومما وصف به نفسه من أسماء تبعث في القلب أعظم الحب والثقة ، والتوكل على من هذه أسماؤه وصفاته ، وتدعو إلى أوثق الركون إليه وحده . ومن أخبار الآخرة وما أعد فيها من جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومن نار وقودها الناس والحجارة .

وأنت - في كل ذلك - حاضر شاهد مشرف على أعداء الله وأعداء رسله ، باحث في نفسك وعقيدتك وأخلاقك وأعمالك . هل فيك شيء من صفاتهم وأعمالهم ، يجعلك من هؤلاء الظالمين لأنفسهم - فاعلك واجد ، وما إخالك إلا واجداً ، ولعلك تجد كثيراً - فأسرع بتخليص نفسك ، والفرزع إلى ربك : أن يبعثك عنهم بإمدادك بالعلم النافع ، والهدى ، وتقوية إنسانيتك الكريمة العاقلة المميزة ، حتى تستطيع أن تكون من المحاصنين ، والمخلصين ، وكن حاضراً شاهداً ، مع أولياء الله من المرسلين ، والذين اتبعوهم بإحسان . وفتش في نفسك أين أنت من عقيدتهم الصافية ، وأخلاقهم السامية ، وأعمالهم الصالحة ؟ فإنك واجد - ولا بد - تقصيراً ، وتقصيراً كثيراً . فأسرع بالفرزع إلى ربك أن يمدك بمدد من النور ، والعلم الصحيح والهدى ، وقوة اليقين ، وصدق القصد ، ونصح النية ، ونور البصيرة : أن تكون معهم بعقيدتك وأخلاقك وأعمالك . وإنك واجد كل ذلك



هيناً سهلاً ميسراً ، فقد قدّمت « إياك نعبد وإياك نستعين » فسيعينك الرحمن الرحيم بما يجعل هذا سهلاً عليك بسيراً .

وإنك حينئذ ستجد أن نعم الله الكونية والعالمية ، وهدايته لك بالفطرة فيما أعطاك ، وهدايته لك بما شرح له صدرك من هداية ونور كلامه العزيز ، وآياته البينات ، وما تفضل به عليك من المعية له ولرسله ، والصدّيقين من عباده - ستجد أن كل ذلك من النعم : قد أثقل ظهرك فناءً بحمله ، فخررت مكبراً ربك ، مصغراً نفسك ، راعكاً لربك الذى منّ وتفضل عليك بكل هذه الخيرات ، بدون مقابل منك له أصلاً . فما أنت إلا عَدَمٌ وعُدْمٌ . فذهب قلبك ولسانك يسبح بحمد ربك واسمه العظيم ، وَيَسْبِحُ مع تلك النعم في بحر من التأمّلات والتفكرات ، ساجداً في بحر الفتن التى تتلاطم بك أمواجها ، محاولاً الوصول إلى بر السلامة والعافية منها منزهاً هذا الرب العظيم الذى تفضل فبدأك بالإحسان والجميل . وأعطاك كل خير وجميل . فسبحانه أن يكون منه شر أو إساءة . فما الشر والإساءة إلا من نفسك لنفسك . فسبحانه سبحانه . فشعرت - بوجدانك الحى ، وروحك الصاعدة السامية فوق هذه الدنيا بتلاطم فتنها - : أنك قد أعطاك ربك نعماً جديدة . إذ سمع تسبيحك بحمده . فخلق بك . أن ترجع فتحمّد الله من جديد . فقمت قائلاً « سمع الله لمن حمده » فاسمع يا كبير ، يا جليل ، يا حميد ، حمدى الجديد الذى أثنى عليك به ، بعد شهودى لما أثقل ظهرى من نعمك وفضلك ، واقبله . فإنى أشهد جميلك فى كل شيء . بما أرى وأحسّ من آثار أسمائك الحسنى الواضحة فى كل شيء . فإنها تنادى بأن لك وحدك الثناء الحسن الجميل . لا أحصى - ولن يحصى أحد - ثناء عليك . أنت كما أثنيت على نفسك « ربنا ولك الحمد ، ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد - وكلنا لك عبد - لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجد » .

فشهدتُ روحك العارجة إلى حظائر القدس: أن ربك قد تفضل فأكرمك ،  
وسمع حمدك وثناءك وذكرك له . فذكرك في الملأ الأعلى ، وأنه قد تقرب منك  
شبراً وذراعاً وباعاً ، حين تقربت إليه . فإذا بالحمل - من الفضل والنعم - يزداد  
على ظهرك ثقلاً ، فخررت ساجداً لربك ، ونزلت بأعلى مقامات العبودية بهذا  
السجود ، الذي هو منتهى الاستسلام والتجرد من كل شيء ، والذل والركون إلى  
الله المعطى لكل خير . فذهبت تمجده . وهو العلي العظيم . وَاسْتَبِحْ مع نعمه  
وآلائه ، وتسبحه . فشهدت أنه قد فتح لك من خزائن فضله ما أطعمك في المسألة ،  
وأغراك بالإلحاف في المسألة ، والطلب والاستجداء لدينك ودنياك وآخرتك ،  
وأهلك وعشيرتك المؤمنين . وذكرت قول أيوب عليه السلام - وقد أمطر الله  
عليه أرجال الجراد ذهباً . فأخذ يحمو في ثوبه . فقال الله له « ألم أكن أغنيتك  
يا أيوب عن هذا ؟ قال : يارب ، ولكن لاغنى لي عن فضلك » وقول الرسول  
صلى الله عليه وسلم « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد . فإذا دعا فقَمِّنْ  
أن يستجاب له » .

ثم تقوم من سجدتك ، فتستغفر ربك من عظيم تقصيرك في جنبه ، وفي  
جنب ما غمرك به من العطايا ، ثم تعود ساجداً كذلك لتستدرك ما فاتك في السجدة  
الأولى . وهكذا ، حتى إذا جلست على رأس الركعتين ، أو في ختام صلاتك ،  
ومناجاتك : قدمت لربك ما يليق به من التحيات الطيبات ، والصلوات الزاكيات  
المباركات . وسلمت على نبيك الكريم ، الذي هو إمامك وقودتك ، وعلى يديه  
المباركتين ، ولسانه الطاهر الطهر كله ، وقلبه الزاكي السليم كل السلامة : جاءك  
هذا الخير ، وأفيضت عليك هذه النعم ، وقد تحمّل - صلى الله عليه وآله وسلم -  
في أدائها وإيصالها إليك ما لا يصبر عليه مئات مثلك . ثم سلمت على نفسك  
وإخوانك من عباد الله الصالحين . ثم انتهزت القرصة وجددت إسلامك  
بالشهادتين . مقررأ لنفسك أن بحاجة إلى معرفة وفقه ما يدعوانك إليه من إخلاص

العبادة لله ربك ، وإخلاص الاتباع والافتداء بمن اختاره لك ربك إماماً .  
ثم طلبت من ربك أن يمنح ذلك الإمام العبد الكريم والرسول الحبيب  
الخاتم صلى الله عليه وسلم ، وعلى إبراهيم إمام الموحدين وآلهما - مع رجاء أن  
تكون من آلهما - : من المنح والصلوات والعطايا ما يقدر عليه الله ، ولا تقدر  
أنت عليه . فإن ماجاءك به من الهدى والدين الذى أخرجك الله به من الظلمات  
إلى النور ، ومن الضلال إلى الهدى ، ومن الشقاء إلى سعادة الأولى والأخرى :  
لا يكافئه منك - ولا من أهل الأرض كلهم شئٌ - ولا يكافئه لإعطاء ربك ،  
ومنحه وصلاته الكريمة . فإنه الغنى الحميدى .

ثم أخذت تسأل ربك من كل ما تحتاج لدينك وآخرتك ولأهلك وولدك  
والمؤمنين والمؤمنات وأنت فى كل صلاتك ومناجاتك غائب عن هذا الوجود  
الدينوى القانى بشهودك لمناجاة الرب الكبير المتعال وقربه . حاضر بروحك  
مشهد التجلى الأعظم ، والوصل الأكرم الذى كان لإمامك وحيبيك خاتم المرسلين  
محمد صلى الله عليه وسلم ، والذى أكرمك الله باتباعه . وتفضل عليك فوفقت  
لتحرى الافتداء به فأكرمك بهذه الصلة الكريمة ورفعك إلى هذا الملأ الأعلى .  
فإذا ماتم لك ذلك عدت إلى هذا الوجود بما حملت من منح وصلات  
وعطايا ، فتبدؤه بالتحية « السلام عليكم ورحمة الله ، السلام عليكم ورحمة الله »  
كشأن كل من يحضر إلى مجلس كان غائباً عنهم . فإنه يجهيهم بالسلام .  
ومما يدلك على أن المصلى ينبغى أن يكون غائباً بروحه وإنسانيته الكريمة  
العاقلة عن هذا الوجود : أن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل البقعة التى يقوم فيها  
المصلى بالنسبة إليه خاصة ، كأنها ليست من هذه الأرض . وسمى المار فيها شيطاناً .  
وأمر بمقاتلته . وقال « لو يعلم أحدكم ماذا عليه ، لكان أن يقف أربعين خيراً له  
من أن يمر بين يدي المصلى » .

فإذا ما عدت من هذه المناجاة الكريمة : عدت بحاسب نفسك : هل قمت في موقفك بواجب العبودية صادقاً خالصاً كاملاً ، كما ينبغي للرب الذى شرفك وأكرمك ؟ فإذا بك تجدك ظالماً لنفسك ، مقصراً تقصيراً كبيراً مع ربك . فاسفغرتة ، وكررت الاستغفار ، تشعر نفسك تقصيرها فى حق نفسها ، وتطلب من ربك أن يمدك - من العلم والهدى والبصيرة واليقظة - : بما يستر نقائصك الحيوانية ، ويجعل لانسانيتك الكريمة العاقلة ، من الحياة والقوة والبصيرة ماتتحمم به فى هذه الحيوانية ، حتى تكون لها مطية مذلة إلى ما يجب لك ربك ويرضى فى كل شأنك ، لا فى الصلاة وحدها .

وهذه هى المنحة والصلة ، والصلاة التى قد جعل ربك لها مواعيد محددة بالليل والنهار . وأكده عليك بأشد التأكيد : أن تحرص على الاتصال بربك فى هذه الأوقات . لأنها وجبات من الغذاء الروحى ، وجرعات من الدواء الشافى ، أنت بأشد الحاجة إليها فى هذه المواقف المحددة ، لما يصيبك فى اضطرابك فى شئون حياتك من فتن . إن لم تتداركها بالاجوء إلى ربك فى هذه الأوقات وإلا تغلبت على لبيك فأفسدته . وطفا عليك الجهل والهوى البهيمى فكنت من المهالكين . وتجاوز عن الوضوء والغسل والتيمم والقيام ، واستقبال القبلة ، وعن القيام والعود ، تجاوز عن كل هذا لمن لا يقدر عليه ولا يستطيعه ، ولم يتجاوز عن الكتاب الموقوت ، والميعاد المحدد ، حتى فى وقت المسايقة ، وبذل النفس فى سبيله وابتغاء مرضاته . ذلك : لأن العبد محتاج إلى ربه فى كل حال ، بل هو أحوج إليه فى أوقات المرض والشدائد . فذلك فضل الله يؤتية من يشاء . والله ذو الفضل العظيم .

هذا هو لب الصلاة وروحها ، وحقيقتها ، وهذه هى الصلة التى وعد الله عليها الفلاح وسعادة الدنيا والآخرة لمن أعطاها حقها ، وأعطى نفسه منها حقاً . وهى التى تنهى عن الفحشاء والمنكر .

فيأطول حسرة من ضيع هذا اللب، وتنطع في الحرص على القشور والظواهر  
وما أعظم خيبة أولئك الذين غفلوا أشد الغفلة عن الصلاة، وعن حقيقتها. فحرموا  
ثمراتها الطيبة، وخيراتها المباركة التي تزكو بها النفوس، وتسمو بها الأرواح،  
وتسلم بها القلوب، وتسكروم بها الأخلاق، ويصلح بها الفرد والمجتمع. فيجتنبون  
كباثر الإثم والفواحش، ويتجملون بالإحسان في الانتفاع بكل ما أنعم عليهم  
ربهم، ويتخلقون بالطيبات: من البر والعدل، والإحسان، وإيتاء كل ذى حق  
حقه، والبعد عن كل فاحشة ومنكر.

\* \* \*

هذا ما أردت أن أقدم به لرسالة الإمام المبجل أحمد بن حنبل -رضى الله عنه-  
في « الصلاة » وقد جعل الله فيها هدى لى ورشداً، بل كانت سبب هدايتى،  
واستقامتى على الصراط السوى. فجزى الله الإمام أحمد خير الجزاء.

قصدت أن أثبت بعض ما فى نفسى لإخوانى المسلمين، راجياً بكل قلبى:  
أن يوقفنى الله وإياهم للانتفاع به، وبوصية الإمام أحمد رحمه الله وغفر لنا وله.  
وأن ينتبهوا من غفلتهم، ويستيقظوا من رقدتهم، التى طالت - وطالت كثيراً -  
بما خدّروهم ويخدروهم به شياطين الإنس والجن من التقاليد الجاهلية العمياء،  
والخرافات والشهوات، والآراء والأهواء. فيثوبوا إلى رشدهم، ويعاودوا الرجعة  
السريعة - فى صدق عزيمة، وشدة حاجة، وعلم وبصيرة - إلى ربهم مخلصين  
له الدين، وإلى الإسلام الصحيح، الذى جاءنا به عبد الله ورسوله الكريم محمد  
صلى الله عليه وسلم. الذى كانت آخر وصية له « تركت فيكم ما إن تمسكتم به  
لن تضلوا بعدى: كتاب الله وسنتى » وقد حفظه الله - من فضله ورحمته - من  
كل تبديل وتغيير. فلا يزال كتاب الله غضاً طرياً، كما نزل به جبريل الأمين،  
على قلب الرسول الصادق الأمين. يناديكم الله به وإليه، كما نادى الأولين  
(١٠ : ٧٥) يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم، وشفاء لما فى الصدور.

وهدى ورحمة للمؤمنين) (٧ : ٣ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) فلقد استجاب الأولون صادقين ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله . والذي أعطاهم ذلك هو ربهم وربكم ، فاستجيبوا له كما استجابوا يعطكم الله كما أعطاهم ، ويهدكم كما أسعدهم (٨ : ٢٤ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم . واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه . وأنه إليه تحشرون) (٣ : ١٧٣ لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) .

\* \* \*

هذا . وقد حققت رسالة الصلاة على المطبوعات المختلفة منها . وكلها متقاربة .

وعلى خطية الطبقات الكبرى في تراجم علماء الحنابلة ، لابن أبي يعلى . وراجعت الأحاديث على أصولها جهد الطاقة . وقد ضمت إليها نبذة في العقيدة للإمام أحمد رحمه الله وغفر لنا وله ، رجاء النفع بها والاستفادة منها .

هدانى الله وإياكم صراطه المستقيم . وصلى الله وسلم وبارك على عبد الله ورسوله محمد وعلى آله أجمعين . وجعلنى وإياكم من آله وحزبه المفلحين .

للقاهرة فى الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ١٣٧٥ هـ

وكتبه فقير غفو الله ورحمته

محمد بن عيسى

قال القاضي أبو الحسين محمد ، بن القاضي أبي يعلى محمد ، بن الحسين الفراء .  
المتوفى سنة ٥٢٦ في طبقات الحنابلة في ترجمة مسدد بن مسرهد بن مسربل .  
أنبأنا علي بن اليسرى عن ابن بطة حدثني علي بن أحمد المقرئ المراغي  
- بالمراغة - حدثنا محمد بن جعفر بن محمد السونديني حدثنا علي بن محمد بن موسى  
الحافظ - المعروف بابن المعدل - حدثنا أحمد بن محمد التميمي الزرندی قال :  
لما أشكل على مسدد بن مسرهد بن مسربل أمر الفتنة ، وما وقع الناس  
فيه من الاختلاف في القدر ، والرفض ، والاعتزال ، وخلق القرآن ، والإرجاء :  
كتب إلى أحمد بن حنبل : اكتب إليّ بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
فلما ورد كتابه على أحمد بن محمد : بكى . وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون .  
يزعم هذا البصرى : أنه قد أنفق على العلم مالا عظيما ، وهو لا يهتدى إلى سنة  
رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
ثم كتب إليه :

## بيننا وبينهم

الحمد لله الذى جعل فى كل زمان بقايا من أهل العلم يدعون من ضلَّ إلى الهدى ، وينهونه عن الردى ، يحيون بكتاب الله تعالى الموتى ، وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجهالة والردى . فكم من قتيل لإبليس قد أخيه . وكم من ضال تائه قد هدوه . فما أحسن أثارهم على الناس ، وما أقبح آثار الناس عليهم . ينفون عن دين الله عز وجل تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الضالين : الذين عقدوا ألوية البدع ، وأطلقوا عنان الفتنة . يقولون على الله ، وفى الله - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً - وفى كتابه : بغير علم . فنعوذ بالله من كل فتنة مضلة . وصلى الله على محمد .

أما بعد ، وقفنا الله وإياكم لما فيه طاعته ، وجنبنا وإياكم ما فيه سخطه . واستعملنا وإياكم فى عمل العارفين به ، الخائفين منه . إنه المستول ذلك . أوصيكم ونفسى بتقوى الله العظيم ، ولزوم السنة . فقد علمتم ما حل بمن خالفها . وما جاء فيمن اتبعها .

بلغنا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله عز وجل ليدخل العبد الجنة بالسنة يتمسك بها » .

فأمركم أن لا تؤثروا على القرآن شيئاً . فإنه كلام الله عز وجل . وما تكلم الله به فليس بمخلوق . وما أخبر به عن القرون الماضية فغير مخلوق وما فى اللوح المحفوظ ، وما فى المصاحف ، وتلاوة الناس ، وكيفما قرئ ، وكيفما يوصف : فهو كلام الله غير مخلوق . فمن قال : مخلوق ، فهو كافر بالله العظيم . ومن لم يكفره فهو كافر .

ثم من بعد كتاب الله : سنة النبي صلى الله عليه وسلم والحديث عنه ، وعن المهديين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .



والتصديق بما جاءت به الرسل ، واتباع سنة النجاة . وهى التى نقلها أهل العلم كابر عن كابر .

واحدروا رأى جَنهم . فإنه صاحب رأى وكلام وخصومات . فقد أجمع من أدركنا من أهل العلم : أن الجهمية افتقرت ثلاث فرق .

فقال طائفة منهم : القرآن كلام الله مخلوق . وقالت طائفة : القرآن كلام الله وسكنت . وهى الواقعة الملعونة . وقال بعضهم : ألفاظنا بالقرآن مخلوقة .

فكل هؤلاء جهمية كفار ، يستتابون . فإن تابوا وإلا قتلوا .

وأجمع من أدركنا من أهل العلم : أن مَنْ هذه مقالته — إن لم يتب — لم يناكح ، ولا يجوز قضاؤه . ولا تؤكل ذبيحته .

والإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص . زيادته : إذا أحسنت ، ونقصانه : إذا

أسأت . ويخرج الرجل من الإيمان إلى الإسلام ، ولا يخرج من الإسلام شيء إلا الشرك بالله العظيم ، أو برداً فريضة من فرائض الله عز وجل جاحداً لها . فإن تركها كسلاً أو تهاوناً كان فى مشيئة الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه .

وأما المعتزلة الملعونة : فقد أجمع من أدركنا من أهل العلم : أنهم يُكفرون

بالذنب . ومن كان منهم كذلك فقد زعم أن آدم كان كافراً . وأن إخوة يوسف — حين كذبوا أباهم<sup>(١)</sup> يعقوب — كانوا كفاراً .

وأجمعت المعتزلة : أن من سرق حبة : فهو كافر ، تبين منه امرأته ، ويستأنف

الحج إن كان حجج .

فهؤلاء الذين يقولون بهذه المقالة كفار ، لا ييناكون ، ولا تقبل شهادتهم .

وأما الرافضة : فقد أجمع من أدركنا من أهل العلم : أنهم قالوا : إن على بن

أبي طالب أفضل من أبي بكر الصديق<sup>(٢)</sup> ، وأن إسلام علي كان أقدم من إسلام

---

(١) كذا فى الأصول . والصواب « كذبوا على أبيهم » . « إذ قالوا أكله الذئب »

(٢) أن الدارس لكتب الشيعة يقين له : أن الجمعية الباطنية التى تألفت من فلول

الفرس واليهود لكيد المسلمين ، والقضاء على دولتهم التى أدال الله لها من دولة =

أبي بكر . فمن زعم أن علي بن أبي طالب أفضل من أبي بكر فقد رد الكتاب والسنة ، لقول الله عز وجل ( ٤٨ : ٢٩ محمد رسول الله والذين معه <sup>(١)</sup> ) فقد قدم الله أبا بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لو كنت متخذاً خليلاً لا يتخذ أبا بكر خليلاً . ولكن الله قد اتخذ صاحبكم خليلاً . ولا نبيّ بعدي » فمن زعم أن إسلام علي أقدم من إسلام أبي بكر : فقد كذب . لأن أول من أسلم : عبد الله بن عثمان عتيق ، أبو بكر ابن أبي قحافة . وهو يومئذ ابن خمس وثلاثين سنة . وعليّ ابن سبع سنين . لم تجر عليه الأحكام والقرائض والحدود . وتؤمن بالقضاء والقدر ، خيره وشره ، وحلوه ومره . وأن الله خلق الجنة قبل الخلق . وخلق لها أهلاً . ونعيمها دائم . ومن زعم أنه يبئد من الجنة شئ فهو كافر . وخلق النار قبل خلق الخلق . وخلق لها أهلاً ، وعذابها دائم . وأن أهل الجنة يرون ربهم لا محالة . وأن الله يُخرج أقواماً من النار بشفاعته محمد صلى الله عليه وسلم . وأن الله كلم موسى تكليماً . واتخذ إبراهيم خليلاً .

والصراط حق . والميزان حق . والأنبياء حق . وعيسى ابن مريم رسول الله وكتبه ، والإيمان بالحوض والشفاعة . والإيمان بمنكر ونكير <sup>(٢)</sup> ، وعذاب القبر .

= الفرس وقضى على آمال اليهود في إنشاء دولة . فهم لذلك يكرهون أبا بكر وعمر كرهاً شديداً . وكرههم لعمر أشد قتلوه . لأنهما اللذان أقام بهما أسس الدولة الإسلامية على أتقاض دولتي الفرس والروم . ثم أوحى إليهم الشيطان أن يلبسوا بعض عقائدهم الزردشتية ثوب الاسلام ، ويتخذوا منها رداً يعملون من خلفه . فكان اتخاذ « الوصي » وغدير خم وأشباهها ليخدعوا العامة من المسلمين ، وقد خدعواهم . ثم أدخلوا من الشرك والوثنية والانحلال الخلق ما أوهن المسلمين . وكان أمر الله قدراً مقدوراً . (١) على معنى « معه » أي في الغار ، لكن يعكر عليه لفظ « الذين » الجمع .

وبقية الصفات . فإنها عامة في الصحابة رضی الله عنهم . ولو كان استدلل بقول الله تعالى ( ٤٠ : ٩ ) إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تخزن . إن الله معنا ) لكان أولى . (٢) لم يأت في اسمي ملكي السؤال في القبر حديث يثبت . كما حقق ذلك الإمام ابن القيم وغيره .

والإيمان بملك الموت ، يقبض الأرواح . ثم ترد في الأجساد في القبور<sup>(١)</sup> ، فيسألون عن الإيمان والتوحيد . والإيمان بالنفخ في الصور . والصور قرآن ينفخ فيه إسرافيل . وأن القبر الذي بالمدينة : قبر رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، معه أبو بكر وعمر رضی الله عنهما ، وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن . والدجال خارج في هذه الأمة لاحالة . وينزل عيسى ابن مريم عليه السلام ، فيقتله بياب لدد .

وما أنكرت العلماء من الشبهة فهو منكر . واحذروا البدع كلها . ولا عين نظرت بعد النبي صلى الله عليه وسلم خيراً من أبي بكر الصديق رضی الله عنه ، ولا عين نظرت بعد أبي بكر خيراً من عمر . ولا عين نظرت بعد عمر خيراً من عثمان ولا عين نظرت بعد عثمان بن عفان خيراً من علي بن أبي طالب رضی الله عنهم أجمعين .

قال أحمد : هم والله الخلفاء الراشدون المهديون .

وأن نشهد للعشرة بالجنة . وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وسعيد بن زيد ، وعبد الرحمن بن عوف الزهري ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح . ومن شهد النبي صلى الله عليه وسلم له بالجنة : شهدنا له بالجنة . ورفع اليدين في الصلاة زيادة في الحسنات . والجهر بآمين عند قول الإمام ( ولا الضالين ) والصلاة على من مات من أهل هذه القبلة وحسابهم على الله عز وجل .

والخروج مع كل إمام في غزوه وحجه . والصلاة خلفهم صلاة الجماعة والجمعة والعيدين .

والكف عن مساوىء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تحدثوا بفضائلهم ، وأمسكوا عما شجر بينهم .

(١) ليس كما كانت في حياتها الأولى . وإنما هو من شئون الغيب التي لا سبيل إلى معرفتها إلا الخبر الصادق من الله والرسول . فنقف عنده ولا نجاوزه بالقياس عليه .

ولاشاور أحداً من أهل البدع في دينك ، ولا ترافقه في سفرك .  
ولا نكاح إلا بولي وخطب وشاهدي عدل . والمتعة حرام إلى يوم القيامة .  
ومن طلق ثلاثاً في لفظ واحد فقد جهل وحرمت عليه زوجته . ولا تحل له أبداً  
حتى تنكح زوجاً غيره <sup>(١)</sup> .  
والتكبير على الجنائز أربع . فإن كبر خمساً فكبر معه . قال ابن مسعود  
« كبر ما كبر إمامك » .

قال أحمد : خالفني الشافعي ، وقال : إن زاد أربع تكبيرات أعاد الصلاة .  
واحتج بأن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على النجاشي ، فكبر عليه أربع  
تكبيرات .

والمسح على الخفين : للمسافر ثلاثة أيام ولياليهن ، وللمقيم يوماً وليلة .  
وإذا دخلت المسجد فلا تجلس حتى تركم ركعتين تحية المسجد .  
والوتر ركعة . والإقامة فرادى .

أحبوا أهل السنة على ما كان منهم . أماتنا الله وإياكم على السنة والجماعة .  
ورزقنا الله وإياكم اتباع العلم . ووقفنا وإياكم لما يحبه ويرضاه .

---

(١) قد حقق شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم - رحمهما الله  
ورضى عنهما - : أن الطلاق الذي شرعه الله ، والذي تترتب عليه أحكامه من  
التحريم : هو أن يطلقها في طهر لم يمسه فيه : طلقة واحدة ، بقوله : أنت طالق .  
وأن النصوص من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بينة الدلالة على ذلك .  
وأن هذا هو الذي كان عليه العمل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعهد  
أبي بكر وصدر من خلافة عمر . وهذا هو الهدى والدين الذي لا ينبغي العدول  
عنه إلى غيره . كائناً من كان قائله . وأن من أوقع الطلاق بلفظ الثلاث في كلمة  
واحدة . أو مجلس واحد : ينوي بها ثلاثاً بائنة . لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره .  
فهو متخذ دينه هزواً ولعباً . مفتات على الله . ومن زعم من المقلدين غير ذلك  
فلا دليل معه ، بل الدليل عليه . والله الموفق للصواب .

# الصَّلَاةُ

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال القاضي أبو الحسين محمد بن القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء في «طبقات الحنابلة» في ترجمة مهنا بن يحيى الشامي .

أخبرنا المبارك - قراءة - أخبرنا إبراهيم ، أخبرنا أبو عمر ، أخبرنا طيب ، أخبرنا أحمد القطان الهيتي ، حدثنا سهل التستري ، قال : قرأ علينا مهنا بن يحيى الشامي :

هذا كتاب في الصلاة ، وعظم خطرهما ، وما يلزم الناس من تمامها وإحكامها يحتاج إليه أهل الإسلام ، لما قد شملهم من الاستخفاف بها ، والتضييع لها ، ومسابقة الإمام فيها .  
كتبه أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل - رحمه الله ورضي عنه - إلى قوم صلى معهم بعض الصلوات . فقال :

أي قوم ، إني صليت معكم . فرأيت من أهل مسجدكم من سبق الإمام في الركوع والسجود ، والرفع والخفض . وليس لمن يسابق الإمام صلاة . بذلك جاءت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن أصحابه رضوان الله عليهم . جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «أما يخاف الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار ، أو يجعل الله صورته صورة حمار<sup>(١)</sup>» وفي رواية «صورة كلب<sup>(٢)</sup>» وذلك لإساءته صلاته . لأنه لا صلاة له . ولو كانت له صلاة لرجى له الثواب ، ولم يخف عليه العقاب : أن يحول الله رأسه رأس حمار .

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٢) رواه الطبراني موقوفا على ابن مسعود . ورواه ابن حبان .

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « الإمام يركع قبلكم ، ويسجد قبلكم ، ويرفع قبلكم <sup>(١)</sup> » .

وجاء عن البراء بن عازب قال « كنا خلف النبي صلى الله عليه وسلم . فكان إذا انحط من قيامه للسجود : لا يحنى أحد منا ظهره حتى يضع رسول الله صلى الله عليه وسلم جبهته على الأرض . وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبثون خلفه قياماً حتى يَنْحَطَّ النبي صلى الله عليه وسلم ويكبر ، ويضع جبهته على الأرض - وهم قيام - ثم يتبعونه <sup>(٢)</sup> » .

وجاء الحديث عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا « لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستوى قائماً . وإنا لسجد بعد » .

وجاء الحديث عن ابن مسعود « أنه نظر إلى من سبق الإمام . فقال : لا وحدك صليت ، ولا بإمامك اقتديت » .

والذي لم يصلّ وحده ، ولم يقتد بإمامه : فذلك لا صلاة له .

وجاء الحديث عن ابن عمر « أنه نظر إلى من سبق الإمام . فقال له : لا صليت وحدك ، ولا صليت مع الإمام . ثم ضربه . وأمره أن يعيد الصلاة <sup>(٣)</sup> » .

ولو كانت له صلاة عند عبد الله بن عمر ما أوجب عليه الإعادة .

وجاء عن حِطَّان بن عبد الله الرَّقَّاشي أنه قال « صَلَّى بنا أبو موسى الأشعري صلاة . فلما كان عند القعدة ، قال رجل من القوم : أقرت الصلاة بالبرِّ والزكاة ؟

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري . ونحوه متفق عليه من حديث ابن هريرة . وروى أحمد وأبو داود من حديث أبي هريرة « إنما جعل الامام ليؤتم به . فإذا كبر فكبروا . ولا تكبروا حتى يكبر . وإذا ركع فاركعوا . ولا تركعوا حتى يركع . وإذا سجد فاسجدوا . ولا تسجدوا حتى يسجد » .

(٢) متفق عليه من حديث البراء . ورواه البزار من حديث النعمان بن بشير .

(٣) رواه مسلم وأبو داود والنسائي

فلما قضى أبو موسى الصلاة وسلم ، انصرف ، فقال : أيكم القائل هذه الكلمات ؟ فأرّم القوم <sup>(١)</sup> . ثم سألمهم فأرموا . فقال : لعلك يا حيطان قلتها ؟ قال : قلت : والله ما قلتها . ولقد خفت أن تبتكعني بها <sup>(٢)</sup> . فقال رجل من القوم : أنا قلتها . ولم أُرِدْ بها إلا الخير . فقال أبو موسى الأشعري : أما تعلمون كيف تقولون في صلاتكم ؟ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا ، فبين لنا سُنتنا وما نقول فيها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا صليتم فأقيموا صفوفكم . ثم ليؤمكم أحدكم . فإذا كبر الإمام فكبروا . وإذا قرأ فأنصتوا . وإذا قال ( غير المغضوب عليهم ولا الضالين ) فقولوا : آمين . يُجيبكم الله . وإذا كبر وركع ، فكبروا واركعوا . فإن الإمام يركع قبلكم . ويرفع قبلكم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلتك بتلك - وإذا رفع رأسه ، فقال : سمع الله لمن حمده ، فارفعوا رؤوسكم ، وقولوا : اللهم ربنا لك الحمد ، بِسْمَعِ الله لكم . وإذا كبر وسجد فكبروا واسجدوا . وإذا رفع رأسه وكبر ، فارفعوا رؤوسكم وكبروا - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلتك بتلك - وإذا كان في القعدة فليكن من أول قول أحدكم : التحيات لله ، والصلوات والطيبات - حتى تفرغوا من التشهد » .

قول النبي صلى الله عليه وسلم « إذا كبر فكبروا » معناه : أن تنتظروا الإمام حتى يكبر ، ويفرغ من تكبيره ، وينقطع صوته ، ثم تكبرون بعده . والناس يغلطون في هذه الأحاديث ويجهلون بها ، مع ما عليه عامتهم من الاستخفاف بالصلاة ، والاستهانة بها . فساعة يأخذ الإمام في التكبير يأخذون

---

(١) « أقرت » أي قرنت بهما ، كما جاء في رواية « أقرنت » وذلك لأن الصلاة جاء ذكرها في كتاب الله مقرونا بعمل البر الذي هو جماع الخير والإحسان . و « أرم القوم » أي سكتوا خوفا ومهابة .

(٢) قال النووي في شرح مسلم ( ٤ : ١١٩ ) هو بفتح التاء المثناة في أوله وإسكان الباء الموحدة : أي تبتكعني وتونحنني .



معه في التكبير . وهذا خطأ . لا ينبغي لهم أن يأخذوا في التكبير حتى يكبر الإمام . ويفرغ من تكبيره ، وينقطع صوته . وهكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا كبر الإمام فكبروا » والإمام لا يكون مكبراً حتى يقول « الله أكبر » لأن الإمام لو قال « الله » ثم سكت : لم يكن مكبراً ، حتى يقول « الله أكبر » ثم يكبر الناس بعد قوله « الله أكبر » .

وأخذهم في التكبير مع الإمام : خطأ ، وترك لقول النبي صلى الله عليه وسلم . لأنك لو قلت : إذا صلى فلان فكلمه ، فإن معناه : أن تنتظره حتى إذا صلى وفرغ من صلاته : كلّمه . وليس معناه : أن تكلمه وهو يصلي . فكذلك معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « إذا كبر الإمام فكبروا » وربما طوّّل الإمام في التكبير ، وإذا لم يكن له فقه . فالذي يكبر معه : ربما جزم التكبير <sup>(١)</sup> ، وفرغ من التكبير قبل أن يفرغ الإمام . فقد صار هذا مكبراً قبل الإمام . ومن كبر قبل الإمام : فليست له صلاة . لأنه دخل في الصلاة قبل دخول الإمام ، وكبر قبل الإمام . فلا صلاة له .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم « إذا كبر وركع ، فكبروا واركعوا » معناه : أن ينتظروا الإمام حتى يكبر ويركع ، وينقطع صوته وهم قيام ، ثم يتبعونه . وقول النبي صلى الله عليه وسلم « فإذا رفع رأسه وقال : سمع الله لمن حمده . فارفعوا رؤوسكم وقولوا : اللهم ربنا لك الحمد » معناه : أن ينتظروا الإمام ، ويتبوا رُكعاً ، حتى يرفع الإمام رأسه ، ويقول « سمع الله لمن حمده » وينقطع صوته ، وهم ركوع ، ثم يتبعونه ، فيرفعون رؤوسهم ، ويقولون « اللهم ربنا لك الحمد » .

وقوله « إذا كبر وسجد . فكبروا واسجدوا » معناه : أن يكونوا قياماً حتى يكبر ، وينحط للسجود ، ويضع جبهته على الأرض وهم قيام . ثم يتبعونه .

(١) الجزم : القطع . ومعناه هنا : خطف التكبير والإسراع به .

وكذلك جاء عن البراء بن عازب . وهذا كله موافق لقول النبي صلى الله عليه وسلم « الإمام يركع قبلكم ، ويرفع قبلكم » .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم « إذا رفع رأسه وكبر ، فارتفعوا رؤوسكم وكبروا » معناه : أن يثبتوا سجوداً حتى يرفع الإمام رأسه ، فيكبر وينقطع صوته ، وهم سجود : ثم اتبعوه ، فرفعوا رؤوسهم .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم « فتلك بتلك » يعنى انتظاركم إياه قياماً ، حتى يكبر ويرفع وأنتم قيام ، ثم تتبعونه . وانتظاركم إياه ركوعاً حتى يرفع رأسه ، ويقول « سمع الله لمن حمده » وأنتم ركوع . فإذا قال « سمع الله لمن حمده » وانقطع صوته ، وأنتم ركوع : اتبعتموه فرفعتم رؤوسكم ، وقتلتم « اللهم ربنا لك الحمد » وقوله « فتلك بتلك » فى كل رفع وخفض .

وهذا تمام الصلاة . فاعقلوه ، وأبصروه ، وأحكموه .

واعلموا أن أكثر الناس اليوم ما يكون لهم صلاة ، لسبقهم الإمام بالركوع والسجود ، والرفع والخفض .

وقد جاء الحديث قال « يأتي على الناس زمان يصلون ولا يصلون » وقد تخوفت أن يكون هذا الزمان . لو صليت فى مائة مسجد مارأيت أهل مسجد واحد يقيمون الصلاة على ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن أصحابه رحمة الله عليهم فاتقوا الله ، وانظروا فى صلاتكم ، وصلاة من يصلى معكم .

واعلموا أنه لو أن رجلاً أحسن الصلاة ، فأتىها وأحكمها ، ثم نظر إلى من أساء فى صلاته وضيعتها ، وسبق الإمام فيها : فسكت عنه ، ولم يعلمه إساءته فى صلاته ومسابقته الإمام فيها ، ولم ينهه عن ذلك ، ولم ينصحه : شاركه فى وزرها وعارها . فالحسن فى صلاته : شريك المسئىء فى إساءته ، إذا لم ينهه ولم ينصحه . وجاء الحديث عن بلال بن سعد أنه قال « الخطيئة إذا خفيت لم تضر إلا

صاحبها وإذا ظهرت - فلم تُغَيَّرَ - ضَرَّتْ العامة<sup>(١)</sup> « لتركهم ما لزمهم ، وما وجب عليهم من التغيير والإنكار على من ظهرت منه الخطيئة .

وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ويل للعالم من الجاهل ، حيث لم يعلمه<sup>(٢)</sup> » فلولاً أن تعليم الجاهل واجب على العالم ، لازم وفريضة ، وليس بتطوع : ما كان له الويل في السكوت عنه . وفي ترك تعليمه . والله تعالى لا يؤاخذ من ترك التطوع ، إنما يؤاخذ من ترك الفرائض . فتعليم الجاهل فريضة . فذلك كان له الويل في السكوت عنه ، وفي ترك تعليمه .

فاتقوا الله تعالى في أموركم عامة ، وفي صلاتكم خاصة . واتقوا الله في تعليم الجاهل . فإن تعليمه فريضة واجب لازم . والتارك لذلك : مخطىء آثم .

وأيضاً أهل مسجدكم بإحكام الصلاة وإتمامها ، وأن لا يكون تكبيرهم إلا بعد تكبير الإمام ، ولا يكون ركوعهم ، وسجودهم ، وخفضهم : إلا بعد تكبير الإمام ، وبعد ركوعه وسجوده ، ورفع خفضه .

واعلموا أن ذلك من تمام الصلاة . وذلك الواجب على الناس واللائم لهم . وكذلك جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن أصحابه رحمة الله عليهم .

ومن العجب : أن يكون الرجل في منزله ، فيسمع الأذان ، فيقوم فزعاً يتهيأ لها ، ويخرج من منزله يريد الصلاة . ولا يريد غيرها . ثم لعله يخرج في الليلة المطيرة المظلمة ، يتخبط في الطين ، ويخوض الماء وتبتل ثيابه ، وإن كان في ليالي الصيف : فليس يأمن العقارب والموام في ظلمة الليل ، ولعله - مع هذا - أن يكون مريضاً ضعيفاً . فلا يدع الخروج إلى المسجد . ويتحمل هذا كله إثاراً للصلاة ، وحباً لها ، وقصداً إليها . لم يخرج من منزله غيرها . فإذا دخل مع الإمام في الصلاة

---

(١) أخرجه ابن حزم في تراجم الصحابة الذين أخرج لهم بقي بن مخلد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس نحوه في تفسير الآية .  
(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده من حديث أنس .

خدعه الشيطان . فيسابق الإمام في الركوع والسجود ، والرفع ، والخفض ، خدعاً من الشيطان له ، لما يريد من إبطال صلاته ، وإحباط عمله . فيخرج من المسجد ولا صلاة له .

ومن العجب : أنهم كلهم يستيقنون أنه ليس أحدٌ من خلف الإمام ينصرف من صلاته حتى ينصرف الإمام . وكلهم ينتظرون الإمام حتى يسلم . وهم كلهم - إلا ما شاء الله - يسابقونه في الركوع والسجود ، والرفع والخفض ، خدعاً من الشيطان لهم ، واستخفاً بالصلاة منهم ، واستهانة بها . وذلك حظهم من الإسلام وقد جاء الحديث قال « لاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة <sup>(١)</sup> » فكل مستخف بالصلاة مستهين بها : هو مستخفٌ بالإسلام ، مستهين به . وإنما حظهم من الإسلام على قدر حظهم من الصلاة . ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة .

فاعرف نفسك يا عبد الله ، واعلم أن حظك من الإسلام ، وقدر الإسلام عندك بقدر حظك من الصلاة وقدرها عندك . واحذر أن تلتقي الله عز وجل ولا قدر للإسلام عندك . فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك . وقد جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « الصلاة عمود الإسلام <sup>(٢)</sup> » ألسنت تعلم أن القسطاط إذا سقط عموده سقط القسطاط ، ولم ينتفع

---

(١) ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد : « أن السور بن محزمة دخل على عمر ، وهو مسجى - بعد أن طعن - فقال : أيقظوه بالصلاة - إلى أن قال - فقال عمر : ها الله إذن ، ولاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة » رواه الطبراني في الأوسط ، ورجاله رجال الصحيح . وكذلك رواه مالك في الموطأ في باب العمل فيمن غلبه الدم من جرح أو رعاف .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث عمر ، بلفظ « الصلاة عماد الدين » والديلمي في مسند الفردوس عن علي ، وأبو نعيم في كتاب الصلاة ، بلفظ « عمود الدين » وفي مسند أحمد من حديث معاذ « رأس الأمر وعموده الصلاة » .

بالتَّطَبُّبِ ولا بالأوتاد؟ وإذا قام عمود الفسطاط انتفعت بالطنب والأوتاد . فكذلك الصلاة من الإسلام . فانظروا رحمكم الله واعقلوا ، وأحكموا الصلاة ، واتقوا الله فيها وتعاونوا عليها ، وتناصحوا فيها بالتعليم من بعضكم لبعض ، والتذكير من بعضكم لبعض من الغفلة والنسيان . فإن الله عز وجل قد أمركم أن تعاونوا على البر والتقوى . والصلاة أفضل البر .

وجاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أول ما تنفقون من دينكم : الأمانة . وآخر ما تنفقون منه : الصلاة . وليصلين أقوام لا خلاق لهم <sup>(١)</sup> » وجاء الحديث « إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من عمله : صلاته . فإن تُقبِلت منه صلاته تُقبِل منه سائر عمله . وإن رُدَّتْ صلاته رد سائر عمله <sup>(٢)</sup> » فصَلَاتنا آخر ديننا . وهى أول ما نُسأل عنه غداً من أعمالنا . فليس بعد ذهاب الصلاة إسلام ولا دين . فإذا صارت الصلاة آخر ما يذهب من الإسلام . فكل شيء يذهب آخره : فقد ذهب جميعه . فتمسكوا رحمكم الله بآخر دينكم . وليعلم المتهاون بصلاته ، المستخف بها ، المسابق الإمام فيها : أنه لا صلاة له ، وأنه إذا ذهب صلاته فقد ذهب دينه .

فعظموها الصلاة رحمكم الله . وتمسكوا بها . واتقوا الله فيها خاصة . وفى أموركم عامة .

واعلموا أن الله عز وجل قد عَظَّمَ حَظَّ الصلاة فى القرآن ، وعظَّم أمرها ، وشرفها وشرف أهلها . وخصها بالذكر من بين الطاعات كلها فى مواضع من القرآن كثيرة . وأوصى بها خاصة .

(١) رواه البيهقي فى الشعب من حديث عمر يعض اختلاف .

(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة من حديث تميم الدارى ، ورواه أبو يعلى

فى مسنده والضياء فى المختارة والطبرانى من حديث أنس .

فمن ذلك : أن الله تعالى ذكر أعمال البر<sup>(١)</sup> التي أوجب لأهلها الخلود في الفردوس . فافتتح تلك الأعمال بالصلاة . واختتمها بالصلاة . وجعل تلك الأعمال - التي جعل لأهلها الخلود في الفردوس - بين ذكر الصلاة مرتين . قال الله تعالى : ( ٢٣ : ١ - ١١ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ) فبدأ من وصفهم بالصلاة عند مديحه إياهم . ثم وصفهم بالأعمال الطاهرة الزاكية المرضية ، إلى قول الله عز وجل ( والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ) فأوجب الله عز وجل لأهل هذه الأعمال الشريفة الزاكية المرضية الخلود في الفردوس . وجعل هذه الأعمال بين ذكر الصلاة مرتين .

ثم عاب الله عز وجل الناس كلهم ودمهم ، ونسبهم إلى اللؤم والهلع والجزع ، والنوع للخير ، إلا أهل الصلاة . فإنه استثناهم منهم ، فقال الله عز وجل ( ٧٠ : ١٩ - ٣٥ إن الإنسان خلق هالوعاً . إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً ) ثم استثنى المصلين منهم ، فقال ( إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم ) ثم وصفهم بالأعمال الزاكية الطاهرة المرضية الشريفة ، إلى قوله ( والذين هم بشهادتهم قائمون ) ثم ختم بثنائه عليهم ومدحهم ، بأن ذكرهم بمحافظتهم على الصلاة . فقال ( والذين هم على صلاتهم يحافظون . أولئك في جنات مكرمون ) فأوجب لأهل هذه الأعمال الكرامة في الجنة . وافتتح ذكر هذه الأعمال بالصلاة واختتمه بالصلاة . فجعل ذكر هذه الأعمال بين ذكر الصلاة مرتين .

ثم ندب الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم إلى الطاعة كلها جملة ، وأفرد الصلاة هي بالذكر من بين الطاعة كلها . والصلاة هي من الطاعة . فقال

---

(١) البر : كلمة تجمع كل خير . وفي نسخة : فمن ذلك أن ذكر الله تعالى في أمر الطاعات التي أوجب لأهلها .

عز وجل ( ٢٩ : ٤٥ أتْلُ ما أوحى إليك من الكتاب . وأقم الصلاة ) ففي تلاوة الكتاب : فعل جميع الطاعات ، واجتناب جميع المعصية . ثم خص الصلاة بالذكر فقال ( وأقم الصلاة . إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ) .

وإلى الصلاة خاصة ندبه الله عز وجل ، فقال ( ٢٠ : ١٣٢ واءْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ ، وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا . لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا . نَحْنُ نَرْزُقُكَ ) فأمره أن يأمر أهله بالصلاة ويصطبر عليها .

ثم أمر الله تعالى جميع المؤمنين بالاستعانة على طاعته كلها بالصبر ، ثم خص الصلاة بالذكر من بين الطاعة كلها . فقرنها مع الصبر في قوله ( ٢ : ١٥٣ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ) .

وكذلك أمر الله تعالى بني إسرائيل بالاستعانة بالصبر والصلاة على جميع الطاعة . ثم أفرد الصلاة من بين الطاعة . فقال ( ٢ : ٤٥ واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ) .

ومثل ذلك : ما أخبر الله عز وجل به من حكمه ووصيته خليفه إبراهيم ولوطاً وإسحاق ويعقوب ، فقال ( ٢١ : ٦٩ - ٧٣ يا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ - إلى قوله - : ونجيناها ولوطاً - إلى قوله - : ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة - إلى قوله - وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة ) فذكر الخيرات كلها جملة . وهي جميع الطاعات واجتناب جميع المعصية . وأفرد الصلاة بالذكر ، وأوصاهم بها خاصة .

ومثل ذلك : ما ذكر عن إسماعيل في قوله ( ١٩ : ٥٥ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة . وكان عند ربه مرضياً ) فبدأ بالصلاة .

ومثل ذلك عن نجييه موسى عليه السلام في قوله ( ٢٠ : ٩ - ١٤ هل أتاك حديث موسى - إلى قوله - إني أنا الله ، لا إله إلا أنا ، فاعبدني وأقم الصلاة

لذكرى ) فأجل الطاعة واجتناب المعصية في قوله لموسى ( قاعبدي ) وأفرد الصلاة وأمر بها خاصة .

وقال عز وجل ( ٧ : ١٧٠ ) والذين يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ) التمسك بالكتاب : يأتي على فعل جميع الطاعة ، واجتناب جميع المعصية ، تم خص الصلاة بالذكر . فقال ( وأقاموا الصلاة ) وإلى تضييع الصلاة نسب الله عز وجل من أوجب له العذاب قبل المعاصي . فقال ( ١٩ : ٥٩ ) خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ ، فسوف يلقون غيًّا ) فمن اتباع الشهوات : ركوب جميع المعاصي . فنسبهم الله عز وجل إلى جميع المعصية في تضييع الصلاة . فهذا ما أخبر الله تعالى به من آي القرآن ، من تعظيم الصلاة ، وتقديسها بين يدي الأعمال كلها ، وإفرادها بالذكر من بين جميع الطاعات ، والوصية بها دون أعمال البر عامة . فالصلاة : خطرها عظيم ، وأمرها جسيم .

وبالصلاة : أمر الله تبارك وتعالى رسوله ، أول ما أوحى إليه بالنبوة ، قبل كل عمل ، وقبل كل فريضة .

وبالصلاة : أوصى النبي صلى الله عليه وسلم عند خروجه من الدنيا . فقال « الله الله في الصلاة وفيما ملكت أيمانكم <sup>(١)</sup> » في آخر وصيته إليهم . وجاء الحديث « إنها آخر وصية كل نبي لأُمَّته ، وآخر عهده إليهم عند خروجه من الدنيا » .

وجاء في حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه كان يجود بنفسه ، ويقول : الصلاة ، الصلاة ، الصلاة <sup>(٢)</sup> » .

فالصلاة : أول فريضة فرضت عليه . وهي آخر ما أوصى به أُمَّته . وآخر

---

(١) أخرجه أحمد في المسند والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث أنس .  
وأخرجه أحمد وابن ماجه من حديث أم سلمة .  
(٢) أخرجه ابن جرير من حديث أم سلمة .



ما يذهب من الإسلام . وهى أول ما يسأل عنه العبد من عمله يوم القيامة . وهى عمود الإسلام . وليس بعد ذهابها دين ، ولا إسلام .

\* \* \*

فالله الله فى أموركم عامة ، وفى صلاتكم خاصة . فتمسكوا بها ، واحذروا تضييعها ، والاستخفاف بها . ومسابقة الإمام فيها ، وخداع الشيطان أحدكم عنها ، وإخراجه إياكم منها . فإنها آخر دينكم . ومن ذهب آخر دينه : فقد ذهب دينه كله . فتمسكوا بآخر دينكم .

وأيضاً يا عبد الله ، الإمام : أن يهتم بصلاته ، ويُعنى بها ويتمكن ، ليتمكنوا ، إذا ركع وسجد . فإني صليت يوماً . فما استمكنت من ثلاث تسيحات فى الركوع ، ولا ثلاث فى السجود . وذلك لعجلته ، لم يمكن ولم يستمكن . وعجل فأعجل . فأعلمه أن الإمام إذا أحسن الصلاة كان له أجر صلاته ، ومثل أجر من يصلى خلفه . وإذا أساء كان عليه وزر إساءته ، ووزر من يصلى خلفه .

وجاء الحديث عن الحسن البصرى أنه قال « التسييح التام : سبع . والوسط من ذلك : خمس . وأدناه : ثلاث تسيحات » .

وأدنى ما يسبح الإمام فى الركوع « سبحان ربى العظيم - ثلاث مرات » وفى السجود « سبحان ربى الأعلى - ثلاث مرات » .

وإذا سبح فى الركوع والسجود ثلاثاً ثلاثاً . فينبغى له أن لا يعجل بالتسييح ، ولا يسرع فيه ، ولا يبادر ، وليكن بتمام من كلامه ولسانه وتمكناً . فإنه إذا عجل بالتسييح وبادر به : لم يدرك من خلفه التسييح . وصاروا مبادرين إذا بادر ، وسابقوه ، ففسدت صلاتهم . فكان عليه مثل وزرهم جميعاً . وإذا لم يبادر الإمام وتمكن ، وأتم صلاته وتسييحه : أدرك من خلفه ، ولم يبادروا . فيكون الإمام قد قضى ما عليه . وليس عليه إثم ، ولا وزر .

\* \* \*

واغمُرهُ إذا رفع رأسه من الركوع ، فقال « سمع الله لمن حمده » أن يثبت قائماً معتدلاً ، حتى يقول « ربنا ولك الحمد » وهو قائم معتدل ، من غير عجلة في كلامه ولا مبادرة . وإن زاد على ذلك فقال « ربنا ولك الحمد ، ملء السموات وملء الأرض الخ » كان أحب إليّ . لأنه جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا رفع رأسه قال : اللهم ربنا ولك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، [ وملء ما بينهما ] وملء ما شئت من شيء بعد [ أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ] : لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت . ولا ينفع ذا الجِدِّ منك الجِدُّ <sup>(١)</sup> » وهذا لا يكاد يُطَمَعُ فيه اليوم من الناس .

وجاء عن أنس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع : يقوم ، حتى يقال : قد نسي <sup>(٢)</sup> » وما في هذا مطمع من الناس اليوم . ولكن ينبغي للإمام أن لا يبادر إذا رفع رأسه من الركوع ، ولا يعجل بقوله « ربنا ولك الحمد » وليكن ذلك بتمام من كلامه ، وتمكن وتأنٍ من غير عجلة ولا مبادرة ، حتى يدرك الناس معه . وإذا سجد ورفع رأسه من السجود فليعتدل جالساً ، وليثبت بين السجدين شيئاً بقدر ما يقول « رب اغفر لي » من غير عجلة ، حتى يدركه الناس قبل أن يسجد الثانية . ولا يبادر ، فساعة يرفع رأسه من السجدة الأولى : يعود ساجداً ، فيبادر الناس لمبادرته ، ويقعون في المسابقة . فتذهب صلاتهم . ويلزم الإمام وزر ذلك وإثمه . فإن الناس إذا علموا أنه يثبت ثبوتاً ، ولم يبادروا . وقد جاء الحديث أن « كل مصل راع ، ومُسْمُول عن رعيته <sup>(٣)</sup> » .

وقد قيل : إن الإمام راع لمن يصلى بهم . فما أولى بالإمام : النصيحة لمن

---

(١) أخرجه مسلم والنسائي من حديث أنس وابن عباس ، وابن أبي أوفى ، وأبي سعيد ، ومن حديث علي رضي الله عنهم . وما بين الربيعين لم يكن بالأصل . و « الجِدُّ » بفتح الجيم : الحظ والجاه والغنى والعظمة . (٢) متفق عليه . (٣) أخرج معناه الطبراني في الأوسط والخطيب من حديث ابن عمر .

يصلى خلفه ، وأن ينههم عن المسابقة في الركوع ، والسجود ، وأن لا يركعوا ويسجدوا مع الإمام ، بل يأمرهم بأن يكون ركوعهم ، وسجودهم ، ورفعهم ، وخفضهم : بعده ، وأن يحسن أدبهم وتعليمهم ، إذ كان راعياً لهم . وكان غداً مسئولاً عنهم . وما أولى بالإمام أن يحسن صلاته ، ويتمها ويحكمها . وتشتد عنايته بها ، إذ كان له مثل أجر من يصلى خلفه إذا أحسن . وعليه مثل وزرهم إذا أساء .

\* \* \*

ومن الحق الواجب على المسلمين : أن يقدموا خيارهم ، وأهل الدين والفضل منهم ، وأهل العلم بالله تعالى ، الذين يخافون الله عز وجل ويراقبونه . وقد جاء الحديث « إذا أمم بالقوم رجل ، وخلفه من هو أفضل منه : لم يزالوا في سيفال<sup>(١)</sup> » وجاء الحديث « اجعلوا أمر دينكم إلى فقهاءكم ، وأتمتكم قراؤكم<sup>(٢)</sup> » .

وإما معناه : الفقهاء ، أهل الدين والفضل والعلم بالله ، والخوف من الله عز وجل ، الذين يُعَنَوْنَ بصلاتهم وصلاة من خلفهم . ويتقون ما يلزمهم من وزر أنفسهم ، ووزر من خلفهم ، إن أساءوا في صلاتهم .

ومعنى القراء : ليس على الحفظ للقرآن فقط . فقد يحفظ القرآن من لا يعمل به . ولا يعباً بدينه . ولا بإقامة حدود القرآن . وما فرض الله عز وجل عليه فيه . وقد جاء الحديث « إن أحق الناس بهذا القرآن : من كان يعمل به ، وإن كان لا يقرأ<sup>(٣)</sup> » .

فالإمامة بالناس ، المقدم بين أيديهم في الصلاة بهم : على الفضل . فليس

- 
- (١) أخرجه العقيلي في الضعفاء من حديث ابن عمر . ورواه الطبراني في الأوسط . وفيه الهيثم بن عتاب الأزدي : لا يعرف . وقال الهيثمي : ذكره ابن حبان في الثقات .  
(٢) رواه الدارقطني من حديث ابن عباس . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى : في إسناده مقال . اه وفي إسناده سلام بن سليمان . قال العقيلي : في حديثه مناكير . (٣) لم أجده .

للناس أن يقدموا بين أيديهم إلا أعلمهم بالله ، وأخوفهم له . ذلك واجب عليهم ، ولازم لهم . فتزكو صلاتهم . وإن تركوا ذلك لم يزالوا في سفال وإدبار ، وانتقاص من دينهم ، وبعدي من الله ومن رضوانه ، ومن جنته .

فرحم الله قوماً عنوا بصلاتهم ، وعنوا بدينهم . فقدموا خيارهم ، واتبعوا في ذلك سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وطلبوا بذلك القربة إلى ربهم عز وجل .  
وأمرُ ياعبد الله الإمام أن لا يكبر - أول ما يقوم مقامه للصلاة - حتى يلتفت يميناً وشمالاً . فإن رأى الصف معوجاً ، والمناكب مختلفة : أمرهم أن يسووا صفوفهم ، وأن يحاذوا مناكبهم . فإن رأى بين كل رجلين فرجةً : أمرهم أن يدنو بعضهم من بعض ، حتى تماس مناكبهم .

\* \* \*

واعلم أن اعوجاج الصفوف ، واختلاف المناكب : ينقص من الصلاة . وأن الفرجة التي تكون بين كل رجلين : تنقص من الصلاة . فاحذروا ذلك . وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « رُضُوا الصفوف . وحاذوا المناكب وسُدُّوا الخلل ، لا يقوم بينكم مثل الخذف - يعني أولاد الغنم الصغار - من الشياطين <sup>(١)</sup> » .

وقد جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا قام مقامه للصلاة : لم يكبر حتى يلتفت يميناً وشمالاً . فيأمرهم بتسوية مناكبهم ، ويقول : لا تختلفوا . فتختلف قلوبكم <sup>(٢)</sup> » .

(١) رواه أحمد في السنن عن أبي أمامة في حديث طويل . قال المنذرى في الترغيب : بإسناد لا بأس به . ورواه البخارى بنحوه في تسوية الصفوف من حديث أنس . ورواه أبو داود بنحو ما هنا . وكذلك النسائي وابن خزيمة وابن حبان . و « الخذف » بفتح الحاء المهملة والفاء : الغنم الحجازية . واحداً حذفة - محركا - وقيل : هي صغار جرد ليس لها آذان ولا أذنان يجاء بها من جرش - بضم الجيم وفتح الراء - من اليمن .

(٢) رواه أبو داود عن أبي القاسم الجذلي . قال : سمعت النعمان بن بشير يقول =

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم « أنه التفت يوماً . فرأى رجلاً قد خرج صدره من الصف . فقال لَتُسُونٌ منا كِبَكم ، أو لِيُخَالفن الله بين قلوبكم (١) » .  
فتسوية الصفوف ، ودنو الرجال بعضهم من بعض : من تمام الصلاة . وترك ذلك : نقص في الصلاة .

وجاء الحديث عن عمر « أنه كان يقوم مقام الإمام ، ثم لا يكبر حتى يأتيه رجل قد وكله بإقامة الصفوف ، فيخبره : أنهم قد استوتوا ، فيكبر (٢) » وجاء عن عمر بن عبد العزيز مثل ذلك . وروى « أن بلالاً كان يسوى الصفوف ، ويضرب عراقيتهم بالذرة ، حتى يستوتوا » .

قال بعض العلماء : وقد يشبه أن يكون هذا من بلال على عهد النبي صلى الله عليه وسلم عند إقامته ، قبل أن يدخل في الصلاة . لأن الحديث عن بلال جاء « أنه لم يؤذن لأحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا يوماً واحداً » إذ أتى مَرَجِعَهُ من الشام (٣) . ولم يكن للناس عهد بأذانه حيناً ، فطلب إليه أبو بكر وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤذن . فأذن . فلما سمع أهل المدينة صوت بلال ذكروا النبي صلى الله عليه وسلم ، بعد طول عهدهم بأذان بلال وصوته : جدد ذلك في قلوبهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وشوقهم أذانه إليه ، حتى قال بعضهم : بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، شوقاً منهم إلى رؤيته ، ولما هيجهم

---

== « أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس بوجهه . فقال : أقيموا الصفوف - الحديث » .

- (١) رواه مسلم والبخارى وأبو داود من حديث النعمان بن بشير .
- (٢) انظر تاريخ الطبري (ج ٥ ص ١٢) .
- (٣) كان ذلك في سنة سبع عشرة من الهجرة . وفي تاريخ الطبري (ج ٤ ص ٢٠٤) ما يدل على أن ذلك كان بالشام في ذى الحجة بعد خطبة عمر ، إذ عزم على القفول إلى المدينة . وذكر ابن الأثير في أسد الغابة في ترجمة بلال : أنه أذن لأبي بكر حياته . وصحح ابن سعد (ج ٣ ص ١٦٩) أن بلالاً لم يؤذن لأبي بكر .

بلال عليه بأذانه وصوته . فرقوا عند ذلك وبكوا ، واشتد بكائهم عليه صلى الله عليه وسلم ، حتى خرج العواتق من بيوتهن شوقاً ، حين سمعن صوت بلال وأذانه ، وذَكَرَ النبي صلى الله عليه وسلم .

ولما قال بلال « أشهد أن محمداً رسول الله » امتنع بلال من الأذان فلم يقدر عليه . وقال بعضهم : سقط مغشياً عليه ، حباً للنبي صلى الله عليه وسلم وشوقاً إليه . فرحم الله بلالا والمهاجرين والأنصار ، وجعلنا وإياكم من التابعين لهم بإحسان . فانقوا الله يامعشر المسلمين ، وأحْكِمُوا صلاتكم ، والزموها فيها سنة نبيكم وأصحابه صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين . فإن ذلك هو الواجب عليكم ، واللازم لكم . وقد وعد الله تعالى من اتبعهم رضوانه ، والخلود في جنته . قال الله عز وجل ( ٩ : ١٠٠ ) والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه . وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . ذلك الفوز العظيم ( فاتباع المهاجرين والأنصار واجب على الناس إلى يوم القيامة .

\* \* \*

وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه « كان له سكتتان : سكتة عند افتتاح الصلاة ، وسكتة إذا فرغ من القراءة<sup>(١)</sup> » وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسكت إذا فرغ من القراءة قبل أن يركع ، حتى يتنفس . وأكثر الأئمة على خلاف ذلك . فإمْرُهُ يا عبد الله ، إذا فرغ من القراءة : أن يثبت قائماً ، وأن يسكت حتى يرجع إليه نفسه قبل أن يركع ، ولا يَصِلَ قراءته بتكبيرة الركوع .

وخِصْلَةٌ قد غلبت على الناس في صلاتهم ، إلا من شاء الله ، من غير علة - وقد يفعلها شبابهم وأهل القوة والجلد منهم - ينحط أحدهم من قيامه للسجود ،

---

(١) رواه أصحاب السنن من حديث وائل بن حجر . ولم يصح أنه صلى الله عليه وسلم كان يسكت ليقراً المأموم الفاتحة .

ويضع يديه على الأرض قبل ركبتيه . وإذا نهض من سجوده ، أو بعدما يفرغ من التشهد : يرفع ركبتيه من الأرض قبل يديه . وهذا خطأ ، وخلاف ما جاء عن الفقهاء . وإنما ينبغى له إذا انحط من قيامه للسجود : أن يضع ركبتيه على الأرض ثم يديه ، ثم جبهته . وإذا نهض : رفع رأسه ، ثم يديه ، ثم ركبتيه . بذلك جاء الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> .

فأمرُوا بذلك ، وانهاوا عنه من رأيتم يفعل خلاف ذلك ، واءمروه أن ينهض - إذا نهض - على صدور قدميه ، ولا يقدم إحدى رجليه . فإن ذلك مكروه . وقد جاء عن عبد الله بن عباس وغيره : أن تقديم إحدى الرجلين إذا نهض : يقطع الصلاة .

\* \* \*

ويستحب للمصلي أن يكون بصره إلى موضع سجوده ، ولا يرفع بصره إلى السماء . ولا يلتفت . فاحذروا الالتفات ، فإنه مكروه . وقد قيل : يقطع الصلاة . وإذا سجد يضع أصابع يديه حتى يحاذي بهما أذنيه وهو ساجد ، ويضم أصابعه ، ويوجهها نحو القبلة . ويبدأ مرفقيه وساعديه . ولا يُكزِّفهما بجنبيه .

جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا سجد لو مرت بهمة تحت ذراعيه لنفذت<sup>(٢)</sup> » وذلك لشدة مبالغته في رفع مرفقيه وضبعيه . وجاء عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سجد جافى بين ضبعيه<sup>(٣)</sup> » .

فأحسنوا السجود - رحمة الله وإياكم - ولا تضيعوا شيئاً . فقد جاء في

(١) رواه أبو داود والترمذي من حديث الحسن عن سمرة .

(٢) رواه مسلم وأبو داود من حديث ميمونة أم المؤمنين .

(٣) رواه مسلم من حديث عبد الله بن بحنة ، وأبو داود من حديث الحسن

البصرى حدثنا أحمد بن جزء . قال المنذرى في مختصره ( ١ : ٤٢٦ ) قيل : لم يرو

عنه غير الحسن . ولم يرو أحمد عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا هذا الحديث .

الحديث « إن العبد يسجد على سبعة أعضاء<sup>(١)</sup> » فأى عضو منها ضيعه لم يزل ذلك العضو يلعبه .

وينبغي له إذا ركع : أن يُلقم راحتيه ركبتيه ، ويفرق بين أصابعه ، ويعتمد على ضبعيه وساعديه ، ويُسَوِّي ظهره ، ولا يرفع رأسه ولا يُنكِّسه ، فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا ركع لو كان قدح من ماء على ظهره متأحرك من موضعه<sup>(٢)</sup> » وذلك لاستواء ظهره ، ومبايعته في ركوعه صلى الله عليه وسلم .

فأحسنوا صلاتكم رحمكم الله . وأتموا ركوعها وسجودها وحدودها . فإنه جاء في الحديث « إن العبد إذا صلى فأحسن الصلاة : صعدت ولها نور . فإذا انتهت إلى أبواب السماء : فتحت لها أبواب السماء ، وتشفع لصاحبها ، وتقول : حفظك الله كما حفظتني . وإذا أساء في صلاته ، فلم يتم ركوعها وسجودها وحدودها : صعدت ولها ظلمة . فتقول : ضيعك الله كما ضيعتني . فإذا انتهت إلى أبواب السماء : غلقت أبواب السماء دونها ، ثم لقت كإلف الثوب الخلق ، فيضرب بها وجه صاحبها<sup>(٣)</sup> » وينبغي للرجل إذا جلس للتشهد : أن يفتش رجله اليسرى ، فيجلس عليها وينصب رجله اليمنى ، ويوجه أصابعه نحو القبلة . ويضع يده اليسرى على فخذه اليسرى ، ويوجه أصابعها نحو القبلة . ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى ، ويشير

- 
- (١) رواه البخارى وأبو داود من حديث ابن عباس ، وفيه « على سبعة آراب »  
 (٢) ذكر الهيثمى في مجمع الزوائد : أن عبد الله بن أحمد . قال : وجدته في كتاب أبى : عن على . وفيه رجل لم يسم . وسنان بن هرون اختلف فيه . وذكر أن الطبرانى رواه من حديث أنس ، وفيه محمد بن ثابت . وهو ضعيف .  
 (٣) قال في مجمع الزوائد : رواه الطبرانى في الكبير والبراز بنحوه ، من حديث عبادة بن الصامت . وذكره المنذرى في الترغيب من حديث النعمان بن قرة . وقال : رواه الطبرانى .



بإصبعه التي تلى الإبهام ، ويُحَلِّقُ الإبهام والوسطى ، ويعقد الباقيين . فإذا صلى إلى سترة فليدن منها ، فإن ذلك مستحب . ولا يمر أحد دونها . فإن ذلك يكره .

\* \* \*

وجاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى إلى سترة ، فليدن منها . فإن الشيطان يمر بينه وبينها <sup>(١)</sup> » .

ومما يتهاون به الناس في أمر صلاتهم : تركهم المارَّ يَمُرُّ بين يدي المصلي . وقد جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ادْرَأ المارَّ . فإن أبي فادرأه . فإن أبي فاطمته . فإنما هو شيطان <sup>(٢)</sup> » .

فلو كان المار بين يدي المصلي رخصة لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلطمه . وإنما ذلك لعظم المعصية من المار بين يدي المصلي ، والمعصية من المصلي إذا لم يدرأه . وجاء الحديث قال « لو يعلم أحدكم ما عليه في تمره بين يدي أخيه في صلاته لا تنظر أربعين خريفاً <sup>(٣)</sup> »

وجاء الحديث « أن أبا سعيد الخدري كان يصلي ، فأراد ابن أخى مروان بن الحكم أن يمر بين يديه فمنعه أبو سعيد ، فذهب ابن أخى مروان إلى مروان - وهو يومئذ والى المدينة - فشكى إليه ما صنع أبو سعيد . وجاء أبو سعيد بعد ذلك فدخل . فقال له مروان : ما يدكر ابن أخى أنك لطمته ، وكان منك إليه ؟ فقال أبو سعيد : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ندرأ المار . فإن أبي درأناه ، فإن أبي لطمناه ، فإنما هو شيطان ، وإنما لطمتُ شيطاناً <sup>(٤)</sup> » .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى من حديث أبى سعيد الخدري .

(٢) رواه أبو داود من حديث أبى سعيد .

(٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى من حديث أبى الجهم عبد الله

بن الحرث بن الصمة الأنصارى ، بدون لفظ « خريفاً » .

(٤) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

ويستحب للرجل إذا خرج لصلاة الغداة : أن يصلي ركعتين في منزله ، ثم يخرج . ويستحب له ذكر الله فيما بين الركعتين وبين صلاة الغداة . ومن الجفاء : الكلام بينهما ، إلا كلاماً واجباً لازماً : من تعليم الجاهل ، ونصيحته ، وأمره ونهيه . فإن ذلك واجب لازم . والواجب اللازم : أعظم أجراً من ذكر الله تطوعاً ، والتطوع لا يقبل حتى يؤدي الواجب اللازم . وقد جاء الحديث « لا يقبل الله نافلة حتى تؤدي الفريضة » .

ويستحب للرجل - إذا أقبل إلى المسجد- أن يقبل بخوف ووجل، وخشوع ، وخضوع ، وأن يكون عليه السكينة والوقار ، فما أدرك صلى ، وما فاته قضى ، بذلك جاء الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> . وأنه « كان يأمر بإتقال الخُطَى - يعني قرب الخُطَى - إلى المسجد <sup>(٢)</sup> » ولا بأس إذا طمع أن يدرك التكبيرة الأولى : أن يسرع شيئاً ، ما لم يكن عجلة تَقْبُح . جاء الحديث عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم « أنهم كانوا يَعَجَلُونَ شيئاً إذا تخوفوا فوات التكبيرة الأولى ، وطمعوا في إدراكها » .

\* \* \*

فاعلموا رحمكم الله : أن العبد إذا خرج من منزله يريد المسجد . إنما يأتي الله الجبار الواحد القهار ، العزيز الغفار ، وإن كان لا يغيب عن الله حيث كان ، لا يعزُب عنه تبارك وتعالى مثقال حبة من خردل ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، في الأرضين السبع ، ولا في السموات السبع ، ولا في البحار السبعة ، ولا في الجبال الصَّمِّ الصَّلَاب ، الشوامخ البواذخ ، وإنما يأتي بيتاً من بيوت الله ، ويريد الله ، ويتوجه إلى الله تعالى ، وإلى بيت من البيوت التي ( ٢٤ : ٢٦ ، ٢٧ أذن الله أن ترفع ، ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى من حديث أبي هريرة بمعناه

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى من حديث أبي هريرة .

لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) .

فإذ خرج أحدكم من منزله فليحدث لنفسه تفكيراً وأدباً ، غير ما كان عليه ، وغير ما كان فيه من حالات الدنيا وأشغالها . وليخرج بسكينته ووقار . فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بذلك ، وليخرج برغبة ورهبة ، وبخوف ووجل ، وخضوع وتواضع لله عز وجل . فإنه كلما تواضع لله عز وجل ، وخشع وخضع ، وذل لله تعالى : كان أزكى لصلاته ، وأحرى لقبولها ، وأشرف للعبد ، وأقرب له من الله ، وإذا تكبر قصمه الله ، ورد عمله . وليس يقبل الله من المتكبر عملاً .

جاء الحديث عن إبراهيم خليل الله عز وجل « أنه أحياناً ليلة . فلما أصبح أُعجب بقيام ليلته . فقال : نعم الربُّ ربُّ إبراهيم ، ونعم العبدُ إبراهيم . فلما كان من الغد : لم يجد أحداً يأكل معه - وكان يجب أن يأكل معه غيره - فأخرج طعامه إلى الطريق ليمرَّ به مار ، فيأكل معه . فنزل ملكان من السماء ، فأقبلا نحوه ، فدعاهما إبراهيم إلى الغداء . فأجاباه . فقال لهما : تقدما بنا إلى هذه الروضة . فإن فيها عينا ، وفيها ماء . فتعدى عندها . فتقدموا إلى الروضة . فإذا العين قد غارت . وليس فيها ماء . فاشتد ذلك على إبراهيم عليه السلام ، واستحى مما قال ، إذ رأى غير ما قال ، فقال له : يا إبراهيم ، ادعُ ربَّك ، واسأله : أن يعيد الماء في العين ، فدعا الله عز وجل . فلم ير شيئاً . فاشتد ذلك عليه ، فقال لهما : ادعوا الله أتما . فدعا أحدهما ، فرجع . وإذا هو بالماء في العين . ثم دعا الآخر ، فأقبلت العين ، فأخبراه : أنهما ملكان ، وأن إعجابه بقيام ليلته رد دعاءه عليه ، ولم يستجب له » .

\* \* \*

فاحذروا - رحمكم الله تعالى - من الكبر . فليس يقبل مع الكبر عمل ، وتواضعوا بصلاتكم . فإذا قام أحدكم في صلاته بين يدي الله عز وجل ، فليعرف

الله عز وجل في قلبه بكثرة نعمه عليه ، وإحسانه إليه . فإن الله عز وجل قد أوقره نعماً . وأنه أوقر نفسه ذنوباً ، فليبالغ في الخشوع والخضوع لله عز وجل .

وقد جاء الحديث « إن الله أوحى إلى عيسى بن مريم : إذا قمت بين يديّ فقمّ مقام الحقير الذليل ، الذامّ لنفسه . فإنها أولى بالدم . فإذا دعوتني فادعني وأعضاءك تنتفض » وجاء الحديث « أن الله أوحى إلى موسى نحو هذا » .

فما أحقك يا أخى ، وأولائك بالدم لنفسك ، إذا قمت بين يدي الله عز وجل . وجاء الحديث عن محمد بن سيرين : أنه كان إذا قام في الصلاة ذهب دم وجهه ، خوفاً من الله عز وجل ، وفرقاً منه .

وجاء عن مسلم<sup>(١)</sup> أنه كان إذا دخل في الصلاة لم يسمع حسّاً من صوت ولا غيره ، تشاغلاً بالصلاة ، وخوفاً من الله عز وجل .

وجاء عن عامر العنبري - الذي كان يقال له عامر بن عبد قيس<sup>(٢)</sup> ، في حديث هذا بعضه - أنه قال : « لأن تختلف الخناجر بين كتفيّ ، أحبُّ إلى من أن أتفكر في شيء من أمر الدنيا وأنا في الصلاة » .

وجاء عن سعيد بن معاذ أنه قال « ماضيت صلاة قط . فحدثت نفسي فيها بشيء من أمر الدنيا حتى أنصرف » .

وجاء عن أبي الدرداء . أنه قال في حديث - هذا بعضه - « وتعفير وجهي لربي عز وجل في التراب : فإنه مبلغ العبادة من الله تعالى » .

(١) هو مسلم بن يسار البصرى الأموى المسكى . قال ابن سعد : قالوا : كان أرفع عندهم من الحسن البصرى ، حتى خرج مع ابن الأشعث ، فوضعه ذلك عند الناس . اه تهذيب .

(٢) ذكره ابن الأثير في أسد الغابة . وقال : ذكره أبو موسى في الصحابة . وهو تابعي . قيل : أدرك الجاهلية . وكان أعبد أهل زمانه وأشدهم اجتهاداً . وسمى به إلى عثمان بن عفان : أنه لا يأكل اللحم ولا ينكح النساء . وأنه يظن على الأئمة ولا يشهد الجمعة . فأمره أن يسير إلى الشام - ثم ذكر قصة فيها تبرّته من ذلك .

فلا يتقينَ أحدكم التراب ، ولا يكرهن السجود عليه . فلا بد لأحدكم منه . ولا يتقى أحدكم المبالغة ، فإنه إنما يطلب بذلك فكاك رقبته وخلصها من النار . التي لا تقوم لها الجبال الصم الشوامخ البواذخ ، التي جعلت للأرض أوتاداً . ولا تقوم لها السموات السبع الطباق الشداد ، التي جعلت سقفاً محفوظاً . ولا تقوم لها الأرض التي جعلت للخلق داراً ، ولا تقوم لها البحار السبع ، التي لا يدرك قعرها ، ولا يعرف قدرها إلا الذي خلقها . فكيف بأبداننا الضعيفة ، وعظامنا الدقيقة ، وجلودنا الرقيقة ؟ نستجير بالله من النار . نستجير بالله من النار . نستجير بالله من النار .

فإن استطاع أحدكم - رحمكم الله - إذا قام في صلاته : أن يكون كأنه ينظر إلى الله عز وجل . فإنه إن لم يكن يراه فإن الله يراه . فقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه « أوصى رجلاً . فقال له في وصيته : اتق الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه . فهو يراك <sup>(١)</sup> » فهذه وصية النبي صلى الله عليه وسلم للعبد في جميع حالاته . فكيف بالعبد في صلاته إذا قام بين يدي الله عز وجل في موضع خاص ، ومقام خاص ، يريد الله ويستقبله بوجهه ، ليس موضعه ومقامه ، وحالاته في صلاته كغير ذلك من حالاته ؟ .

جاء الحديث « إن العبد إذا افتتح الصلاة استقبله الله عز وجل بوجهه . فلا يصرفه عنه ، حتى يكون هو الذي ينصرف ، أو يلتفت يميناً وشمالاً <sup>(٢)</sup> » وجاء الحديث قال « إن العبد مادام في صلاته فله ثلاث خصال : البرئ يتناثر عليه من عَنان السماء إلى مَفْرِقِ رأسه ، وملائكة يحفون به من لَدُنْ قدميه إلى عَنان السماء ، ومناد ينادى : لو يعلم العبد من يناجى : ما انفتل <sup>(٣)</sup> » .

\* \* \*

(١) جاء هذا في حديث سؤال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان . وهذا معنى الإحسان . وقد رواه الشيخان من حديث ابن عمر وغيره .

(٢) أخرجه أحمد في المسند وأبو داود والنسائي من حديث أبي ذر .

(٣) ذكره محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة من حديث الحسن البصري مرسلًا

فرحم الله من أقبل على صلاته خاشعاً خاضعاً ، ذليلاً لله عز وجل ، خائفاً داعياً راغباً ، وَجِلًا مشفقاً راجياً . وجعل أكبر همّه في صلاته : لربه تعالى ، ومناجاته إياه ، وانتصابه قائماً وقاعداً ، وراكعاً وساجداً ، وفرغ لذلك قلبه وثمرة فؤاده . واجتهد في أداء فرائضه . فإنه لا يدري : هل يصلى صلاة بعد التي هو فيها ، أو يُعاجلَ قبل ذلك ؟ . فقام بين يدي ربه عز وجل محزوناً مشفقاً ، يرجو قبولها ، ويخاف ردها . فإن قبلها سعد . وإن ردها شقي .

فما أعظم خطرك يا أخى فى هذه الصلاة ، وفى غيرها من عمالك . وما أولاك بالهم والحزن ، والخوف والوجل فيها ، وفيما سواها مما افترض الله عليك . إنك لاتدري : هل قبل منك صلاة قط ، أم لا ؟ ولا تدري : هل قبل منك حسنة قط ، أم لا ؟ وهل غفر لك سيئة قط ، أم لا ؟ ثم أنت - مع هذا - تضحك وتغفل ، وينفعك العيش . وقد جاءك اليقين : أنك وارد النار . ولم يأتك اليقين : أنك صادر عنها . فمن أحقَّ بطول البكاء وطول الحزن منك ، حتى يتقبل الله منك ؟ ثم - مع هذا - لاتدري ، لعلك لاتصبح إذا أمسيت ، ولا تمسى إذا أصبحت ، فبشِّر بالجنة أو مبشِّر بالنار .

وإنما ذكَّرتك يا أخى بهذا الخطر العظيم ، إنك لحقوق أن لانفرح بأهل ولا مال ولا ولد ، وإن العجب كل العجب من طول غفلتك ، وطول سهوك ولهوك عن هذا الأمر العظيم ، وأنت تساق سوقاً عنيفاً فى كل يوم وليلة ، وفى كل ساعة وطرفة عين .

فتوقَّع يا أخى أجلك . ولا تغفل عن الخطر العظيم الذى قد أظلك . فإنك لابد ذاتى الموت ولاقيه ، ولعله ينزل بساحتك فى صباحك أو مساءك ، أشد ما تكون عليها إقبالا ، وكأنك قد أخرجت من ملكك كله ، فإما إلى الجنة وإما إلى النار . انقطعت الصفات ، وقصرت الحكايات عن بلوغ صفتها ومعرفة قدرها . والإحاطة بغاية خبرها . أما سمعت يا أخى قول العبد الصالح : عجبت

لنار كيف نام هاربها؟ وعجبت للجنة كيف نام طالبها؟ فوالله لئن كنت خارجاً من الطلب والمهرب، لقد هلكت وعظم شقاؤك، وطال حزنك وبكاؤك غداً، مع الأشقياء المعذبين. وإن كنت تزعم أنك هارب طالب، فاغد في ذلك على قدر ما أنت من عظم الخطر. ولا تفرنك الأمانى.

\* \* \*

واعلموا - رحمكم الله - أن الإسلام في إداره وانتقاصه، واضمحلاله ودروسه (١).  
جاء في الحديث « تُرذلون في كل يوم. ويسرع بخياركم » وجاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « بدأ الإسلام غربياً . وسيعود غربياً كما بدأ (٢) » .

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « خير أمتي : القرن الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . والآخر شر إلى يوم القيامة (٣) » .  
وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه « أنتم خير من أبنائكم ، وأبناؤكم خير من أبنائهم ، وأبناء أبنائكم خير من أبنائهم ، والآخر شر إلى يوم القيامة » .

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم « يأتي زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه (٤) » .

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم « أن رجلاً قال : كيف نهلك ، ونحن نقرأ

---

(١) يعنى من القلوب ، وإلا فالإسلام الذى أرسل الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم وأكمل به الدين وأتم به النعمة على الإنسانية وارتضاء لها ديناً يصلح به جميع شؤونهم ويهديهم به إلى صراطه المستقيم فى كل أمرهم - لا يزال ولن يزال محفوظاً بحفظ الكتاب والسنة ، لتبقى حجة الله على العباد قائمة .

(٢) أخرجه مسلم والترمذى عن عمرو بن عوف .

(٣) متفق على معناه من حديث عمران بن حصين .

(٤) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان من حديث على .

القرآن ، ونقرئه أبناءنا ، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم؟! قال : ثمكثتكم أمك ، أو ليس اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل؟ قال : بلى ، يارسول الله ، قال : فما أغنى ذلك عنهم؟ قال : لاشيء يارسول الله<sup>(١)</sup> .

وقد أصبح الناس في نقص عظيم شديد من دينهم عامة ، ومن صلاتهم خاصة . فأصبح الناس في صلاتهم ثلاثة أصناف : صنفان لاصلاة لهم . أحدهما : الخوارج والروافض والمشبهة ، وأهل البدع يحقرون الصلاة في الجماعات ، ولا يشهدونها مع المسلمين في مساجدهم ، بشهادتهم علينا بالكفر ، وبالخروج من الإسلام .

والصنف الثاني : من أصحاب اللهو واللعب ، والعكوف على هذه المجالس الرديئة على الأشربة والأعمال السيئة .

والصنف الثالث : هم هل الجماعة ، الذين لا يدعون حضور الصلاة عند النداء بها ، وشهودها مع المسلمين في مساجدهم . فهؤلاء خير الأصناف الثلاثة . وهؤلاء - مع خيرهم وفضلهم على غيرهم - قد ضيعوها . ورفضوها ، إلا ماشاء الله ، لمساقتهم الإمام في الركوع والسجود ، والخفض والرفع ، أو مع فعله . وإنما ينبغي لهم : أن يكونوا بعد الإمام في جميع حالاتهم .

\* \* \*

ولقد أخبرنا من صلى في المسجد الحرام أيام الموسم قال : رأيت خلقاً كثيراً فيه يسابقون الإمام . وأهل الموسم من كل أفق - من خراسان ، وأفريقية ، وأرمينية ، وغيرها من البلاد ، إلا ماشاء الله - وقد رأينا تصديق ذلك . ترى الخراساني : يقدم من خراسان حاجاً . يسبق الإمام إذا صلى معه . وترى الشامي كذلك ، والإفريقي ، والحجازي ، وغيرهم كذلك . قد غلبت عليهم المسابقة .

(١) أخرجه أحمد في المسند وابن ماجه من حديث زياد بن لييد . ورواه الترمذي بنحوه . ورواه الدارمي من حديث أبي أمامة .



وأعجب من ذلك : أقوام يسبقون إلى الفضل ، ويبكرون إلى الجمعة ، طلباً للفضل في التبكير ، ومنافسة فيه ، فربما صلى أحدهم الفجر بالمسجد الجامع ، حرصاً على الفضل ، وطلباً له . فلا يزال مصلياً وراكعاً وساجداً ، وقائماً وقاعداً ، وتالياً للقرآن ، وداعياً لله عز وجل ، وراغباً وراهباً ، وهذه حاله إلى المغرب . وهو - مع هذا كله - يسابق الإمام ، خِداً عن الشيطان لهم ، واستيلاء عليهم ، يخدعهم عن الفريضة الواجبة عليهم ، اللازمة لهم ، فيركعون ويسجدون معه ، ويرفعون ويخفضون معه ، جهلاً منهم ، وخدعاً من الشيطان لهم . فهم يتقربون بالنوافل التي ليست بواجبة عليهم . ثم يضعون الفرائض الواجبة عليهم . وقد جاء الحديث « لا يقبل الله نافلة حتى تؤدى الفريضة » .

وإنما يطلب الفضل في التبكير إلى الجمعة : غير المضيع للأصل . لأنه قد يستغنى بالأصل عن الفضل ، ولا يستغنى بالفضل عن الأصل . فمن ضيع الأصل فقد ضيع الفضل ، ومن ضيع الفضل وتمسك بالأصل وأحكمه كفى به ، واستغنى عن الفضل .

وإنما مثلك في طلب الفضل ، وتضييعك الأصل : كمثل تاجر تجر . فجعل ينظر في الربح ويحسبه ، ويفرح به قبل أن يُورِّج<sup>(١)</sup> رأس المال . فلم يزل كذلك يفرح بالربح ، ويغفل عن النظر في رأس المال ، فلما نظر إلى رأس ماله رآه قد ذهب وذهب الربح ، فلم يبق رأس مال ولا ربح .

\* \* \*

فرح الله رجلاً رأى أخاه يسبق الإمام ، فيركع أو يسجد قبله أو معه ، أو يصلي وحده ، فيسئ في صلاته : فينصحه . ويأمره وينهاه . ولا يسكت عنه . فإن نصيحته واجبة عليه . لازمة له . وسكوته عنه إثم ووزر . فإن الشيطان يريد

---

(١) التأريج : في حساب الأموال : هو أن يثبت تحت كل اسم دفعات القبض

ليسهل عقده بالحساب . وهو ما نسميه اليوم « مسك الدفاتر » .

أن تسكتوا عن الكلام بما أمركم الله ، وأن تدعوا التعاون على البر والتقوى ، الذى أوصاكم الله به . والنصيحة التى عليكم من بعضكم لبعض ، لتكونوا ماثومين مأزورين ، ولا تكونوا مأجورين ، ويضمحل الدين ويذهب ، وأن لا تحيوا سنة ، ولا تميموا بدعة .

فأطيعوا الله فيما أمركم به : من التناصح والتعاون على البر والتقوى ، ولا تطيعوا الشيطان . فإن الشيطان لكم عدوٌ مُضِلٌّ مبينٌ ؛ بذلك أخبركم الله عز وجل . فقال ( ٣٥ : ٦ ) إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً ) وقال تعالى ( ٧ : ٢٧ ) يابنى آدم ، لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ) .

\* \* \*

واعلموا أنه ما جاء هذا النقص فى الصلاة : إلا من المنسوبين إلى الفضل ، المبكرين إلى الجماعات والجمعات ، ممن بالشرق والمغرب من أهل الإسلام ، لسكوت أهل العلم والفقهاء والبصر عنهم . وتركهم ما لزمهم من النصيحة والتعليم والأدب ، والأمر والنهى ، والإنكار والتغيير . فجرى أهل الجهالة على المسابقة للامام . وجرى معهم كثير ممن ينسب إلى العلم والفقهاء ، والبصر والفضل ، استخفافاً منهم بالصلاة .

والعجب كل العجب من اقتداء أهل العلم بأهل الجهالة ، وتجرأهم معهم فى المسابقة للامام ، فى السجود والرفع والخفض ، وفعلهم معهم ، وتركهم ما حثوا وسمعوا من الفقهاء والعلماء . وإنما الحق الواجب على العلماء : أن يعلموا الجاهل وينصحوه ، ويأخذوا على يده . فهم فيما تركوه آثمون ، عصاة خائثون ، لجر يانهم معهم فى ذلك ، وفى كثير من مساويهم ، من الغش والنميمة ، ومحقرة الفقراء والمستضعفين وغير ذلك من المعاصى مما يكثر تعداده . وجاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ويل للعالم من الجاهل حيث لا يعلمه » .

فتعليم الجاهل واجب على العالم ، لازم له . لأنه لا يكون الويل للعالم من

تطوع تركه ، لأن الله لا يؤاخذ على ترك التطوع . إنما يؤاخذ على ترك الفرائض .  
وجاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من رأى منكراً منكراً  
فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف  
الإيمان <sup>(١)</sup> » .

والمضيق لصلاته ، الذى يسابق الإمام فيها ، ويركع ويسجد معه ، أو لا يتم  
ركوعه ولا سجوده إذا صلى وحده : فقد أتى منكراً . لأنه سارق . وقد جاء  
الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « شر الناس سرقة : الذى يسرق  
من صلاته ، قالوا : يارسول الله ، وكيف يسرق من صلاته ؟ قال : لا يتم ركوعها ،  
ولا سجودها <sup>(٢)</sup> » فسارق الصلاة : قد وجب الإنكار عليه من رآه ، والنصيحة له .  
أرأيت لو أن سارقاً سرق درهماً ، ألم يكن ذلك منكراً يجب الإنكار عليه  
من رآه ؟ فسارق الصلاة : أعظم سرقة من سارق الدرهم .

وجاء الحديث عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال « من رأى من يسيء فى  
صلاته . فلم ينهه : شاركه فى وزرها وعارها » وجاء فى الحديث عن بلال بن سعد  
أنه قال « الخطيئة إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ، فإذا ظهرت فلم تغير : ضرت  
العامة <sup>(٣)</sup> » وإنما تضر العامة : لتركهم ما يجب عليهم من الإنكار . والتغيير على  
الذى ظهرت منه الخطيئة . فلو أن عبداً صلى حيث لا يراه الناس ، فضيع صلاته ،  
ولم يتم الركوع ولا السجود : كان وزر ذلك عليه خاصة . وإذا فعل ذلك حيث  
يراه الناس ، فلم ينكروه ولم يغيروه : كان وزر ذلك عليه . وعليهم .

(١) أخرجه مسلم وغيره من حديث أبي سعيد الخدرى .

(٢) رواه أحمد فى السنن من حديث أبى قتادة : ورواه مالك والدارمى وأحمد

من حديث النعمان بن مرة . وفى النسخ الأخرى « أسوأ الناس سرقة » .

(٣) هذا من كلام بلال بن سعد التابعى العابد . وروى الإمام أحمد فى السنن

عن أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا ظهرت المعاصى فى أمتى عمهم الله  
بمذاب من عنده » .

فانقوا الله عباد الله في أموركم عامة ، وفي صلاتكم خاصة ، وأحكموها في أنفسكم وانصحوها فيها إخوانكم . فإنها آخر دينكم . فتمسكوا بآخر دينكم ، وبما أوصاكم به ربكم من بين الطاعات التي افترضها الله عامة ، وتمسكوا بما عهد إليكم نبيكم صلى الله عليه وسلم خاصة ، من بين عهوده إليكم فيما افترض عليكم ربكم عامة .

وجاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه كان آخر وصيته لأُمَّته ، وآخر عهده إليهم ، عند خروجه من الدنيا : اتقوا الله في الصلاة ، وفيما ملكت أيمانكم <sup>(١)</sup> » وجاء الحديث « أنها آخر وصية كل نبي لأُمَّته ، وآخر عهده إليهم عند خروجه من الدنيا » وهي آخر ما يذهب من الإسلام . ليس بعد ذهابها إسلام ولا دين ، وهي أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من عمله . وهي عمود الإسلام ، وإذا سقط العمود : سقط القسطاط . فلا ينتفع بالطَّئِبِ والأوتاد ، وكذلك الصلاة إذا ذهبت فقد ذهب الإسلام .

وقد خصها الله بالدكر من بين الطاعات كلها . ونسب أهلها إلى الفضل . وأمر بالاستعانة بها ، والصبر عليها على جميع الطاعات ، واجتناب جميع المعصية .

\* \* \*

فأَمْروا - رحمكم الله - بالصلاة في المساجد من تخلف عنها ، وعاتبوهم إذا تخلفوا عنها . وأنكروا عليهم بأيديكم . فإن لم تستطيعوا فبالسنتكم . واعلموا أنه لا يسعكم السكوت عنهم ، لأن التخلف عن الصلاة من عظيم المعصية . فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لقد هممتُ أن أمر بالصلاة فتقام . ثم أخالف إلى قوم في منازلهم ، لا يشهدون الصلاة في جماعة ، فأحرقها عليهم <sup>(٢)</sup> » .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند وابن ماجه من حديث أم سلمة . وأخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث أنس . وأخرجه الطبراني من حديث ابن عمر . (٢) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة .

فتهدهم النبي صلى الله عليه وسلم بحرق منازلهم . فلو أن تخلفهم عن الصلاة معصية كبيرة عظيمة : لما تهدهم النبي صلى الله عليه وسلم بحرق منازلهم . وجاء الحديث « لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد <sup>(١)</sup> » وجار المسجد : الذى بينه وبين المسجد أربعون داراً <sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

فالصلاة أول فريضة فرضت على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهى آخر ما أوصى به أمته عند خروجه من الدنيا . وهى آخر ما يذهب من الإسلام ، ليس بعد ذهابها إسلام ولا دين . جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من سمع المؤذن فلم يجبه . فلا صلاة له ، إلا من عذر <sup>(٣)</sup> » .

وجاء عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه « أنه فقد رجلا في الصلاة . فأتى منزله . فصوت به . فخرج الرجل . فقال : ما حبسك عن الصلاة ؟ قال : علة يأمر المؤمنين ، ولولا أنى سمعت صوتك ما خرجت - أو قال : ما استطعت أن أخرج - <sup>(١)</sup> أخرجه الدارقطنى من حديث جابر وأبى هريرة . وأخرجه الحاكم فى المستدرک من حديث أبى هريرة .

<sup>(٢)</sup> إلى هنا قد انتهت رسالة الصلاة فى المخطوطتين . وقد كملناها من النسخ الأخرى ، لعظيم الفائدة فيها .

ورحم الله الإمام أحمد ورضى عنه وعن إخوانه سلفنا من أئمة الهدى وجزاه الله وجزاهم عن المسلمين خيراً . فلقد صدق وأوفى فى النصيحة للمسلمين فى أهم دينهم . اللهم وقتنا والمسلمين للعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لهم وإقامة كل ديننا على هداة .

<sup>(٣)</sup> قال المنذرى فى الترهيب من ترك حضور الجماعة : قال أبو بكر بن المنذر رويانا عن غير واحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : « من سمع النداء ، ثم لم يجب من غير عذر ، فلا صلاة له » منهم ابن مسعود وأبو موسى الأشعري . وقد روى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم .

فقال عمر : لقد تركت دعوة من هو أوجب عليك إجابة مني : منادى الله إلى الصلاة » وجاء عن عمر « أنه فقد أقوماً في الصلاة . فقال : ما بال أقوام يتخلفون عن الصلاة . فيتخلف لتخلفهم آخرون ؟ لِيَحْضُرُنَّ المسجد ، أو لأبعثن إليهم من يجأ في رقابهم <sup>(١)</sup> ، ثم يقول : احضروا الصلاة ، احضروا الصلاة » .

وجاء الحديث عن عبد الله بن أم مكتوم : أنه قال « يارسول الله ، إني شيخ ضريب البصر ، ضعيف البدن ، شاسع الدار ، بيني وبين المسجد نخل وواد . فهل لي من رخصة إن صليت في منزلي ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أسمع النداء ؟ قال : نعم ، قال : أجب <sup>(٢)</sup> » .

فلم يرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل ضريب البصر ، ضعيف البدن ، شاسع الدار ، بينه وبين المسجد نخل وواد : في التخلف عن الصلاة . فلو كان لأحد عذر في التخلف : لرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم لشيخ ضعيف البدن ، ضريب البصر ، شاسع الدار ، بينه وبين المسجد نخل وواد .

\* \* \*

فأنكروا - رحمكم الله - على المتخلفين عن الصلاة . فإن ذنوبهم في تخلفهم عظيمة . وأتم شركاؤهم في عظيم تلك الذنوب ، إن تركتم نصيحتهم والإنكار عليهم وأتم تقدرون على ذلك .

وجاء الحديث عن أبي الدرداء عن ابن مسعود « إن الله تبارك وتعالى سنّ لكل نبي سنة . وسنّ لنبيكم . فمن سنة نبيكم : هذه الصلوات الخمس في جماعة . وقد علمت : أن لكل رجل منكم مسجداً في بيته . ولو صليتم في بيوتكم لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لضلتم <sup>(٣)</sup> » .

(١) وجاء في عنقه : لكره يده ، أو بعود ، أو نحوه .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ومسلم وأبو داود .

قاتقوا الله واءمروا بالصلاة في جماعة من تخلف عنها ، وإن لم تفعلوا تسكوتوا  
آثمين . ومن أوزارهم غير سالمين ، لوجوب النصيحة لإخوانكم عليكم ، ولوجوب  
إنكار المنكر عليكم بأيديكم . فإن لم تستطيعوا فبالسنتكم .

وقد جاء الحديث « يحيى الرجل يوم القيامة متعلقاً بجاره . فيقول : يارب  
هذا خاني ، فيقول : يارب ، وعزتك ، ماخنته في أهل ولا مال . فيقول :  
صدق يارب ، ولكنه رآني على معصية فلم ينهني عنها<sup>(١)</sup> . »

والتخلف عن الصلاة عظيم المعصية . فاحذر تعلقه بك غدا ، وخصومته إياك  
بين يدي الجبار . ولا تدع نصيحته اليوم ، إن شتمك وأذاك وعاداك . فإن معاداته  
لك اليوم أهون من تعلقه بك غدا ، وخصومته إياك بين يدي الجبار ، ودخسه  
حجرتك في ذلك المقام العظيم . فاحتمل الشتمة اليوم لله . وفي الله . لعلك تفوز غدا  
مع النبيين والتابعين لهم في الدين .

وإن رأيتم اليوم من يصلي تطوعاً ، ولا يقيم صلته بين الركوع والسجود :  
فقد وجب عليكم أمره ونهيه ونصيحته ، فإن لم تفعلوا كنتم شركاءه في الإساءة  
والوزر والإثم والتضييع .

\* \* \*

واعلموا أن مما جهل الناس : أن أحدهم يصلي متطوعاً . ولا يتم الركوع  
ولا السجود ، ولا يقيم صلته . لأنه تطوع ، فيظن أن ذلك يجزيه . وليس يجزيه  
ذلك عن التطوع . لأنه من دخل في التطوع فقد صار واجبا عليه لازماً له . يجب  
عليه إتمامه وإحكامه ، كما أن الرجل لو أحرم بحجة تطوعاً : وجب عليه قضاؤها ،  
وإن أصاب فيها صيداً : وجبت عليه الكفارة . وكما أن الرجل لو صام يوماً

(١) ذكره المنذرى في الترغيب في الأمر بالمعروف عن أبي هريرة قال « كنا  
نسمع : أن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة - وهو لا يعرفه - فيقول له : مالك  
إلى ؟ وما بيني وبينك معرفة . فيقول : كنت تراني على الخطأ وعلى المنكر ولانتهاني »  
قال المنذرى : ذكره رزين ، ولم أره .

تطوعاً ، ثم أفطر عند العصر : وجب عليه قضاء هذا اليوم . . وكما أن الرجل لو تصدق بدرهم على فقير ، ثم أخذه منه : وجب عليه رد ذلك الدرهم على الفقير . فكل تطوع دخل فيه فقد لزمه ، ووجب عليه أداؤه تاماً محكماً . لأنه حين دخل فيه فقد أوجبه على نفسه . ولو لم يدخل فيه لم يكن عليه شيء .  
فإذا رأيتم من يصلي تطوعاً ، أو فريضة ، فاءمروه بهام ذلك وإحكامه ، إن لاتفعلوه تكونوا آثمين . عصمنا الله وإياكم .

\* \* \*

وقد قال بعض أهل الجبل : ليس على من سبق الإمام ساهياً شيء ، تأويلاً منهم للحديث الذي جاء « ليس على من خلف الإمام سهو » .  
وقد جاء الحديث بذلك ، ولكنهم أخطئوا معناه وتأويله . إنما معناه : من قام ساهياً فيما ينبغي له أن يجلس فيه ، أو جلس ساهياً فيما ينبغي له أن يقوم فيه ، أو سها فلم يدبر : كم صلى ؟ ثلاثاً . أو أربعاً ، أو ترك بعض التكبيرات ساهياً . فليس عليه سهو . ليس ذلك فيمن سبق الإمام . لم يجيء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عن المهاجرين والأنصار بيان لمن سبق الإمام ساهياً أو غير ساه .  
وقول النبي صلى الله عليه وسلم « أما يخاف الذي يرفع رأسه قبل الإمام : أن يحول الله رأسه رأس حمار » لم يقل : إلا أن يكون ساهياً ، ولم يأمره بسجدة السهو وقول ابن مسعود « لا وحدهك صليت ، ولا بإمامك اقتديت » لم يقل : إلا أن تكون ساهياً ، ولم يأمره بسجدة السهو .  
وقول ابن عمر « لاصليت وحدك ، ولا صليت مع الإمام » لم يقل : إلا أن تكون ساهياً . ولم يأمره بسجدة السهو ، ولكن ضرب به وأمره بالإعادة .  
وقول سلمان « الذي يرفع رأسه قبل الإمام ، ويخفض قبله : ناصيته بيد الشيطان ، بخفضه ويرفعه » لم يقل : إلا أن يكون ساهياً . ولم يأمره بسجدة السهو .



وقد سها النبي صلى الله عليه وسلم . وسها عمر . وسها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمنهم من سها وترك القراءة في الركعتين الأوليين ثم قرأ في الآخرين ومنهم من سها فقام فيما ينبغي له أن يجلس فيه . وجلس فيما ينبغي أن يقوم فيه ففي هذا كله وفيما أشبهه : سجدتا السهو . بذلك جاءت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن أصحابه رضی الله عنهم ، وذلك هو السنة .

فأما سبق الإمام : فإنما جاء عنهم « أنه لا صلاة له » على ما فسرت لك من قولهم « من سبق الإمام فلا صلاة له » ساهياً كان أو غير ساه .

وليس للسهو ههنا موضع يعذر فيه صاحبه . وكيف يجوز السهو ههنا ؟ وهو إذا رأى الإمام قد هَوَى من قيامه : بادره فسجد قبله ، أو ينظر إلى الإمام ساجداً بعده ، وهو قد رفع رأسه ، أو ينظر إليه يريد أن يسجد فيبادر إلى السجود قبله ، أو ساعة يفرغ الإمام من القراءة : يبادر فيركع قبله من قبل أن يكبر الإمام فيركع وإنما ينبغي في هذا كله : أن ينتظر حتى يركع ، أو يسجد ، أو يرفع ، أو يخفض ، وينقطع تكبيره في ذلك كله ، ثم يتبعه بعد فعل الإمام ، وبعد انقطاع تكبيره . ليس للسهو ههنا موضع يعذر به صاحبه . ولم يعذره النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا أصحابه رضی الله عنهم . ولا أمره بسجدتي السهو ، ولكن أمره بالإعادة . وخوفاً النبي صلى الله عليه وسلم « أن يحول الله رأسه رأس حمار » وإنما ذلك لاستخفافه بالصلاة واستهانتها بها ، وصفر خطرهما في قلبه .

فليحذر جاهل أن يعذر نفسه فيما لا عذر له فيه ، فيحتمل وزر نفسه ووزر من يفتنه بحجة مدحوضة ، لم يحتاج بها أحد من الأبرار .

\* \* \*

فاعتوا عباد الله بصلاتكم . فإنها آخر دينكم . وليحذر امرؤ . أن يظن أنه قد صلى وهو لم يصل . فإنه جاء الحديث « إن الرجل يصل ستين سنة وماله صلاة . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : يتم الركوع ولا يتم السجود . ويتم السجود ولا يتم

الركوع» وجاء الحديث عن حذيفة «أنه رأى رجلاً يصلي، ولا يتم ركوعه . ولا سجوده ، فقال حذيفة : منذ كم تصلي هذه الصلاة ؟ قال : منذ أربعين سنة . قال حذيفة : ماصليت . ولو مت : لمت على غير الفطرة<sup>(١)</sup>»

وجاء الحديث عن عبد الله بن مسعود «أنه بينما كان يحدث أصحابه . إذ قطع حديثه . فقالوا له : مالك يا أبا عبد الرحمن قطعت حديثك ؟ قال : إني أرى عجبا ! أرى رجلين . أما أحدهما : فلا ينظر الله إليه . وأما الآخر : فلا يقبل الله صلاته ، قالوا : من هما ؟ فقال : أما الذي لا ينظر الله إليه : فذلك الذي يمشي يخال في مشيته . وأما الذي لا يقبل الله صلاته : فذلك الذي يصلي ولا يتم ركوعه ولا سجوده .»

وجاء الحديث «أن رجلاً دخل المسجد ، فصلى . ثم جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : صليت يا فلان ؟ قال : نعم . يارسول الله . قال : ماصليت ، قم فأعدّها . فأعادها . ثم جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : صليت يا فلان ؟ قال : نعم ، يارسول الله . قال : ماصليت . قم فأعدّها . فأعادها . فلما كانت الثالثة ، أو الرابعة : علمه رسول الله صلى الله

---

(١) أخرجه البخارى فى «باب إذا لم يتم الركوع» ولم يذكر «منذ أربعين سنة» قال الحافظ فى الفتح (ج ٢ ص ١٨٦) فى رواية عبد الرزاق «فجعل ينقر ولا يتم ركوعه» زاد أحمد عن محمد بن جعفر عن شعبة «منذ كم صليت؟ فقال : منذ أربعين سنة» ومثله فى رواية الثورى . وللنسائى من طريق طلحة بن مطرف عن زيد بن وهب مثله . وفى حمله على ظاهره : نظر . وأظن ذلك هو السبب فى كون البخارى لم يذكر ذلك . وذلك : لأن حذيفة مات سنة ست وثلاثين . فعلى هذا : يكون ابتداء صلاة المذكور : قبل الهجرة بأربع سنين ، أو أكثر . ولعل الصلاة لم تكن فرضت بعد . فعليه أطلق وأراد البالغة . اهـ ولعل هذا كما فى قول الله تعالى (٩ : ٨١) استغفر لهم أولا نستغفر لهم . إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم

عليه وسلم كيف يصلى . فصلى كما علمه النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> .  
فرحم الله امرءاً احتسب الأجر والثواب . فبث هذا الكتاب في أقطار  
الأرض . فإن أهل الإسلام محتاجون إليه ، لما قد شملهم من الاستخفاف بصلاتهم  
والاستهانة بها . والله أعلم بالصواب .

### خاتمة

يقول فقير عفو الله ورحمته : محمد حامد الفقى :  
الحمد لله أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً . وصلى الله وسلم وبارك على عبد الله  
ورسوله محمد إمام المهتدين . وعلى آله أجمعين . وجعلنا الله من آله وحزبه المفلحين .  
وبعد ، فهذه نصيحة ووصية الإمام أحمد رحمه الله في الصلاة ، وقد رأى  
في زمانه مادعاه إلى كتابة هذه النصيحة . فكيف به لو رآهم اليوم ؟ فما أحوج  
الناس اليوم إلى هذه النصيحة وتكرار قراءتها كل يوم ، بل كلما قام أحدهم إلى  
الصلاة . وبالأخص الذين ينتسبون إلى الإمام أحمد . فلقد رأيت منهم تقصيراً  
كبيراً جداً في الصلاة ، وتسرعاً ، وربما نقرا في أدائها . استخفافاً خطيراً بشأنها .  
وهي الصلة بين العبد وربه ، وهي الآية على الإيمان وحب الله .

ولقد حملنى ويحملنى على طبعها مراراً : مارأيت ، وما أسمع من لوم عنيف  
وتأنيب شديد على إطالتي الصلاة - مع أنى لا أزيد في الركوع والسجود عن  
ثلاث تسبيحات - وقلما أجعلها خمساً - لكنها بالتمكين ، كما وصى الإمام أحمد  
رضى الله عنه .

فأسأل الله لى ولإخوانى التوفيق والسداد فى القول والعمل ، وأن يسلك  
بنا مسلك سلفنا الصالح ، ويحشرنا فى زمرةهم يوم القيامة ، ويجعلنا من المؤمنين  
الخاشعين المفلحين . وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمد وعلى آله أجمعين .

(١) هو حديث النبيء صلواته ، المشهور فى الصحاح والسنن ، من حديث أبى هريرة  
ورفاعة بن رافع وغيرهما رضى الله عنهم .



يريد الله ليظهوركم . . .

تفسير آية الوضوء، مما لم ينشر قبل من غرر كلام

شيخ الإسلام ابن تيمية

٦٦١ - ٧٢٨

رحمه الله وغفر لنا وله وللمؤمنين

---

---

Handwritten text, likely bleed-through from the reverse side of the page. The text is extremely faint and illegible due to the quality of the scan.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال شيخ الإسلام ، علم الأعلام ، مفتى الأنام ، المجتهد الفقيه الإمام :  
أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تیمیة الحرانی . رحمه الله ورضی عنه :  
قول الله عزوجل ( ٥ : ٦ يا أيها الذين آمنوا ، إذا قمتم إلى الصلاة : فاغسلوا  
وجوهكم ، وأيديكم إلى المرافق . وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين .  
وإن كنتم جنباً فاطهروا . وإن كنتم مرضى ، أو على سفر ، أو جاء أحد منكم  
من الغائط ، أو لامستم النساء - فلم تجدوا ماء - فتميموا صعيداً طيباً ، فامسحوا  
بوجوهكم وأيديكم منه . ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج . ولكن يريد ليطهركم  
وليؤتيكم نعمته عليكم . لعلكم تشكرون ) .

هذا الخطاب يقتضى : أن كل قائم إلى الصلاة فإنه مأمور بما ذكر : من  
الغسل ، والمسح . وهو الوضوء .

وذهبت طائفة : إلى أن هذا عام مخصوص .

وذهبت طائفة : إلى أنه يوجب الوضوء على كل من كان متوضئاً . وكلا

القولين ضعيف .

فأما الأولون : فإن منهم من قال : المراد بهذا : القائم من النوم . وهذا  
معروف عن زيد بن أسلم ، ومن وافقه من أهل المدينة من أصحاب مالك وغيرهم .  
قالوا : الآية أوجبت الوضوء على النائم بهذا ، وعلى المتغوط بقوله « أو جاء  
أحد منكم من الغائط » وعلى لأمس النساء بقوله « أو لامستم النساء » وهذا هو  
الحديث المعتاد . وهو الموجب للوضوء عندهم .

ومن هؤلاء من قال : فيها تقديم وتأخير . تقديره : إذا قمتم إلى الصلاة من

النوم ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء .

فيقال : أما تناولها للقائم من النوم المعتاد : فظاهر لفظها يتناوله . وأما كونها مختصة به ، بحيث لا تتناول من كان مستيقظا وقام إلى الصلاة : فهذا ضعيف . بل هي متناولة لهذا لفظا ومعنى .

وغالب الصلوات يقوم الناس إليها من يقظة . لا من نوم . كالعصر والمغرب والعشاء . وكذلك الظهر في الشتاء . لكن الفجر يقومون إليها من نوم . وكذلك الظهر في القائلة . والآية تعم هذا كله .

لكن قد يقال : إذا أمرت الآية القائم من النوم - لأجل الريح التي خرجت منه بغير اختياره - فأمرها للقائم الذي خرج منه الريح في اليقظة أولى وأحرى . فتكون - على هذا - دلالة الآية على اليقظة بطريق تنبيه الخطاب وفحواه . وإن قيل : إن اللفظ عام ، يتناول هذا بطريق العموم اللفظي .

فهذان قولان متوجهان . والآية على القولين عامة . وتعم أيضاً القيام إلى النافلة بالليل والنهار ، والقيام إلى صلاة الجنابة ، كما سنبينه إن شاء الله . فتمت كانت عامة لهذا كله : فلا وجه لتخصيصها .

وقالت طائفة : تقدير الكلام : إذا قتم إلى الصلاة وأتم محدثون ، أو قد أحدثتم . فإن المتوضىء ليس عليه وضوء . وكل هذا عن الشافعي رحمه الله . ويوجبه الشافعي في التيمم . فإن ظاهر القرآن يقتضى وجوب الوضوء والتيمم على كل قائم يخالف هذا<sup>(١)</sup> .

فإن كان قد قال هذا : كان له قولان .

ومن المفسرين من يجعل هذا قول عامة الفقهاء من السلف والخلف . لانفاقهم على الحكم . فيجعل اتفاقهم على هذا الحكم اتفاقا على الاضمار ، كما ذكر أبو الفرج ابن الجوزي . قال : وللعلماء في المراد بالآية قولان .

أحدهما : إذا قتم إلى الصلاة محدثين فاغسلوا . فصار الحدث مضمرأ في

(١) كذا في الأصل .



وجوب الوضوء . وهذا قول سعد بن أبي وقاص ، وأبي موسى ، وابن عباس ،  
رضى الله عنهم ، والفقهاء .

قال : والثاني ، أن الكلام على إطلاقه من غير إضمار ، فيجب الوضوء على  
كل من يريد الصلاة ، محدثاً كان أو غير محدث .  
وهذا مروى عن عكرمة وابن سيرين .

ونقل عنهم : أن هذا الحكم غير منسوخ . ونقل عن جماعة من العلماء : أن  
ذلك كان واجباً بالسنة . وهو ما روى بريدة رضى الله عنه « أن النبي صلى الله عليه  
وسلم ، صلى يوم الفتح خمس صلوات بوضوء واحد . وقال : عمداً فعلته يا عمر . » .  
قلت : أما الحكم - وهو أن من توضأ لصلاة صلى بذلك الوضوء صلاة أخرى -  
فهذا قول عامة السلف والخلف . والخلاف في ذلك شاذ . وقد علم بالنقل المتواتر  
عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه لم يكن يوجب الوضوء على من صلى ثم قام إلى  
صلاة أخرى . فإنه قد ثبت بالتواتر « أنه صلى بالمسلمين يوم عرفة الظهر والعصر  
جميعاً ، جمع بهم بين الصلاتين » وصلى خلفه أوف مؤلفة لا يحصيهم إلا الله .  
ولما سلم من الظهر ، صلى بهم العصر . ولم يحدث وضوءاً . لا هو ولا أحد .  
ولا أمر الناس بإحداث وضوء . ولا نقل ذلك أحد . وهذا يدل على أن التجديد  
لا يستحب مطلقاً .

وهل يستحب التجديد لكل صلاة من الخمس ؟ فيه نزاع . وفيه عن أحمد  
رحمه الله روايتان .

وكذلك أيضاً لما قدم مزدلفة « صلى بهم المغرب والعشاء جمعاً » من غير  
تجديد وضوء للعشاء . وهو في الموضعين قد قام هو وهم إلى صلاة بعد صلاة . وأقام  
لكل صلاة إقامة . وكذلك سائر أحاديث الجمع الثابتة في الصحيحين من حديث  
ابن عمر ، وابن عباس ، وأنس رضى الله عنهم . كلها تقتضى : أنه هو صلى الله  
عليه وسلم - والمسلمون خلفه - صلوا الثانية من المجموعتين بطهارة الأولى ، لم يحدثوا  
لها وضوءاً .

وكذلك هو صلى الله عليه وسلم قد ثبت عنه في الصحيحين من حديث ابن عباس وعائشة وغيرهم « أنه كان يتوضأ لصلاة الليل . فيصلى به الفجر » مع أنه كان ينام حتى يَقُطَّ . ويقول « تنام عيناي ولا ينام قلبي » فهذا أمر من أصح ما يكون أنه : كان ينام ثم يصلى بذلك الوضوء الذى توضحه للنافلة ، يصلى به الفريضة . فكيف يقال : إنه كان يتوضأ لكل صلاة ؟ .

وقد ثبت عنه في الصحيح « أنه صلى الله عليه وسلم صلى الظهر . ثم قدم عليه وفد عبد القيس . فاشتغل بهم عن الركعتين بعد الظهر حتى صلى العصر ، ولم يحدث وضوءاً » .

وكان يصلى تارة الفريضة ثم النافلة . وتارة النافلة ثم الفريضة ، وتارة فريضة ثم فريضة . كل ذلك بوضوء واحد .

وكذلك المسلمون صلوا خلفه في رمضان بالليل بوضوء واحد مرات متعددة . وكان المسلمون على عهده يتوضأون ثم يصلون ما لم يحدثوا ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة . ولم ينقل عنه - لا بإسناد صحيح ولا ضعيف - : أنه أمرهم بالوضوء لكل صلاة .

فالقول باستحباب هذا يحتاج إلى دليل .

وأما القول بوجوبه : فمخالف للسنة المتواترة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولإجماع الصحابة . والنقل عن علي رضي الله عنه بخلاف ذلك لا يثبت . بل الثابت عنه خلافه . وعلى رضي الله عنه أجل من أن يخفى عليه مثل هذا . والكذب على علي كثير مشهور . أكثر منه على غيره .

وأحمد بن حنبل رحمه الله - مع سعة علمه بأثار الصحابة والتابعين - أنكر أن يكون في هذا نزاع . وقال أحمد بن القاسم : سألت أحمد عن صلى الله عليه وسلم من خمس صلوات بوضوء واحد ؟ فقال : لا بأس بذلك ، إذا لم ينتقض وضوءه . ما ظننت أن أحداً أنكر هذا .

وروى البخارى فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه قال « كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ عند كل صلاة . قلت : وكيف كنتم تصنعون ؟ قال : يحجزى أحدنا الوضوء ، ما لم يحدث » وهذا هو فى الصلوات الخمس المفرقة . ولهذا استحب أحد ذلك فى أحد القولين ، مع أنه كان أحياناً يصلى صلوات بوضوء واحد . كما فى صحيح مسلم عن بريدة رضى الله عنه قال « صلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح خمس صلوات بوضوء واحد ، ومسح على خفيه . فقال له عمر : إني رأيتك صنعت شيئاً لم تكن صنعته ؟ قال : عمداً صنعته يا عمر » .  
والقرآن أيضاً يدل على أنه لا يجب على المتوضئ أن يتوضأ مرة ثانية من وجوه .

أحدها : أنه سبحانه قال ( وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا ) فقد أمر من جاء من الغائط ، ولم يجد الماء : أن يتيمم الصعيد الطيب . فدل على أن الحجى من الغائط يوجب التيمم . فلو كان الوضوء واجباً على من جاء من الغائط ومن لم يحجى ، فإن التيمم أولى بالوجوب . فإن كثيراً من الفقهاء يوجبون التيمم لكل صلاة . وعلى هذا فلا تأثير للمحجى من الغائط . فإنه إذا قام إلى الصلاة وجب الوضوء أو التيمم ، وإن لم يحجى من الغائط . ولو جاء من الغائط ، ولم يقم إلى الصلاة : لا يجب عليه وضوء ولا تيمم ، فيكون ذكر الحجى من الغائط عبثاً على قول هؤلاء .

الوجه الثانى : أنه سبحانه خاطب المؤمنين . لأن الناس كلهم يكونون محدثين فإن البول والغائط أمر معتاد لهم ، وكل بنى آدم محدث . والأصل فيهم : الحدث الأصغر . فإن أحدهم من حين كان طفلاً قد اعتاد ذلك ، فلا يزال محدثاً ، بخلاف الجنابة . فإنها إنما تعرض لهم عند البلوغ . والأصل فيهم : عدم الجنابة . كما أن الأصل فيهم : عدم الطهارة الصغرى . فلهذا قال « إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم » ثم قال « وإن كنتم جنباً فاطهروا » فأمرهم بالطهارة الصغرى مطلقاً .

لأن الأصل : أنهم كلهم محدثون قبل أن يتوضّأوا . ثم قال « وإن كنتم جنباً فاطهروا » وليس منهم جنبٌ إلا من أجنب . فلهذا فرق سبحانه بين هذا وهذا . الثالث : أن يقال : الآية اقتضت وجوب الوضوء إذا قام المؤمن إلى الصلاة . فدل على أن القيام هو السبب الموجب للوضوء . وأنه إذا قام إلى الصلاة صار واجباً حينئذٍ وجوباً مضيئاً . فإذا كان العبد قد توضأ قبل ذلك : فقد أدى هذا الواجب قبل تضيئه . كما قال ( ٩ : ٦٢ ) إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ( فدل على أن النداء يوجب السعي إلى الجمعة . وحينئذٍ يتضيق وقته فلا يجوز أن يشتغل عنه ببيع ولا غيره . فإذا سعى إليها قبل النداء : فقد سبق إلى الخيرات . وسعى قبل تضيق الوقت . فهل يقول عاقل : إن عليه أن يرجع إلى بيته ليسعى عند النداء ؟ .

وكذلك الوضوء : إذا كان المسلم قد توضأ للظهر قبل الزوال . أو للمغرب قبل غروب الشمس . أو للفجر قبل طلوعه ، وهو إنما يقوم إلى الصلاة بعد الوقت . فمن قال : إن عليه أن يعيد الوضوء ، فهو بمنزلة من يقول : إن عليه أن يعيد السعي إذا أتى الجمعة قبل النداء .

والمسلمون على عهد نبيهم كانوا يتوضأون للفجر وغيرها قبل الوقت . وكذلك المغرب . فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعجلها ، ويصليها إذا توارت الشمس بالحجاب . وكثير من أصحابه كانت بيوتهم بعيدة من المسجد . فهؤلاء لو لم يتوضأوا قبل المغرب : لما أدركوا معه أول الصلاة . بل قد تفوتهم جميعاً لبعدها المواضع . وهو نفسه صلى الله عليه وسلم لم يكن يتوضأ بعد الغروب ، ولا من حضر عنده في المسجد ، ولا كان يأمر أحداً بتجديد الوضوء بعد المغرب . وهذا كله معلوم مقطوع به . وما أعرف في هذا خلافاً ثابتاً عن الصحابة : أن من توضأ قبل الوقت عليه أن يعيد الوضوء بعد دخول الوقت . ولا يستحب أيضاً لمثل هذا تجديد وضوء . وإنما تكلم الفقهاء فيمن صلى بالوضوء الأول : هل يستحب له التجديد ؟

وأما من لم يصل به : فلا يستحب له إعادة الوضوء . بل تجديد الوضوء في مثل هذا بدعة مخالفة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما عليه المسلمون في حياته وبعده إلى هذا الوقت .

فقد تبين أن هذا قبل القيام قد أدى هذا الواجب قبل تضييقه . كالساعي إلى الجمعة قبل النداء . وكن قضي الدين قبل حلوله . ولهذا قال الشافعي وغيره : إن الصبي إذا صلى ثم بلغ لم يعد الصلاة . لأنها تلك الصلاة بعينها ، سابق إليها قبل وقتها . وهو قول في مذهب أحمد . وهذا القول أقوى من إيجاب الإعادة . ومن أوجبها قاسه على الحج ، وبينهما فرق . كما هو مبسوط في غير هذا الموضع .

\* \* \*

وهذا الذي ذكرناه في الوضوء : هو بعينه في التيمم . ولهذا كان قول العلماء : إن التيمم كالوضوء . فهو طهور المسلم ما لم يجد الماء . وإن تيمم قبل الوقت وتيمم للنافلة ، فيصلى به الفريضة وغيرها . كما هو قول ابن عباس . وهو مذهب كثير من العلماء ، أبي حنيفة وغيره . وهو أحد القولين عن أحمد .

والقول الآخر - وهو التيمم لكل صلاة - هو المشهور من مذهب مالك والشافعي وأحمد . وهو قول لم يثبت عن غيره من الصحابة ، كما قد بسط في موضعه

\* \* \*

فالأية محكمة والله الحمد . وهي على ما دلت عليه ، من أن كل قائم إلى الصلاة فهو مأمور بالوضوء . فإن كان قد توضأ قبل ذلك فقد أحسن . وفعل الواجب قبل تضييقه ، وسارع إلى الخيرات ، كمن سعى إلى الجمعة قبل النداء .

فقد تبين أن الآية ليس فيها إضمار ولا تخصيص ، ولا تدل على وجوب الوضوء مرتين . بل دلت على الحكم الثابت بالسنن المتواترة ، وهو الذي عليه جماعة المسلمين . وهو وجوب الوضوء على المصلي . كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا

أحدث حتى يتوضأ . فقال رجل من حضرموت : ما الحدث يا أبا هريرة ؟ قال :  
فساء أو ضراط » وفي صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن عمر رضی الله عنهما عن النبي  
صلى الله عليه وسلم قال « لا يقبل الله صلاة بغير طهور ، ولا صدقة من غلول » .  
وهذا يوافق الآية الكريمة . فإنه يدل على أنه لا بد من الطهور . ومن كان  
على وضوء فهو على طهور . وإنما يحتاج إلى الوضوء من كان محدثاً . كما قال « لا يقبل  
الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ » وهو إذا توضأ ثم أحدث : فقد دلت  
الآية على أمره بالوضوء إذا قام إلى الصلاة ، وإذا كان قد توضأ ، فقد فعل ما أمر به .  
كقوله : لا تصلى إلا بوضوء . أو لا تصلى حتى تتوضأ ونحو ذلك . مما بين أنه  
مأمور بالوضوء لجنس الصلاة ، الشامل لأنواعها وأعيانها . ليس مأموراً لكل نوع  
أو عين بوضوء غير وضوء الآخر . ولا في اللفظ ما يدل على ذلك .

لكن هذا الوجه لا يدل على تقدم الوضوء على الجنس . كمن أسلم فتوضأ قبل  
الزوال أو الغروب ، أو كمن أحدث فتوضأ قبل دخول الوقت . بخلاف الوجه الذي  
قبله . فإنه يتناول هذا كله .

### فصل

وقوله تعالى ( إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا ) يقتضى وجوب الوضوء على كل  
مصل مرة بعد مرة . فهو يقتضى التكرار . وهذا متفق عليه بين المسلمين في  
الطهارة . وقد دلت عليه السنة المتواترة ، بل هو معلوم بالاضطرار من دين  
المسلمين عن الرسول صلى الله عليه وسلم : أنه لم يأمرنا بالوضوء لصلاة واحدة . بل  
أمر بأن يتوضأ كلما صلى . ولو صلى صلاة بوضوء ، وأراد أن يصلى سائر الصلوات  
بغير وضوء : استتيب . فإن تاب وإلا قتل .

لكن المقصود هنا : دلالة الآية عليه ، وذلك من لفظ « الصلاة » فإن  
« الصلاة » هنا اسم جنس . ليس المراد صلاة واحدة . فقد أمر إذا قام إلى جنس  
الصلاة أن يتوضأ . والجنس يتناول جميع ما يصلية من الصلوات في جميع عمره .

فإن قيل : هذا يقتضى عموم الجنس ، فمن أين التكرار؟ فإذا قام إلى أى صلاة توضأ ، لكن من أين أنه إذا قام إليها يوماً آخر يتوضأ؟ .  
قيل : لأنه في هذا اليوم قائم إلى الصلاة . فهو مأمور بالوضوء إذا قام إلى مسمى الصلاة . فحيث وجد قيام إلى مسمى الصلاة ، فهو مأمور بالوضوء متى وجد ذلك . فعليه الوضوء . وهو كقوله تعالى ( ١٧ : ٧٨ أقم الصلاة لدلوك الشمس ) فالمراد : جنس الدلوك ، فهو مأمور بإقامة الصلاة له . وكذلك قوله ( ٥٠ : ٣٩ فسيح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ) فهو متناول لكل طلوع وغروب . وليس المراد طلوعاً واحداً . فكأنه قال : قبل كل طلوع لها ، وقبل كل غروب . وأقم الصلاة عند كل دلوك . وكل صلاة يقوم إليها متوضئاً لها .  
وقد تنازع الناس في الأمر المطلق : هل يقتضى التكرار؟ على ثلاثة أقوال في مذهب أحمد وغيره .

قيل : يقتضيه ، كقول طائفة ، منهم القاضى أبو يعلى وابن عقيل .  
وقيل : لا يقتضيه ، كقول كثير ، منهم أبو الخطاب .  
وقيل : إن كان معلقاً بسبب اقتضى التكرار . وهذا هو المنصوص عن أحمد  
كآية الطهارة والصلاة .

فإن قيل : فهذا لا يتكرر في الطلاق والعتق المعلق .  
قيل : لأن عتق الشخص الواحد لا يتكرر . وكذلك الطلاق المعلق نفسه لا يتكرر ، بل الطلقة الثانية حكمها غير حكم الأولى . وهو محدود بثلاث . ولكن إذا قال الناذر : لله علىّ إن رزقني الله ولداً أن أعتق عنه . وإذا أعطاني مالا أن أزيه ، أو أنصدق بعشره : تكرر . وبسط هذا له موضع آخر .

### فصل

قوله تعالى ( وإن كنتم مرضى ، أو على سفر ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء — الآية ) هذا مما أشكل على بعض الناس .

فقال طائفة من الناس « أو » بمعنى الواو ، وجعلوا التقدير : وجاء أحد منكم من الغائط . ولا مستم النساء .

قالوا : لأن من مقتضى « أو » أن يكون كل من المرض والسفر موجباً للتيمم ، كالغائط والملازمة . وهذا مخالف لمعنى الآية ، فإن « أو » ضد الواو ، والواو : للجمع والتشريك بين المعطوف والمعطوف عليه .

وأما معنى « أو » فلا يوجب الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه ، بل يقتضى إثبات أحدهما . لكن قد يكون ذلك مع إباحة الآخر . كقوله : جالس الحسن أو ابن سيرين ، وتعلم الفقه أو النحو ، ومنه خصال الكفارة يخير بينها ، ولو فعل الجميع جاز . وقد يكون مع الحصر . يقال للمريض : كل هذا ، أو هذا . وكذلك في الخبر : هي لإثبات أحدهما ، إما مع عدم علم المخاطب . وهو الشك ، أو مع علمه . وهو الإيهام ، كقوله تعالى ( ٣٧ : ١٤٧ ) وأرسلناه إلى مائة ألف ، أو يزيدون ) لكن المعنى الذى أراده : هو الأصح ، وهو أن خطابه بالتيمم : للمريض والمسافر ، وإن كان قد جاء من الغائط ، أو جامع .

ولا ينبغى - على قولهم - أن يكون المراد : أن لا يباح التيمم إلا مع هذين . بل التقدير : بالاحتلام ، أو حدث بلا غائط ، فالتيمم هنا أولى . وهو سبحانه لما أمر كل قائم إلى الصلاة بالوضوء ، وأمرهم إذا كانوا جنباً : أن يطهروا ، وفيهم المحدث بغير الغائط ، كالتقائم من النوم ، والذى خرجت منه الريح . ومنهم الجنب بغير جماع ، بل باحتلام . فالآية عمت كل محدث وكل جنب . فقال تعالى ( وإن كنتم مرضى أو على سفر - فتيمموا ) فأباح التيمم للمحدث والجنب إذا كان مريضاً أو على سفر ، ولم يجد ماء . والتيمم رخصة .

فقد يظن الظان : أنها لا تباح إلا مع خفيف الحدث والجنابة ، كالريح والاحتلام بخلاف الغائط والجماع . فإن التيمم مع ذلك ، والصلاة معه : مما تستعظمه النفوس وتهابه . فقد أنكر بعض كبار الصحابة تيمم الجنب مطلقاً . وكثير من الناس



يهاب الصلاة مع الحدث بالتييم ، إذ كان جعلُ التراب طهوراً كالماء : هو مما فضل الله به محمداً صلى الله عليه وسلم وأمه . ومن لم يستحکم إيمانه : لا يستجيز ذلك .  
فبين الله سبحانه : أن التيم مأمور به مع تغليظ الحدث بالغائط ، وتغليظ الجنابة بالجماع . والتقدير : وإن كنتم مرضى أو مسافرين ، أو كان - مع ذلك - جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء .

ليس المقصود : أن يجعل الغائط والجماع فيما ليس معه مرض أو سفر . فإنه إذا جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامس النساء ، وليسوا مرضى ولا مسافرين . فقد بين ذلك بقوله ( إذا قمتم الصلاة فاغسلوا وجوهكم ) وبقوله ( إن كنتم جنباً فاطهروا ) فدلّت الآية على وجوب الوضوء والغسل على الصحيح والمقيم .  
وأيضاً فتخصيصه الحجى من الغائط والجماع : يُجَوِّزُ أن يكون لا يتيم في هذه الحالة ، دون ما هو أخف من ذلك ، من خروج الريح ومن الاحتلام . فإن الريح كالنوم ، والاحتلام يكون في المنام . فهناك يحصل الحدث والجنابة والإنسان نائم . فإذا كان في تلك الحال يؤمر بالوضوء والغسل ، فإذا حصل ذلك وهو يقظان : فهو أولى بالوجوب . لأن النائم رفع عنه القلم ، بخلاف اليقظان .

ولكن دلت الآية على أن الطهارة تجب ، وإن حصل الحدث والجنابة بغير اختياره ، كحدث النائم واحتلامه . وإذا دلت على وجوب طهارة الماء في الحال ، فوجوبها مع الحدث الذي حصل باختياره أو يقظته : أولى . وهذا بخلاف التيم . فإنه لا يلزم إذا أباح التيم للمعذور الذي أحدث في النوم باحتلام أو ريح : أن يبيحه لمن أحدث باختياره . فقال تعالى ( أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء ) ليعين جواز التيم لهذين . وإن حصل حدثهما في اليقظة ، وبفعلهما وإن كان غليظاً .

ولو كانت « أو » بمعنى الواو : كان تقدير الكلام : أن التيم لا يباح إلا بوجود الشرطين - المرض ، والسفر - مع الحجى من الغائط والاحتلام . فيلزم من هذا أن

لا يباح مع الإحتلام ولا مع الحدث بلا غائط ، كحدث النائم ، ومن خرجت منه الريح . فإن الحكم إذا علق بشرطين لم يثبت مع أحدهما . وهذا ليس مراداً قطعاً ، بل هو ضد الحق . لأنه إذا أبيح مع الغائط الذى يحصل بالاختيار ، فمع الخفيف وعدم الاختيار أولى .

فتبين أن معنى الآية : وإن كنتم مرضى أو على سفر فتييموا . وإن كان مع ذلك قد جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء . كما يقال : وإن كنت مريضاً أو مسافراً . والتقدير : وإن كنتم أيها القائمون إلى الصلاة - وأنتم مرضى أو مسافرين - قد جئتم من الغائط أو لامستم النساء . ولهذا قال من قال : إنها خطاب للقائمين من النوم : إن التقدير إذا قتم إلى الصلاة ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء .

فإنه سبحانه ذكر أولاً فعلهم بقوله « إذا قتم » « أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء » الثلاثة أفعال . وقوله « وإن كنتم مرضى أو على سفر » حال لهم . أى كنتم على هذه الحال . كقوله : وإن كنتم على حال العجز عن استعمال الماء - إما لعدمه ، أو لخوف الضرر باستعماله - فتييموا إذا قتم إلى الصلاة من النوم . أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء .

ولكن الذى رجحناه : أن قوله « إذا قتم » عام : إما لفظاً ومعنى ، وإما معنى وعلى هذا فالمعنى : إذا قتم إلى الصلاة فتوضئوا ، أو اغتسلوا إن كنتم جنباً . وإن كنتم مرضى أو مسافرين ، أو فعلتم ما هو أبلغ فى الحدث - جئتم من الغائط أو لامستم النساء - إذ التقدير : وإن كنتم مرضى أو مسافرين ، وقد قتم إلى الصلاة أو فعلتم - مع القيام إلى الصلاة . والمرضى أو السفر - هذين الأمرين : الحىء من الغائط ، والجماع . فيكون قد اجتمع قيامكم إلى الصلاة والمرضى والسفر وأحد هذين . فالقيام موجب للطهارة ، والعذر مبيح ، وهذا القيام . فإذا قتم وجب التيمم إن كان قياماً مجرداً . أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء .

ولكن من الناس من يعطف قوله « أو جاء » « أو لامستم » على قوله « إذا قتم » والتقدير : وإذا قتم أو جاء أو لامستم . وهذا مخالف لنظم الآية . فإن نظمها يقتضى أن هذا داخل فى جزاء الشرط . وقوله ( وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فتيمموا ) فإن الذى قاله قريب من جهة المعنى . ولكن التقدير : وإن كنتم إذا قتم إلى الصلاة مرضى أو على سفر ، أو كان مع ذلك : جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء . فهو تقسيم من مفرد ومركب .

يقول : إن كنتم مرضى أو على سفر فأعين إلى الصلاة فقط بالقيام من النوم أو القعود المعتاد . أو كنتم - مع هذا - : قد جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء .

فقوله تعالى ( وإن كنتم مرضى أو على سفر ) خطاب لمن قيل لهم « إذا قتم إلى الصلاة فاعسلوا » و « إن كنتم جنباً فاطهروا » فالمعنى : يا أيها القائم إلى الصلاة توضاً . وإن كنت جنباً فاعسل . وإن كنت مريضاً أو مسافراً تيمم . أو كنت مع هذا وهذا ، مع قيامك إلى الصلاة ، وأنت محدث ، أو جنب . ومع مرضك وسفرك قد جئت من الغائط ، أو لامست النساء : فتيمم إن كنت معذوراً .

وإيضاح هذا : أنه من باب عطف الخاص على العام الذى يخص بالذكر لامتيازه . وتخصيصه يقتضى ذلك . ومثل هذا يقال : إنه داخل فى العام ، ثم ذكر بخصوصه . ويقال : بل ذكره خاصاً يمنع دخوله فى العام . وهذا يحىء فى العطف بأو . وأما بالواو : فمثل قوله تعالى ( ٢ : ٩٨ ) وملائكته وجبريل وميكال ) وقوله ( ٣٣ : ٧ ) وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم - الآية ) ومن هذا قوله ( ٢٩ : ٤٥ ) إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ) ونحو ذلك .

وأما فى « أو » فى مثل قوله تعالى ( ٣ : ١٣٥ ) والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ) وقوله ( ٤ : ١١٠ ) ومن يعمل سوءاً

أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيمًا ( وقوله ( ٤ : ١١٢ ) ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً ) وقوله ( ٢ : ١٨٢ ) ومن خاف من موصٍ جَنَفًا أو إثمًا ) فإن الجنف هو الميل عن الحق ، وإن كان عامداً . قال عامة المفسرين « الجنف » الخطأ و « الإثم » العمد . قال أبو سليمان الدمشقي : الجنف ، الخروج عن الحق . وقد يسمى « المخطيء » والعامد « إلا أن المفسرين علقوا « الجنف » على المخطيء ، و « الإثم » على العامد . ومثله قوله ( ٢٤ : ٧٦ ) ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ) فإن « الكفور » هو الآثم أيضاً . لكنه عطف خاص على عام . وقد قيل : هما صنفان لموصوف واحد ، وهو أبلغ . فإن عطف الصفة على الصفة والموصوف واحد ، كقوله ( ٢ : ٨٧ ، ٣ ) الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى ) وقوله ( ٥٧ : ٣ ) هو الأول والآخر والظاهر والباطن ) وقوله ( ٢٣ : ١ - ٤ ) قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ) ونظائر هذا كثيرة .

قال ابن زيد : الآثم ، المذنب الظالم والكفور . هذا كله واحد . قال ابن عطية : هو مخير في أنه يعرف الذي ينبغي أن لا يطيعه بأى وصف كان من هذين . لأن كل واحد منهم فهو آثم . وهو كفور ، ولم يكن للأمة من الكثرة بحيث يغلب الإثم على المعاصي . قال : واللفظ إثمًا يقتضى نهى الإمام عن طاعة آثم من العصاة ، أو كفور من المشركين .

وقال أبو عبيدة وغيره : ليس فيها تخيير « أو » بمعنى الواو . وكذلك قال طائفة : منهم البغوى ، وابن الجوزى .

وقال المهدي : أى لا تطع من آثم أو كفر . ودخول « أو » يوجب أن لا تطيع كل واحد منهما على انفراده . ولو قال : ولا تطع منهما آثماً أو كفوراً ، لم يلزم النهى إلا في حال اجتماع الوصفين .

وقد يقال : إن « الكفور » هو الجاحد للحق ، وإن كان مجتهداً مخطئاً .  
فيكون هذا أعم من وجه ، وهذا أعم من وجه التمسك<sup>(١)</sup> .  
وقوله تعالى ( وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط  
أو لامستم النساء ) من هذا الباب . فإنه خاطب للمؤمنين . فقال ( إذا قمتم إلى  
الصلاة فاعسلوا ) وهذا يتناول المحدثين كاتقدم . ثم قال ( وإن كنتم جنباً فاطهروا )  
ثم قال « وإن كنتم - مع الحدث والجنابة - مرضى أو على سفر ، ولم تجدوا ماءً  
فتيمموا » وهذا يتناول كل محدث ، سواء كان قد جاء من الغائط أو لم يجيء ،  
كاستيقظ من نومه ، والمستيقظ إذا خرجت منه الريح . ويتناول كل جنب ،  
سواء كانت جنبته باحتلام أو جماع . فقال « وإن كنتم محدثون - جنب مرضى  
أو على سفر - أو جاء أحد منكم من الغائط » وهذا نوع خاص من الحدث « أو  
لامستم النساء » وهذا نوع خاص من الجنابة .

ثم قد يقال : لفظ « الجنب » يتناول النوعين ، وخص الجامع بالذكر ،  
وكذلك « القائم إلى الصلاة » يتناول من جاء من الغائط ومن أحدث بدون  
ذلك ، لكن خص الجائي بالذكر ، كما في قوله ( ٢ : ١٨٢ ) فمن خاف من موص  
جنباً أو إثمًا ) فالإثم هو المتعمد ، وتخصيصه بالذكر - وإن كان دخل - لبيان  
حكمه بخصوصه ، ولثلاثي يظن خروجه عن اللفظ العام . وإن كان لم يدخل فهو نوع  
آخر . والتقدير : إن كنتم مرضى أو على سفر فتيمموا . وهذا معنى الآية .

### فصل

وقوله ( أو جاء أحد منكم من الغائط ) ذكر الحدث الأصغر . فالجاء من  
الغائط هو مجيء من الموضع الذي يقضى فيه الحاجة . وكانوا ينتابون الأماكن  
المنخفضة ، وهي الغائط . وهو كقولك : جاء من المرحاض . وجاء من الكنيف

(١) كذا في الأصل

ونحو ذلك . هذا كله عبارة عن جاء وقد قضى حاجته بالبول أو الغائط . والريح يخرج معهما .

وقد تنازع الفقهاء : هل تنقض الريح لكونها تستصحب جزءاً من الغائط . فلا يكون على هذا نوعاً آخر ؟ أو هي لا تستصحب جزءاً من الغائط . بل هي نفسها تنقض . ونقضها متفق عليه بين المسلمين . وقد دل عليه القرآن في قوله « إذا قمتم » سواء كان أريد القيام من النوم أو مطلقاً . فإن القيام من النوم : مراد على كل تقدير . وهو إنما ينقض بخروج الريح . هذا مذهب الأئمة الأربعة ، وجهور السلف والخلف : أن النوم نفسه ليس بناقض ، ولكنه مظنة خروج الريح وقد ذهب طائفة إلى أن النوم نفسه ينقض ، ونقض الوضوء بقليله وكثيره . وهو قول ضعيف . وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه كان ينام حتى يغط . ثم يقوم يصلي ولا يتوضأ ، ويقول : تنام عيناي ولا ينام قلبي » . فدل على أن قلبه الذي لم ينام كان يعرف به أنه لم يحدث ، ولو كان النوم نفسه كالبول والغائط والريح : لنقض كسائر النواقض .

وأيضاً قد ثبت في الصحيحين « أن الصحابة كانوا ينتظرون الصلاة حتى تحفق رؤوسهم . ثم يصابون ولا يتوضؤون . وهم في المسجد ينتظرون العشاء خلف النبي صلى الله عليه وسلم » .

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضی الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شغل عن العشاء ليلة ، فأخرها حتى رقدنا في المسجد ، ثم استيقظنا . ثم رقدنا ثم استيقظنا . ثم خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قال : ليس أحد من أهل الأرض الليلة ينتظر الصلاة غيركم » .

ولسلم عنه قال « مكثنا ذات ليلة ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلاة العشاء الآخرة . فخرج علينا حين ذهب ثلث الليل ، أو بعضه - ولا ندرى أى شيء شغله ، من أهله أو غير ذلك - فقال حين خرج : إنكم لتنتظرون صلاة

ما ينتظرها أهل دين غيركم . ولولا أن يتقل على أمتي لصليت بهم هذه الساعة .  
ثم أمر المؤذن فأقام الصلاة وصلى .

وسلم أيضاً عن عائشة رضی الله عنها قالت « أَعْتَمَ رسولُ الله صلى الله عليه  
وسلم ذات ليلة ، حتى ذهب عامة الليل ، وحتى نام أهل المسجد . ثم خرج فصلى .  
فقال : إنه لوقتها . لولا أن أشق على أمتي » .

ففي هذه الأحاديث الصحيحة : أنهم ناموا ، وقال في بعضها « إنهم رقدوا ثم  
استيقظوا ثم رقدوا ثم استيقظوا » وكان الذين يصلون خلفه جماعة كثيرة ، وقد طال  
انتظارهم وناموا . ولم يستفصل أحد ، لا سئل ولا سأل الناس : هل رأيتم رؤيا ؟  
أو هل مَكَّن أحدكم مقعدته ؟ أو هل كان أحدكم مستنداً ؟ وهل سقط شيء  
من أعضائه على الأرض ؟ فلو كان الحكم يختلف لسألهم .

وقد علم أنه في مثل هذا الانتظار بالليل - مع كثرة الجمع - يقع هذا كله .  
وقد كان يصلى خلفه النساء والصبيان .

وفي الصحيحين عن عائشة رضی الله عنها قالت « أَعْتَمَ رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ليلة من الليالي بصلاة العشاء . فلم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم  
حتى قال عمر بن الخطاب : نام النساء والصبيان . فخرج رسول الله صلى الله عليه  
وسلم ، فقال لأهل المسجد ، حين خرج عليهم : ما ينتظرها أحد من أهل الأرض  
غيركم . وذلك قبل أن يفشو الإسلام في الناس » .

وقد حَرَّج البخاري هذا الحديث في « باب خروج النساء إلى المسجد بالليل  
والغلس » وفي « باب النوم قبل العشاء لمن غلب عليه النوم » وخرجه في « باب  
وضوء الصبيان وحضورهم الجماعة » وقال فيه « إنه ليس أحد من أهل الأرض  
يصلى هذه الصلاة غيركم » .

وهذا يبين أن قول عمر « نام النساء والصبيان » يعني والناس في المسجد  
ينتظرون الصلاة .

وهذا يبين أن المنتظرين للصلاة ، كالذى ينتظر الجمعة إذا نام أى نوم كان لم ينقض وضوءه . فإن النوم ليس بناقض . وإنما الناقض : الحدث . فإذا نام النوم المعتاد ، الذى يختاره الناس فى العادة - كنوم الليل والقائلة - فهذا يخرج منه الريح فى العادة ، وهو لا يدرى إذا خرجت ، فلما كانت الحكمة خفية لا تعلم بها : قام دليلها مقامها . وهذا هو النوم الذى يحصل هذا فيه فى العادة .

وأما النوم الذى يشك فيه : هل حصل معه ريح أم لا ؟ فلا ينقض الوضوء . لأن الطهارة ثابتة بيقين ، فلا تزول بالشك .

وللناس فى هذه المسألة أقوال متعددة ، ليس هذا موضع تفصيلها . لكن هذا هو الذى يقوم عليه الدليل .

وليس فى الكتاب والسنة نص يوجب النقص بكل نوم .

فإن قوله « العَيْنُ وَكَأه السَّهِّ ، فإذا نامت العينان استُطْلِقَ الوكاه » قد روى فى السنن من حديث على بن أبى طالب ومعاوية رضى الله عنهما ، وقد ضعفه غير واحد . وبتقدير صحته : فإنما فيه « إذا نامت العينان استطلق الوكاه » وهذا يفهم منه : أن النوم المعتاد هو الذى يستطلق منه الوكاه . ثم نفس الاستطلاق لا ينقض . وإنما ينقض ما يخرج مع الاستطلاق . وقد يسترخى الإنسان حتى ينطلق الوكاه ولا ينقض وضوءه .

وإنما قوله فى حديث صفوان بن عسال « أمرنا أن لا ننزع خفافنا ، إذا كنا سفراً - أو مسافرين - ثلاثة أيام ولياليهن ، إلا من جنابة . لكن من غائط أو بول أو نوم » فهذا ليس فيه ذكر نقض النوم . ولكن فيه : أن لابس الخفين لا ينزعهما ثلاثة أيام إلا من جنابة . ولا ينزعهما من الغائط والبول والنوم . فهو نهى عن نزعهما لهذه الأمور . وهو يتناول النوم الذى ينقض . ليس فيه : أن كل نوم ينقض الوضوء .

هذا إذا كان لفظ « النوم » فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم . فكيف إذا



كان من كلام الراوى؟ وصاحب الشريعة قد يعلم أن الناس إذا كانوا قعوداً أو قياماً في الصلاة أو غيرها، فينعس أحدهم وينام، ولم يأمر أحداً بالوضوء في مثل هذا أما الوضوء من النوم المعروف عند الناس : فهو الذى يترجح معه في العادة خروج الريح وأما ما كان قد يخرج معه الريح ، وقد لا يخرج : فلا ينقض على أصل الجمهور ، الذين يقولون : إذا شك هل ينقض أو لا ينقض ؟ أنه لا ينقض . بناء على يقين الطهارة .

### فصل

وهو سبحانه أسرنا بالطهارتين الصغرى والكبرى ، وبالتيمم على كل منهما ، فقال ( إذا قتم إلى الصلاة فاغسلوا ) فأمر بالوضوء . ثم قال ( وإن كنتم جنباً فاطهروا ) فأمر بالتطهر من الجنابة ، كما قال في الحيض ( ٢ : ٢٢٢ ) فلا تقر بوهن حتى يطهرن . فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ) وقال في سورة النساء ( ٤ : ٤٣ ) ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغسلوا ) وهذا يبين أن التطهر هو الاغتسال والقرآن يدل على أنه لا يجب على الجنب إلا الاغتسال ، وأنه إذا اغتسل جازله أن يقرب الصلاة . والاعتسال من الجنابة فليس عليه نية رفع الحدث الأصغر ، كما قال جمهور العلماء . والمشهور في مذهب أحمد : أن عليه نية رفع الحدث الأصغر . وكذلك ليس عليه فعل الوضوء ، ولا ترتيب ولا موالاة عند الجمهور . وهو ظاهر مذهب أحمد .

وقيل : لا يرتفع الحدث الأصغر إلا بهما .

وقيل : لا يرتفع حتى يتوضأ . روى ذلك عن أحمد .

والقرآن يقتضى : أن الاعتسال كافٍ . وأنه ليس عليه بعد الغسل من الجنابة حدث آخر . بل صار الأصغر جزءاً من الأكبر . كما أن الواجب في الأصغر جزء من الواجب في الأكبر . فإن الأكبر يتضمن غسل الأعضاء الأربعة .

ويدل على ذلك : قول النبي صلى الله عليه وسلم لأُم عطية واللواتى غسلن

ابنته « اغسلنها ثلاثاً ، أو خمساً ، أو أكثر من ذلك ، إن رأيتن ذلك . وابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها » .

فجعل غسل مواضع الوضوء جزءاً من الغسل . لكنه يقدم كما تقدم الميامن . وكذلك الذين نقوا صفة غسله ، كعائشة رضی الله عنها ، ذكرت « أنه كان يتوضأ ، ثم يفيض الماء على شعره ، ثم على سائر بدنه » ولا يقصد غسل مواضع الوضوء مرتين ، وكان لا يتوضأ بعد الغسل .

فقد دل الكتاب والسنة على أن الجنب والحائض لا يغسلان أعضاء الوضوء ، ولا ينويان وضوءاً ، بل يتطهران ويعتسلان كما أمر الله تعالى .

وقوله ( فاطهروا ) أراد به الاغتسال . فدل على أن قوله في الحِيض « حتى يطهرن فإذا تطهرن » أراد به الاغتسال ، كما قاله الجمهور : مالك والشافعي وأحمد . وأن من قال : هو غسل الفرج . كما قاله داود ، فهو ضعيف .

### فصل

قال الله عز وجل ( وإن كنتم مرضى أو على سفر ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء . فلم تجدوا ماء . فتميموا صعيداً طيباً ) .

فقوله « فلم تجدوا ماء » يتعلق بقوله « على سفر » لا بالمرض . والمرضى يميم وإن وجد الماء . والمسافر إنما يميم إذا لم يجد الماء . ذكر سبحانه وتعالى النوعين الغالبين : الذي يتضرر باستعمال الماء ، والذي لا يجده .

وقوله « على سفر » يعم السفر الطويل والقصير ، كما قاله الجمهور .

وقوله « وإن كنتم مرضى » كقوله في آية الخوف ( ٤ : ١٠٢ ) ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى : أن تضعوا أسلحتكم ) وقوله في الإحرام ( ٢ : ١٩٦ ) فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ( وفي الصيام ( ٢ : ١٨٥ ) فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ) ولم يوقت الله تعالى وقتاً في المرض .

والذى عليه الجمهور : أنه لا يشترط فيه خوف الهلاك . بل من كان الوضوء يزيد مرضه ، أو يؤخر برؤه ، يتيمم . وكذلك فى الصيام والإحرام . ومن يتضرر بالماء لبرد ، فهو كالمرضى عند الجمهور . لكن الله ذكر الضرر العام ، وهو المرض . بخلاف البرد . فإنه إنما يكون فى بعض البلاد لبعض الناس الذين لا يقدرّون على الماء الحار .

وكذلك ذكر المسافر الذى لا يجد الماء ، ولم يذكر الحاضر . فإن عدمه فى الحضر نادر . لكن قد يحبس الرجل وليس عنده إلا ما يكفيه لشربه . كما أن المسافر قد لا يكون معه إلا ما يكفيه لشربه وشرب دوابه . فهذا عند الجمهور عادم للماء فيتيمم .

### فصل

وقوله ( أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء ) . ذكر أعظم ما يوجب الوضوء . وهو قضاء الحاجة . وأغلظ ما يوجب الغسل ، وهو ملامسة النساء . وأمر كلا منهما ، إذا كان مريضاً أو مسافراً لا يجد الماء : أن يتيمم . وهذا هو مذهب جمهور الخلف والسلف .

وقد ثبت تيمم الجنب فى أحاديث صحاح وحسان ، كحديث عمار بن ياسر رضى الله عنهما . وهو فى الصحيحين . وحديث عمران بن حصين ، رضى الله عنه وهو فى البخارى . وحديث أبى ذر ، وعمرو بن العاص ، وصاحب الشَّجَّة رضى الله عنهم . وهو فى السنن .

فهاتان آيتان من كتاب الله ، وخمسة أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد عرفت مناظرة ابن مسعود فى ذلك لأبى موسى الأشعري رضى الله عنهما .

ولهذا نظائر كثيرة من الصحابة . إذا عرفتها تعرف دلالة الكتاب والسنة عن الرجل العظيم القدر ، تحقيقاً لقوله ( ٤ : ٥٩ ) فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله

(والرسول) ولا يرد هذا النزاع إلا إلى الله والرسول المعصوم المبلغ عن الله ، الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى . الذى هو الواسطة بين الله وبين عباده .

## فصل

[ مس المرأة لا ينقض الوضوء ]

ونذكر هذا على قوله ( أو لامستم النساء ) .

المراد به : الجماع . كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما وغيره من العرب . وهو يروى عن على رضى الله عنه وغيره . وهو الصحيح فى معنى الآية . وليس فى نقض الوضوء من مس النساء ، لا كتاب ولا سنة . وقد كان المسلمون دائماً يمسون نساءهم . وما نقل مسلم واحداً عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه أمر أحداً بالوضوء من مس النساء .

وقول من قال : إنه أراد ما دون الجماع ، وإنه ينقض الوضوء . فقد روى عن ابن عمر والحسن « باليد » وهو قول جماعة من السلف فى المس بشهوة ، والوضوء منه حسن مستحب لإطفاء الشهوة ، كما يستحب الوضوء من الغضب لإطفائه . وأما وجوبه : فلا .

وأما المس المجرد عن الشهوة : فما أعلم للنقض به أصلاً من السلف .

وقوله تعالى ( أو لامستم النساء ) لم يذكر فى القرآن الوضوء منه ، بل إنما ذكر التيمم ، بعد أن أمر المحدث القائم للصلاة : بالوضوء . وأمر الجنب بالاعتسال فذكر الطهارة بالصعيد الطيب ، ولا بد أن يبين النوعين .

وقوله ( أو جاء أحد منكم من الغائط ) بيان لتيمم هذا .

وقوله ( أو لامستم النساء ) لم يذكر واحداً منهما لبيان طهارة الماء .

إذا كان قد عرف أصل هذا . فقوله « إذا قمتم فاغسلوا » وقوله « وإن كنتم جنباً فاطهروا » فالآية ليس فيها إلا أن اللامس إذا لم يجد الماء يتيمم . فكيف يكون هذا من المحدث الأصغر ؟ يأمر من مس المرأة أن يتيمم ، وهو لم يأمره أن

يتوضأ . فكيف يأمر بالتييم من لم يأمره بالوضوء ؟ وهو إنما أمر بالتييم من أمره بالوضوء والاعتسال . ونظير هذا يطول . ومن تدبر الآية قطع بأن هذا هو المراد .

### فصل

ودلت الآية على أن المسافر : يجمع أهله ، وإن لم يجد الماء ، ولا يكره له ذلك كما قاله الله في الآية . وكادت عليه الأحاديث . حديث أبي ذر وغيره .

### فصل

التييم يرفع الحدث الأكبر والأصغر

وقوله ( فتيمموا صعيداً طيباً ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج . ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ) دليل على أن التيمم مطهر كالماء سواء .

وكذلك ثبت في صحيح السنة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الصعيد الطيب طهور المسلم ، وإن لم يجد الماء عشر سنين . فإذا وجدت الماء فأمسته بشرتك فإن ذلك خير » رواه الترمذى وصححه ورواه أبو داود والنسائى .  
وفي الصحيح عنه : قال « جُعِلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » .

وهو - صلى الله عليه وسلم - جعل التراب طهوراً فى طهارة الحدث وطهارة الجنب . كما قال فى حديث أبى سعيد « إذا أتى أحدكم المسجد فليقلب نعليه فلينظر فيهما ، فإن كان بهما أذى - أو خبث - فليدلكهما بالتراب . فإن التراب لها طهور » وقال فى حديث أم سلمة « ذبل المرأة يطهره مابعدته » .

فدل على أن التيمم مطهر ، يجعل صاحبه طاهراً ، كما يجعل الماء مستعمله فى الطهارة طاهراً ، إن لم يكن جنباً ولا محدثاً . فمن قال : إن التيمم جنب أو محدث ، فقد خالف الكتاب والسنة . بل هو متطهر .

وقوله فى حديث عمرو بن العاص رضى الله عنه « أصليت بأصحابك وأنت

جنب؟ « استفهام . أى هل فعلت ذلك؟ فأخبره عمرو رضى الله عنه : أنه لم يفعله بل تيمم لخوفه : أن يقتله البرد . فسكت صلى الله عليه وسلم عنه ، وضحك . ولم يقل شيئاً .

فإن قيل : إن هذا إنكار عليه : أنه صلى مع الجنابة . فإنه يدل على أن الصلاة مع الجنابة لا تجوز . فإنه صلى الله عليه وسلم لم ينكر ما هو منكر ، فلما أخبره : أنه صلى بالتيمم . دل على أنه لم يصل وهو جنب .

فالحديث حجة على من احتج به ، وجعل التيمم جنباً ومحدثاً . والله يقول ( وإن كنتم جنباً فاطهروا ) فلم يُجْزِ اللهُ له الصلاة حتى يتطهر . والتيمم قد تطهر بنص الكتاب والسنة . فكيف يكون جنباً غير متطهر؟

لكنها طهارة بدل . فإذا قدر على الماء بطلت هذه الطهارة ، وتطهر بالماء حينئذ . لأن البول المتقدم جعله محدثاً . والصعيد جعله مطهراً ، إلى أن يجد الماء . فإن وجد الماء فهو محدث بالسبب المتقدم لا أن الحدث كان مستمراً .

ثم من قال : التيمم مبيح ، لا رافع فإن نزاعه لفظى . فإنه إن قال : إنه يبيح الصلاة مع الجنابة والحدث ، وإنه ليس بطهور ، فهو يخالف النصوص . والجنابة محرمة للصلاة . فيمتنع أن يجتمع المبيح والحرم على سبيل التمام . فان ذلك يقتضى اجتماع الضدين . والتيمم غير ممنوع من الصلاة . فالمنع ارتفع بالاتفاق ، وحكم الجنابة المنع . فإذا قيل بوجوده ، بدون مقتضاها - وهو المنع - فهذا نزاع لفظى .

## فصل

### الاستنجاء بالماء ليس بواجب

وفى الآية دلالة على أن المتخلى لا يجب عليه غسل فرجه بالماء ، إنما يجب الماء فى طهارة الحدث بسبيله . على أن إزالة النجس والخبث لا يتعين لها الماء . فإنه على ذلك تدل النصوص . إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم أمر فيها تارة بالماء ، وتارة بغير الماء ، كما قد بسط فى مواضع (١) .

(١) كالحديث المتقدم فى صفحة ١٤٧ فى طهارة النعل بالدلك .

إذ المقصود هنا : التنبية على ما دلت عليه الآية . فإن قوله ( أو جاء أحد منكم من الغائط ، فلم تجدوا ماء فتميموا ) نصٌّ في أنه عند عدم الماء يصلى وإن تعوط . بلا غَسَل .

وقد ثبت في السنة « أنه يكفيه ثلاثة أحجار » وأما مع العذر : فإنه قال ( إذا قتم إلى الصلاة فاعسلوا ) وهذا يتناول كل قائم ، وهو يتناول من جاء من الغائط ، كما يتناول من خرجت منه الريح . فلو كان غسل الفرجين بالماء واجباً على القائم إلى الصلاة . لكان واجباً كوجوب غسل الأعضاء الأربعة .

والقرآن يدل على أنه لا يجب عليه إلا ما ذكره من الغسل والمسح . وهو يدل على أن المتوضىء والمتميم متطهر . والفرجان جاءت السنة بالاكتفاء فيهما بالاستحجار .

وقوله تعالى ( ٩ : ١٠٨ ) فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المتطهرين ) يدل على أن الاستنجاء مستحب ، يحبه الله ، لا أنه واجب <sup>(١)</sup> . بل لما كان غير هؤلاء من المسلمين لا يستنجون بالماء - ولم يذمهم على ذلك بل أقرهم . ولكن خص هؤلاء بالمدح - دل على جواز ما فعله غير هؤلاء . وأن فعل هؤلاء أفضل ، وأنه مما فضل الله به الناس بعضهم على بعض .

### فصل

الترتيب في الوضوء وغيره من العبادات والعقود ، والنزاع فيه مشهور . فذهب الشافعي وأحمد : يجب . ومذهب مالك وأبي حنيفة : لا يجب . وأحمد قد نص على وجوبه نصوصاً متعددة . ولم يذكر المتقدمون - كالقاضي ، ومن قبله - عنه نزاعاً .

قال أبو محمد : لم أر عنه فيه خلافاً .

قال : وحكى أبو الخطاب : رواية أخرى عن أحمد : أنه غير واجب .

---

(١) على أن « المتطهرين » هنا هم المزكون أنفسهم بهدى الرسالة من أقدار الجاهلية

قلت : هذه أخذت من نصه في القبضة للاستنشاق . فلو أخرج غسلها إلى ما بعد غسل الرجلين : فقيه عن أحمد روايتان منصوصتان . فإنه قال في إحدى الروايتين : إنه لو نسيهما حتى صلى : تمضمض واستنشق ، وأعاد الصلاة ، ولم يعد الوضوء . لما في السنن عن المقدم بن معديكرب « أنه أتى بوضوء . فغسل كفيه ثلاثاً ، ثم غسل وجهه ثلاثاً ، ثم غسل ذراعيه ثلاثاً ثم تمضمض واستنشق » فقير أبي الخطاب فرق بينهما وبين غيرها ، بأن الترتيب إنما يجب فيما ذكر في القرآن . وهما ليسا في القرآن .

وأبو الخطاب - ومن تبعه - رأوا هذا فرقاً ضعيفاً .

فإن الأنف والقدم لو لم يكونا من الوجه لما وجب غسلهما . ولهذا خرَّج الأصحاب : أنهما من الوجه . كما قال الخرق وغيره « والقدم والأنف من الوجه » ولأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستفتح بهما غسل الوجه . يبدأ بغسل ما بطن منه . وقدم المضمضة ، لأن القدم أقرب إلى الظاهر من الأنف . ولهذا كان الأمر به أوكد . وجاءت الأحاديث الصحيحة بالأمر به . ثم كان النبي صلى الله عليه وسلم يغسل سائر الوجه .

فإذا قيل بوجودهما مع النزاع ، فهما كسائر ما نوزع فيه . مثل البياض الذي بين العذار والأذن ، فمالك وغيره يقول : ليس من الوجه . وفي النزعتين والتحذيف ثلاثة أوجه .

قيل : هما من الرأس . وقيل : من الوجه .

والصحيح : أن النزعتين من الرأس ، والتحذيف من الوجه<sup>(١)</sup> . فلو نسي ذلك فهو كما لو نسي المضمضة والاستنشاق .  
فتسوية أبي الخطاب أقوى .

---

(١) هو القدر الذي يقع في جانب الوجه مهما وضع طرف خيط على رأس الأذن . والطرف الثاني على زاوية الجبين .



وعلى هذا : فأحد إنما نص على من ترك ذلك ناسياً . ولهذا قيل له : نسي الممضضة وحدها ؟ فقال : الاستنشاق عندي أوكد . يعنى إذا نسي ذلك وصلى . قال : يغسلهما ، ويعيد الصلاة ، والإعادة إذا ترك الاستنشاق عنده أوكد ، للأمر به فى الأحاديث الصحيحة . وكذلك الحديث المرفوع ، فان جميع من نقل وضوء النبي صلى الله عليه وسلم أخبروا : أنه بدأ بهما .

وهذا حَكَمَى فعلاً واحداً . فلا يمكن الجزم بأنه كان متعمداً .

وحينئذ فليس فى تأخيرها عمداً سنة ، بل السنة فى النسيان . فان النسيان متيقن . فان الظاهر : أنه كان ناسياً إذا قُدِّرَ الشك . فاذا جاز مع التعمد ، فمع النسيان أولى . فالناسى معذور بكل حال ، بخلاف المتعمد . وهو القول الثالث . وهو الفرق بين المتعمد لتتوكيس الوضوء ، وبين المعذور بنسيان أو جهل . وهو أرجح الأقوال . وعليه يدل كلام الصحابة ، وجمهور العلماء .

وهو الموافق لأصول المذهب فى غير هذا الموضوع . وهو المنصوص عن أحمد فى الصورة التى خَرَجَ منها أبو الخطاب .

فمن ذلك : إذا أُخِلَّ بالترتيب بين الذبح والحلق . فإن الجاهل يعذر بلا خلاف فى المذهب . وأما العالم المتعمد : فعنه روايتان ، والسنة إنما جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم « كان يُسأل عن ذلك ؟ فيقول : افعل ، ولا خرج » لأنهم قدموا وأخروا بلا علم . لم يتعمدوا المخالفة للسنة . وإلا فالقرآن قد جاء بالترتيب لقوله ( ٢ : ١٩٦ ) ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إني قَلَدت هدي ، ولَبَدت رأسى ، فلا أُحِلِّ وأحلق حتى أنحر » .

وقوله ( ٢٩ : ٢٢ ) ثم ليقضوا نَفْسَهُمْ وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ) أدل على الترتيب من قوله ( ٢ : ١٥٨ ) إن الصفا والمروة من شعائر الله ) .

لكن يقال : قد فرقوا بأن هذه عبادة واحدة مرتبط بعضها ببعض . وتلك

عبادات ، كالحج والعمرة والصلاة والزكاة .

وهكذا فرق أبو بكر عبد العزيز بين الوضوء وغيره . فقال : ذاك كله من الحج والدماء والذبح والحلق والطواف . والحج عبادة واحدة . ولهذا متى وطىء قبل التحلل الأول فسد الحج عند الجمهور . وهل يحصل كالدم وحده ، أو كالدم والحلق ؟ على روايتين .

ومنها : إذا نسى بعض آيات السورة في قيام رمضان . فإنه لا يعيدها . ولا يعيد ما بعدها ، مع أنه لو تعدد تنكيس آيات السورة وقراءة المؤخر قبل المقدم : لم يجز بالاتفاق . وإنما النزاع في ترتيب السور . نص على ذلك أحمد . وحكاه عن أهل مكة . سئل عن الإمام في شهر رمضان يدع الآيات من السورة ، ترى لمن خلفه أن يقرأها ؟ قال : نعم . ينبغي له أن يفعل . قد كانوا بمكة يوكلون رجلاً يكتب ما ترك الإمام من الحروف وغيرها . فإذا كان ليلة الختمة أعاده .

قال الأصحاب - كآبي محمد - وإنما استحب ذلك لتتم الختمة . ويكمل الثواب فقد جعل أهل مكة وأحمد وأصحابه إعادة للنسي من الآيات وحده يكمل الختمة والثواب ، وإن كان قد أدخل بالترتيب هنا . فإنه لم يقرأ تمام السورة . وهذا مأثور عن علي رضي الله عنه « أنه نسي آية من سورة . ثم في أثناء القراءة : قرأها ، وعاد إلى موضعه » ولم يشعر أحد أنه نسي إلا من كان حافظاً .

فهكذا من ترك غسل عضو أو بعضه نسياناً يغسله وحده ، ولا يعيد غسل ما بعده . فيكون قد غسله مرتين . فإن هذا لا حاجة إليه .

وهذا التفصيل يوافق ما نقل عن الصحابة والأكثرين . فإن الأصحاب وغيرهم فعلوا كما نقله ابن المنذر عن علي ، ومكحول والنخعي ، والزهرى والأوزاعي ، فيمن نسي مسح رأسه ، فرأى في لحيته بللاً . فمسح به رأسه ، فلم يأمره بإعادة غسل رجله . واختاره ابن المنذر .

وقد نقل عن علي ، وابن مسعود « ما أبالي بأى أعضائى بدأت » قال أحمد : إنما عني به اليسرى على اليمنى . لأن مخرجهما من الكتاب واحد .

ثم قال أحمد : حدثني جرير عن قابوس عن أبيه « أن علياً سئل . فقيل له : أحدنا يستعجل ، فيغسل شيئاً قبل شيء ؟ فقال : لا . حتى يكون كما أمره الله تعالى » فهذا الذي ذكره أحمد عن علي يدل على وجوب الترتيب .  
وما نقله ابن المنذر في صورة النسيان : يدل على أن الترتيب يسقط مع النسيان ، ويعيد المنسى فقط .

فدل على أن التفصيل قول علي رضي الله عنه .  
وقد ذكر من أسقطه مطلقاً : ما روى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال « لا بأس أن تبدأ برجليك قبل يديك » .  
لكن قال أحمد وغيره : لا نعرف لهذا أصلاً . ونقلوا في الوجوب عن سعيد ابن المسيب وعطاء والحسن . وهؤلاء أئمة التابعين .

وصورة النسيان مرادة قطعاً . فتبين أنها قول جمهور السلف ، أو جميعهم .  
والأمر المنكر : أن تعتمد تنكيس الوضوء . فلا ريب أن هذا مخالف لظاهر الكتاب ، مخالف للسنة المتواترة . فإن هذا لو كان جائزاً لكان قد وقع أحياناً ، أو تبين جوازه ، كما في ترتيب التسبيح لما قال النبي صلى الله عليه وسلم « أفضل الكلام - بعد القرآن - أربع . وهن من القرآن : سبحان الله والحمد لله . ولا إله إلا الله . والله أكبر . لا يضرك بأيتهن بدأت » .

ومما يدل على ذلك شرعاً ومذهباً : أن من نسي صلاة صلاها إذا ذكرها بالنص .

وقد سقط الترتيب هنا في مذهب أحمد بلا خلاف . ومذهب أبي حنيفة وغيره .  
ولكن حكى عن مالك : أنه لا يسقط . وقاسوا ذلك على ترتيب الطهارة .  
وقول النبي صلى الله عليه وسلم « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها » نص في أنه يصلها في أي وقت ذكر . وليس عليه غير ذلك .  
وقد سلم الأصحاب : أن ترتيب الجمع لا يسقط بالنسيان .

وعموم الحديث يدل على سقوطه . فلو كانت المنسية هي الأولى من صلاتي الجمع : أعادها وحدها بموجب النص . ومن أوجب إعادة الثانية فقد خالف . وكذلك يقال في سائر أهل الأعدار ، كالمسبوق إذا أدركهم في الثانية : صلاها معهم . ثم صلى الأولى . كما لو أدرك بعض الصلاة . وليس ترتيب صلاته على أول الصلاة بأعظم من ترتيب آخر الصلاة على أولها . وإذا كان هكذا سقط ما أدرك ، ويقضى ما سقط . فهذا في الصلاتين أولى . لاسيما وهو إذا لم يدرك من المغرب إلا تشهدا تشهد ثلاث شهادات ، كما في حديث ابن مسعود المشهور في قصة مسروق وحديثه . وهذا أصل ثابت كالنص والإجماع . يعتبر به نظائره . وهو سقوط الترتيب عن المسبوق . وكانوا في أول الإسلام لا يرتبون . فيصلون مافاتهم ، ثم يصلون مع الإمام . لكن نسخ ذلك . وقد روى أن أول من فعله معاذ . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « قد سن لكم معاذ فاتبعوه » . والأئمة الأربعة : على أنه يقرأ في ركعتي القضاء بالحمد وسورة . وكذلك لو أدرك الإمام ساجداً سجد معه بالنص واتفاق الأئمة . فقد سجد قبل القيام لمتابعة الإمام وإن لم يعتد به . ولكنه لو فعل هذا عمداً لم يجز . فلو كبر وسجد ثم قام : لم تصح صلاته . لكن هذا يستدل به على أن الركعة الواحدة يجب فيها الترتيب . فإن هذا السجود - ولو ضم إليه بعد السلام ركوعاً مجرداً - لم يصر ذلك ركعة . بل عليه أن يأتي بركعة بعدها سجدة . لأنه أخل بالترتيب والموالاته . فكذلك إذا نسي الركوع حتى تشهد وسلم . فقيه قولان في المذهب : هل تبطل صلاته ؟ والمنصوص إن لم يطل الفصل بنى على ماضى ، وهو قول الشافعى رحمه الله وغيره .

وذهب طائفة من العلماء إلى سقوط الموالاة والترتيب في الصلاة مع النسيان .  
فقال مكحول ، ومحمد بن أسلم - في المصلى : ينسى سجدة أو ركعة - يصلها متى  
ما ذكرها . ويسجد للسهو . وقال الأوزاعي - لرجل نسي سجدة من صلاة الظهر ،  
فذكرها في صلاة العصر - يمضى في صلاته . فإذا فرغ سجد .  
ويدل على هذا القول : أحاديث سجود السهو . فإنها تدل على أنه يتم الصلاة ،  
ثم يسجد للسهو ، ولو مع طول الفصل .

وأما المسبوق : فالسجود الذي فعله مع الإمام : كان لمتابعة الإمام . ولهذا  
قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر «زادك الله حرصاً . ولاتعد» وهو متمكن  
من أن يأتي بالركعة بعد السلام فلا عذر له حتى <sup>(١)</sup> وإذا نسي ركناً  
من الأولى حتى شرع في الثانية . ففيها قولان .

مالك وأحمد لا يقولان بالتلفيق . بل تلغو المنسي ركناً . وتقوم هذه مقامها .  
ولسكن هل يكون ذلك بالقراءة أو بالركوع ؟ فيه نزاع .

والشافعي يقول : ما فعله بعد الركوع المنسي ، فهو لغو . لأن فعله في غير محله  
لا أن يفعل نظيره في الثانية . فيكون هو تمام الأول . كما لو سلم من الصلاة ، ثم  
ذكر . فإن السلام يقع لغواً .

فأحمد ومالك يقولان : هو إنما يقصد بما فعله أن يكون من الركعة الثانية .  
لم يقصد أن يكون من الأولى ، وهو إذا قرأ أو ركع في الركعة الثانية : أمكن أن  
يجعلها هي الأولى . فإن الترتيب بين الركعات يسقط بالعذر . فلا وجه لإبطال  
هذه . ولا يكون فاعلاً له في غير محله ، إلا إذا جعلت هذه ثانية . فإذا جعلت  
الأولى : كان قد فعله في محله .

وإذا قيل : هو قصد الثانية قبل ، وقصد بالسجود فيها السجود في الثانية  
لرعاية ترتيبه في أبعاض الركعة بأن لا يجعل بعضها في ركعة غيرها : أولى من

(١) بياض بالأصل

رعايتها في الركعتين . فإن جعل الأولى ثانية يجوز للعذر ، كما في المسبوق . وأما جعل سجود الثانية تماماً للأولى : فلا نظير له في الشرع . وبسط هذا له مكان آخر . والمقصود هنا : سقوط الترتيب في الوضوء بالنسيان . وكذلك سقوط الموالاة كما هو قول مالك . وكذلك بغير النسيان من الأعذار ، مثل بُعد الماء . كما نقل عن ابن عمر . فإن الصلاة نفسها إذا جاز فيها عدم الموالاة للعذر ، فالوضوء أولى . بدليل صلاة الخوف في حديث ابن عمر ، وأحاديث سجود السهو . وأما حديث صاحب اللُّمعة ، التي كانت في ظهر قدمه : فمثل هذا لا ينسى . فدل أنه تركها تفریطاً .

والموالاة في غسل الجنابة : لا تجب ، للحديث الذي فيه أنه « رأى في بدنه موضعاً لم يُصِّبْهُ الماء ، فعصر عليه شعره » . والأصحاب فرقوا بينه وبين الوضوء . فإنه لا يجب ترتيبه ، فكذلك الموالاة . ومالك يوجب الموالاة ، وإن لم يوجب الترتيب في الوضوء .

وأما في الغسل : فالبدن كعضو واحد . والعضو الواحد لا ترتيب فيه بالاتفاق . وأما إذا تفرق الغسل : فهو كتعهد تفریق غسل العضو الواحد . لكن فرق بينهما . فإن غسل الجنابة كإزالة النجاسة ، لا يتعدى حكم الماء محلّه . بخلاف الوضوء . فإن حكمه طهارة جميع البدن ، والمغسول أربعة أعضاء . وهذا محل نظر . والجنب إذا وجد بعض ما يكفيه استعماله . وأما المتوضئ : ففيه قولان للأصحاب . ومن جوز ذلك جعل الوضوء يتفرق للعذر ، وجعل ما غسل يحصل به بعض الطهارة . وكذلك الماسح على الخفين إذا خلعهما . هل يقتصر على مسح الرجلين أو يعيد الوضوء ؟ فيه قولان ، هما روايتان .

وقد قيل : إن المأخذ هو الموالاة . وقيل : إن المأخذ أن الوضوء لا ينتقض . فإذا عاد الحدث إلى الرجل عاد إلى جميع الأعضاء . وهذا عند العذر : فيه نزاع كما تقدم .

وقد يكون الترتيب شرطاً لا يسقط بجهل ولا نسيان . كما في الحديث الصحيح « من ذبح قبل الصلاة فإنما هو شاة لحم » فالذبح للأضحية : مشروط الصلاة قبله . وأبو بردة بن نيار رضى الله عنه كان جاهلاً . فلم يعذره بالجهل . بل أمره بإعادة الذبح . بخلاف الذين قدموا في الحج : الذبح على الرمي ، أو الحلق على ما قبله . فإنه قال « افعل ولا حرج » فهاتان سنتان : سنة في الأضحية ، إذا ذبحت قبل الصلاة : أنها لا تجزئ . وسنة في الهدى ، إذا ذبح قبل الرمي جهلاً : أجزأ . والفرق بينهما - والله أعلم - أن الهدى صار نسكاً بسوقه إلى الحرم وتقليده وإشعاره . فقد بلغ محله في المكان والزمان . فإذا قُدِّم جهلاً : لم يخرج عن كونه هدياً . وأما الأضحية : فإنها قبل الصلاة لا تتميز عن شاة اللحم . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « من ذبح قبل الصلاة ، فإنما هي شاة لحم قدمها لأهله » وإنما هي نسك بعد الصلاة . كما قال تعالى ( فصل لربك وانحر ) وقال ( ٦ : ١٦٢ ) إن صلاتى ونسكى ) فصار فعله قبل هذا الوقت : كالصلاة قبل وقتها .

فهذا وقت الأضحية . ووقته بعد فعل الصلاة ، كما بين الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك في الأحاديث الصحيحة . وهو قول الجمهور من العلماء : مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل ، وغيرهم . وإنما قَدَّرَ وقتها بمقدار الصلاة : الشافعى ومن وافقه من أصحاب أحمد ، كالخرفى .

وفي الأضحية . يشترط ، في أحد القولين : أن يذبح بعد الإمام . وهو قول مالك ، وأحد القولين في مذهب أحمد . ذكره أبو بكر . والحجة فيه : حديث جابر في الصحيح<sup>(١)</sup> .

---

(١) قال « صلى بنا رسول الله يوم النحر بالمدينة . فتقدم رجال فنحروا وظنوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نحر . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم من نحر قبله : أن يعيد بنحر آخر - الحديث » متفق عليه .

وقد قيل : إن قوله ( ١:٤٩ ) لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ) نزلت في ذلك وكذلك في الإفاضة من عرفة قبل الإمام قولان . في مذهب أحمد : يجب فيه دم . فهذا عند من يوجهه بمنزلة اتباع المأموم الإمام في الصلاة .

### فصل

وما ذكره من نصه على قراءة مانسى : يدل على أن الترتيب يسقط بالنسيان في القراءة . وقد ذكر أحمد وأصحابه : أن موالة الفاتحة واجبة . وإذا تركها لعذر نسيان ، قالوا - واللفظ لأبي محمد - وإن كثر ذلك - أى الفصل - استأنف قراءتها إلا أن يكون المسكوت مأموراً به ، كالمأموم يشرع في قراءة الفاتحة ثم يسمع قراءة الإمام فينصت له . ثم إذا سكت الإمام : أتم قراءتها وأجزأته . أو ما إليه أحمد . وكذلك إن كان السكوت نسياناً أو نوباً ، أو لا تنقله إلى غيرها غلطا : لم تبطل . فإذا ذكر : أتى بما بقي منها . فإن تبادى فيما هو فيه - بعد ذكرها - أبطلها . ولزمه استثنافها . قال : وإن قَدَّمَ آية منها في غير موضعها : أبطلها . وإن كان غلطا : رجع إلى موضع الغلط فأتمها .

فلم يسقطوا الترتيب بالعذر ، كما أسقطوا الموالاته . فإن الموالاته أخف . فإنه لو قرأ بعض سورة اليوم وبعضها غداً : جاز . ولو نكَّسها : لم يجز . ويفرق في الترتيب بين الكلام المستقل الذى إذا أتى به وحده كان مما يسوغ تلاوته ، وبين ما هو مرتبط بغيره . فلو قال « صراط الذين أنعمت عليهم » لم يكن هذا كلاماً مفيداً حتى يقول « اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم » ولو قال « إياك نعبد وإياك نستعين » ثم قال « الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم » كان مفيداً . لكن مثل هذا لا يقع فيه أحد . ولا يتبدى أحد الفاتحة بمثل ذلك ، لاعتماداً ولا غلطا . وإنما يقع الغلط فيما يحتاج فيه إلى الترتيب . فهذا فرق بين ما ذكره فيما ينسى من الفاتحة وما ينسى من الختمة .



## فصل

ومما يبين أن الترتيب يسقط إذا احتاج إلى التكرار بلا تفریط من الإنسان :  
أن التيمم يجرىء بضربة واحدة ، كما دل عليه الحديث الصحيح - حديث عمار  
بن ياسر رضی الله عنهما - وهو مذهب أحمد بلا خلاف . وهو في الصحيحين من  
حديث أبي موسى . ومن حديث ابن أُبَرَى .

ففي حديث ابن أُبَرَى « إنما كان يكفيك هكذا . فضرب بكفيه الأرض  
ونفخ فيهما . ثم مسح بهما وجهه وكفيه » وكذلك لمسلم في حديث أبي موسى  
« إنما كان يكفيك أن تقول هكذا . وضرب يديه إلى الأرض . فنفض يديه .  
فمسح وجهه وكفيه » وللبخارى « ومسح وجهه وكفيه مرة واحدة » .  
وقد اختلف الأصحاب في هذه الصفة .

فقيل : يرتب . فيمسح وجهه ببطون أصابعه ، وظاهر يديه براحته .

وقيل : لا يجب ذلك . بل يمسح بهما وجهه وظاهر كفيه .

وعلى الوجهين : لا يؤخر مسح الراحتين إلى ما بعد الوجه . بل يمسحهما :  
إما قبل الوجه ، وإما مع الوجه ، وظهور الكفين . ولهذا قال ابن عقيل : رأيت  
التيمم بضربة واحدة قد أسقط ترتيباً مستحقاً في الوضوء . وهو أنه بعد أن مسح  
باطن يديه مسح وجهه .

وفي الصحيحين من حديث عمار بن ياسر من طريق أبي موسى رضی الله  
عنهم ، قال « إنما يكفيك أن تقول بيديك هكذا . ثم ضرب يديه الأرض ضربة  
واحدة ، ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه ووجهه » لفظ البخارى « وضرب  
بكفيه ضربة على الأرض . ثم نفضهما . ثم مسح بهما ظهر كفه بشماله - أو ظهر  
شماله بكفه - ثم مسح بهما وجهه » .

وهذا صريح في أنه لم يمسح الراحتين بعد الوجه . ولا يختلف مذهب أحمد :  
أن ذلك لا يجب . وأما ظهور الكفين : فرواية البخارى صريحة في « أنه مر على

ظهر الكف قبل الوجه « وقوله في الرواية الأخرى « وظاهر كفيه » يدل على أنه مسح ظاهر كل منهما براحة اليد الأخرى . وقال فيها « ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر وجهه قبل الوجه<sup>(١)</sup> » .

وقال أبو محمد : فرض الراحتين سقط بإمرار كل واحدة على ظهر الكف . وهذا إنما يوجب سقوط فرض باطن الراحة . وأما باطن الأصابع : فعلى ما ذكره سقط مع الوجه .

وعلى كل حال : فباطن اليدين يصيبهما التراب حين يضرب بهما الأرض ، وحين يمسح بهما الوجه ، وظهر الكفين . وإن مسح إحداها بالأخرى ، فهو ثلاث مرات .

ولو كان الترتيب واجباً لوجب أن يمسح باطنهما بعد الوجه . وهذا لا يمكن مع القول بضربة واحدة . ولو فعل ذلك للزم تكرار مسحهما مرة بعد مرة . فسقط لذلك . فإن التيمم لا يشرع فيه التكرار ، بخلاف الوضوء . فإنه - وإن غسل يديه ابتداءً ، وأخذ بهما الماء لوجهه - فهو بعد الوجه يغسلهما إلى المرفقين . وهو بأخذ الماء بهما . فيتكرر غسلهما . لأن الوضوء يستحب فيه التكرار في الجملة . لأنه طهارة بالماء . ولكن لو لم يغسل كفيه بعد غسل الوجه فهو محل نظر ، فإنه يعرف بهما الماء ، وقد قالوا : إذا نوى الاغتراف لم يصِرْ الماء مستعملاً . وإن نوى غسلهما فيه : صار مستعملاً . وإن لم ينو شيئاً ففيه وجهان .

والصحيح : أنه لا يصير مستعملاً ، وإن نوى غسلهما فيه . لحجى السنة بذلك . وهذا يقتضى أن غسلهما بنية الاغتراف لا تحصل به طهارتهما . بل لا بد من غسل آخر والأقوى : أن هذا لا يجب . بل غسلهما بنية الاغتراف يجزىء عن تكرار غسلهما ، كما في التيمم .

وأيضاً فإنه يغسل ذراعيه بيديه . فيكون هذا غسلًا لباطن اليد .

---

(١) كذا . ولعله « الراحة »

ولو قيل : بل بقي غسلها ابتداء ، ومع الوجه يسقط فرضهما ، كما قيل مثل ذلك في التيمم : لكان متوجهاً . فإنه قال في الوضوء ( فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ) كما قال في التيمم ( فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ) ففي الوضوء آخر ذكر اليد .

لكن الرواية التي انفرد بها البخارى : تبين أنه مسح ظهر الكفين قبل الوجه . وسائر الروايات مجملة ، تقتضى أنه لما مسح لم يمسح الراحتين بعد الوجه ، فكذلك ظهر الكفين . بل مسح ظهرهما مع بطنهما . لأن مسحهما جملة أقرب إلى الترتيب . فإن مسح العضو الواحد بعضه مع بعض أولى من تفريق ذلك وأيضاً : فتكون الراحتان ممسوحتين مع ظهر الكف . والاعتداد بذلك أولى من الاعتداد بمسحهما مع الوجه .

وما ذكره بعض الأصحاب - من أنه يجعل الأصابع للوجه ، و بطون الراحتين لظهور الكفين - خلاف ما جاءت به الأحاديث . وليس في كلام أحمد ما يدل عليه . وهو متعسر ، أو متعذر . وهو بدعة لا أصل لها في الشرع . و بطون الأصابع لا تكاد تستوعب الوجه .

وإنما احتاجوا إلى هذا ليجعلوا بعض التراب لظاهر الكفين بعد الوجه . فيقال لهم : كما أن الراحتين لا يمسحان بعد الوجه بلا نزاع ، فكذلك ظهر الكفين . فإنهم - وإن مسحوا ظهر الكفين بالراحتين ببطون الأصابع - مسحوا مع الوجه ، مسح باليدين قبل الوجه ، كما قال ابن عقيل . ولهذا اختار المجد : أنه لا يجب الترتيب فيه ، بل يجوز مسح ظهر الكفين قبل الوجه . كما دل عليه الحديث الصحيح . والحديث الصحيح يدل على أنه يمسح الوجه وظاهر الكفين بذلك التراب . وأن مسح ظهر الكفين بما بقي في اليدين من التراب يكفي لظهور الكفين . فإن ألفاظ الحديث كلها تتعلق بأنه يمسح وجهه بيديه . ومسح اليدين

إحداهما بالأخرى : لم يجعل بعض باطن اليد للوجه وبعضه للكفين . بل يباطن  
اليدين مسح وجهه ومسح كفيه ، ومسح إحداهما بالأخرى .  
وأجاب القاضى ومن واقفه - متابعة لأصحاب الشافعى - بأنه إذا تيمم لجرح في  
عضو : يكون التيمم فيه عند وجوب غسله ، فيفصل بالتيمم بين أبعاض الوضوء ،  
هذا فعل مبتدع . وفيه ضرر عظيم ، ومشقة لا تأتى بها الشريعة . وهذا ونحوه  
إسراف في وجوب الترتيب ، حيث لم يوجهه الله ورسوله . والنفاة يجوزون التنكيس  
لغير عذر . وخيار الأمور أوسطها . ودين الله بين الغالى والجافى . والله أعلم .

---

# الحسنة والسيئة

وموقف العبد عندهما

(مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ . وَمَا أَصَابَكَ  
مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ . وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ  
رَسُولًا . وَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا ) .

جود تفسيرها ، واستنباط دقيق معانيها

شيخ الإسلام ابن تيمية

٦٦١ - ٧٢٨

رحمه الله وغفر لنا وله وللمؤمنين

---



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### وما توفيقى إلا بالله

قال الشيخ الإمام ، العالم العلامة ، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام ابن تیمیة الحرانی . تعمدہ اللہ تعالیٰ برحمته . الحمد لله . نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .

### فصل

في قوله تعالى ( ٤ : ٧٩ ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك ) وبعض ما تضمنته من الحكم العظيمة . هذه الآية : ذكرها الله في سياق الأمر بالجهاد ، وذم الناكثين عنه . قال تعالى ( ٤ : ٧١ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم . فانفروا ثباتٍ ، أو انفروا جميعاً - الآيات ) إلى أن ذكر صلاة الخوف . وقد ذكر قبلها طاعة الله وطاعة الرسول ، والتحاكم إلى الله وإلى الرسول . ورد ما تنازع فيه الناس إلى الله وإلى الرسول . وذم الذين يتحاكمون ويردون ما تنازعوا فيه إلى غير الله والرسول . فكانت تلك الآيات : تبييناً للإيمان بالله وبالرسول . ولهذا قال فيها ( ٤ : ٦٥ فلا وربك لا يؤمنون ، حتى يُحكّموك فيما شجر بينهم . ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت . ويسلّوا تسلياً ) .

وهذا جهاد عما جاء به الرسول . وقد قال تعالى ( ٤٩ : ١٥ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا . وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ) وقال

تعالى ( ٩ : ٢٤ قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها : أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله . فتربصوا حتى يأتي الله بأمره . والله لا يهدي القوم الفاسقين ) وقال ( ٩ : ١٩ - ٢١ أ جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجهاد في سبيل الله ؟ لا يستوتون عند الله . والله لا يهدي القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله . وأولئك هم الفائزون . يُبَشِّرُهُم رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ - الآية ) .

وقال تعالى ( ٦١ : ١٠-١٤ ) يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم : تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة في جنات عدن . ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب . وبشر المؤمنين . يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله . فأمنت طائفة من بني إسرائيل ، وكفرت طائفة . فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم . فأصبحوا ظاهرين ) .

وذكر بعد آيات الجهاد ( ٤ : ١٠٥ - ١٢٥ ) إنزال الكتاب على رسول الله ليحكم بين الناس بما أراه الله ، ونهيّه عن ضد ذلك . وذكره فضل الله عليه ورحمته في حفظه ، وعصمته من إضلال الناس له ، وتعليمه ما لم يكن يعلم . وذم من شاق الرسول ، واتباع غير سبيل المؤمنين . وتعظيم أمر الشرك ، وشديد خطره وأن الله لا يغفره . ولكن يغفر مادونه لمن يشاء - إلى أن بين أن أحسن الأديان : دين من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً . بشرط أن تكون عبادته بفعل



الحسنات التي شرعها ، لا بالبدع والأهواء . وهم أهل ملة إبراهيم ، الذين اتبعوا ملة إبراهيم حنيفا ( ٤ : ١٢٥ ) واتخذ الله إبراهيم خليلا .  
فكان في الأمر بطاعة الرسول والجهاد عليها : اتباع التوحيد ، وملة إبراهيم . وهو إخلاص الدين لله ، وأن يعبد الله بما أمر به على ألسن رسله من الحسنات . وقد ذكر تعالى في ضمن آيات الجهاد : ذم من يخاف العدو ، ويطلب الحياة . وبين أن ترك الجهاد : لا يدفع عنهم الموت . بل أينما كانوا أدرتهم الموت ، ولو كانوا في بروج مشيدة . فلا ينالون بترك الجهاد منفعة . بل لا ينالون إلا خسارة الدنيا والآخرة . فقال تعالى ( ٤ : ٧٧ ) ألم تر إلى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة . فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله ، أو أشد خشية . وقالوا : ربنا ، لِمَ كتب علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟ قل : متاع الدنيا قليل . والآخرة خير لمن اتقى . ولا تظلمون فتيلا ) .

وهذا الفريق قد قيل : إنهم منافقون . وقيل : نافقوا لما كتب عليهم القتال . وقيل : بل حصل منهم جبن وفشل . فكان في قلوبهم مرض . كما قال تعالى ( ٤٧ : ٢٠ ، ٢١ ) فإذا أنزلت سورة محكمة ، وذُكر فيها القتال : رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت . فأولى لهم . طاعة وقول معروف - الآية ) وقال تعالى ( ٣٣ : ١٢ ) إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله إلا غورا ) .

والعنى متناول لهؤلاء ولهؤلاء . ولكل من كان بهذه الحال . ثم قال ( ٤ : ٧٨ ) أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة . وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك . قل : كلٌّ من عند الله . فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟ ) .

فالضمير في قوله « وإن تصبهم » يعود إلى من ذكر . وهم « الذين يخشون الناس » أو يعود إلى معلوم ، وإن لم يذكر . كما في مواضع كثيرة .  
وقد قيل : إن هؤلاء كانوا كفاراً من اليهود . وقيل : كانوا منافقين . وقيل : بل كانوا من هؤلاء وهؤلاء . والمعنى يعمُّ كل من كان كذلك . ولكن تناوله لمن أظهر الإسلام وأمر بالجهاد : أولى .  
ثم إذا تناول الذم هؤلاء : فهو للكفار الذين لا يظهرون الإسلام أولى وأحرى والذي عليه عامة المفسرين : أن « الحسنه » و « السيئه » يراد بهما النعم والمصائب . ليس المراد : مجرد ما يفعله الإنسان باختياره ، باعتباره من الحسنات أو السيئات .

### فصل

ولفظ « الحسنات » و « السيئات » في كتاب الله : يتناول هذا وهذا . قال الله تعالى عن المنافقين ( ٣ : ١٢٠ ) إن تمسكتم حسنة تسؤمهم . وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها . وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ) وقال تعالى ( ٩ : ٥٠ ) إن تصبك حسنة تسؤمهم . وإن تصبك مصيبة يقولوا : قد أخذنا أمرنا من قبل وبتواؤوا وهم فرحون ) وقال تعالى ( ٧ : ١٦٧ ) ولولا أنهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون ) وقال تعالى ( ٤٢ : ٤٨ ) وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها . وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم ، فإن الإنسان كفور ) وقال تعالى في حق الكفار المتطيرين بموسى ومن معه ( ٧ : ١٣٠ ) فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه . وإن تصبهم سيئة يظنوا بموسى ومن معه ) ذكر هذا بعد قوله ( ٧ : ١٢٩ ) ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلمهم يذكرون ) .

وأما الأعمال المأمور بها ، والمنهى عنها : ففي مثل قوله تعالى ( ٢٨ : ٨٤ ) من جاء بالحسنة فله خير منها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ) وقوله تعالى ( ١١ : ١١٥ ) إن الحسنات يذهبن السيئات . ذلك ذكرى للذاكرين ) وقوله تعالى

( ٢٥ : ٧٠ فأولئك يُبدّل الله سيئاتهم حسنات . وكان الله غفوراً رحيمًا ) .  
وهنا قال ( ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك )  
ولم يقل : وما فعلت ، وما كسبت . كما قال ( ٤٢ : ٣٠ وما أصابكم من مصيبة  
فما كسبت أيديكم ) وقال تعالى ( ٥ : ٥٢ فاعلم أنما يريد الله : أن يصيبهم ببعض  
ذنوبهم ) وقال تعالى ( ٩ : ٥٣ قل : هل تربصون بنا إلا إحدى الحُسَيْنَيْنِ ؟  
ونحن نتربص بكم . أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ) وقال تعالى  
( ١٣ : ٣٣ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعةً أو تحلّ قريبا من دارهم )  
وقال تعالى ( ٥ : ١٠٩ فأصابتكم مصيبة الموت ) وقال تعالى ( ٢ : ١٥٦ وبشر  
الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ) .

فلهذا كان قوله « ما أصابك من حسنة » و « من سيئة » متناول لما يصيب  
الإنسان ، ويأتيه من النعم التي تسره ، ومن المصائب التي تسوءه .  
فالآية متناولة لهذا قطعاً . وكذلك قال عامة المفسرين .

قال أبو العالية « إن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله » قال : هذه في  
السراء « وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك » قال : وهذه في الضراء .  
وقال السدي « إن تصبهم حسنة قالوا » والحسنة الخِصْب ، ينتج خيولهم  
وأنعامهم ومواشيهم ، ويحسن حالهم ، وتلد نساؤهم الغلمان « قالوا : هذه من عند  
الله . وإن تصبهم سيئة قالوا » - والسيئة : الضرر في أموالهم ، تشأماً بمحمد -  
« قالوا : هذه من عندك » يقولون : بتركنا ديننا ، واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء .  
فأنزل الله « قل كل من عند الله » الحسنة والسيئة « فإلهؤلاء القوم لا يكادون  
يققهون حديثاً ؟ » قال : القرآن .

وقال الواجب عن ابن عباس « ما أصابك من حسنة فمن الله » قال : ما فتح الله  
عليك يوم بدر . وكذلك قال الضحاك .

وقال الواجب أيضاً عن ابن عباس « من حسنة » قال : ما أصاب من الغنيمة

والفتح فمن الله . قال « والسيدة » ما أصابه يوم أحد . إذ شُجَّ في وجهه ، وكُسرَت رِباعيته .

وقال : أما « الحسنة » فأنعم الله بها عليك . وأما « السيدة » فابتلاك الله بها . وروى أيضاً عن حجاج عن عطية عن ابن عباس « ما أصابك من حسنة فمن الله » قال : هذا يوم بدر « وما أصابك من سيئة فمن نفسك » قال : هذا يوم أحد . يقول : ما كان من نكبة : فمن ذنبك ، وأنا قدرت ذلك عليك . وكذلك روى ابن عينة عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح « فمن نفسك » قال : فبذنبك ، وأنا قدرتها عليك . روى هذه الآثار ابن أبي حاتم وغيره . وروى أيضاً عن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشَّخِير . قال : ما تريدون من القدر ؟ أما تكفيكم هذه الآية التي في سورة النساء ( وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك ) ؟ أي من نفسك . والله ما وكلوا إلى القدر . وقد أمرُوا به . وإليه يصيرون .

وكذلك في تفسير أبي صالح عن ابن عباس « إن تصبهم حسنة » الخصب والمطر « وإن تصبهم سيئة » الجذب والبلاء .

وقال ابن قتيبة « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » قال : الحسنة النعمة . والسيئة البلية .

وقد ذكر أبو الفرج في قوله « ما أصابك من حسنة - ومن سيئة » ثلاثة أقوال .

أحدها : أن « الحسنة » ما فتح الله عليهم يوم بدر . و « السيئة » ما أصابهم يوم أحد . قال : رواه ابن أبي طلحة - وهو الوالبي - عن ابن عباس .

قال : والثاني « الحسنة » الطاعة . و « السيئة » المعصية . قاله أبو العالية .

والثالث « الحسنة » النعمة . و « السيئة » البلية . قاله ابن منبه . قال : وعن

أبي العالية نحوه . وهو أصح .

قلت : هذا هو القول المعروف بالإسناد عن أبي العالية ، كما تقدم من تفسيره المعروف الذى يروى عنه هو وغيره ، من طريق أبي جعفر الدارى عن الربيع بن أنس عنه وأمثاله .

وأما الثانى : فهو لم يذكر إسناده . ولكن ينقل من كتب المفسرين الذين يذكرون أقوال السلف بلا إسناد . وكثير منها ضعيف . بل كذب . لا يثبت عن نقل عنه . وعامة المفسرين المتأخرين أيضاً يفسرونه على مثل أقوال السلف وطائفة منهم تحملها على الطاعة والمعصية .

فأما الصنف الأول : فهى تتناوله قطعاً . كما يدل عليه لفظها وسياقها ومعناها وأقوال السلف .

وأما المعنى الثانى : فليس مراداً دون الأول قطعاً . ولكن قد يقال : إنه مراد مع الأول ، باعتبار أن ما يهديه الله إليه من الطاعة : هو نعمة فى حقه من الله أصابته . وما يقع منه من المعصية : هو سيئة أصابته . ونفسه التى عملت السيئة . وإذا كان الجزاء من نفسه ، فالعمل الذى أوجب الجزاء : أولى أن يكون من نفسه . فلا منافاة أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه . مع أن الجميع مقدر كما تقدم . وقد روى عن مجاهد عن ابن عباس : أنه كان يقرأ « فمن نفسك ، وأنا قدرتها عليك » .

### فصل

والمعصية الثانية : قد تكون عقوبة الأولى . فتكون من سيئات الجزاء ، مع أنها من سيئات العمل .

قال النبي صلى الله عليه وسلم - فى الحديث المتفق على صحته - عن ابن مسعود رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم « عليكم بالصدق . فإن الصدق يهذى إلى البر . والبر يهذى إلى الجنة . ولا يزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق ، حتى يُكْتَبَ عند الله صدوقاً . وإياكم والكذب . فإن الكذب يهذى إلى الفجور ،

والفجور يهذى إلى النار . ولا يزال الرجل يكذب ، ويتحرى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذاباً .

وقد ذكر في غير موضع من القرآن ما يبين أن الحسنه الثانيه : قد تكون من ثواب الأولى . وكذلك السيئه الثانيه : قد تكون من عقوبه الأولى . قال تعالى ( ٤ : ٦٦ - ٦٨ ) ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً . وإذا لايتناهم من لدنا أجراً عظيماً . ولهديناهم صراطاً مستقيماً ) وقال تعالى ( ٢٩ : ٦٩ ) والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلنا ) وقال تعالى ( ٤٧ : ٤ - ٦ ) والذين قاتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهدينهم ويصلح بهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم ) وقال تعالى ( ٣٠ : ١٠ ) ثم كان عاقبة الذين أساءوا : الشؤمى ) وقال تعالى ( ٥ : ١٦ ) كتاب مبين يهذى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ) وقال تعالى ( ٥٧ : ٢٨ ) يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته . ويجعل لكم نوراً تمشون به . ويفقر لكم ) وقال تعالى ( ٧ : ١٥٤ ) وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ) وقال تعالى ( ٣ : ١٣٨ ) هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ) وقال تعالى ( ٤١ : ٤٤ ) قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء . والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر . وهو عليهم عمى ) وقال تعالى ( ٧ : ٢٠١ ) إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون . وإخوانهم يمدونهم في النفى . ثم لايقصرون ) وقال تعالى ( ١٢ : ٢٤ ) كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين ) وقال تعالى ( ١٢ : ٢٢ ) ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً . وكذلك نجزي المحسنين ) وقال تعالى ( ٢٨ : ١٤ ) ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ) وقال تعالى ( ٤٧ : ١ - ٣ ) الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد - وهو الحق من ربهم - كفر عنهم سيئاتهم . وأصلح بهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق

من ربهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ) وقال تعالى ( ٣٣ : ٧٠ ، ٧١ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم ) وقال تعالى ( ٢٤ : ٥٤ قل : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول . فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم . وإن تطيعوه تهتدوا . وما على الرسول إلا البلاغ المبين ) قال أبو عثمان النيسابورى : من أمر السنة على نفسه - قولا وفعلا - نطق بالحكمة . ومن أمر الهوى على نفسه - قولا وفعلا - نطق بالبدعة . لأن الله تعالى يقول « وإن تطيعوه تهتدوا » .

قلت : وقد قال في آخر السورة ( ٢٤ : ٦٣ فليحذر الذين يخالفون عن أمره : أن تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب أليم ) .

وقال تعالى ( ٦ : ١٠٩ ، ١٠٠ وما يُشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ) وقال تعالى ( ٣ : ١٥٥ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا . ولقد عفا الله عنهم ) وقال تعالى ( ٦١ : ٥ - ٧ وإذ قال موسى لقومه : يا قوم لم تؤذوننى ؟ وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم . والله لا يهدي القوم الفاسقين - إلى قوله - ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الإسلام ؟ والله لا يهدي القوم الظالمين ) وقال تعالى ( ٢ : ٨٨ وقالوا : قلوبنا غُلف . بل لعنهم الله بكفرهم . فقليلاً ما يؤمنون ) وقال تعالى أيضاً ( ٤ : ١٥٥ وقولهم قلوبنا غُلف . بل طبع الله عليها بكفرهم . فلا يؤمنون إلا قليلاً ) وقال تعالى ( ٢ : ٢٥٨ فبُهِتَ الذى كفر . والله لا يهدي القوم الظالمين ) وقال تعالى ( ٩ : ٢٥ ، ٢٦ ويوم حُنين إذ أعجبتكم كثيرتكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً . وضافت عليكم الأرض بما رحبت . ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها . وعذب الذين كفروا ) وقال تعالى فى النوعين ( ٨ : ١٢ ، ١٣ إذ يوحى ربك إلى الملائكة : أنى معكم . فثبتوا الذين آمنوا . سألتى فى قلوب الذين كفروا الرعب . فاضربوا

فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ( وقال تعالى ( ٣ : ١٥١ سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا . وما وهم النار . وبئس مثوى الظالمين ) وقال تعالى ( ٥٩ : ٢ - ٤ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . ما ظننتم أن يخرجوا . وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله . فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا . وقذف في قلوبهم الرعب . يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين . فاعتبروا يا أولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليكم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله . ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ) وقال تعالى ( ٣ : ١١١ ، ١١٢ لن يضروكم إلا أذى . وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار . ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا ، إلا بحبل من الله وحبل من الناس . وباءوا بغضب من الله . وضربت عليهم المسكنة . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ) وقال تعالى ( ٥ : ٨٠ ، ٨١ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا . لبئس ما قدمت لهم أنفسهم : أن سخط الله عليهم . وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيراً منهم فاسقون ) وقال تعالى ( ٥ : ٨٢ ) ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا . وأنهم لا يستكبرون ) وقال تعالى ( ٤٧ : ٢٢ - ٢٦ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟ أولئك الذين لعنهم الله . فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن ؟ أم على قلوب أقفالها ؟ إن الذين ارتدوا على أدبارهم ، من بعد ما تبين لهم الهدى : الشيطان سؤل لهم ، وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله : سنطيعكم فى بعض الأمر . والله يعلم إسرارهم ) وقال تعالى ( ٩ : ٧٥ - ٧٧ ) ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ، ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، وتولوا وهم



معرضون . فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه ، بما أخلقوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ) وقال تعالى ( ٩ : ٨٣ فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج . فقل : لن تخرجوا معي أبداً . ولن تقاتلوا معي عدوا . إنكم رضيتم بالعود أول مرة . فاقعدوا مع الخالفين ) وقال تعالى في ضد هذا ( ٤٨ : ٢٠ - ٢٣ ) وعدكم الله مغام كثيرة تأخذونها . فمجل لكم هذه . وكفَّ أيدي الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين . ويهديكم صراطاً مستقيماً - إلى قوله - ولو قاتلكم الذين كفروا لؤلؤ الأديبار . ثم لا يجردون ولياً ولا نصيراً . سنة الله التي قد خلت من قبل . ولن تجد لسنة تبديلاً ) .

وتوليتهم الأديبار : ليس مما نهوا عنه ، ولكن هو من جزاء أعمالهم . وهذا باب واسع .

### فصل

وإذا كانت السيئات التي يعملها الإنسان قد تكون من جزاء سيئات تقدمت - وهي مضرة - جاز أن يقال : هي مما أصابه من السيئات . وهي بذنوب تقدمت .

وعلى كل تقدير : فالذنوب التي يعملها : هي من نفسه . وإن كانت مقدرة عليه . فإنه إذا كان الجزاء - الذي هو مسبب عنها من نفسه - فعمله الذي هو ذلك الجزاء : من نفسه بطريق الأولى . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته « نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا » .

وقال له أبو بكر رضى الله عنه : علمني دعاء . فقال « قل : اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، ربَّ كل شيء ومليكه . أشهد أن لا إله إلا أنت . أعوذ بك من شر نفسي ، وشر الشيطان وشرِّكه ، وأن أقترف على نفسي سوءاً ، أو أجره إلى مسلمٍ . قُلُهُ : إذا أصبحت ، وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضجعتك » .

فقد بين أن قوله « فمن نفسك » يتناول العقوبات على الأعمال ، ويتناول الأعمال . مع أن الكل بقدر الله .

### فصل

وليس للقَدْرِية أن يحتجوا بالآية لوجوه :-

منها : أنهم يقولون : فعل العبد - حسنة كان ، أو سيئة - هو منه ، لا من الله . بل الله قد أعطى كل واحد من الاستطاعة ما يفعل به الحسنات ، والسيئات . لكن هذا عندهم : أحدث إرادة فعل بها الحسنات . وهذا أحدث إرادة فعل بها السيئات . وليس واحد منهما من إحداث الرب عندهم .

والقرآن قد فرق بين الحسنات والسيئات . وهم لا يفرقون في الأعمال بين الحسنات والسيئات ، إلا من جهة الأمر . لا من جهة كون الله خلق فيه الحسنات دون السيئات . بل هو عندهم لم يخلق لا هذا ولا هذا .

لكن منهم من يقول : بأنه يُحدث من الأعمال الحسنة والسيئة : ما يكون جزاءا . كما يقوله أهل السنة .

لكن على هذا : فليست عندهم كل الحسنات من الله . ولا كل السيئات . بل بعض هذا ، وبعض هذا .

الثاني : أنه قال « كل من عند الله » فجعل الحسنات من عند الله ، كما جعل السيئات من عند الله . وهم لا يقولون بذلك في الأعمال . بل في الجزاء . وقوله - بعد هذا - « ما أصابك من حسنة - ومن سيئة » مثل قوله « وإن تصبهم حسنة » وقوله « وإن تصبهم سيئة » .

الثالث : أن الآية أريد بها : النعم ، والمصائب . كما تقدم . وليس للقدرية المجبرة أن تحتج بهذه الآية على نفي أعمالهم التي استحقوا بها العقاب . فإن قوله « كل من عند الله » هو النعم والمصائب . ولأن قوله « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » حجة عليهم . وبيان أن الإنسان هو فاعل

السيئات . وأنه يستحق عليها العقاب . والله ينعم عليه بالحسنات - عملها وجزائها - فإنه إذا كان مأصباهم من حسنة فهو من الله : فالنعم من الله . سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء . وإذا كانت جزاء - وهي من الله - : فالعمل الصالح الذي كان سببها : هو أيضاً من الله . أنعم بهما الله على العبد . وإلا فلو كان هو من نفسه - كما كانت السيئات من نفسه - لكان كل ذلك من نفسه . والله تعالى قد فرق بين النوعين في الكتاب والسنة . كما في الحديث الصحيح الإلهي : عن الله « يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومنَّ إلا نفسه » وقال تعالى ( ٣ : ١٦٥ )  
أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها . قلتم : أنى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم )  
وقال تعالى ( ٣٠ : ٣٦ ) وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون )  
وقال تعالى ( ٣٠ : ٤١ ) ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس .  
ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ) وقال تعالى ( ١١ : ١٠١ ) وما ظلمناهم  
ولكن ظلموا أنفسهم ) وقال تعالى ( ٤٣ : ٧٦ ) وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين )  
وقال تعالى ( ٣٨ : ٨٥ ) لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين ) وقال تعالى  
للمؤمنين ( ٤٩ : ٧ ) ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ . وَكَرَّهَ  
إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ . أولئك همَّ الرَّاشدون ) وقد أمرُوا أن يقولوا  
في الصلاة ( اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب  
عليهم ولا الضالين ) .

### فصل

وقد ظن طائفة : أن في الآية إشكالا ، أو تناقضا في الظاهر ، حيث قال « كل من عند الله » ثم فرق بين الحسنات والسيئات . فقال « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » .  
وهذا من قلة فهمهم ، وعدم تدبرهم الآية . وليس في الآية تناقض . لاني ظاهرها ،

ولاقى باطنها . لاقى لفظها ولا معناها . فإنه ذكر عن المنافقين ، والذين فى قلوبهم مرض ، الناكسين عن الجهاد . ما ذكره بقوله ( ٤ : ٧٨ ) أننا تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة . وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك ) هذا يقولونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى بسبب ما أمرتنا به من دينك ، والرجوع عما كنا عليه : أصابتنا هذه السيئات . لأنك أمرتنا بما أوجبها . فالسيئات : هى المصائب . والأعمال التى ظنوا أنها سبب المصائب : هو أمرهم بها .

وقولهم « من عندك » تتناول مصائب الجهاد التى توجب الهزيمة ، لأنه أمرهم بالجهاد . وتتناول أيضاً مصائب الرزق على جهة التشاؤم ، والتطير . أى هذا عقوبة لنا بسبب دينك . كما كان قوم فرعون يتطيرون بموسى وبمن معه . وكما قال أهل القرية للمرسلين ( ٣٦ : ١٨ ) إنا تطيرنا بكم ) وكما قال الكفار من ثمود لصالح ، ولقومه ( ٢٧ : ٤٨ ) اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ) فكانوا يقولون عما يصيبهم - من الحرب ، والزلال والجراح والقتل ، وغير ذلك مما يحصل من العدو - : هو منك . لأنك أمرتنا بالأعمال الموجبة لذلك . ويقولون عن هذا ، وعن المصائب السمائية : إنها منك . أى بسبب طاعتنا لك ، واتباعنا لدينك : أصابتنا هذه المصائب ، كما قال تعالى ( ٢٢ : ١١ ) ومن الناس من يعبد الله على حرف . فإن أصابه خير اطمان به . وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه . خسر الدنيا والآخرة ) .

فهذا يتناول كل من جعل طاعة الرسول ، وفعل ما بُعث به : مسبباً لشراً أصابه : إما من السماء . وإما من آدمى . وهؤلاء كثيرون .

لم يقولوا « هذه من عندك » بمعنى : أنك أنت الذى أحدثتها . فإنهم يعلمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحدث شيئاً من ذلك . ولم يكن قولهم « من عندك » خطاباً من بعضهم لبعض . بل هو خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن فهم هذا تبين له أن قوله « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك

من سيئة فمن نفسك» لا يناقض قوله «كل من عند الله» بل هو محقق له .  
لأنهم - هم ومن أشبههم إلى يوم القيامة - يجعلون ماجاء به الرسول ، والعمل به :  
سبباً لما قد يصيبهم من مصائب . وكذلك من أطاعه إلى يوم القيامة .  
وكانوا تارة يقدحون فيما جاء به ، ويقولون : ليس هذا مما أمر الله به . ولو كان  
عما أمر الله به : لما جرى على أهله هذا البلاء .

وتارة لا يقدحون في الأصل . لكن يقدحون في القضية المعينة . فيقولون :  
هذا بسوء تدبير الرسول . كما قال عبد الله بن أبيّ ابن سلول يوم أحد - إذ كان  
رأيه مع رأى النبي صلى الله عليه وسلم : أن لا يخرجوا من المدينة - فسأله صلى الله  
عليه وسلم ناسٌ ممن كان لهم رغبة في الجهاد : أن يخرج . فوافقهم ، ودخل بيته  
ولبس لأمتّه . فلما لبس لأمته ندموا . وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم « أنت  
أعلم . فإن شئت أن لا نخرج ، فلا نخرج . فقال : ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته  
أن ينزعها ، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » يعني : أن الجهاد يلزم بالشروع ، كما  
يلزم الحج . لا يجوز ترك ما شرع فيه منه إلا عند العجز بالإحصار في الحج .

### فصل

والمفسرون ذكروا في قوله « وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك »  
هذا وهذا .

فعن ابن عباس ، والسدى ، وغيرها : أنهم يقولون هذا ، تشاؤماً بدينه .  
وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . قال : بسوء تدبيرك - يعني كما قاله عبد الله  
ابن أبيّ وغيره يوم أحد - وهم كالذين « قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا  
ما قتلوا » .

فبكل حال : قولهم « من عندك » هو طعن فيما أمر الله به ورسوله : من الإيمان  
والجهاد . وجعل ذلك : هو الموجب للمصائب التي تصيب المؤمنين الطاعين ، كما  
أصابتهم يوم أحد . وتارة تصيب عدوهم . فيقول الكافرون : هذا بشؤم هؤلاء ،

كما قال أصحاب القرية المرسلين « إنا تطيرنا بكم » وكما قال تعالى عن آل فرعون « فإذا جاءتهم الحسنة ، قالوا : لنا هذه . وإن تصبهم سيئةً يطَّيروا لموسى ومن معه . ألا إنما طائرهم عند الله . ولكن أكرهتم لا يعلمون » وقال تعالى عن قوم صالح « قالوا : اطَّيرنا بك وبمن معك . قال : طائرکم عند الله . بل أنتم قوم تفتنون » ولما قال أهل القرية « إنا تطيرنا بكم . لئن لم تنتهوا لنرجنكم ، ولیمسنکم منا عذاب أليم . قالوا : طائرکم معکم . أين ذُکرتم ؟ بل أنتم قوم مسرفون » .

قال الضحاک : فی قوله « ألا إنما طائرهم عند الله » يقول : الأمر من قبل الله . ما أصابکم من أمر فمن الله ، بما كسبت أيديکم . وقال ابن أبي طلحة : عن ابن عباس « معايبکم » وقال قتادة « عملکم عند الله » .

وفی رواية غير علی : عملکم عند الله « ولكنکم قوم تفتنون » أى يتبطلون بطاعة الله ومعصيته . رواها ابن أبي حاتم وغيره .

وعن ابن إسحاق قال : قالت الرسل « طائرکم معکم » أى أعمالکم .

فقد فسروا « الطائر » بالأعمال وجزائها ، لأنهم كانوا يقولون : إنما أصابنا ما أصابنا من المصائب بذنوب الرسل وأتباعهم .

فبين الله سبحانه : أن طائرهم - وهو الأعمال وجزاؤها - هو عند الله . وهو معهم . فهو معهم لأن أعمالهم وما قَدَّرَ من جزائها معهم . كما قال تعالى ( ١٧ : ١٣ ) وكلَّ إنسان أزمانه طائرُه في عنقه ) وهو من الله . لأن الله تعالى قَدَّرَ تلك المصائب بأعمالهم . فمن عنده تنزل عليهم المصائب ، جزاء على أعمالهم ، لا بسبب الرسل وأتباعهم .

وفی هذا يقال : إنهم إنما يجزون بأعمالهم ، لا بأعمال غيرهم . ولذلك قال فی هذه الآية - لما كان المنافقون والكفار ومن في قلبه مرض يقول : هذا الذى أصابنا هو بسبب ما جاء به محمد ، عقوبة دينية وصل إلينا - بين سبحانه : أن ما أصابهم من المصائب إنما هو بذنوبهم .

ففي هذا رد على من أعرض عن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لثلاث تصييه تلك المصائب . وعلى من انتسب إلى الإيمان بالرسول ، ونسبها إلى فعل ما جاء به الرسول ، وعلى من أصابته مع كفره بالرسول ، ونسبها إلى ما جاء به الرسول .

### فصل

والمقصود : أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ليس سبباً لشيء من المصائب . ولا تكون طاعة الله ورسوله قط سبباً لمصيبة ، بل طاعة الله والرسول لا تقتضى إلا جزاء أصحابها بخيرى الدنيا والآخرة . ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم . لا بما أطاعوا فيه الله والرسول ، كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم . لا بسبب طاعتهم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وكذلك ما ابتلوا به في السراء والضراء والزوال : ليس هو بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم ، لكن امتحنوا به ، ليتخلصوا مما فيهم من الشر ، وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ، ليطهر طيبه من خبيثه . والنفوس فيها شر . والامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذى فى نفسه . قال تعالى ( ٣ : ١٤٠ ) وتلك الأيام نداؤها بين الناس . ويعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب القوم الظالمين . وليرحص الله الذين آمنوا ، ويمحق الكافرين ) وقال تعالى ( ٣ : ١٥٤ ) وليبتلى الله مافى صدوركم . وليرحص مافى قلوبكم ) ولهذا قال صالح عليه السلام لقومه « طائرکم عند الله . بل أتم قوم تفتنون » .

ولهذا كانت المصائب تكفر سيئات المؤمنين ، وبالصبر عليها ترتفع درجاتهم وما أصابهم فى الجهاد من مصائب بأيدى العدو ، فإنه يعظم أجرهم بالصبر عليها . وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مامن غازية يغزون فى سبيل الله ، فيسلمون ويفنمون إلا تعجلوا ثلثي أجرهم . وإن أصيبوا وأخفقوا : تم لهم أجرهم » .

وأما ما يلحقهم من الجوع والعطش والتعب : فذلك يكتب لهم به عمل صالح .

كما قال تعالى ( ٩ : ١٢٠ ) ذلك بأنه لا يصيبهم ظمأ ، ولا نصب ، ولا محمصة في سبيل الله ، ولا يطؤون موطئاً يعيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح . إن الله لا يضيع أجر المحسنين ) .  
وشواهد هذا كثيرة .

### فصل

والمقصود : أن قوله « إن تصيبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصيبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك . قل : كل من عند الله » فإنهم جعلوا ما يصيبهم من المصائب بسبب ما جاءهم به الرسول . وكانوا يقولون : النعمة التي تصيبنا هي من عند الله . والمصيبة من عند محمد . أى بسبب دينه وما أمر به . فقال تعالى : قل هذا وهذا من عند الله . لا من عند محمد . محمد لا يأتي لابنعمة ولا بمصيبة ولهذا قال بعد هذا « فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟ » قال : السدى وغيره : هو القرآن . فإن القرآن إذا هم فقهوا ما فيه : تبين لهم أنه إنما أمرهم بالخير ، والعدل ، والصدق ، والتوحيد . لم يأمرهم بما يكون سبباً للمصائب . فإنهم إذا فهموا ما في القرآن علموا : أنه لا يكون سبباً للشر مطلقاً .  
وهذا مما يبين أن ما أمر الله به : يعلم بالأمر به حسنه ونفعه ، وأنه مصلحة للعباد . وليس كما يقول من يقول : قد يأمر الله العباد بما لا مصلحة لهم فيه إذا فعلوه . بل فيه مضرة لهم .

فإنه لو كان كذلك لكان قد يصدقه المتطهرون بالرسول وأتباعهم .

\* \* \*

ومما يوضح ذلك : أنه لما قال « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » قال بعدها « وأرسلناك للناس رسولا . وكفى بالله شهيداً » فإنه قد شهد له بالرسالة بما أظهره على يديه من الآيات والمعجزات . وإذا شهد الله له كفى به شهيداً . ولم يضره جحد هؤلاء لرسالته ، بما ذكره من الشبه التي هي



عليهم لالهم بما أرادوا أن يجعلوا سيئاتهم وعقوباتهم حجة على إبطال رسالته .  
والله تعالى قد شهد له : أنه أرسله للناس رسولا . فكان ختم الكلام بهذا إبطالا  
لقولهم : إن المصائب من عند الرسول . ولهذا قال ، بعد هذا « من يطع الرسول  
فقد أطاع الله . ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » .

### فصل

وكان فيما ذكره إبطال لقول الجهمية المجبرة ونحوهم ، ممن يقول : إن الله قد  
يعذب العباد بلا ذنب . وأنه قد يأمر العباد بما لا ينفعهم ، بل بما يضرهم . فإن  
فعلوا ما أمرهم به حصل لهم الضرر ، وإن لم يفعلوه عاقبهم .  
يقولون هذا ومثله ، ويزعمون أن هذا لأنه يفعل ما يشاء .  
والقرآن يرد على هؤلاء من وجوه كثيرة ، كما يرد على المكذبين بالقدر .  
فآية ترد على هؤلاء وهؤلاء ، كما تقدم ، مع احتجاج الفريقين بها . وهي  
حجة على الفريقين .

\* \* \*

فإن قال نفاة القدر : إنما قال في الحسنه « هي من الله » وفي السيئة « هي  
من نفسك » لأنه يأمر بهذا ، وينهى عن هذا ، باتفاق المسلمين .  
قالوا : ونحن نقول : المشيئة ملازمة للأمر . فما أمر به فقد شاء . وما لم يأمر  
به لم يشأ . فكانت مشيئته وأمره حاضاً على الطاعة دون المعصية . فلهذا كانت  
هذه منه دون هذه .

قيل : أما الآية : فقد تبين أن الذين قالوا « الحسنه من عند الله ، والسيئة من  
عندك » أرادوا : من عندك يا محمد ، أى بسبب دينك . فجعلوا رسالة الرسول هي  
سبب المصائب . وهذا غير مسألة القدر .

وإذا كان قد أريد : إن الطاعة والمعصية — مما قد قيل — كان قوله « كل  
من عند الله » حجة عليكم كما تقدم .

وقوله بعد هذا « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » لا ينافي ذلك . بل « الحسنه » أنعم الله بها وبثوابها . و « السيئة » هي من نفس الإنسان ناشئة ، وإن كانت بقضائه وقدره ، كما قال تعالى « من شر ما خلق » فمن المخلوقات ماله شر ، وإن كان بقضائه وقدره .

وانتم تقولون : الطاعة والمعصية هما من إحداث الإنسان ، بدون أن يجعل الله هذا فاعلاً وهذا فاعلاً ، وبدون أن يخص الله المؤمن بنعمة ورحمة أطاعه بها . وهذا مخالف للقرآن .

### فصل

فإن قيل : إذا كانت الطاعات والمعاصي مقدره ، والنعم والمصائب مقدره . فما الفرق بين الحسنات ، التي هي النعم ، والسيئات ، التي هي المصائب ؟ فجعل هذه من الله ، وهذه من نفس الإنسان ؟ .

قيل : لفرق بينهما : -

الفرق الأول : أن نعم الله وإحسانه إلى عباده يقع ابتداء بلا سبب منهم أصلاً . فهو ينعم بالعاية والرزق والنصر ، وغير ذلك على من لم يعمل خيراً قط . وينشئ للجنة خلقاً يسكنهم فضول الجنة . وقد خلقهم في الآخرة لم يعملوا خيراً . ويدخل أطفال المؤمنين ومجانينهم الجنة برحمته بلا عمل . وأما العقاب : فلا يعاقب أحداً إلا بعمله .

الفرق الثاني : أن الذي يعمل الحسنات . إذا عملها ، فنفس عمله الحسنات : هو من إحسان الله ، وبفضله عليه بالهداية والإيمان ، كما قال أهل الجنة ( ٧ : ٤٣ ) الحمد لله الذي هدانا لهذا . وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

وفي الحديث الصحيح « يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم . ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .  
فنفس خلق الله لهم أحياء ، وجعله لهم السمع والأبصار والأفئدة : هو من

نعمته ونفس إرسال الرسول إليهم ، وتبليغه البلاغ المبين الذي اهتموا به : هو من نعمته .

وإلهامهم الإيمان ، وهدايتهم إليه ، وتخصيصهم بمزيد نعمة حصل لهم بها الإيمان دون الكافرين : هو من نعمته . كما قال تعالى (١٧:٤٩) ولكن الله حبب إليكم الإيمان ، وزينه في قلوبكم . وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان . أولئك هم الراشدون . فضلاً من الله ونعمة ) .

جميع ما يتقلب فيه العالم من خيرى الدنيا والآخرة : هو نعمة محضة منه بلا سبب سابق يوجب لهم حقاً . ولا حول ولا قوة لهم من أنفسهم إلا به . وهو خالق نفوسهم ، وخالق أعمالها الصالحة ، وخالق الجزاء .

فقوله « ما أصابك من حسنة فمن الله » حق من كل وجه ، ظاهراً وباطناً على مذهب أهل السنة .

وأما « السيئة » فلا تكون إلا بذنب العبد . وذنبه من نفسه . وهو لم يقل : إنى لم أقدر ذلك ولم أخلقه . بل ذكر للناس ما ينفعهم .

### فصل

فإذا تدبر العبد علم : أن ما هو فيه من الحسنات من فضل الله . فشكر الله . فزاده الله من فضله عملاً صالحاً ، ونعماً يفيضها عليه . وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه بذنوبه : استغفر وتاب . فزال عنه سبب الشر . فيكون العبد دائماً شاكراً مستغفراً . فلا يزال الخير يتضاعف له ، والشر يندفع عنه . كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته « الحمد لله » فيشكر الله . ثم يقول « نستعينه ونستغفره » نستعينه على الطاعة . ونستغفره من العصية . ثم يقول « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » فيستعين به من الشر الذى فى النفس ، ومن عقوبة عمله . فليس الشر إلا من نفسه ومن عمل نفسه . فيستعين بالله من شر النفس : أن يعمل بسبب سيئاته الخطايا . ثم إذا عمل استعاذ بالله من

سيئات عمله ، ومن عقوبات عمله . فاستعانه على الطاعة وأسبابها . واستعاذ به من المعصية وعقابها .

فعلمُ العبدِ بأن ما أصابه من حسنة فمن الله ، وما أصابه من سيئة فمن نفسه :  
يوجب له هذا وهذا . فهو سبحانه فرق بينهما هنا ، بعد أن جمع بينهما في قوله  
« قل كل من عند الله » .

فبين أن الحسنات والسيئات : النعم والمصائب ، والطاعات والمعاصي ، على  
قول من أدخلها في « من عند الله » .

ثم بين الفرق الذي ينتفعون به . وهو أن هذا الخير : من نعمة الله ، فاشكروه  
يزدكم . وهذا الشر : من ذنوبكم . فاستغفروه ، يدفعه عنكم .

قال الله تعالى ( ٨ : ٣٣ ) وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم . وما كان الله  
معذبهم وهم يستغفرون ) وقال تعالى ( ١١ : ١ - ٣ ) الر كتاب أحكمت آياته ، ثم  
فصلت من لَدُنْ حكيم خبير : أن لا تعبدوا إلا الله . إني لكم منه نذير وبشير .  
وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى . ويؤت  
كل ذي فضلٍ فضله ) .

والمذنب إذا استغفر ربه من ذنبه فقد تأسّى بالسعداء من الأنبياء والمؤمنين ،  
كآدم وغيره . وإذا أصر ، واحتج بالقدر : فقد تأسّى بالأشقياء ، كإبليس ومن  
اتبعه من الغاوين .

فكان من ذكره : أن السيئة من نفس الإنسان بذنوبه ، بعد أن ذكر :  
أن الجميع من عند الله ، تنبيها على الاستغفار والتوبة ، والاستعاذة بالله من شر نفسه  
وسيئات عمله . والدعاء بذلك في الصباح والمساء ، وعند المنام ، كما أمر رسول الله  
صلى الله عليه وسلم بذلك أبا بكر الصديق ، أفضل الأمة ، حيث علمه أن يقول  
« اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أعوذ بك من شر نفسى  
وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسى سوءاً ، أو أجره إلى مسلم » .

فيستغفر مما مضى . ويستعيز بما يستقبل . فيكون من حزب السعداء .  
وإذا علم أن الحسنة من الله - الجزاء والعمل - سأل أنه يعينه على فعل  
الحسنات . بقوله ( إياك نعبد وإياك نستعين ) وبقوله ( اهدنا الصراط المستقيم )  
وقوله ( ٣ : ٨ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ) ونحو ذلك .

وأما إذا أخبر أن الجميع من عند الله فقط ، ولم يذكر الفرق : فإنه يحصل من  
هذا التسوية . فأعرض العاصي والمذنب عن ذم نفسه ، وعن التوبة من ذنوبها ،  
والاستعاذة من شرها . بل وقام في نفسه : أن يحتاج على الله بالقدر . وتلك حجة  
داحضة ، لا تنفعه . بل تزيده عذاباً وشقاء ، كما زادت إبليس لما قال ( ٧ : ١٦ فيما  
أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ) وقال ( ١٥ : ٣٩ رب بما أغويتني لأزين  
لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ) .

وكالذين يقولون يوم القيامة ( ٣٩ : ٥٧ لو أن الله هداني لكنت من المتقين )  
وكالذين قالوا ( ٦ : ١٤٨ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ) .  
فمن احتج بالقدر على ما فعله من ذنوبه ، وأعرض عما أمر الله به ، من التوبة  
والاستغفار ، والاستعاذة بالله ، والاستعاذة به ، واستهدائه : كان من أخسر الناس  
في الدنيا والآخرة . فهذا من فوائد ذكر الفرق بين الجمع .

### فصل

الفرق الثالث : أن الحسنة يضاعفها الله وينميها ، ويشيب على الهمم بها . والسيئة  
لا يضاعفها ، ولا يؤاخذ على الهمم بها . فيعطى صاحب الحسنة : من الحسنات فوق  
ما عمل . وصاحب السيئة : لا يجزيه إلا بقدر عمله . قال تعالى ( ٦ : ١٦٠ من جاء  
بالحسنة فله عشر أمثالها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزي إلى مثله . وهم لا يظلمون )  
الفرق الرابع : أن الحسنة مضافة إليه ، لأنه أحسن بها من كل وجه ، كما تقدم .  
فما من وجه من وجوهها : إلا وهو يقتضى الإضافة إليه .

وأما السيئة : فهو إنما يخلقها بحكمة . وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه .

فإن الرب لا يفعل سيئة قط . بل فعله كله حسن وحسنات . وفعله كله خير .  
ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء الاستفتاح « والخير  
بيديك . والشر ليس إليك » فإنه لا يخلق شراً محضاً . بل كل ما يخلقه : ففيه  
حكمة ، هو باعتبارها خير . ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس . وهو شر  
جزئى إضافى . فأما شر كلى ، أو شر مطلق : فالرب منزّه عنه . وهذا هو الشر  
الذى ليس إليه .

وأما الشر الجزئى الإضافى : فهو خير باعتبار حكمته . ولهذا لا يضاف الشر  
إليه مفرداً قط . بل إما أن يدخل فى عموم المحلوقات ، كقوله ( ٢٥ : ٢ ) وخلق  
كل شيء ) .

وإما أن يضاف إلى السبب كقوله ( ١١٣ : ٢ من شر ما خلق ) .  
وإما أن يحدف فاعله ، كقول الجن ( ٧٢ : ١٠ ) وإنا لاندري أشراً أريد بمن  
فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشداً ؟ ) .

\* \* \*

وهذا الموضوع ضل فيه فريقان من الناس الخائضين فى القدر بالباطل .  
فرقة كذبت بهذا ، وقالت : إنه لا يخلق أفعال العباد ، ولا يشاء كل ما يكون .  
لأن الذنوب قبيحة ، وهو لا يفعل القبيح . وإرادتها قبيحة ، وهو لا يريد القبيح .  
وفرقة : لما رأت أنه خالق هذا كله ولم تؤمن أنه خلق هذا الحكمة . بل قالت :  
إذا كان يخلق هذا : فيجب أن يخلق كل شر ، ولا يخلق شيئاً لحكمة . وما ثمَّ  
فعل تنزه عنه . بل كل ما كان ممكناً جاز أن يفعله .

وجوزوا : أن يأمر بكل كفر ومعصية . وينهى عن كل إيمان وطاعة ،  
وصدق وعدل . وأن يعذب الأنبياء ، وينعم الفراعنة والمشركين ، وغير ذلك . ولم  
يفرقوا بين مفعول ومفعول .

وهذا منكر من القول وزور ، كالأول . قال تعالى ( ٤٥ : ٢١ ) أم حسب

الذين اجتروا السيئات : أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون ) وقال تعالى ( ٦٨ : ٣٥ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم كيف تحكمون ) وقال تعالى ( ٣٨ : ٢٨ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ؟ ) ونحو ذلك مما يوجب أنه يفرق بين الحسنات والسيئات ، وبين المحسن والمسيء . وأن من جوز عليه التسوية بينهما : فقد أتى بقول منكر ، وزور ينكر عليه .

وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان : لا يكون فيه حكمة . بل فيه من الحكمة والرحمة ما يخفى على بعضهم مما لا يقدر قدره إلا الله .

وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئياً بالإضافة : يكون شراً كلياً عاماً . بل الأمور العامة الكلية : لا تكون إلا خيراً ومصالحة للعباد ، كالمطر العام وكإرسال رسول عام .

وهذا مما يقتضى : أنه لا يجوز أن يؤيد الله كذاباً عليه بالمعجزات التي أيد بها أنبياءه الصادقين . فإن هذا شر عام للناس ، يضلهم ويفسد عليهم دينهم ودنياهم وآخرتهم .

وليس هذا كالمملك الظالم ، والعدو . فإن المملك الظالم : لا بد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه .

وقد قيل : ستون سنة بإمام ظالم : خير من ليلة واحدة بلا إمام .  
وإذا قدر كثرة ظلمه : فذلك ضرر في الدين ، كالمصائب تكون كفارة لذنوبهم وينابون عليها ، ويرجعون فيها إلى الله ، ويستغفرونه ويتوبون إليه . وكذلك ما يسلط عليهم من العدو .

وأما من يكذب على الله ، ويقول - أى يدعى - أنه نبي : فلو أيدّه الله تأييد الصادق : للزم أن يسوى بينه وبين الصادق . فيستوى الهدى والضلال ، والخير

والشر ، وطريق الجنة وطريق النار . ويرتفع التمييز بين هذا وهذا . وهذا ما يوجب الفساد العام للناس في دينهم ودينامهم وآخرتهم<sup>(١)</sup> .

ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم : بقتال من يقاتل على الدين الفاسد من أهل البدع ، كالخوارج . وأمر بالصبر على جور الأئمة . ونهى عن قتالهم والخروج عليهم . ولهذا قد يمكّن الله كثيراً من الملوك الظالمين مدة .

وأما المتنبئون الكذابون : فلا يطيل تمكينهم . بل لا بد أن يهلكهم . لأن فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة . قال تعالى ( ٦٩ : ٤٤ - ٤٦ ) ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ) وقال تعالى ( ٤٢ : ٢٤ ) أم يقولون افتري على الله كذباً . فإن يشأ الله يختم على قلبك ) فأخبر : أنه - بتقدير الافتراء - لا بد أن يعاقب من افتري عليه .

### فصل

وهذا الموضع مما اضطرب فيه الناس . فاستدلت القدرية النفاة والمجبرة على أنه إذا جاز أن يضل شخصاً : جاز أن يضل كل الناس . وإذا جاز أن يعذب حيواناً بلا ذنب ولا عوض : جاز أن يعذب كل حي بلا ذنب ولا عوض . وإذا جاز عليه أن لا يعين واحداً ممن أمره على طاعة أمره : جاز أن لا يعين كل الخلق . فلم يفرق الطائفتان بين الشر الخاص والعام . وبين الشر الإضافي ، والشر المطلق . ولم يجعلوا في الشر الإضافي حكمة يصير بها من قسم الخير .

ثم قال النفاة : وقد علم أنه منزه عن تلك الأفعال . فإننا لو جوزنا عليه هذا لجوزنا عليه تأييد الكذاب بالمعجزات ، وتعذيب الأنبياء وإكرام الكفار ، وغير ذلك ، مما يستعظم العقلاء إضافته إلى الله تعالى .

---

(١) من هذا يعلم فساد دعوى من يقول : إن معجزة الأنبياء تكون كرامة للأولياء ، يعنى أن كرامة الولي من جنس معجزة النبي . والفرق بينهما : هو تحدى النبي وعدم تحدى الولي . وهذا من وهى شياطين الجن لشياطين الإنس زخرف القول غرورا .



قالت المثبتة من الجهمية المجبرة : بل كل الأفعال جائزة عليه ، كما جاز ذلك الخاص . وإنما يعلم أنه لا يفعل بما لا يفعل ، أو بفعل ما يفعل : بالخبر ، خبر الأنبياء عنه . وإلا فهما قُدِّر : جاز أن يفعله ، وجاز أن لا يفعله . ليس في نفس الأمر سبب ولا حكمة ، ولا صفة تقتضى التخصيص ببعض الأفعال دون بعض . بل ليس إلا مشيئة ، نسبتها إلى جميع الحوادث سواء . ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح .

ف قيل لهم : فيجوز تأييد الكذاب بالمعجز . فلا يبقى المعجز دليلاً على صدق الأنبياء . فلا يبقى خبر نبي يعلم به الفرق . فيلزم - مع الكفر بالأنبياء - أن لا يعلم الفرق ، لا بسمع ولا بعقل .

فاحتالوا للفرق بين المعجزات وغيرها . بأن تجوز إتيان الكذاب بالمعجزات يستلزم تعجيز البارئ تعالى عما به يفرق بين الصادق والكاذب . أو لأن دلالتها على الصدق معلوم بالاضطرار . كما قد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع . وبين خطأ الطائفتين . وأن هؤلاء الذين اتبعوا جهماً في الخبر - ونفوا حكمة الله ورحمته ، والأسباب التي بها يفعل ، وما خلقه من القوى وغيرها - هم مبتدعة مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مع مخالفتهم لصريح المعقول . كما أن القدرية النفاة : مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مع مخالفتهم لصريح المعقول .

### فصل

والمقصود هنا : الكلام على قوله ( ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك ) وأن هذه يقتضى : أن العبد لا يزال شاكراً مستغفراً .

وقد ذكر : أن الشر لا يضاف إلى الله ، إلا على أحد الوجوه الثلاثة . وقد تضمنت الفاتحة للأقسام الثلاثة . هو سبحانه : الرحمن الذى وسعت رحمته كل شيء . وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها » وقد سبقت وغلبت رحمته غضبه ، وهو الغفور الودود ، الحلیم الرحيم .

١٣ - مجموعة

فإرادته : أصل كل خير ونعمة ، وكل خير ونعمة فنه ( ١٦ : ٥٣ وما بكم من نعمة فمن الله ) .

وقد قال سبحانه ( ١٥ : ٤٩ ، ٥٠ : ٥٠ ) نبيء عبادى : أنى أنا الغفور الرحيم ) ثم قال ( وأن عذابى هو العذاب الأليم ) وقال تعالى ( ٥ : ٩٨ اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ) فالمغفرة والرحمة من صفاته المذكورة بأسمائه . فهى من موجب نفسه المقدسة ، ومقتضاها ولوازمها .

وأما العذاب : فمن مخلوقاته ، الذى خلقه بحكمة ، هو باعتبارها حكمة ورحمة . فالإنسان لا يأتيه الخير إلا من ربه وإحسانه وجوده . ولا يأتيه الشر إلا من نفسه . فما أصابه من حسنة : فمن الله . وما أصابه من سيئة : فمن نفسه .

\* \* \*

وقوله « وما أصابك » إما أن تكون كاف الخطاب له صلى الله عليه وسلم - كما قال ابن عباس وغيره - وهو الأظهر . لقوله بعد ذلك ( وأرسناك للناس رسولا ) وإما أن تكون لكل واحد واحد من الأدميين ، كقوله ( ٨٢ : ٦ يا أيها الإنسان ، ماغرك بربك الكريم ؟ ) .

لكن هذا ضعيف . فإنه لم يتقدم هنا ذكر الإنسان ولا مكانه . وإنما تقدم ذكر طائفة قالوا ما قالوه . فلو أريد ذكرهم : لتقبل « ما أصابهم من حسنة فمن الله وما أصابهم من سيئة » .

لكن خوطب الرسول بهذا ، لأنه سيد ولد آدم . وإذا كان هذا حكمه : كان هذا حكم غيره بطريق الأولى والأحرى . كما فى مثل قوله ( ١ : ٣٣ ) اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ) وقوله تعالى ( ٣٩ : ٦٥ ) لئن أشركت ليحبطن عملك ) وقوله ( ١٠ : ٩٤ ) فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك . فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ) .

ثم هذا الخطاب نوعان : نوع يختص لفظه به . لكن يتناول غيره بطريق

الأولى ، كقوله ( ٦٦ : ١ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغي مرضاة أزواجك ؟ ) ثم قال ( قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ) .

ونوع : قد يكون خطابه خطاباً به لجميع الناس ، كما يقول كثير من المفسرين : الخطاب له . والمراد غيره .

وليس المعنى : أنه لم يخاطب بذلك . بل هو المقدم . فالخطاب له خطاب لجميع الجنس البشرى . وإن كان هو لا يقع منه منتهى عنه . ولا يترك ما أمر به . بل هذا يقع من غيره . كما يقول ولي الأمر للأمر : سافر غداً إلى المكان الفلاني . أى أنت ومن معك من العسكر . وكما ينهى أعزاً من عنده عن شيء . فيكون نهياً لمن دونه . وهذا معروف من الخطاب .

فقوله « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » الخطاب له صلى الله عليه وسلم . وجميع الخلق داخلون في هذا الخطاب بالعموم ، وبطريق الأولى . بخلاف قوله « وأرسلناك للناس رسولا » فإن هذا له خاصة . ولكن من يبلغ عنه يدخل في معنى الخطاب . كما قال صلى الله عليه وسلم « بلغوا عني ولو آية » وقال « نصر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه » وقال « ليباغ الشاهد الغائب » وقال « إن العلماء ورثة الأنبياء » وقد قال تعالى في القرآن ( ١٩ : ٦ ) وأوحى إلى هذا القرآن لأتذكركم به ومن بلغ ) .

\* \* \*

والمقصود هنا : أن « الحسنه » مضافة إليه سبحانه من كل وجه . و « السيئة » مضافة إليه لأنه خلقها . كما خلق « الحسنه » فلماذا قال « كل من عند الله » . ثم إنه إنما خلقها للحكمة . ولا تضاف إليه من جهة أنها سيئة ، بل تضاف إلى النفس التي تفعل الشر بها لا للحكمة . فتستحق أن يضاف الشر والسيئة إليها . فإنها لا تقصد بما تفعله من الذنوب خيراً ، يكون فعله لأجله أرجح . بل ما كان هكذا فهو من باب الحسنات . ولهذا كان فعل الله حسناً . لا يفعل قبيحاً ولا سيئاً قط .

وقد دخل في هذا سببات الجزاء والعمل . لأن المراد بقوله « ما أصابك من حسنة - ومن سيئة » التعم والمصائب ، كما تقدم . لكن إذا كانت المصيبة من نفسه - لأنه أذنب - فالذنب من نفسه بطريق الأولى . فالسبب من نفسه بلا ريب . وإنما جعلها منه مع الحسنة بقوله « كل من عند الله » كما تقدم . لأنها لا تضاف إلى الله مفردة . بل إما في العموم ، كقوله « كل من عند الله » . وكذلك الأسماء التي فيها ذكر الشر ، لا تذكر إلا مقرونة ، كقولنا « الضار النافع المعطى المانع ، المعز المذل » أو مقيدة ، كقوله ( ٣٢ : ٢٢ ) إنا من المجرمين منتقمون ) .

وكل ما خلقه - مما فيه شر جزئي إضافي - فقيه من الخير العام والحكمة والرحمة أضعاف ذلك . مثل إرسال موسى إلى فرعون . فإنه حصل به التكذيب والمهلك لفرعون وقومه . وذلك شر بالإضافة إليهم . لكن حصل به - من النفع العام للخلق إلى يوم القيامة ، والاعتبار بقصة فرعون - ما هو خير عام . فانتفع بذلك أضعاف أضعاف من استضرَّ به . كما قال تعالى ( ٤٣ : ٥٥ ، ٥٦ ) فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ) وقال تعالى بعد ذكر قصته ( ٧٩ : ٢٦ ) إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ) .

وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم : شقَّ برسالته طائفة من مشركي العرب وكفار أهل الكتاب . وهم الذين كذبوه ، وأهلكهم الله تعالى بسببه . ولكن سعد بها أضعاف أضعاف هؤلاء .

ولذلك من شقَّ به من أهل الكتاب كانوا مبدلين محرفين قبل أن يبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم . فأهلك الله بالجهاد طائفة . واهتدى به من أهل الكتاب أضعاف أضعاف أولئك .

والذين أذلم الله من أهل الكتاب بالقهر والصغار ، أو من المشركين الذين أحدث فيهم الصغار ، فهؤلاء كان قهرهم رحمة لهم . لئلا يعظم كفرهم ، ويكثر شرهم

ثم بعدهم حصل من الهدى والرحمة لغيرهم ما لا يحصيهم إلا الله . وهم دائماً يهتدى منهم ناس من بعد ناس ببركة ظهور دينه بالحجة واليد .  
فالمصلحة بإرساله وإعزازه ، وإظهار دينه ، فيها من الرحمة التي حصلت بذلك ما لا نسبة لها إلى ما حصل بذلك لبعض الناس من شر جزئى إضافى ، لما فى ذلك من الخير والحكمة أيضاً . إذ ليس فيما خلقه الله سبحانه شر محض أصلاً ، بل هو شر بالإضافة .

### فصل

الفرق الخامس : أن ما يحصل للإنسان من الحسنات التي يعملها كلها أمور وجودية . أنعم الله بها عليه ، وحصلت بمشيئة الله ورحمته وحكمته وقدرته وخلقته ، ليس فى الحسنات أمر عدى غير مضاف إلى الله . بل كلها أمر وجودى . وكل موجود وحادث فالله هو الذى يحدثه .

وذلك : أن الحسنات إما فعل مأمور به ، أو ترك منهى عنه . والترك : أمر وجودى . فترك الإنسان لما نهى عنه ، ومعرفته بأنه ذنب قبيح ، وبأنه سبب للعذاب ، وبغضه وكرهته له ، ومنع نفسه منه إذا هويته ، واشتهته وطلبته . كل هذه أمور وجودية . كما أن معرفته بأن الحسنات - كالعادل والصدق - حسنة ، وفعله لها أمور وجودية .

ولهذا إنما يثاب الإنسان على فعل الحسنات إذا فعلها محبا لها بنية وقصد فعلها ابتغاء وجه ربه . وطاعة لله ولرسوله ، ويثاب على ترك السيئات إذا تركها بالكراهة لها ، والامتناع منها . قال تعالى ( ٤٩ : ٧ ) ولكن الله حبيب إليكم الإيمان ، وزينه فى قلوبكم . وكرهه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ) وقال تعالى ( ٧٩ : ٤٠ ) وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى ) وقال تعالى ( ٢٩ : ٤٥ ) إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ) .

وفي الصحيحين عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله . ومن كان يكره أن يرجع في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - يلقى في النار » .

وفي السنن عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم « أوثق عُرى الإيمان : الحب في الله ، والبغض في الله » .

وفيها عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله . ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » .

وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه . فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان » .

وفي الصحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه - لما ذكر الخلوف - قال « من جاهدكم بيده فهو مؤمن . ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن . ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن . ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » وقد قال تعالى (٦٠: ٤) قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه . إذ قالوا لقومهم : إنا برؤء منكم وما تعبدون من دون الله . كفرنا بكم . وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ، حتى تؤمنوا بالله وحده ، إلا قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك . وما أملك لك من الله من شيء ) .

وقال على لسان الخليل (٤٣ : ٢٦ ، ٢٧) إني برء مما تعبدون . إلا الذي فطرني ، فإنه سيهدين ) وقال (٣٦ : ٧٥) أفرايتم ما كنتم تعبدون أنتم وآبائكم الأقدمون ؟ فإنهم عدو لي ، إلا رب العالمين ) وقال (٦ : ٧٨ ، ٧٩) فلما أفلتت ، قال : يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ) .

فهذا البغض والعداوة والبراءة مما يعبد من دون الله ، ومن عابديه : هي أمور موجودة في القلب ، وعلى اللسان والجوارح ، كما أن حب الله وموالاته وموالاته أوليائه : أمور موجودة في القلب ، وعلى اللسان والجوارح . وهي تحقيق قول « لا إله إلا الله » وهو إثبات تأليه القلب لله حياً خالصاً وذكلاً صادقاً . ومنع تأليه غير الله ، وبغض ذلك وكرهته . فلا يعبد إلا الله . ويجب أن يعبده ، وبغض عبادة غيره . ويجب التوكل عليه وخشيته ودعائه . ويجب التوكل على غيره وخشيته ودعائه .

فهذه كلها أمور موجودة في القلب . وهي الحسنات التي يثيب الله عليها . وأما مجرد عدم السيئات ، من غير أن يعرف أنها سيئة ، ولا يكرهها ، بل لا يفعلها لسكونها لم تخطر بباله ، أو تخطر كما تخطر الجمادات التي لا يجربها ولا يبغضها . فهذا لا يثاب على عدم ما يفعله من السيئات . ولكن لا يعاقب أيضاً على فعلها . فكأنه لم يفعلها . فهذا تكون السيئات في حقه بمنزلتها في حق الطفل والمجنون والبهيمة . لا ثواب ولا عقاب .

ولكن إذا قامت عليه الحجة بعلمه بتحريمها . فإن لم يعتقد تحريمها ويكرهها وإلا عوقب على ترك الإيمان بتحريمها .

### فصل

وقد تنازع الناس في الترك : هل هو أمر وجودي أو عدمي ؟ . والأكثرون على أنه وجودي .

وقالت طائفة - كأبي هاشم ابن الجبائي - إنه عدمي وأن المأمور يعاقب على مجرد عدم الفعل ، لا على ترك يقوم بنفسه . ويسمون « المذمية » لأنهم رتبوا الذم على العدم المحض .

والأكثرون يقولون : الترك أمر وجودي . فلا يثاب من ترك المحذور إلا على ترك يقوم بنفسه . وتارك المأمور : إنما يعاقب على ترك يقوم بنفسه . وهو أن يأمره الرسول صلى الله عليه وسلم بالفعل فيمتنع . فهذا الامتناع أمر وجودي .

ولذلك فهو يشتغل عما أمر به بفعل ضده ، كما يشتغل عن عبادة الله وحده بعبادة غيره . فيعاقب على ذلك .

ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده ، فلا بد أن يكون عابداً لغيره . يعبد غيره فيكون مشركاً . وليس في بنى آدم قسم ثالث . بل إما موحد ، أو مشرك ، أو من خلط هذا بهذا كالمبدلين من أهل الملل : النصارى ومن أشبههم من الضلال ، المنتسبين إلى الإسلام . قال الله تعالى ( ١٦ : ٩٨ - ١٠٠ ) فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ، وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ) وقد قال تعالى ( ١٥ : ٤٢ ) إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ) لما قال إبليس ( ١٥ : ٣٩ ، ٤٠ ) لأرين لهم فى الأرض ، ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ) قال تعالى ( إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ) .

فإبليس لا يغوى المخلصين . ولا سلطان له عليهم . إنما سلطانه على الغاوين . وهم الذين يتولونه ، وهم الذين به مشركون .

وقوله « الذين يتولونه والذين هم به مشركون » صفتان لموصوف واحد . فكل من تولاه فهو به مشرك ، وكل من أشرك به فقد تولاه .

قال تعالى ( ٣٦ : ٦٠ ، ٦١ ) ألم أعهد إليكم يا بنى آدم : أن لاتعبدوا الشيطان ؟ إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى . هذا صراط مستقيم ) .

وكل من عبد غير الله فإنما يعبد الشيطان ، وإن كان يظن أنه يعبد الملائكة والأنبياء . وقال تعالى ( ٣٤ : ٤٠ ، ٤١ ) ويوم يحشرهم جميعاً ، ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك ! أنت ولينا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجن . أكثرهم بهم مؤمنون ) .

ولهذا يتمثل الشياطين لمن يعبد الملائكة والأنبياء والصالحين ويخاطبونهم



فيظنون أن الذي خاطبهم ملك أو نبي ، أو ولي . وإنما هو شيطان ، جعل نفسه ملكاً من الملائكة ، كما يصيب عباد الكواكب وأصحاب العزائم والطلسمات ، يسمون أسماء ، يقولون : هي أسماء الملائكة ، مثل ميظرون وغيره . وإنما هي أسماء الجن .

وكذلك الذين يدعون الخلق من الأنبياء والأولياء والملائكة قد يتمثل لأحدهم من مخاطبه ، فيظنه النبي ، أو الصالح الذي دعاه . وإنما هو شيطان تصور في صورته ، أو قال : أنا هو ، لمن لم يعرف صورة ذلك المدعو .

وهذا الشر يجري لمن يدعو الخلق ، من النصارى ومن المنتسبين إلى الإسلام يدعونهم عند قبورهم ، أو معيهم . ويستغيثون بهم . فيأتيهم من يقول : إنه ذلك المستغاث به في صورة آدمي راكباً ، وإما غير راكب . فيعتقد المستغيث : أنه ذلك النبي ، والصالح ، أو أنه سره ، أو روحانيته ، أو رقيقته تشكّل ، أو يقول : إنه ملك جاء على صورته . وإنما هو شيطان يغويه ، لكونه أشرك بالله ودعا غيره الميث من دونه . فصار للشيطان عليه سلطان بذلك الشرك . فظن أنه يدعو النبي ، أو الصالح ، أو الملك . وأنه هو الذي شفع له ، أو هو الذي أجاب دعوته . وإنما هو الشيطان ، ليزيده غلواً في كفره وضلاله .

فكل من لم يعبد الله مخلصاً له الدين ، فلا بد أن يكون مشركاً عابداً لغير الله . وهو في الحقيقة : عابد للشيطان .

فكل واحد من بني آدم إما عابد للرحمن ، وإما عابد للشيطان . قال تعالى ( ٤٣ : ٣٦ - ٣٩ ) ومن يَعِشْ عن ذكر الرحمن نُقِصْ له شيطاناً . فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال : يا ليت بيني وبينك بُعد المشركين . فبئس القرين . ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ) وقال تعالى ( ٢٢ : ١٧ ) إن الذين آمنوا والذين هادوا

والصائبين والنصارى والمجوس والذين أشركوا . إن الله يفصل بينهم يوم القيامة .  
إن الله على كل شئ شهيد .

فبنو آدم منحصرون في الأصناف الستة . وبسط هذا له موضع آخر .

### فصل

والمقصود هنا : أن الثواب والعقاب إنما يكون على عمل وجودى بفعل  
الحسنات ، كعبادة الله وحده ، وترك السيئات ، كترك الشرك - أمر وجودى ، وفعل  
السيئات ، مثل ترك التوحيد ، وعبادة غير الله - أمر وجودى . قال تعالى ( ٢٨ : ٨٤ )  
من جاء بالحسنة فله خير منها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات  
إلا ما كانوا يعملون ) وقال تعالى ( ١٧ : ٧ ) إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم . وإن  
أسأتم فلها ) وقال تعالى ( ٤١ : ٤٦ ) من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ) وقال  
تعالى ( ١٠ : ٢٦ ، ٢٧ ) للذين أحسنوا الحسنى وزيادة . ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة .  
أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها .  
وترهقهم ذلة - إلى قوله - أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ) وقال تعالى  
( ٣٠ : ١٠ ) ثم كان عاقبة الذين أساءوا : السوأى ، أن كذبوا بآيات الله . وكانوا به  
يستهمزون ) .

فأما عدم الحسنات والسيئات : فجزاؤه عدم الثواب والعقاب .  
وإذا فرض رجل آمن بالرسول مجملاً ، وبقى مدة لا يفعل كثيراً من الحرمات ،  
ولا سمع أنها محرمة ، فلم يعتقد تحريمها . مثل من آمن ولم يعلم أن الله حرم الميتة  
والدم ولحم الخنزير ، ولا علم أنه حرم نكاح الأقارب سوى أربعة أصناف ،  
ولا حرم بالمصاهرة أربعة أصناف - حرم على كل من الزوجين أصول الآخر  
وفروعه - فإذا آمن ولم يفعل هذه الحرمات ، ولا اعتقد تحريمها ، لأنه لم يسمع  
ذلك : فهذا لا يثاب ولا يعاقب .

ولكن إذا علم التحريم فاعتقده : أثيب على اعتقاده . وإذا ترك ذلك - مع

دعاء النفس إليه - أئيب ثواباً آخر ، كالذى تدعوه نفسه إلى الشهوات فينهاها كالصائم الذى تشتهى نفسه الأكل والجماع فينهاها ، والذى تشتهى نفسه شرب الخمر والفواحش فينهاها . فهذا يثاب ثواباً آخر ، بحسب نهيه لنفسه ، وصبره على المحرمات ، واشتغاله بالطاعات التى هى ضدها . فإذا فعل تلك الطاعات كانت مانعة له عن المحرمات .

وإذا تبين هذا : فالحسنات التى يثاب عليها كلها وجودية ، نعمة من الله تعالى وما أحبته النفس من ذلك ، وكرهته من السيئات : فهو الذى حجب الإيمان إلى المؤمنين ، وزينة فى قلوبهم . وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان .

### فصل

#### فى منشأ السيئات

وأما السيئات : فمنشؤها الجهل والظلم . فإن أحداً لا يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة ، أو لهواه وميل نفسه إليها .

ولا يترك حسنة واجبة إلا لعدم علمه بوجوبها ، أو لبغض نفسه لها . وفى الحقيقة : فالسيئات كلها ترجع إلى الجهل . وإلا فلو كان عالماً عالماً نافعاً بأن فعل هذا يضره ضراراً راجحاً ، لم يفعله . فإن هذا خاصية العاقل . ولهذا إذا كان من الحسنات ما يعلم أنه يضره ضراراً راجحاً ، كالسقوط من مكان عال ، أو فى نهر يغرقه ، أو المرور بجانب حائط مائل ، أو دخول نار متأججة ، أو رمى ماله فى البحر ونحو ذلك : لم يفعله ، لعلمه بأن هذا ضرر لا منفعة فيه . ومن لم يعلم أن هذا يضره - كالصبي ، والمجنون ، والساهى والغافل - فقد يفعل ذلك .

ومن أقدم على ما يضره - مع علمه بما فيه من الضرر عليه - فلظنه أن منفعته راجحة .

فأما أن يجرم بضرر مرجوح ، أو يظن أن الخير راجح . فلا بد من رجحان الخير ، إما فى الظن وإما فى المظنون ، كالذى يركب البحر ويسافر الأسفار البعيدة

للريح . فإنه لو جزم بأنه يفرق أو يخسر لما سافر ، لكنه يترجح عنده السلامة والريح ، وإن كان مخطئاً في هذا الظن .

وكذلك الذنوب : إذا جزم السارق بأنه يؤخذ ويقطع ، لم يسرق . وكذلك الزاني : إذا جزم بأنه يرجم ، لم يزن . والشارب يختلف حاله . فقد يقدم على جلد أربعين وثمانين ، ويديم الشرب مع ذلك . ولهذا كان الصحيح : أن عقوبة الشارب غير محدودة ، بل يجوز أن تنتهي إلى القتل ، إذا لم ينته إلا بذلك . كما جاءت بذلك الأحاديث . كما هو مذکور في غير هذا الموضوع .

وكذلك العقوبات ، متى جزم طالب الذنب بأنه يحصل له به الضرر الراجح لم يفعله . بل إما أن لا يسكون جازماً بتحريمه ، أو يكون غير جازم بعقوبته . بل يرجو العفو بحسنات ، أو توبة ، أو بعفو الله ، أو يغفل عن هذا كله . ولا يستحضر تحزيماً ، ولا وعيداً . فيبقى غافلاً . غير مستحضر للتحريم . والغفلة من أصداد العلم .

### فصل

الغفلة والجهالة والشهوة : أصل كل شر

فالغفلة والشهوة أصل الشر . قال تعالى ( ١٨ : ٢٨ ) ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه . وكان أمره فرطاً ) والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل . وإلا فصاحب الهوى ، إذا علم قطعاً أن ذلك يضره ضرراً راجحاً : انصرفت نفسه عنه بالطبع . فإن الله تعالى جعل في النفس حباً لما ينفعها ، وبعضاً لما يضرها . فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضرراً راجحاً . بل متى فعلته كان لضعف العقل .

ولهذا يوصف هذا بأنه عاقل ، وذو نهي ، وذو حجب .

ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان . لا من مجرد النفس . فإن الشيطان يزين لها السيئات ، ويأمرها بها ، ويذكر لها ما فيها من المحاسن . التي هي منافع

لامضار . كما فعل إبليس بآدم وحواء . فقال ( ٢٠ : ١٢٠ ، ١٢١ يا آدم ، هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكل منها فبدت لهما سوءاتهما ) ( ٧ : ٢٠ ) وقال : مانها كما ربكنا عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين ) . ولهذا قال تعالى ( ٤٣ : ٣٦ ) ومن يعيش عن ذكر الرحمن تقيض له شيطاناً فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ) وقال تعالى ( ٣٥ : ٦ ) أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ؟ ) وقال تعالى ( ٦ : ١٠٨ ) ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ، فيسبوا الله عدواً بغير علم . كذلك زيننا لكل أمة عملهم . ثم إلى ربهم مرجعهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون ) .

وقوله « زيننا لكل أمة عملهم » هو بتوسيط تزوين الملائكة ، والأنبياء ، والمؤمنين للخير . وتزوين شياطين الجن والإنس للشر . قال تعالى ( ٦ : ١٣٧ ) وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليزدوهم . وليلدسوا عليهم دينهم ) .

فأصل ما يوقع الناس في السيئات : الجهل ، وعدم العلم بكونها تضرهم ضرراً راجحاً ، أو ظن أنها تنفعهم نفعاً راجحاً . ولهذا قال الصحابة رضی الله عنهم « كل من عصى الله فهو جاهل » وفسروا بذلك قوله تعالى ( ٤ : ١٧ ) إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة . ثم يتوبون من قريب ) كقوله ( ٦ : ٥٤ ) وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا . فقل : سلام عليكم . كتب ربكم على نفسه الرحمة : أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة . ثم تاب من بعده وأصلح . فإنه غفور رحيم ) ولهذا يسمى حال فعل السيئات : الجاهلية . فإنه يصاحبها حال من حال جاهلية . فالأبوالعالية : سألت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ؟ ( إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ) فقالوا : كل من عصى الله فهو جاهل . ومن تاب قبيل الموت : فقد تاب من قريب .

وعن قتادة قال « أجمع أصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كل

من عصى ربه فهو في جهالة ، عمداً كان أو لم يكن . وكل من عصى الله فهو جاهل » وكذلك قال التابعون ومن بعدهم .

قال مجاهد : من عمل ذنباً - من شيخ ، أو شاب - فهو بجهالة . وقال : من عصى ربه فهو جاهل . حتى ينزع عن معصيته . وقال أيضاً : هو إعطاء الجهالة العمد . وقال مجاهد أيضاً : من عمل سوءاً خطأً ، أو إثمًا عمداً : فهو جاهل . حتى ينزع منه . رواه ابن أبي حاتم . ثم قال : وروى عن قتادة ، وعمر بن مرة ، والثوري ، ونحو ذلك « خطأً ، أو عمداً » .

وروى عن مجاهد والضحاك قالا : ليس من جهالته أن لا يعلم حلالاً ولا حراماً . ولكن من جهالته : حين دخل فيه . وقال عكرمة : الدنيا كلها جهالة .

وعن الحسن البصرى : أنه سئل عنها ؟ فقال : هم قوم لم يعلموا ما لهم مما عليهم . قيل له : رأيت لو كانوا قد علموا ؟ قال : فليخرجوا منها . فإنها جهالة .

قلت : ومما يبين ذلك : قوله تعالى ( ٣٥ : ٢٨ ) إنما يخشى الله من عباده العلماء ) وكل من خشيه ، وأطاعه ، وترك معصيته : فهو عالم . كما قال تعالى ( ٣٩ : ٩ ) أمنُّ هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً ؟ يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه . قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ ) .

وقال رجل للشعبي : أيها العالم . فقال : إنما العالم من يخشى الله . وقوله تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » يقتضى أن كل من خشى الله فهو عالم . فإنه لا يخشاه إلا عالم .

ويقتضى أيضاً : أن العالم من يخشى الله . كما قال السلف . قال ابن مسعود « كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار جهلاً » .

ومثل هذا الحصر يكون من الطرفين . حصر الأول في الثاني . وهو مطرد وحصر الثاني في الأول نحو قوله ( ٣٦ : ١١ ) إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ) وقوله ( ٧٩ : ٤٥ ) إنما أنت منذر من يخشاها ) وقوله ( ٣٢ : ١٥ ) ،

١٦ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكروا بها خرّوا سُجّداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع ) .

وذلك : أنه أثبت الخشية للعلماء ، ونفاها عن غيرهم . وهذا كالاستثناء . فإنه من النفي : إثبات ، عند جمهور العلماء . كقولنا « لا إله إلا الله » وقوله تعالى ( ٢١ : ٢٨ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ) وقوله ( ٣٤ : ٢٣ ) ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ) وقوله ( ٢٥ : ٣٣ ) ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ) . وقد ذهب طائفة إلى أن المستثنى مسكوت عنه . لم يثبت له ما ذكر . ولم ينف عنه .

وهؤلاء يقولون ذلك في صيغة الحصر بطريق الأولى . فيقولون : نفي الخشية عن غير العلماء ، ولم يثبتها لهم .

والصواب : قول الجمهور . أن هذا كقوله ( ٧ : ٣٣ ) قل : إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن . والإثم والبغى بغير الحق ) فإنه ينفي التحريم عن غير هذه الأصناف ويثبتها لها . لكن أثبتنا للجنس . أو لكل واحدٍ واحدٍ من العلماء ؟ كما يقال : إنما يحج المسلمون . ولا يحج إلا مسلم . وذلك أن المستثنى هل هو مقتضى أو شرط ؟ .

ففي هذه الآية وأمثالها : هو مقتضى . فهو عام . فإن العلم بما أذرت به الرسل يوجب الخوف . فإذا كان العلم يوجب الخشية الحاملة على فعل الحسنات ، وترك السيئات . وكل عاص فهو جاهل . ليس بتام العلم . يبين ما ذكرنا من أن أصل السيئات الجهل ، وعدم العلم . وإذا كان كذلك . فعدم العلم ليس شيئاً موجوداً . بل هو مثل عدم القدرة ، وعدم السمع والبصر ، وسائر الأعدام .

\* \* \*

والعدم : لا فاعل له . وليس هو شيئاً . وإنما الشيء الموجود . والله تعالى خالق كل شيء . فلا يجوز أن يضاف العدم المحض إلى الله . لكن قد يقترن به ما هو موجود .

فإذا لم يكن عالماً بالله ، لا يدعوه إلى الحسنات ، وترك السيئات .  
والنفس بطبعها متحوّلة . فإنها حية . والإرادة والحركة الإرادية من لوازم  
الحياة . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « أصدق الأسماء :  
حارث وهام » فكل آدمي حارث وهام . أى عامل كاسب ، وهو هام . أى يهيم  
ويريد . فهو متحرك بالإرادة .

وقد جاء في الحديث « مثل القلب : مثل ريشة ملقاة بأرض فلاة ، ولقلبُ  
أشدّ ثقلًا من القدر إذا استجمعت غليانًا » .

فلما كانت الإرادة والعمل من لوازم ذاتها . فإذا هداها الله : علمها ما ينفعها  
وما يضرها . فأرادت ما ينفعها ، وتركت ما يضرها .

### فصل

والله سبحانه قد تفضل على بنى آدم بأمرين . هما أصل السعادة .  
أحدهما : أن كل مولود يولد على الفطرة ، كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله  
عليه وسلم أنه قال « كل مولود يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ،  
أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم  
يقول أبو هريرة : اقروا إن شئتم ( ٣٠ : ٣٠ ) فطرة الله التى فطر الناس عليها ) »  
قال تعالى ( ٣٠ : ٣٠ ) فأقم وجهك للدين حنيفا . فطرة الله التى فطر الناس عليها  
لاتبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم ) :

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يقول  
الله تعالى : خلقت عبادى حنفاء . فاجتالهم الشياطين . وحرمت عليهم ما أحللت  
لهم . وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا » .

فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية ، محبة له ، تعبده لانشرك  
به شيئاً . ولكن يفسدها ما يزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحى بعضهم إلى  
بعض من الباطل . قال تعالى ( ١٧٢ : ٧ ) وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم



ذرياتهم . وأشهدهم على أنفسهم ، ألسنت بر بكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا . أن تقولوا  
يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا : إنما أشرك آبائنا من قبل ،  
وكننا ذرية من بعدهم . أقتل كما بما فعل المبطلون ؟ ) .  
وتفسير هذه الآية مبسوط في غير هذا الموضع .

الثانى : أن الله تعالى قد هدى الناس هداية عامة بما جعل فيهم بالفطرة من  
المعرفة وأسباب العلم ، وبما أنزل إليهم من الكتب ، وأرسل إليهم من الرسل . قال  
تعالى ( ٩٦ : ١ - ٥ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ  
وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ) وقال تعالى ( ٥٥ : ١ - ٣  
الرحمن علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان ) وقال تعالى ( ٨٧ : ١ - ٣ سبح  
اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قَدَّرَ فهدى ) وقال تعالى ( ٩٠ : ١٠  
وهديناه النجدين ) .

ففى كل أحد ما يقتضى معرفته بالحق ومحبه له . وقد هداه ربه إلى أنواع  
من العلم ، يمكنه أن يتوصل بها إلى سعادة الأولى والآخرة . وجعل فى فطرته محبة  
لذلك . لكن قد يُعرض الإنسان - بجاهليته وغفلته - عن طلب علم ما ينفعه .  
وكونه لا يطلب ذلك ، ولا يريد : أمر عدى ، لا يضاف إلى الله تعالى . فلا  
يضاف إلى الله : لا عدم علمه بالحق ، ولا عدم إرادته للخير .

### الحركة والإرادة من لوازم النفس

لكن النفس كما تقدم : الإرادة والحركة من لوازمها . فإنها حية حياة طبيعية  
لكن سعادتها ونجاتها إنما تتحقق بأن تحي الحياة النافعة الكاملة . وكان ما لها  
من الحياة الطبيعية موجبا لعذابها . فلا هى حية متنعمة بالحياة . ولا هى ميتة  
مستريحة من العذاب . قال تعالى ( ٨٧ : ٩ - ١٣ فذكر إن نفعت الذكري .  
سيدك من يخشى . ويتجنبها الأشقى . الذى يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها  
ولا يحيى ) فالجزء من جنس العمل . لما كان فى الدنيا : ليس بحى الحياة النافعة

التي خلق لأجلها . بل كانت حياته من جنس حياة البهائم . ولم يكن ميتاً عديم الإحساس : كان في الآخرة كذلك . فإن مقصود الحياة : هو حصول ما ينتفع به الحيء ويستلذ به . والحي لا بد له من لذة أو ألم . فإذا لم تحصل له اللذة : لم يحصل له مقصود الحياة . فإن الألم ليس مقصوداً .

كمن هو حي في الدنيا ، وبه أمراض عظيمة لاتدعه يتنعم بشيء مما يتنعم به الأحياء . فهذا يبقى طول حياته يختار الموت ، ولا يحصل له .

فلما كان من طبع النفس الملازم لها : وجود الإرادة والعمل ، إذ هو حارث همم . فإن عرفت الحق وأرادته . وأحبيته وعبدته : فذلك من تمام إنعام الله عليها . وإلا فهي بطبعها لا بد لها من مراد معبود غير الله . ومرادات سيئة تضرها . فهذا الشر قد تركب من كونها لم تعرف الله ولم تعبده . وهذا عدم لا يضاف إلى فاعل . ومن كونها بطبعها لا بد لها من مراد معبود . فعبدت غيره . وهذا هو الشر الذي تعذب عليه . وهو من مقتضى طبعها مع عدم هداها .

\* \* \*

والقدرية يعترفون بهذا جميعه . وبأن الله خلق الإنسان مريداً . لكن يجعلون الخلق كونه مريداً بالقوة والقبول . أى قابلاً لأن يريد هذا وهذا . وأما كونه مريداً لهذا المعين ، وهذا المعين : فهذا عندهم ليس مخلوقاً لله . وغلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً . فإن الله خالق هذا كله .

وإرادة النفس لما يريد من الذنوب وفعالها : هو من جملة مخلوقات الله تعالى فإن الله خالق كل شيء . وهو الذي ألهم النفس - التي سواها - فجورها وتقواها . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه « اللهم آت نفسي تقواها ، وزكّتها ، أنت خير من زكاها . أنت وليها ومولاها » .

وهو سبحانه : جعل إبراهيم وآله أئمة يهدون بأمره . وجعل فرعون وآله أئمة يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون .

لكن هذا لا يضاف مفرداً إلى الله تعالى ، لوجهين : من جهة علته الغائية ، ومن جهة سببه وعلته الفاعلة .

أما الغائية : فإن الله إنما خلقه لحكمة هو باعتبارها خيراً ، لا شر . وإن كان شراً إضافياً . فإذا أضيف مفرداً : توهم المتوهم مذهب جهنم : أن الله يخلق الشر المحض الذي لا خير فيه لأحد . لا لحكمة ولا رحمة . والاختبار والسنة والاعتبار تبطل هذا المذهب .

كما أنه إذا قيل : محمد وأمه يسفكون الدماء ، ويفسدون في الأرض : كان هذا ذمّاً لهم ، وكان باطلاً . وإذا قيل : يجاهدون في سبيل الله لتسكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله ، ويقتلون من منعهم من ذلك : كان هذا مدحاً لهم ، وكان حقاً .

فإذا قيل : إن الرب تبارك وتعالى حكيم رحيم . أحسن كل شيء خلقه ، وأتقن ما صنع ، وهو أرحم الراحمين . أرحم بعباده من الوالدة بولدها . والخبير كله بيديه . والشر ليس إليه . بل لا يفعل إلا خيراً . وما خلقه من ألم لبعض الحيوانات أو من أعمالهم المذمومة : فله فيها حكمة عظيمة ، ونعمة جسيمة - كان هذا حقاً . وهو مدح للرب وثناء عليه .

وأما إذا قيل : إنه يخلق الشر الذي لا خير فيه ولا منفعة لأحد . ولا له فيها حكمة ولا رحمة . ويعذب الناس بلا ذنب : لم يكن هذا مدحاً للرب ، ولا ثناء عليه . بل كان بالعكس .

ومن هؤلاء من يقول : إن الله تعالى أضر على خلقه من إبليس .

وبسط القول في بيان فساد قول هؤلاء له موضع آخر .

وقد بينا بعض ما في خلق جهنم وإبليس من السيئات : من الحكمة والرحمة .

وما لم نعلم أعظم مما علمناه .

فتبارك الله أحسن الخالقين ، وأرحم الراحمين ، وخير الغافرين . ومالك يوم الدين .

الأحد الصمد . الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . الذى لا يحصى العباد ثناء عليه . بل هو كما أثنى على نفسه . الذى له الحمد فى الأولى والآخرة . وله الحكم وإليه يرجعون . الذى يستحق الحمد والحب والرضا لذاته ، ولإحسانه إلى عباده . سبحانه وتعالى . يستحق أن يحمد لما له فى نفسه من المحامد والإحسان إلى عباده . هذا حمد شكر ، وذاك حمد مطلقاً .

\* \* \*

وقد ذكرنا - فى غير هذا الموضوع - ما قيل : من أن كل ما خلقه الله فهو نعمة على عباده المؤمنين . يستحق أن يحمده وبشكروه عليه ، وهو من الآية . ولهذا قال فى آخر سورة النجم ( ٥٣ : ٥٥ ) فبأى آلاء ربك تتماهى ؟ ( وفى سورة الرحمن يذكر ( كل من عليها فان ) ونحو ذلك . ثم يقول عقب ذلك ( فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ ) .

وقال آخرون : منهم الزجاج ، وأبو الفرج بن الجوزى ( فبأى آلاء ربكما تكذبان ) أى من هذه الأشياء المذكورة . لأنها كلها ينعم بها عليكم فى دلائها إياكم على وحدانيته . وفى رزقه إياكم ما به قوامكم . وهذا قالوه فى سورة الرحمن .

وقالوا فى قوله « فبأى آلاء ربك تتماهى ؟ » فبأى نعم ربك التى تدل على وحدانيته تتشكك ؟ وقيل : تشك وتجادل ؟ قال ابن عباس : تُكذَّب ؟ . قلت : قد ضمن « تتماهى » معنى تكذب . ولهذا عده بالتاء . فإن التماهى : تفاعل من المراء . يقال : تمارينا فى الهلال . والمراء فى القرآن كفر . وهو يكون تكذيب وتشكيك .

وقد يقال : لما كان الخطاب لهم . قال « تتماهى » أى يتمارون . ولم يقل : تمبرك . فإن التفاعل يكون بين اثنين تماريا . قالوا : والخطاب للانسان . قيل للوليد بن المغيرة . فإنه قال ( ٥٣ : ٣٦ - ٣٨ ) أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى

وقى : أن لاتزر وازرة وزر أخرى ) ثم التفت إليه فقال « فبأى آلاء ربكما تتماهى ؟ » تكذبان . كما قال ( ٥٥ : ١٤ - ١٦ خلق الإنسان من صلصال كالفخار . وخلق الجن من مارج من نار . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ ) .  
ففى كل ما خلقه الله إحسان إلى عباده ، يحمد عليه حمد شكر . وله فيه حكمة تعود إليه ، يستحق لأجلها أن يحمد عليه حمداً يستحقه لذاته .

فجميع المخلوقات : فيها إنعام على العباد ، كالتقلين المخاطبين بقوله « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » من جهة أنها آيات للرب ، يحصل بها هدايتهم وإيمانهم الذى يسعدون به فى الدنيا والآخرة . فيدلهم عليه وعلى وحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته .

والآيات التى بعث بها الأنبياء وأيدهم بها ونصرهم . وإهلاك عدوهم - كما ذكره فى سورة النجم ( ٥٣ : ٥٠ - ٥٤ ) وأنه أهلك عاداً الأولى ونمود ، فما أبقى . وقوم نوح من قبل ، إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفة أهوى . فغشاها ماغشى ) يدلهم على صدق الأنبياء فيما أخبروا به من الأمر والنهى ، والوعد والوعيد . ما بشروا به وأنذروا به .

ولهذا قال عقيب ذلك ( ٥٣ : ٥٦ هذا نذير من النذر الأولى ) قيل : هو محمد . وقيل : هو القرآن . فإن الله سمي كلا منهما بشيراً ونذيراً . فقال فى رسول الله ( ١٨٨ : ٧ ) إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ) وقال تعالى ( ٤٨ : ٨ ) إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ) وقال تعالى فى القرآن ( ٤١ : ٣ ) كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً ) وهما متلازمان .

وكل من هذين المعنيين : مراد . يقال : هذا نذير أنذر بما أنذرت به الرسل والكتب الأولى .

وقوله « من النذر » أى من جنسها . أى رسول من الرسل المرسلين .  
ففى المخلوقات : نعم من جهة حصول الهدى والإيمان ، والاعتبار والموعظة بها .

وهذه أفضل النعم .

### أفضل النعم

فأفضل النعم : نعمة الإيمان . وكل مخلوق من المخلوقات : فهو الآيات التي يحصل بها ما يحصل من هذه النعمة . قال تعالى ( ١٢ : ١١١ ) لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ) وقال تعالى ( ٥٠ : ٨ ) تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . وما يصيب الإنسان ، إن كان يسره : فهو نعمة بينة . وإن كان يسوءه : فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياها . ويثاب بالصبر عليه . ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها ( ٢ : ٢١٦ ) وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون ) .

وقد قال في الحديث « والله لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له . إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له . وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » . وإذا كان هذا وهذا : فكلاهما من نعم الله عليه .

وكلتا نعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر .

أما نعمة الضراء : فاحتياجها إلى الصبر ظاهر . وأما نعمة السراء : فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها . فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء . كما قال بعض السلف : ابتلينا بالضراء فصبرنا . وابتلينا بالسراء فلم نصبر .

وفي الحديث « أعوذ بك من فتنة الفقر . وشر فتنة الغنى » .

والفقر : يصلح عليه خلق كثير . والغنا : لا يصلح عليه إلا أقل منهم .

ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين . لأن فتنة الفقر أهون . وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر . لكن لما كان في السراء : اللذة . وفي الضراء : الألم . اشتهر ذكر الشكر في السراء ، والصبر في الضراء . قال تعالى ( ١١ : ٩ ، ١٠ ) ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه ، إنه ليؤوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته : ليقولن ذهب السيئات عني ، إنه لفرح فقور . إلا الذين صبروا

وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ) ولأن صاحب السراء : أحوج إلى الشكر ، وصاحب الضراء : أحوج إلى الصبر . فإن صَبَرَ هذا وشكر هذا : واجب . إذا تركه استحق العقاب .

وأما صبر صاحب السراء : فقد يكون مستحباً ، إذا كان عن فضول الشهوات . وقد يكون واجباً ، ولكن لإتيانه بالشكر - الذى هو حسنات - يغفر له ما يغفر من سيئاته .

وكذلك صاحب الضراء : لا يكون الشكر فى حقه مستحباً إذا كان شكراً يصير به من السابقين المقربين . وقد يكون تقصيره فى الشكر : مما يغفر له ، لما يأتي به من الصبر . فإن اجتماع الشكر والصبر جميعاً : يكون مع تألم النفس وتلذذها ، يصبر على الألم ، ويشكر على النعم . وهذا حال يعسر على كثير من الناس . وبسط هذا له موضع آخر .

\* \* \*

والمقصود هنا : أن الله تعالى منعم بهذا كله ، وإن كان لا يظهر الإنعام به فى الابتداء لأكثر الناس . فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون . فكل ما يفعله الله فهو نعمة منه .

وأما ذنوب الإنسان : فهي من نفسه . ومع هذا فهي - مع حسن العاقبة - نعمة وهي نعمة على غيره بما يحصل له بها من الاعتبار والهدى والإيمان . ولهذا كان من أحسن الدعاء قوله « اللهم لا تجعلنى عبدة لغيرى ، ولا تجعل أحداً أسعد بما علمتنى منى » .

وفى دعاء القرآن ( ١٠ : ٨٥ ) ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ( ٦٠ : ٥ ) ولا تجعلنا فتنة للذين كفروا ) كما فيه ( ٢٥ : ٧٤ ) واجعلنا للمتقين إماماً ) أى فاجعلنا أئمة لمن يقتدى بنا ويأتم . ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى . و « الآلاء » فى اللغة : هى النعم ، وهى تتضمن القدرة .

قال ابن قتيبة : لما عدد الله في هذه السورة - سورة الرحمن - نعماءه ، وذكر عباده وآلاءه ونهبهم على قدرته . جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين نعمتين ، ليفهم النعم ويقرهم بها .

وقد روى الحاكم في صحيحه والترمذي عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحمن حتى ختمها . ثم قال : مالي أراكم سكوتم ؟ الجن كان أحسن منكم رداً . ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة - فبأي آلاء ربكما تكذبان - إلا قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب . فلك الحمد » .

### القرآن كله تذكير بآيات الله

والله تعالى يذكر في القرآن بآياته الدالة على قدرته وربوبيته . ويذكر بآياته التي فيها نعمه وإحسانه إلى عباده . ويذكر بآياته المينة لحكمته تعالى . وهي كلها متلازمة .

فكل ما خلق : فهو نعمة ، ودليل على قدرته وعلى حكمته .

لكن نعمة الرزق ، والاتقاع بالمأكل والمشرب والمسكن والملابس : ظاهرة لكل أحد . فلهذا يستدل بها ، كما في سورة النحل . وتسمى سورة النعم . كما قاله قتادة وغيره .

### الفرق بين الحمد والشكر

وعلى هذا : فكثير من الناس يقول : الحمد أعم من الشكر . من جهة أسبابه . فإنه يكون على نعمة وعلى غير نعمة . والشكر أعم من جهة أنواعه . فإنه يكون بالقلب واللسان واليد .

فإذا كان كل مخلوق فيه نعمة : لم يكن الحمد إلا على نعمة . والحمد لله على كل حال . لأنه مامن حال يقضيها إلا وهي نعمة على عباده .

لكن هذا فهم من عرف مافي المخلوقات من النعم . والجمية والجبرية : بمعزل عن هذا



وكذلك كل ما مخلقه : ففيه له حكمة . فهو محمود عليه باعتبار تلك الحكمة .  
والجهمية أيضاً بمنزل عن هذا .  
وكذلك القدرية الذين يقولون : لا تعود الحكمة إليه . بل ما تم إلا نفع  
الخلق . فما عندهم إلا شكر ، كما ليس عند الجهمية إلا قدرة .  
والقدرة المجردة عن نعمة وحكمة : لا يظهر فيها وصف حمد ، كالتقدير الذي يفعل  
مالا ينتفع به ، ولا ينفع به أحداً . فهذا لا يحمد .  
فحقيقة قول الجهمية أتباع جهنم : أنه لا يستحق الحمد . فله عندهم ملك بلا حمد  
مع تقصيرهم في معرفة ملكه .  
كما أن المعتزلة له عندهم نوع من الحمد بلا ملك تام . إذ كان عندهم يشاء  
مالا يكون ، ويكون مالا يشاء . وتحدث حوادث بلا قدرته .  
وعلى مذهب السلف : له الملك وله الحمد تامين . وهو محمود على حكمته ، كما  
هو محمود على قدرته ورحمته .

وقد قال ( ٣ : ١٨ ) شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً  
بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم ) فله الوجدانية في إلهيته ، وله العدل ، وله  
العزة والحكمة .

وهذه الأربعة إنما يثبتها السلف وأتباعهم . فمن قصر عن معرفة السنة فقد  
نقص الرب بعض حقه .

والجهمي الجبري لا يثبت عدلاً ولا حكمة ، ولا توحيد إلهية . بل توحيد ربوبيته  
والمعتزلي أيضاً لا يثبت في الحقيقة توحيد إلهية ولا عدلاً في الحسنات والسيئات ،  
ولا عزة ولا حكمة في الحقيقة ، وإن قال : إنه يثبت الحكمة بما معناها يعود إلى  
غيره . وتلك لا يصلح أن تكون حكمة من فعل لا لأمر يرجع إليه ، بل لغيره  
هو عند العقلاء قاطبة بها : ليس بحكيم ، بل سفیه .

وإذا كان الحمد لا يقع إلا على نعمة ، فقد ثبت : أنه رأس الشكر . فهو أول الشكر .

والحمد - وإن كان على نعمته وعلى حكته - فالشكر بالأعمال : هو على نعمته . وهو عبادة له لإلهيته التي تتضمن حكته . فقد صار مجموع الأمور داخلًا في الشكر . ولهذا عظم القرآن أمر الشكر . ولم يعظم أمر الحمد مجرداً ، إذ كان نوعاً من الشكر .

وشرع الحمد - الذي هو الشكر المقول - أمام كل خطاب مع التوحيد . ففي الفاتحة : الشكر والتوحيد . والخطب الشرعية لا بد فيها من الشكر والتوحيد . والباقيات الصالحات نوعان . فسبحان الله وبحمده : فيها الشكر والتبزيه والتعظيم . ولا إله إلا الله . والله أكبر : فيها التوحيد والتكبير . وقد قال تعالى ( ٤٠ : ٦٥ ) فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين ) .

\* \* \*

وهل الحمد على كل ما يحمد به المدوح ، وإن لم يكن باختياره ، أو لا يكون الحمد إلا على الأمور الاختيارية . كما قيل في الهمز ؟ فيه نظر ليس هذا موضعه . وفي الصحيح « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : ربنا ولك الحمد . ملء السماء ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد - وكلنا لك عبد - لا مانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت . ولا ينفع ذا نجدة منك الجدة » هذا لفظ الحديث . « أحق » أفعل التفضيل .

وقد غلط فيه طائفة من المصنفين ، فقالوا « حق ما قال العبد » . وهذا ليس لفظ الرسول . وليس هو بقول شديد . فإن العبد يقول الحق والباطل . بل حق ما يقوله الرب . كما قال تعالى ( ٣٨ : ٨٤ ) فالحق والحق أقول . ولكن لفظه « أحق ما قال العبد » خبر مبتدأ محذوف . أى الحمد أحق ما قال العبد . أو هذا - وهو الحمد - أحق ما قال العبد .

ففيه بيان : أن الحمد لله أحق ما قاله العباد . ولهذا أوجب قوله في كل صلاة ، وأن تفتتح به الفاتحة . وأوجب قوله في كل خطبة ، وفي كل أمر ذي بال .  
والحمد ضد الذم . والحمد يكون على محاسن المحمود ، مع المحبة له ، كما أن الذم يكون على مساويه ، مع البغض له .

فإذا قيل : إنه سبحانه يفعل الخير والحسنات ، وهو حكيم رحيم بعباده ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها : أوجب ذلك أن يحبه عباده ويحمده .

وأما إذا قيل : بل يخلق ماهو شر محض ، لانفع فيه ، ولا رحمة ، ولا حكمة لأحد . وإنما يتصف بإرادة ترجح مثلاً على مثل . لافرق عنده بين أن يرحم أو يعذب . وليست نفسه ولا إرادته مرجحة للاحسان إلى الخلق ، بل تعذيبهم وتنعيمهم سواء عنده . وهو - مع هذا - يخلق ما يخلق لمجرد العذاب والشر ، ويفعل ما يفعل لا لحكمة - ونحو ذلك ، مما يقوله الجهمية - : لم يكن هذا موجباً لأن يحبه العباد ويحمده . بل هو موجب للعكس .

ولهذا فإن كثيراً من هؤلاء ينطقون بالذم والشتم والطعن . ويذكرون ذلك نظماً ونثراً .

وكثير من شيوخ هؤلاء وعلمائهم من يذكر في كلامه ما يقتضى هذا . ومن لم يقله باسانه فقلبه ممتلئ به ، لكن يرى أن ليس في ذكره منفعة ، أو يخاف من عموم المسلمين .

وفي شعر طائفة من الشيوخ ذكر نحو هذا .

وهؤلاء يقيمون حجج إبليس وأتباعه على الله . ويجهلون الرب ظالماً لهم .

وهو خلاف ما وصف الله به نفسه ، في قوله تعالى ( ٤٣ : ٧٦ ) وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ) وقوله ( ١١ : ١٠٢ و ١٦ : ١١٨ ) وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ) وقوله ( ٤١ : ٤٦ ) وما ربك بظلام للعبيد ) .

كيف يكون ظالماً ؟ وهم فيما بينهم لو أساء بعضهم إلى بعض ، أو قصر في حقه

لسكان يؤاخذوه ، ويعاقبه وينتقم منه . ويكون ذلك عدلاً إذا لم يعتقد عليه .  
ولو قال : إن الذى فعلته قُدِّرَ علىَّ فلا ذنب لى فيه : لم يكن هذا عذراً له  
عندهم باتفاق العقلاء .

فإذا كان العقلاء متفقين على أن حق المخلوق لا يجوز إسقاطه احتجاجاً  
بالقدر . فكيف يجوز إسقاط حق الخالق احتجاجاً بالقدر ؟ .

وهو سبحانه الحكيم العدل ، الذى لا يظلم مثقال ذرة . وإن تكَّ حسنة  
يضاعفها . ويؤت من لده أجرأ عظيماً . وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .  
فقوله « أحق ما قال العبد » يقتضى : أن حمد الله أحق ما قاله العبد . فله  
الحمد على كل حال . لأنه لا يفعل إلا الخير والإحسان ، الذى يستحق الحمد عليه  
سبحانه وتعالى . وإن كان العباد لا يعلمون .

\* \* \*

وهو سبحانه خلق الإنسان ، وخلق نفسه متحركة بالطبع حركة لا بد فيها من  
الشر لحكمة بالغة ، ورحمة سابقة .

فإذا قيل : فلم لم يخلقها على غير هذا الوجه ؟ .

قيل : كان يكون ذلك خلقاً غير الإنسان . وكانت الحكمة التى خلقها بخلق  
الإنسان لا تحصل . وهذا سؤال الملائكة حيث قالوا ( ٢ : ٣٠ ) تجعل فيها من  
يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ ) ما لم تعلمه الملائكة ، فكيف يعلمه آحاد الناس .  
ونفس الإنسان خلقت كما قال الله تعالى ( ٧٠ : ١٩ - ٢١ ) إن الإنسان خلق  
هلوعاً . إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً ) وقال تعالى ( ٣٧ : ٢١ ) خلق  
الإنسان من عجل ) .

فقد خلقت خلقة تستلزم وجود ما وجد منها لحكمة عظيمة ، ورحمة عيمة .  
فكان ذلك خيراً ورحمة . وإن كان فيه شر إضافي ، كما تقدم . فهذا من جهة  
الغاية مع أنه لا يضاف الشر إلى الله .

وأما الوجه الثاني من جهة السبب : فإن هذا الشر إنما وجد لعدم العلم والإرادة التي تصلح النفس . فإنها خلقت بفطرتها تقتضى معرفة الله ومحبته . وقد هديت إلى علوم وأعمال تعينها على ذلك . وهذا كله من فضل الله وإحسانه . لكن النفس المذنبة لما لم يحصل لها من يكملها ، بل حصل لها من زين لها السيئات - من شياطين الإنس والجن - مالت إلى ذلك ، وفعلت السيئات . فكان فعلها للسيئات . مركباً من عدم ماينفع وهو الأفضل . ووجود هؤلاء الذين خبروها . والعدم لا يضاف إلى الله . وهؤلاء : القول فيهم كالقول فيها : خلقهم لحكمة .

فلما كان عدم ما تعمل به وتصلح : هو أحد السببين . وكان الشر المحض الذي لاخير فيه : هو العدم المحض ، والعدم لا يضاف إلى الله . فإنه ليس شيئاً . والله خالق كل شيء : كانت السيئات منها باعتبار ذاتها في نفسها مستلزمة للحركة الإرادية التي تحصل منها مع عدم ما يصلحها تلك السيئات .

والعبد إذا اعترف وأقر بأن الله خالق أفعاله كلها فهو على وجهين .

إن اعترف به إقراراً بخلق الله كل شيء ، بقدرته ونفوذ مشيئته ، وإقراراً بكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، واعترافاً بفقره وحاجته إلى الله ، وأنه إن لم يهده فهو ضال . وإن لم يتب عليه فهو مصرّ . وإن لم يغفر له فهو هالك : خضع لعزته وحكمته . فهذا حال المؤمنين الذين يرحمهم الله ، ويهديهم ويفقههم لطاعته .

وإن قال ذلك احتجاجاً على الرب ، ودفعاً للأمر والنهي عنه ، وإقامة لعذر نفسه ، فهذا ذنب أعظم من الأول . وهذا من أتباع الشيطان . ولا يزيد ذلك إلا شراً . وقد ذكرنا أن الرب سبحانه محمود لنفسه وإحسانه إلى خلقه . ولذلك هو يستحق المحبة لنفسه وإحسانه إلى عباده . ويستحق أن يرضى العبد بقضائه . لأنه حكمه عدل . لا يفعل إلا خيراً وعدلاً . ولأنه لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له « إن أصابته سرأ شكر . فكان خيراً له . وإن أصابته ضراء صبر . فكان خيراً له » .

فالمؤمن يرضى بقضائه لما يستحقه الرب لنفسه - من الحمد والثناء - ولأنه محسن إلى المؤمن .

وما تسأله طائفة من الناس ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم قال « لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له » وقد قضى عليه بالسيئات الموجبة للعقاب . فكيف يكون ذلك خيراً ؟ .

وعنه جوابان :

أحدهما : أن أعمال العباد لم تدخل في الحديث . إنما دخل فيه ما يصيب الإنسان من النعم والمصائب ، كما في قوله ( ٤ : ٧٩ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ) ولهذا قال « إن أصابته سراء شكر . فكان خيراً له . وإن أصابته ضراء صبر . فكان خيراً له » فجعل القضاء : ما يصيبه من سراء وضراء . هذا ظاهر لفظ الحديث . فلا إشكال عليه .

الوجه الثاني : أنه إذا قدر أن الأعمال دخلت في هذا . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « من سرتة حسنته وساءتة سيئته فهو مؤمن » . فإذا قضى له بأن يحسن ، فهذا مما يسره . فيشكر الله عليه .

وإذا قضى عليه بسيئة : فهي إما تكون سيئة يستحق العقوبة عليها ، إذا لم يتب منها . فإن تاب أبدلت بحسنة . فيشكر الله عليها . وإن لم يتب ابتلى بمصائب تكفرها ، فصبر عليها . فيكون ذلك خيراً له . والرسول صلى الله عليه وسلم قال « لا يقضى الله للمؤمن » والمؤمن هو الذي لا يصر على ذنب ، بل يتوب منه . فيكون حسنة كما قد جاء في عدة آيات : إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة بعمله . ولا يزال يتوب منه حتى يدخل بتوبته منه الجنة .

والذنب يوجب ذل العبد وخضوعه ، ودعاء الله واستغفاره إياه ، وشهوده بفره وحاجته إليه ، وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو .

فيحصل المؤمن - بسبب الذنب - من الحسنات ما لم يكن يحصل بدون ذلك . فيكون هذا القضاء خيراً له .

فهو في ذنوبه بين أمرين : إما أن يتوب ، فيتوب الله عليه . فيكون من التوابين الذين يحبهم الله .

وإما أن يكفر عنه بمصائب ، تصيبه ضراء فيصبر عليها . فيكفر عنه السيئات بتلك المصائب ، وبالصبر عليها ترتفع درجاته .

وقد جاء في بعض الأحاديث يقول الله تعالى « أهل ذكرى أهل مجالستي . وأهل شكرى أهل زيارتي . وأهل طاعتي أهل كرامتي . وأهل معصيتي لا أويسهم من رحمتي . إن تابوا فأنا حبيبهم » أى محبهم فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين « وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم . أبتليهم بالمصائب لأكفر عنهم المعائب » .

### ما في قوله « في نفسك » من الفوائد

وفي قوله تعالى « من نفسك » من الفوائد : أن العبد لا يركن إلى نفسه ، ولا يسكن إليها . فإن الشر لا يجيء إلا منها . ولا يشتغل بلام الناس ولا ذمهم إذا أساءوا إليه . فإن ذلك من السيئات التي أصابته . وهى إنما أصابته بذنوبه . فيرجع إلى الذنوب فيستغفر منها . ويستعيد بالله من شر نفسه وسيئات عمله . ويسأل الله أن يعينه على طاعته . فبذلك يحصل له كل خير ، ويندفع عنه كل شر . ولهذا كان أنفع الدعاء ، وأعظمه وأحكمه : دعاء الفاتحة ( اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين انعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين ) فإنه إذا هداه هذا الصراط : أعانه على طاعته وترك معصيته . فلم يصبه شر ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

لكن الذنوب هى من لوازم نفس الإنسان . وهو محتاج إلى الهدى في كل لحظة : وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب .

ليس كما يقوله طائفة من المفسرين : إنه قد هداه . فلماذا يسأل الهدى ؟ .  
وأن المراد بسؤال الهدى : الثبات ، أو مزيد الهداية .  
بل العبد محتاج إلى أن يُعَلِّمه ربه ما يفعله من تفاصيل أحواله . وإلى ما يتولد  
من تفاصيل الأمور في كل يوم . وإلى أن يلهم أن يعمل ذلك .  
فإنه لا يكفي مجرد علمه إن لم يجعله الله مريداً للعمل بعلمه . وإلا كان العلم  
حجة عليه . ولم يكن مهتدياً . والعبد محتاج إلى أن يجعله الله قادراً على العمل بتلك  
الإرادة الصالحة .

فإنه لا يكون مهتدياً إلى الصراط المستقيم - صراط الذين أنعم الله عليهم من  
النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين - إلا بهذه العلوم والآراء والقدرة  
على ذلك .

ويدخل في ذلك من أنواع الحاجات ما لا يمكن إحصاؤه .  
ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة ، لقرط حاجتهم إليه .  
فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى هذا الدعاء .  
وإنما يعرف بعض قدر هذا الدعاء من اعتبار أحوال نفسه ونفوس الإنس  
والجن ، والمأمورين بهذا الدعاء . ورأى مافي النفوس من الجهل والظلم الذي يقتضى  
شقاءها في الدنيا والآخرة . فيعلم أن الله - بفضله ورحمته - جعل هذا الدعاء من  
أعظم الأسباب المقتضية للخير ، المانعة من الشر .

### مافي قصص القرآن من العبر

ومما يبين ذلك : أن الله تعالى لم يقص علينا في القرآن قصة أحد إلا لنعبر  
بها ، لما في الاعتبار بها من حاجتنا إليه ومصالحتنا .

وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول ، وكانا مشتركين في المقتضى للحكم  
فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كان في نفوس المكذبين للرسول -  
فرعون ومن قبله - لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لانشبهه قط . ولكن الأمر



كما قال تعالى ( ٤١ : ٦٠ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ) وكما قال تعالى ( ٥١ : ٥٢ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول ، إلا قالوا : ساحر أو مجنون ) وقال تعالى ( ٢ : ١١٨ كذلك قال الذين من قبلهم ، مثل قولهم . تشابهت قلوبهم ) وقال تعالى ( ٩ : ٣٠ يضاهاؤن به قول الذين كفروا من قبل ) .

### لتركن سنن من قبلكم

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « لَتَسْلُكُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم حَذْوُ القُدَّةِ بالقُدَّةِ ، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه . قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » .

وقال « لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها : شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع . قيل : يارسول الله ، فارس والروم ؟ قال : فمن ؟ » وكلا الحديثين في الصحيحين . ولما كان في غزوة حُنين كان للمشركين شجرة - يقال لها : ذات أنواط ، يعلقون عليها أسلحتهم ، وينوطونها بها ، ويستظنون بها متبركين . فقال بعض الناس « يارسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال : الله أكبر . قلت كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . إنها السنن . لَتَرَكُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم » .

وقد بين القرآن : أن السيئات من النفس ، وإن كانت بقدر الله .

### أعظم السيئات

فأعظم السيئات : جحود الخالق ، والشرك به ، وطلب النفس أن تكون شريكة ونِدًّا له ، أو أن تكون إلهاً من دونه . وكلا هذين وقع . فإن فرعون طلب أن يكون إلهاً معبوداً دون الله تعالى . وقال ( ٢٨ : ٣٨ ما علمت لكم من إله غيري ) وقال ( ٧٩ : ٢٤ أنا ربكم الأعلى ) وقال لموسى ( ٣٦ : ٢٩ لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ) و ( ٢٣ : ٥٤ استخف قومه فأطاعوه ) .

وإبليس يطلب : أن يعبد ويطاع من دون الله . فيريد : أن يعبد ويطاع هو ، ولا يعبد الله ولا يطاع .

وهذا الذى فى فرعون وإبليس هو غاية الظلم والجهل .

وفى نفوس سائر الإنس والجن : شعبة من هذا وهذا . إن لم يُعِنِ اللهُ العبد ويهديه ، وإلا وقع فى بعض ما وقع فيه إبليس وفرعون ، بحسب الإمكان . قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وفيها مافى نفس فرعون ، غير أن فرعون قدر فأظهر . وغيره محجز فأضمِر .

وذلك : أن الإنسان إذا اعتبر ، وتعرف نفسه والناس ، وسمع أخبارهم : رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته .

### حب النفس للرياسة والعلو

فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة ، بحسب إمكانها . فتجد أحدهم يوالى من يوافق على هواه ، ويعادى من يخالفه فى هواه . وإنما معبوده : مايهواه ويريده . قال تعالى ( ٤٣:٢٥ ) رأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلاً ؟ والناس عنده فى هذا الباب : كما هم عند ملوك الكفار من المشركين من الترك وغيرهم . يقولون « يارباعى » أى صديق وعدو . فمن وافق هواهم : كان ولياً ، وإن كان كافراً مشركاً . ومن لم يوافق هواهم : كان عدواً ، وإن كان من أولياء الله المتقين . وهذه هو حال فرعون .

والواحد من هؤلاء : يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه ، لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون : من دعوى الإلهية ، وجحود الصانع .

وهؤلاء - وإن كانوا يقرون بالصانع - لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته وطاعته للتضمنة ترك طاعتهم : فقد يعادونه ، كما عادى فوعون موسى .

وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل وإيمان ، لا يطلب هذا الحد ، بل يطلب لنفسه ما هو عنده . فإن كان مطاعاً مسلماً : طلب أن يطاع فى أغراضه ، وإن

كان فيها ماهو ذنب ومعصية لله . ويكون من أطاعه في هواه : أحب إليه وأعز عنده ممن أطاع الله وخالف هواه . وهذه شعبة من حال فرعون . وسائر المكذبين للرسول .

وإن كان عالماً - أو شيخاً - أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره ، حتى لو كانا يقرآن كتاباً واحداً كالقرآن ، أو يعبدان عبادة واحدة متماثلان فيها ، كالصلوات الخمس . فإنه يجب من يعظمه بقبول قوله ، والاعتداء به : أكثر من غيره . وربما أبغض نظيره وأتباعه حسداً وبعياً ، كما فعلت اليهود لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو إلى مثل مادعا إليه موسى . قال تعالى ( ٢ : ٩١ ) وإذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله . قالوا : نؤمن بما أنزل علينا . ويكفرون بما وراءه . وهو الحق مصدقاً لما معهم ) وقال تعالى ( ٩٨ : ٤ ) وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ) .

### عمل بنى إسرائيل كعمل فرعون

ولهذا أخبر الله تعالى عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون . وسلط عليهم من انتقم به منهم . فقال تعالى عن فرعون ( ٢٨ : ٤ ) إن فرعون علا في الأرض ، وجعل أهلها شيعاً . يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحى نساءهم . إنه كان من المفسدين ) وقال تعالى عنهم ( ١٧ : ٣ ) وقضينا إلى بنى إسرائيل في الكتاب : لتفسدن في الأرض مرتين . ولتعلن علواً كبيراً ) ولهذا قال تعالى ( ٢٨ : ٨٣ ) تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدن علواً في الأرض ولا فساداً )

والله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، ليدكروه ، ويشكروه ، ويعبدوه وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ليعبدوا الله وحده ، وليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، كما أرسل كل رسول بمثل ذلك . قال تعالى ( ٢١ : ٢٥ ) وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ) وقال تعالى

(٤٣ : ٤٥) وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟ ) .

وقد أمر الله الرسل كلهم بهذا ، وأن لا يفتروا فيه . فقال (٢١ : ٩٢) إن هذه أمتكم أمة واحدة . وأنا ربكم فاعبدون ) وقال تعالى (٢٣ : ٥١ - ٥٣) يأيتها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً . إني بما تعملون عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم . فاتقون . فتقطعوا أمرهم بينهم زُبراً . كل حزب بما لديهم فرحون ) .

قال قتادة : أى دينكم دين واحد . وربكم رب واحد . والشريعة مختلفة<sup>(١)</sup> . وكذلك قال الضحاك عن ابن عباس « إن هذه أمتكم أمة واحدة » أى دينكم دين واحد . قال ابن أبي حاتم : وروى عن سعيد بن جبير ، وقتادة وعبد الرحمن ابن زيد نحو ذلك . وقال الحسن : بين لهم ما يتقون وما يأتون . ثم قال : إن هذه سنتكم سنة واحدة .

وهكذا قال جمهور المفسرين .

### معنى « الأمة »

و « الأمة » الملة . والطريقة ، كما قال تعالى (٤٣ : ٢٢) قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون - مقتدون ) كما يسمى « الطريق » إماماً . لأن السالك فيه يأتى به . فكذلك السالك يؤمه ويقصده .

و « الأمة » أيضاً معلم الخير ، الذى يأتى به الناس . كما أن « الإمام » هو

---

(١) شريعة المرسلين واحدة فى الأساس والمقصد . وهى الدعاء إلى إخلاص العادة لله وحده ، وعبادته بما شرع والبراءة من كل معبود سواه ، ومن كل مشروع سواه . لهداية الناس لما يختلفون فيه من الحق بإذنه ، فإنهم إنما يسعدون بمعرفة الحق وإيتاء كل ذى حق حقه . ويشقون بجهلهم الحقوق وتعديهم الحدود .

الذي يأتيهم به الناس . وإبراهيم عليه السلام جعله الله إماماً . وأخبر ( ١٦ : ١٢٠ ) أنه كان أمة .

وأمر الله الرسل أن تكون ملتهم ودينهم واحداً . لا يتفرقون فيه ، كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد » وقد قال الله تعالى ( ١٣ : ٤٢ ) شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين . ولا تتفرقوا فيه ) ولهذا كان جميع رسل الله وأنبياؤه يصدق بعضهم بعضاً . لا يختلفون ، مع تنوع شرائعهم .

### المتبع للرسول يدعو إلى ما يدعون إليه

فمن كان من المطاعين - من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك - متبعاً للرسول : أمر بما أمروا به . ودعا إلى ما دعوا إليه . وأحب من دعا إلى مثل ما دعا إليه . فإن الله يحب ذلك . فيحب ما يحبه الله تعالى . وهذا قصده في نفس الأمر : أن تكون العبادة لله تعالى وحده . وأن يكون الدين كله لله .

وأما من كان يكره أن يكون له نظير يدعو إلى ذلك : فهذا يطلب أن يكون هو المطاع المعبود . فله نصيب من حال فرعون وأشباهه .

فمن طلب أن يطاع دون الله : فهذا حال فرعون . ومن طلب أن يطاع مع الله : فهذا يريد من الناس أن يتخذوا من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله . والله سبحانه وتعالى أمر : أن لا يعبد إلا إياه ، وأن لا يكون الدين إلا له ، وأن تكون الموالاة فيه ، والمعادة فيه . وأن لا يتوكل إلا عليه ، ولا يستعان إلا به .

فالؤمن المتبع للرسول : يأمر الناس بما أمرتهم به الرسل ، ليسكون الدين كله لله ، لاله . وإذا أمر أحداً غيرَه بمثل ذلك : أحبه وأعانه ، وسرَّ بوجود مطلوبه . وإذا أحسن إلى الناس ، فإنما يحسن إليهم : ابتغاء وجه ربه الأعلى . ويعلم أن الله قد منَّ عليه بأن جعله محسناً ، ولم يجعله مسيئاً ، فيرى أن عمله لله ، وأنه بالله .

وهذا مذكور في فاتحة الكتاب ، التي ذكرنا : أن جميع الخلق محتاجون إليها أعظم من حاجتهم إلى أى شىء .  
ولهذا فرضت عليهم قراءتها في كل صلاة دون غيرها من السور . ولم ينزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في القرآن مثلها . فإن فيها ( إياك نعبد وإياك نستعين ) .

### المؤمن لا يرى له فضلا على أحد

فالمؤمن يرى : أن عمله لله ، لأنه إياه يعبد ، وأنه بالله . لأنه إياه يستعين . فلا يطلب من أحسن إليه جزاء ولا شكوراً . لأنه إنما عمل له ما عمل لله ، كما قال الأبرار ( ٧٦ : ٩ ) إنما نطمعكم لوجه الله . لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ) ولا يمين عليه بذلك ولا يؤذيه . فإنه قد علم : أن الله هو المانُّ عليه ، إذ استعمله في الإحسان . وأن المنَّة لله عليه ، وعلى ذلك الشخص . فعليه هو : أن يشكر الله . إذ يسرَّه ليسرى . وعلى ذلك : أن يشكر الله . إذ يسر له من يقدم له ما ينفعه من رزقٍ ، أو علمٍ أو نصرٍ ، أو غير ذلك .

ومن الناس : من يحسن إلى غيره لِيَمُنَّ عليه ، أو يرد الإحسان له بطاعته إليه وتعظيمه ، أو نفع آخر . وقد يمين عليه . فيقول : أنا فعلت بك كذا . فهذا لم يعبد الله ولم يستعنه . ولا عمل لله ، ولا عمل بالله . فهو المرأى .

وقد أبطل الله صدقة المنان ، وصدقة المرأى . قال تعالى ( ٢ : ٢٦٤ ، ٢٦٥ )  
يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالبنِّ والأذى . كالأذى ينفق ماله رِئاء الناس . ولا يؤمن بالله واليوم الآخر . فمثلُه كمثل صفوان عليه تراب . فأصابه وابلٌ ففركه صلداً . لا يقدرُونَ على شىء مما كسبوا . والله لا يهدى القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ، وتثبيتاً من أنفسهم : كمثل جنةٍ رِبوَّةٍ أصابها وابل ، فَآتَتْ أُكُلهَا ضِعْفَيْنِ . فإن لم يصبها وابل فَطَلَّ . والله بما تعملون بصير ) .

قال قتادة « تثبتاً من أنفسهم » احتساباً من أنفسهم . وقال الشعبي : يقيناً ،  
وتصديقاً من أنفسهم . وكذلك قال الكلابي . قيل : يخرجون الصدقة طيبة بها  
أنفسهم . على يقين بالثواب ، وتصديق بوعد الله . يعلمون : أن ما أخرجوه خير  
لهم مما تركوه .

قلت : إذا كان المعطى محتسباً للأجر عند الله ، مصداقاً بوعد الله له : طلب  
من الله ، لا من الذي أعطاه ، فلا يمن عليه . كما لو قال رجل لآخر : أعط  
ماليك هذا الطعام ، وأنا أعطيك ثمنه ، لم يمن على المالك . لا سيما إذا كان  
يعلم : أن الله قد أنعم عليه بالإعطاء .

### فصل

الفرق السادس : أن يقال : إن ما يتلى به العبد من الذنوب الوجودية - وإن  
كانت خلقاً لله - فهو عقوبة له على عدم فعله ما خلقه الله له . وفطره عليه . فإن الله  
إنما خلقه لعبادته وحده لا شريك له . ودله على الفطرة . كما قال النبي صلى الله عليه  
وسلم « كل مولود يولد على الفطرة » وقال تعالى ( ٣٠ : ٣٠ ) فأقم وجهك للدين  
حقيقاً . فطرة الله التي فطر الناس عليها . لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم .  
ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

فهو لما لم يفعل ما خلق له ، وما فطر عليه ، وما أمر به - من معرفة الله وحده .  
وعبادته وحده - عوقب على ذلك ، بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي .  
قال تعالى للشيطان ( ١٧ : ٦٣ - ٦٥ ) اذهب . فمن تبعك منهم فإن جهنم  
جزاؤكم جزاءً موفوراً - إلى قوله - إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ) وقال تعالى  
( ١٦ : ٩٩ ، ١٠٠ ) إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا . وعلى ربهم يتوكلون .  
إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون ) وقال تعالى ( ٧ : ٢٠١ ،  
٢٠٢ ) إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا . فإذا هم مبصرون .  
وإخوانهم يمددوهم في الغي ثم لا يقصرون .

## إخلاص الدين لله يحفظ من تسلط الشيطان

فقد تبين : أن إخلاص الدين لله : يمنع من تسلط الشيطان ، ومن ولاية الشيطان التي توجب العذاب . كما قال تعالى ( ١٢ : ٢٤ ) كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين ) .

فإذا أخلص العبد لربه الدين : كان هذا مانعاً له من فعل ضد ذلك ومن إيقاع الشيطان له في ضد ذلك . وإذا لم يخلص لربه الدين ، ولم يفعل ما خلق له ، وفطر عليه : عوقب على ذلك . وكان من عقابه : تسلط الشيطان عليه ، حتى يزين له فعل السيئات . وكان إلهامه لفجوره : عقوبة له على كونه لم يتق الله . وعدم فعله للحسنات : ليس أمراً وجودياً ، حتى يقال : إن الله خلقه ، بل هو أمر عدمي . لكن يعاقب عليه لكونه : عدم ما خلق له ، وما أمر به . وهذا يتضمن العقوبة على أمر عدمي . لكن بفعل السيئات ، لا بالعقوبات التي يستحقها بعد إقامة الحجة عليه ، بالنار ونحوها .

وقد تقدم أن مجرد عدم المأمور : هل يعاقب عليه ؟ فيه قولان .  
والأكثرون يقولون : لا يعاقب عليه ، لأنه عدم محض . ويقولون : إنما يعاقب على الترك . وهذا أمر وجودي .  
وطائفة - منهم : أبو هاشم - قالوا : بل يعاقب على هذا العدم . بمعنى أنه يعاقب عليه كما يعاقب على فعل الذنوب ، بالنار ونحوها .

وما ذكر في هذا الوجه : هو أمر وسط . وهو أن يُعاقب على هذا العدم بفعل السيئات ، لا بالعقوبة عليها . ولا يعاقبه عليها حتى يرسل إليه رسوله . فإذا عصى الرسول : استحق حينئذ العقوبة التامة . وهو أولاً : إنما عوقب بما يمكن أن ينجو من شره ، بأن يتوب منه . أو بأن لا تقوم عليه الحجة . وهو كالصبي الذي لا يشتغل بما ينفعه ، بل بما هو سبب لضرره ، ولكن لا يكتب عليه قلم الإثم حتى يبلغ . فإذا بلغ عوقب .



ثم ما تعود من فعل السيئات : قد يكون سبباً لمعصيته بعد البلوغ ، وهو لم يُعاقب إلا على ذنبه . ولكن العقوبة المعروفة : إنما يستحقها بعد قيام الحجّة عليه .  
وأما اشتغاله بالسيئات : فهو عقوبة عدم عمله للحسنات .

### الشر ليس إلى الله

وعلى هذا : فالشر ليس إلى الله بوجه من الوجوه . فإنه - وإن كان الله خالق أفعال العباد - فخلقه للطاعات : نعمة ورحمة ، وخلقه للسيئات : له فيه حكمة ورحمة ، وهو - مع هذا - عدل منه ، فما ظلم الناس شيئاً . ولكن الناس ظلموا أنفسهم . وظلمهم لأنفسهم نوعان : عدم عملهم بالحسنات . فهذا ليس مضافاً إليه . وعملهم للسيئات : خلقه عقوبة لهم على ترك فعل الحسنات التي خلقهم لها ، وأمرهم بها . فكل نعمة منه فضل . وكل نقمة منه عدل .

ومن تدبر القرآن : تبين له أن عامة ما يذكره الله في خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاءً لذلك العمل . كقوله تعالى ( ٦ : ١٢٥ ) فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ) وقال تعالى ( ٦١ : ٥ ) فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ) وقال تعالى ( ٩٢ : ٨ - ١٠ ) وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ) .

وهذا وأمثاله : بذلوا فيه أعمالاً ، عاقبهم بها على فعل محذور ، وترك مأمور . وتلك الأمور إنما كانت منهم وخلق فيهم ، لكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له . ولا بد لهم من حركة وإرادة . فلما لم يتحركوا بالحسنات : حرّكوا بالسيئات ، عدلاً من الله . حيث وضع ذلك موضعه في محله القابل له - وهو القلب الذي لا يكون إلا عاملاً - فإذا لم يعمل الحسنة استعمل في عمل السيئة . كما قيل : نفسك إن لم تشغلها شغلتك .

وهذا الوجه - إذا حقق - يقطع مادة الكلام القدرية المكذبة ، والمجبرة الذين

يقولون : إن أفعال العباد ليست مخلوقة الله . ويجعلون خلقها والتعذيب عليها ظلماً .  
والذين يقولون : إنه خلق كفر الكافرين ومعصيتهم ، وعاقبهم على ذلك  
لالسبب ولا الحكمة .

فإذا قيل لأولئك : إنه إنما أوقعهم في تلك الذنوب ، وطبع على قلوبهم :  
عقوبة لهم على عدم فعلهم ما أمرهم به . فما ظلمهم ، ولكن هم ظلموا أنفسهم .  
يقال : ظلمته إذا نقصته حقه . قال تعالى ( ١٨ : ٣٣ ) كلتا الجنتين أنت أكلها  
ولم تظلم منه شيئاً ) .

وكثير من أولئك يسمون أن الله خلق للعبد من الأعمال ما يكون جزاء له  
على عمل منه متقدم . ويقولون : إنه خلق طاعة المطيع .  
فلا ينازعون في نفس خلق أفعال العباد . لكن يقولون : ما خلق شيئاً من  
الذنوب ابتداء ، بل إنما خلقها جزاء لثلاث يكون ظالماً .

### الذنب يحدثه العبد

فنقول : أول ما يفعله العبد من الذنوب : هو أحدثه ، لم يحدثه الله . ثم ما يكون  
جزاء على ذلك : فالله يحدثه . وهم لا ينازعون في مسألة خلق الأفعال إلا من هذه  
الجهة . وهذا الذي ذكرناه : يوافقون عليه . لكن يقولون : أول الذنوب لم يحدثه  
الله ، بل يحدثه العبد ، لثلاث يكون الجزاء عليه ظالماً .

وما ذكرناه : يوجب أن الله خالق كل شيء . فما حدث شيء إلا بمشيئته  
وقدرته . لكن أول الذنوب الوجودية : هو الخلق . وذلك عقوبة على عدم فعل  
العبد لما خلق له ، ولما كان ينبغي له أن يفعله .

وهذا العدم لا يجوز إضافته إلى الله . وليس بشيء ، حتى يدخل في قولنا  
« الله خالق كل شيء » وما أحدثه من الذنوب الوجودية ، فأولها : عقوبة للعبد  
على هذا العدم . وسائرهما : قد يكون عقوبة للعبد على ما وجد . وقد يكون  
عقوبة له على استمراره على العدم .

فما دام لا يخلص لله العمل : فلا يزال مشركا . ولا يزال الشيطان مسلطا عليه . ثم تخصيصه سبحانه لمن هداه - بأن استعمله ابتداء فيما خلق له ، وهذا لم يستعمله - هو تخصيص منه بفضله ورحمته . ولهذا يقول الله ( ٢ : ١٠٥ ) والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ) ولذلك حكمة ورحمة هو أعلم بها ، كما خص بعض الأبدان بقوى لا توجد في غيرها ، وبسبب عدم القوة قد تحصل له أمراض وجودية ، وغير ذلك من حكمته .  
وبتحقيق هذا يدفع شبهات هذا الباب . والله أعلم بالصواب .

### فصل

ومما ذكر فيه العقوبة على عدم الإيمان : قوله تعالى ( ٦ : ١٠٩ ، ١١٠ ) ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة . ونذرهم في طغيانهم يعمهون ) وهذا من تمام قوله ( وما يشعركم : أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم - الآية ) فذكر : أن هذا التقلب إنما حصل لقلوبهم لما لم يؤمنوا به أول مرة ، وهذا عدم الإيمان .

لكن يقال : إنما كان هذا بعد دعوة الرسول لهم ، وهم قد تركوا الإيمان ، وكذبوا الرسول . وهذه أمور وجودية ، لكن الموجب للعذاب : هو عدم الإيمان . وما ذكر شرط في التعذيب ، بمنزلة إرسال الرسول . فإنه قد يشتغل عن الإيمان بما جنسه مباح - من أكل وشرب ، وبيع وسفر ، وغير ذلك - وهذا الجنس لا يستحق عليه العقوبة إلا لأنه شغله عن الإيمان الواجب عليه .  
ومن الناس من يقول : ضد الإيمان هو تركه . وهو أمر وجودي ، لا ضد له إلا ذلك .

### فصل

الفرق السابع : من الحسنات والسيئات التي تتناول الأعمال والجزاء في كون هذه تضاف إلى النفس . وتلك تضاف إلى الله : أن السيئات التي تصيب الإنسان -

وهي مصائب الدنيا والآخرة - ليس لها سبب إلا ذنبه الذي هو من نفسه .  
فأحصرت في نفسه .

وأما ما يصيبه من الخير والنعم : فإنه لا تنحصر أسبابه . لأن ذلك من فضل  
الله وإحسانه ، يحصل بعمله وبغير عمله . وعمله نفسه من إنعام الله عليه . وهو  
سبحانه لا يجزى بقدر العمل ، بل يضاعفه له . ولا يقدر العبد على ضبط أسبابها ،  
لكن يعلم أنها من فضل الله وإنعامه . فيرجع فيها إلى الله . فلا يرجو إلا الله .  
ولا يتوكل إلا عليه . ويعلم أن النعم كلها من الله . وأن كل ما خلقه فهو نعمة ، كما  
تقدم . فهو يستحق الشكر المطلق العام التام ، الذي لا يستحقه غيره .

ومن الشكر : ما يكون جزاء على ما يسره على يديه من الخير ، كشكر الوالدين  
وشكر من أحسن إليك من غيرهما . فإنه « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » لكن  
لا يبلغ من حق أحد وإنعامه : أن يُشكر بمعصية الله ، أو أن يطاع بمعصية الله .  
فإن الله هو المنعم بالنعم العظيمة ، التي لا يقدر عليها مخلوق . ونعمة المخلوق إنما هي  
منه أيضاً . قال تعالى ( ١٦ : ٥٣ وما بكم من نعمة فمن الله ) وقال تعالى ( ٤٥ : ١٣ )  
وسخر لكم مافي السموات وما في الأرض جميعاً منه ) وجزاؤه سبحانه على الطاعة  
والمعصية والكفر لا يقدر أحد على مثله .

فلهذا لم يجز أن يطاع مخلوق في معصية الخالق كما قال تعالى ( ٢٩ : ٨ ) ووصينا  
الإنسان بوالديه حسناً . وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما )  
وقال في الآية الأخرى ( ٣١ : ١٥ ) وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به  
علم فلا تطعهما . وصاحبهما في الدنيا معروفاً . واتبع سبيل من أناب إلىّ ) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « على المرء المسلم : السمع  
والطاعة في عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه ، ما لم يؤمر بمعصية . فإذا أمر بمعصية  
فلاسمع ولا طاعة » . وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنما الطاعة

في المعروف» وقال « من أمركم بمعصية الله فلا تطيؤوه » وقال « لا طاعة لمخلوق على معصية الخالق » .

وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أنه إذا عرف أن النعم كلها من الله ، وأنه لا يقدر أن يأتي بها إلا الله . فلا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب السيئات إلا هو . وأنه (٢:٣٥) ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها . وما يمسك فلا مرسل له من بعده ( صار توكله ورجاؤه ودعاؤه للخالق وحده .

وكذلك إذا علم ما يستحقه الله من الشكر - الذي لا يستحقه غيره - صار علمه بأن الحسنات من الله : يوجب له الصدق في شكر الله ، والتوكل عليه .

ولو قيل : إنها من نفسه لكان غلطاً . لأن منها ما ليس لعمله فيه مدخل . وما كان لعمله فيه مدخل : فإن الله هو المنعم به . فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله . ولا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه .

وعلم أن الشر قد انحصر سببه في النفس . فضبط ذلك وعلم من أين يؤتى . فاستغفر ربه مما فعل وتاب . واستعان الله واستعاذ به مما لم يعمل بعد ، كما قال من قال من السلف « لا يرَجُونَ عبد إلا ربه . ولا يخفَنَ عبد إلا ذنبه » .

وهذا يخالف قول الجهمية ومن اتبعهم ، الذين يقولون : إن الله يعذب بلا ذنب . ويعذب أطفال الكفار وغيرهم عذاباً دائماً أبداً بلا ذنب .

فإن هؤلاء يقولون : يخاف الله خوفاً مطلقاً ، سواء كان له ذنب أو لم يكن له ذنب . ويشبهون خوفه بالخوف من الأسد ، ومن الملك القاهر الذي لا ينضبط فعله ولا سطوته بل قد يقهر ويعذب من لا ذنب له من رعيته .

فإذا صدَّق العبد بقوله تعالى « وما أصابك من سيئة فمن نفسك » علم بطلان هذا القول ، وأن الله لا يعذبه ويعاقبه إلا بذنوبه ، حتى المصائب التي تصيب العبد كلها بذنوبه .

وقد تقدم قول السلف - ابن عباس وغيره - أن ما أصابهم يوم أحد من الغمّ والفشل : إما كان بذنوبهم . لم يستثن من ذلك أحد .  
وهذا من فوائد تخصيص الخطاب ، لثلا يظن أنه عام مخصوص .  
وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما يصيب المؤمن من وَصَبٍ ولا نَصَبٍ ، ولا هَمٍّ ولا حزنٍ ولا غمٍّ - حتى الشوكة يشاكها - إلا كفرَّ الله بها من خطاياها » .

## فصل

### السيئة خبيثة مذمومة

الفرق الثامن : أن السيئة إذا كانت من النفس . والسيئة خبيثة مذمومة ، وصفها بالخبث في مثل قوله ( ٢٤ : ٢٦ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ) .  
قال جمهور السلف : الكلمات الخبيثة للخبيثين . ومن كلام بعضهم : الأقوال والأفعال الخبيثة للخبيثين .

وقد قال تعالى ( ١٤ : ٢٦ ضرب الله مثلا : كلمة طيبة - ومثل كلمة خبيثة ) وقال الله ( ٣٥ : ١٠ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ) والأقوال والأفعال صفات القائل الفاعل .

فإذا كانت النفس متصفة بالسوء والخبث لم يكن محلها ينفعه إلا ما يناسبها .  
فمن أراد : أن يجعل الحيات والمقارب يعاشرهم الناس كالسنانير : لم يصلح .  
ومن أراد : أن يجعل الذى يكذب شاهداً على الناس : لم يصلح .  
وكذلك من أراد : أن يجعل الجاهل معلماً للناس ، مقتياً لهم . أو يجعل العاجز الجبان مقاتلاً عن الناس . أو يجعل الأحمق الذى لا يعرف شيئاً سائساً للناس ، أو للدواب : فمثل هذا يوجب الفساد فى العالم . وقد يكون غير ممكن . مثل من أراد أن يجعل الحجارة تسبح على وجه الماء كالسفن ، أو تصعد إلى السماء كالريح ونحو ذلك .

فالنفوس الخبيثة لا تصلح أن تكون في الجنة الطيبة التي ليس فيها من الخبث شيء . فإن ذلك موجب للفساد ، أو غير ممكن .

بل إذا كان في النفس خبث طُهِرَتْ وهذبت ، حتى تصلح لسكنى الجنة . كما في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن المؤمنين إذا نجوا من النار - أى عبروا الصراط - وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار . فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا . فإذا هُذِّبوا ونُقُوا : أذن لهم في دخول الجنة » .

وهذا مما رواه البخارى عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يخلص المؤمنون من النار . فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار . فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا : أذن لهم في دخول الجنة . فوالذى نفس محمد بيده ، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا » .

والتهذيب : التخليص ، كما يهذب الذهب . فيخلص من الفس . فتبين أن الجنة إنما يدخلها المؤمنون بعد التهذيب والتنقية من بقايا الذنوب فكيف بمن لم يكن له حسنات يعبر بها الصراط ؟ .

وأيضاً فإذا كان سببها ثابتاً فالجزاء كذلك ، بخلاف الحسنات . فإنها من إنعام الحى القيوم الباقى ، الأول الآخر . فسببها دائم . فيدوم بدوامه .

وإذا علم الإنسان أن السيئة من نفسه : لم يطعم في السعادة التامة ، مع ما فيه من الشر . بل علم تحقيق قوله تعالى ( ٤ : ١٢٣ ) من يعمل سوءاً يُجْزَ به ) وقوله ( ٩٩ : ٧ ، ٨ ) فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ) وعلم أن الرب عليم حليم ، رحيم عدل ، وأن أفعاله جارية على قانون العدل والإحسان . وكل نعمة منه فضل . وكل نقمة منه عدل .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يمين الله مَلَأَى .

لا يغيضها نفقة ، مَحَّاءَ الليل والنهار . أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يَغِضْ مافي يمينه . والقسط بيده الأخرى يخفض ويرفع » .  
وعلم فساد قول الجهمية ، الذين يجعلون الثواب والعقاب بلا حكمة ولا عدل ، ولا وضع للأشياء مواضعها . فيصفون الرب بما يوجب الظلم والسفه . وهو سبحانه قد شهد ( ٣ : ١٨ ) أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم ) .

ولهذا يقولون : لا ندرى ما يفعل بمن فعل السيئات . بل يجوز عندهم : أن يعفو عن الجميع . ويجوز عندهم : أن يعذب الجميع . ويجوز أن يعذب ويعفو ، بلا موازنة . بل يعفو عن شر الناس ، ويعذب خير الناس على سيئة صغيرة ، ولا يغفرها له .

وهم يقولون : السيئة لا تمحى ، لا بتوبة ولا حسنات ماحية ولا غير ذلك . وقد لا يفرقون بين الصغائر والكبائر .

قالوا : لأن هذا كله إنما يعلم بالسمع والخبر ، خبر الله ورسوله .  
قالوا : وليس في الكتاب والسنة ما يبين ما يفعل الله بمن كسب السيئات ، إلا الكفر . وتأولوا قوله تعالى ( ٤ : ٣١ ) إن تجتنبوا كبائر ما ينهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ) بأن المراد بالكبائر : قد يكون هو الكفر وحده . كما قال تعالى ( ٤ : ٤٨ ) إن الله لا يغفر أن يشرك به ) .

وقد ذكر هذه الأمور القاضى أبو بكر ابن الباقلانى وغيره ، ممن يقول بمثل هذه الأقوال ممن سلك مسلك جهنم بن صقوان فى القدر وفى الوعيد . وهؤلاء قصدوا مناقضة المعتزلة فى القدر والوعيد .

فأولئك لما قالوا : إن الله لم يخلق أفعال العباد ، وأنه يشاء مالا يكون ، ويكون مالا يشاء . وسلكوا مسلك نفاة القدر فى هذا ، وقالوا فى الوعيد بنحو قول الخوارج . قالوا : إن من دخل النار لا يخرج منها ، لا بشفاعة ولا غيرها . بل



يكون عذابه مؤبداً . فصاحب الكبيرة ، أو من رجحت سيئاته - عندهم - لا يرحمه الله أبداً . بل يخلده في النار . فخالقوا السنة المتواترة وإجماع الصحابة فيما قالوه في القدر . وناقضهم جهم في هذا وهذا .

وسلك هؤلاء مسلك جهم . مع انتسابهم إلى أهل السنة والحديث ، وأتباع السلف . وكذلك سلكوا في الإيمان والوعيد مسلك المرجئة الغلاة ، كجهم وأتباعه . وجهم اشتهر عنه نوعان من البدعة : نوع في الأسماء والصفات . فغلا في نفي الأسماء والصفات . ووافقه على ذلك ملاحدة الباطنية والفلاسفة ونحوهم . ووافقه المعتزلة في نفي الصفات دون الأسماء .

والكَلَّابِيَّة - ومن وافقهم من السالمية . ومن سلك مسلكهم من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية - وافقوه على نفي الصفات الاختيارية ، دون نفي أصل الصفات .

والكِرَامِيَّة ونحوهم : وافقوه على أصل ذلك . وهو امتناع دوام مالا يتناهى . وأنه يمتنع أن يكون الله لم يزل متكلماً إذا شاء ، وفعالاً لما يشاء إذا شاء . لامتناع حوادث لا أول لها . وهو - عن هذا الأصل ، الذي هو نفي وجود مالا يتناهى في المستقبل - قال بفناء الجنة والنار .

وقد وافقه أبو الهذيل إمام المعتزلة على هذا . لكن قال : يتناهى الحركات . فالمعتزلة في الصفات : مخانث الجهمية .

وأما الكَلَّابِيَّة : فيثبتون الصفات في الجملة . وكذلك الأشعريون . ولكنهم - كما قال الشيخ أبو إسماعيل الأنصاري - : الجهمية الإناث . وهم مخانث المعتزلة . ومن الناس من يقول : المعتزلة مخانث الفلاسفة .

وقد ذكر الأشعري وغيره هذا . لأن قائله لم يعلم أن جهما سبق هؤلاء إلى هذا الأصل ، أولأنهم مخانثيهم من بعض الوجوه . وإلا فإن مخالفتهم للفلاسفة كبيرة جداً .

والشهرستاني يذكر عن شيوخهم : أنهم أخذوا ما أخذوا عن الفلاسفة .  
لأن الشهرستاني إنما يرى مناظرة أصحابه الأشعرية في الصفات ونحوها مع المعتزلة ،  
بخلاف أئمة السنة والحديث . فإن مناظرتهم إنما كانت مع الجهمية . وهم المشهورون  
عند السلف والأمة بنفي الصفات .

وأهل النفي للصفات والتعطيل لها : هم عند السلف ، يقال لهم : الجهمية .  
وبهذا تميزوا عند السلف عن سائر الطوائف .

### ابتداء ظهور بدع المعتزلة والجهمية

وأما المعتزلة : فامتازوا بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين ، لما أحدث ذلك عمرو بن  
عبيد . وكان هو وأصحابه يجلسون معتزلين للجماعة . فيقول قتادة وغيره : أولئك  
المعتزلة . وكان ذلك بعد موت الحسن البصرى في أوائل المائة الثانية .

وبعدهم حدثت الجهمية .

وكان القدر : قد حدث أهله قبل ذلك في خلافة عبد الله بن الزبير ، بعد  
موت معاوية . ولهذا تكلم فيهم ابن عمر وابن عباس - رضى الله عنهم - وغيرها .  
وابن عباس مات قبل ابن الزبير . وابن عمر مات عقب موته . وعقب ذلك  
تولى الحجاج العراق سنة بضع وسبعين .

فبقى الناس يخوضون في القدر بالحجاز والشام والعراق . وأكثره : كان  
بالشام والعراق بالبصرة . وأقله : كان بالحجاز .

ثم لما حدثت المعتزلة - بعد موت الحسن ، وتكلم في المنزلة بين المنزلتين ،  
وقالوا بانفاد الوعيد ، وخلود أهل التوحيد في النار ، وأن النار لا يخرج منها من  
دخلها . وهذا تغليظ على أهل الذنوب - ضموا إلى ذلك القدر . فإن به يتم التغليظ  
على أهل الذنوب . ولم يكن الناس إذ ذاك قد أحدثوا شيئاً من نفي الصفات .

### ذبح الجعد بن درهم

إلى أن ظهر الجعد بن درهم ، وهو أولهم . فضحى به خالد بن عبد الله القسري

وقال « أيها الناس ، ضحوا . تقبل الله ضحاياكم . فإني مضع بالجعد بن درهم . إنه زعم : أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً . تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً » ثم نزل فذبحه . وهذا كان بالعراق .

ثم ظهر جهنم بن صفوان من ناحية المشرق من ترمذ . ومنها ظهر رأى جهنم . ولهذا كان علماء السنة والحديث بالمشرق : أكثر كلاماً في رد مذهب جهنم من أهل الحجاز والشام والعراق ، مثل إبراهيم بن طهمان وخارجة بن مصعب ، ومثل عبد الله بن المبارك ، وأمثالهم - وقد تكلم في ذمهم - وابن الماجشون وغيرهما وكذلك الأوزاعي وحامد بن زيد وغيرهم .

### ابتداء المحنة

وإنما اشتهرت مقالاتهم من حين محنة الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة . فإنهم في إمارة المأمون قووا وكثروا . فإنه كان قد أقام بخراسان مدة . واجتمع بهم . ثم كتب بالمحنة من طرسوس<sup>(١)</sup> سنة ثمان عشرة ومائتين . وفيها مات . وردوا أحمد بن حنبل إلى الحبس ببغداد ، إلى سنة عشرين . وفيها كانت محنته مع المعتصم ومناظرته لهم في الكلام . فلما رد عليهم ما احتجوا به عليه ، وبيّن أن لا حجة لهم في شيء من ذلك ، وأن طلبهم من الناس أن يوافقوهم ، وامتحنهم إياهم : جهل وظلم . وأراد المعتصم إطلاقه . فأشار عليه من أشار بأن المصلحة ضرب به ، حتى لا تنكسر حرمة الخلافة مرة بعد مرة . فلما ضربوه قامت الشناعة عليهم في العامة ، وخافوا الفتنة . فأطلقوه .

### مروجو الفتنة بمخلق القرآن

وكان أحمد بن أبي دؤاد قد جمع له نفاة الصفات القائلين بمخلق القرآن من جميع الطوائف . لجمع له مثل أبي عيسى محمد بن عيسى بن غوث ، ومن أكابر النجارية أصحاب حسين النجار .

(١) وكان خرج إليها لغزو الروم

وأئمة السنة - كابن المبارك ، وأحمد بن إسحاق ، والبخارى وغيرهم - يسمون جميع هؤلاء : جهمية .

وصار كثير من المتأخرين - من أصحاب أحمد وغيرهم - يظنون أن خصومه كانوا المعتزلة .

ويظنون أن بشر بن غياث المريسى - وإن كان قد مات قبل محنة أحمد ، وابن أبي دواد ونحوهما - كانوا معتزلة . وليس كذلك .

بل المعتزلة كانوا نوعاً من جملة من يقول القرآن مخلوق . وكانت الجهمية أتباع جهم ، والنجارية أتباع حسين النجار ، والضرارية أتباع ضرار بن عمرو ، والمعتزلة هؤلاء ، يقولون : القرآن مخلوق . وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن جهماً اشتهر عنه نوعان من البدعة . أحدهما : نفي الصفات . والثاني : الغلو في القدر والإرجاء . فجعل الإيمان مجرد معرفة القلب . وجعل العباد لا فعل لهم ولا قدرة .

وهذان مما غلت المعتزلة في خلافه فيهما .

### ما وافق فيه الأشعري جهما

وأما الأشعري : فوافقه على أصل قوله ، ولكن قد ينازعه منازعات لفظية . وجهم لم يثبت شيئاً من الصفات - لا الإرادة ولا غيرها - فهو إذا قال : إن الله يحب الطاعات ، ويبغض المعاصي . فمعنى ذلك عنده : الثواب والعقاب .

وأما الأشعري : فهو يثبت الصفات - كالإرادة - فاحتاج حينئذ أن يتكلم في الإرادة : هل هي المحبة أم لا ؟ وأن المعاصي : هل يحبها الله أم لا ؟ فقال : إن المعاصي يحبها الله ويرضاها ، كما يريدنا .

وذكر أبو المعالي الجويني : أنه أول من قال ذلك ، وأن أهل السنة قبله كانوا يقولون : إن الله لا يحب المعاصي .

وذكر الأشعري في الموجز : أنه قد قال ذلك قبله طائفة سماهم . أشك في بعضهم .

### الهروى لا يثبت حكمة ولا سببا

وشاع هذا القول في كثير من الصوفية ومشايخ المعرفة والحقيقة . فصاروا يوافقون جهماً في مسائل الأفعال والقدر ، وإن كانوا مكفرين له في مسائل الصفات ، كأبي إسماعيل الأنصارى الهروى ، صاحب كتاب « ذم الكلام » فإنه من المبالغين في ذم الجهمية لنفيهم الصفات . وله كتاب « تكفير الجهمية » ويبالغ في ذم الأشعرية ، مع أنهم من أقرب هذه الطوائف إلى السنة والحديث . وربما كان يلعنهم .

وقد قال له بعض الناس - بحضرة نظام الملك - أتلعن الأشعرية ؟ فقال : ألعن من يقول : ليس في السموات إله ، ولا في المصحف قرآن ، ولا في القبر نبي . وقام من عنده مغضباً .

ومع هذا فهو في مسألة إرادة الكائنات ، وخلق الأفعال : أبلغ من الأشعرية . لا يثبت سبباً ولا حكمة ، بل يقول : إن مشاهدة العارف الحكم لا تبقى له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة .

والحُكْم عنده : هي المشيئة . لأن العارف المحقق - عنده - هو من يصل إلى مقام الفناء . فيغنى عن جميع مراداته بمراد الحق . وجميع الكائنات مرادة له . وهذا هو الحكم عنده . و« الحسنة » و« السيئة » يفتقان في حظ العبد ، لكونه ينعم بهذه ، ويعذب بهذه . والالتفات إلى هذا هو من حظوظ النفس . ومقام الفناء ليس فيه الامشاهدة مراد الحق .

وهذه المسألة وقعت في زمن الجنيد ، كما ذكر ذلك في غير موضع . وبين لهم الجنيد الفرق الثاني . وهو أنهم - مع مشاهدة المشيئة العامة - لا بد لهم من مشاهدة الفرق بين ما يأمر الله به . وما ينهى عنه . وهو الفرق بين

ما يحبه وما يبغضه . وبين ذلك لهم الجنيد ، كما قال في التوحيد : هو أفراد الحدوث عن القدم .

فمن سلك مسلك الجنيد ، من أهل التصوف والمعرفة : كان قد اهتدى ونجا وسعد .

ومن لم يسلك في القدر مسلكه ، بل سوى بين الجميع : لزمه أن لا يفرق بين الحسنات والسيئات ، وبين الأنبياء والفساق . فلا يقول : إن الله يحب هؤلاء ، وهذه الأعمال . ولا يبغض هؤلاء ، وهذه الأعمال . بل جميع الحوادث : هو يحبها كما يريد ، كما قاله الأشعري . وإنما الفرق : أن هؤلاء ينعمون . وهؤلاء يعذبون .

### الأشعري أعقل من الصوفية

والأشعري لما أثبت الفرق بين هذا وهذا - بالنسبة إلى الخلق - كان أعقل منهم فإن هؤلاء يدعون : أن العارف الواصل إلى مقام الفناء لا يفرق بين هذا وهذا .

وهم غلطوا في حق العبد وحق الرب .

### ما يلزم على مذهب الصوفية في الفناء

أما في حق العبد : فيلزمهم أن تستوى عنده جميع الحوادث . وهذا محال قطعا . وهم قد تمر عليهم أحوال يفنون فيها عن أكثر الأشياء . أما الفناء عن جميعها : فمتنع . فإنه لا بد أن يفرق كل حي بين ما يؤمله وبين ما ييلذه . فيفرق بين الخبز والتراب ، والماء والشراب .

فهؤلاء : عزلوا الفرق الشرعية الإيماني الرحمانى الذى به فرق الله بين أوليائه وأعدائه . وظنوا أنهم مع الجمع القدرى .

وعلى هذا : فإن تسوية العبد بين جميع الحوادث متنع لذاته ، بل لا بد للعبد من أن يفرق . فإن لم يفرق بالفرق الشرعية - فيفرق بين محبوب الحق ومكروهه

و بين ما يرضاه وما يسخطه - وإلا فرق بالفرق الطبعي بهواه وشيطانه . فيحب ما تهواه نفسه ، وما يأمر به شيطانه .

ومن هنا : وقع منهم خلق كثير في المعاصي . وآخرون في الفسوق . وآخرون في الكفر . حتى جاوزوا عبادة الأصنام .

### أهل وحدة الوجود

ثم كثير منهم من ينتقل إلى وحدة الوجود . وهم الذين خالفوا الجنيّد ، وأئمة الدين في التوحيد . فلم يفرقوا بين القديم والحديث .

وهؤلاء صرحوا بعبادة كل موجود . كما قد بسط الكلام عليهم في غير هذا

الموضع . وهو قول أهل الوحدة ، كابن عربي الحاتمي ، وابن سبعين ، والقونوي ، والتلمساني ، والبلباني ، وابن الفارض ، وأمثالهم .

والمقصود هنا : الكلام على من نفي الحِكْم والعدل والأسباب في القدر

بين أهل الكلام والمتصوفة ، الذين أوقعوا جهماً في هذا الأصل . وهو بدعته الثانية التي اشتهرت عنه ، بخلاف الإرجاء . فإنه منسوب إلى طوائف غيره .

### الحكمة في الأفعال

فهؤلاء يقولون : إن الرب يجوز أن يفعل كل ما يقدر عليه ويمكن فعله ، من

غير مراعاة حكمة ، ولا رحمة ولا عدل . ويقولون : إن مشيئته هي محبته .

ولهذا تجرد من اتباعهم : غير معظم للأمر والنهي ، والوعد والوعيد . بل هو

منحل عن الأمر الشرعي كله ، أو عن بعضه ، أو متكلف لما يعتقده أو يعلمه . فإنهم

أرادوا : أن الجميع بالنسبة إلى الرب سواء ، وأن كل ما شاءه فقد أحبه . وأنه يحدث

ما يحدثه بدون أسباب يخلقه بها ، ولا حكمة يسوقه إليها . بل غايته : أنه يسوق

المقادير إلى المواقيت .

لم يبق عندهم فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحذور . بل وافقوا جهماً ومن

قال بقوله - كالأشعري - في أنه في نفس الأمر : لا حسن ولا سيء . وإنما الحسن

والتبجح : مجرد كونه مأموراً به ومحظوراً . وذلك فرق يعود إلى حظ العبد .  
وهؤلاء يدعون الفناء عن الحفظ .

قول الهروي : إن في الأمر الشرعي تليسا

فتارة : يقولون في امتثال الأمر والنهي : إنه من مقام التليس ، أو ما يشبه  
هذا . كما يوجد في كلام أبي إسماعيل الهروي صاحب منازل السائرين .  
وتارة يقولون : يفعل هذا لأهل المارستان ، أي العامة . كما يقوله الشيخ  
المغربى ، إلى أنواع ، ليس هذا موضع بسطها .

في كلام الشاذلى ما يستلزم تعطيل الأمر

ومن يسلك مسلكهم : غايته - إذا عظم الأمر والنهي - أن يقول ، كما نقل  
عن الشاذلى : يكون الجمع في قلبك مشهوداً . والفرق على لسانك موجودا .  
ولهذا يوجد في كلامه وكلام غيره : أقوال وأدعية وأحزاب تستلزم تعطيل  
الأمر والنهي . مثل أن يدعو : أن يعطيه الله إذا عصاه أعظم مما يعطيه إذا أطاعه  
ونحو هذا ، مما يوجب أنه يجوز عنده : أن يجعل الذن اجترحا السيئات ،  
كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، بل أفضل منهم . ويدعون بأدعية فيها اعتداء ،  
كما يوجد في جواب الشاذلى . وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

دعوى الصوفية أن الله يعطى الكفرة والفجرة كرامات

وآخرون - من عوام هؤلاء ، يجوزون : أن يكرم الله بكرامات أكبر الأولياء  
من يكون فاجراً ، بل كافراً . ويقولون : هذه موهبة وعطية ، يعطيها الله من يشاء .  
ماهى متعلقة لا بصلاة ، ولا بصيام<sup>(١)</sup> . ويظنون أن تلك من كرامات الأولياء .

(١) يقولون : إنها ميزة ذاتية ، تعطى القداسة الذاتية . لأنها لا تكون إلا  
لأولاد المقدسين من الشيوخ الذين خلقوا من النور الأول . هذا دينهم وعقيدتهم  
الوثنية المتفرعة عن وحدة الوجود . وأن ربهم هو النواة التي انبثق وخرج منها  
الكون . كخروج النخلة من النواة .



وتكون كراماتهم : من الأحوال الشيطانية ، التي يكون مثلها للسحرة والكهان . قال الله تعالى ( ٣ : ١٠١ ، ١٠٢ ) ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ما تلاوا الشياطين على مُلك سليمان . وما كفر سليمان . ولكن الشياطين كفروا . يعلمون الناس السحر . وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لَتَدْبِعَنَّ سَنَنَ من كان قبلكم ، حَذُو القُدَّةِ بالقُدَّةِ ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » .

### المتبعون لما تتلو الشياطين من الكفر

والمسلمون الذين جاءهم كتاب الله القرآن : عدل كثير منهم - بمن أضله الشيطان من المنتسبين إلى الإسلام - إلى أن نبذ كتاب الله وراء ظهره ، واتبع ما تلاه الشياطين . فلا يعظم أمر القرآن ولا ينهيه . ولا يوالى من أمر القرآن موالاته . ولا يعادى من أمر القرآن بمعاداته . بل يعظم من رآه يأتي ببعض خوارقهم ، التي يأتي بمثلها السحرة والكهان . بإعانة الشياطين . وهي تحصل بما تتلوه الشياطين . ثم منهم من يعرف : أن هذا من الشيطان . ولكن يعظم ذلك لهواه ، ويفضله على طريق القرآن ليصل به إلى تقديس العامة . وهؤلاء كفار . كالذين قال الله تعالى فيهم ( ٤ : ٥١ ) ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ؟ يؤمنون بالجُبَّتِ والطاغوت . ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً . أولئك الذين لعنهم الله . ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ) .

وهؤلاء ضاهئوا الكفار الذين قال الله تعالى فيهم ( ٣ : ١٠١ ، ١٠٢ ) ولَمَّا جاءهم رسولٌ من عند الله مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ما تلاوا الشياطين على ملك سليمان . وما كفر سليمان . ولكن الشياطين كفروا - الآية ) .  
ومنهم : من لا يعرف أن هذا من الشياطين

## الفتنة بما يقع من الشعوذات والمخاريق

على يد أولياء الشيطان

وقد يقع في مثل هذا طوائف من أهل الكلام ، والعلم ، وأهل العبادة ، والتصوف . حتى جوزوا عبادة الكواكب ، والأصنام . لما رأوه فيها من الأحوال العجيبة . التي تعينهم عليها الشياطين . لما يحصل لهم بها من بعض أغراضهم ، من الظلم والفواحش . فلا يبالون بشركتهم بالله ، ولا كفرهم به وبكتابه . إذا نالوا ذلك ، ولم يبالوا بتعليم ذلك للناس . وتعظيمهم لهم . لرياسة ينالونها ، أو مال ينالونه . وإن كانوا قد علموا أنه الكفر والشرك : عملوه ، ودعوا إليه . بل حصل عندهم ريب وشك فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . أو اعتقاد أن الرسول خاطب الجمهور بما لا حقيقة له في الباطن . لأجل مصلحة الجمهور . كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة والملاحدة والباطنية .

## مضاهاة الروم والفرس

وقد دخل في رأى هؤلاء طائفة من هؤلاء وهؤلاء . وهذا مما ضاهتوا به فارس والروم وغيرهم . فإن فارس كانت تعظم الأنوار ، وتسجد للشمس وللنار . والروم كانوا - قبل النصرانية - مشركين ، يعبدون الكواكب والأصنام ، فهؤلاء الذين أشبهوا فارس والروم : شر من الذين أشبهوا اليهود والنصارى . فإن أولئك ضاهتوا أهل الكتاب فيما بدّل أو نسخ . وهؤلاء ضاهتوا من لا كتاب له من المجوس والمشركين ، فارس والروم ، ومن دخل في ذلك من الهند واليونان . ومذهب الملاحدة الباطنية : مأخوذ من قول المجوس بالأصليين ، ومن قول فلاسفة اليونان بالعقول والنفوس .

وأصل قول المجوس : يرجع إلى أن تكون الظلمة المضاهية للنور : هو إبليس ، وقول الفلاسفة بالنفوس .

## أصل الشر عبادة النفس والشيطان

فأصل الشر : عبادة النفس والشيطان ، وجعلهما شريكان الرب ، وأن يعدلا به . ونفس الإنسان تفعل الشر بأمر الشيطان . وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه أن يقول - إذا أصبح ، وإذا أمسى ، وإذا أخذ مضجعه - « اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطرَ السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة . أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك . إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » .

وهذا من تمام تحقيق قوله تعالى ( ٤ : ٧٩ ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك ) مع قوله تعالى ( ١٥ : ٤٢ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ) وقوله ( ٣٨ : ٨٥ لأملأن جهنم منك وعن تبعك منهم أجمعين ) .

وقد ظهرت دعوى النفس الإلهية فى فرعون ، ونحوه ممن ادعى أنه إله مع الله أو من دونه ، وظهرت فيمن ادعى إلهية بشر مع الله ، كال مسيح وغيره .

## أصل الشرك فى بنى آدم

وأصل الشرك فى بنى آدم : كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين . فإنهم لما ماتوا : عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم .

فهذا أول شرك كان فى بنى آدم . وكان فى قوم نوح . فإنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض . يدعوهم إلى التوحيد . وينهاهم عن الشرك . كما قال تعالى ( ٧١ : ٢٣ وقالوا لا تذرنَّ آلهتكم . ولا تذرنَّ وداً ولا سواعا ، ولا يعوث و يعوق ونسراً . وقد أضلوا كثيراً ) وهذه أسماء قوم صالحين كانوا فى قوم نوح . فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم ، ثم ذهبت هذه الأصنام ، لما أغرق الله أهل الأرض ، ثم صارت إلى العرب . كما ذكر ذلك ابن عباس وغيره . إن لم تكن أعينها ، وإلا فهى نظائرُها .

وأما الشرك بالشيطان : فهذا كثير .  
فمتى لم يؤمن الخلق بأنه « لا إله إلا الله » بمعنى : أنه المعبود المستحق للعبادة  
دون ماسواه . وأنه يجب أن يعبد ، وأنه أمر أن يعبد ، وأنه لا يعبد إلا بما أحبه  
مما شرع ، من واجب ومستحب - فلا بد أن يقعوا في الشرك وغيره .  
فالذين جعلوا الأقوال والأفعال كلها بالنسبة إلى الله سواء . لا يجب شيئاً دون  
شيء : فلا فرق عنده بين من يعبد وحده ، لا يشرك به شيئاً . وبين من يعبد معه  
آلهة أخرى . وجعلوا الأمر معلقاً بمشيئة . ليس معها حكمة ، ولا رحمة ، ولا عدل .  
ولا فرق فيها بين الحسنات والسيئات : طمعت النفس في نيل ما تريده بدون طاعة  
الله ورسوله .

### ولى الصوفية له صفات الرب سبحانه

ثم إذا جوزوا الكرامات لكل من زعم الصلاح . ولم يقيدوا الصلاح بالعلم  
الصحيح والإيمان الصادق والتقوى ، بل جعلوا علامة الصلاح هذه الخوارق .  
وجوزوا الخوارق مطلقاً . وحكوا في ذلك مكاشفات ، وقالوا أقوالاً منكراً .

فقال بعضهم : إن الولي يعطى قول « كن » وقال بعضهم : إنه لا يمتنع على  
الولي فعل ممكن . كما لا يمتنع على الله تعالى فعل محال .

وهذا قاله ابن عربي والذين اتبعوه . قالوا : إن الممتنع لذاته مقدور عليه ، ليس  
عندهم ما يقال : إنه غير مقدور عليه للولي ، حتى ولا الجمع بين الضدين ، ولا غير  
ذلك . وزاد ابن عربي : أن الولي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات . والذي  
لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات : هو الله وحده .

فهذا تصریح منهم : بأن الولي مثل الله ، إن لم يكن هو الله .  
وصرح بعضهم : بأنه يعلم كل ما يعلمه الله . ويقدر على كل ما يقدر الله عليه .  
وادعوا أن هذا كان للنبي ، ثم انتقل إلى الحسن بن علي ، ثم من الحسن إلى  
ذريته واحداً بعد واحد . حتى انتهى ذلك إلى أبي الحسن الشاذلي ، ثم إلى ابنه .

خاطبني بذلك : من هو من أكابر أصحابهم .  
وحدثني الثقة من أعيانهم ، أنهم يقولون : إن محمداً هو الله .  
وحدثني بعض الشيوخ ، الذين لهم سلوك وخبرة : أنه كان هو وابن هود  
في مكة ، فدخلوا الكعبة . فقال له ابن هود - وأشار إلى وسط الكعبة - هذا  
مهيبط النور الأول . وقال له : لو قال لك صاحب هذا البيت : أريد أن أجعلك  
إلهاً ، ماذا كنت تقول له ؟ قال : فقفت شعري من هذا الكلام وانخست -  
أو كما قال .

دعوى سهل التستري قدرة الولي على منع قيام الساعة  
ومن الناس من يحكى عن سهل بن عبد الله : أنه لما دخل الزنج البصرة .  
قيل له في ذلك . فقال : هاه ، إن ببلدكم هذا من لو سألوا الله أن يزيل الجبال عن  
أماكنها لأزالها . ولو سألوه : أن لا يقيم القيامة لما أقامها . لكنهم يعلمون مواضع  
رضاه ، فلا يسألونه إلا ما يجب .  
وهذه الحكاية : إما كذب على سهل - وهو الذي نختار أن يكون حقاً -  
أو تكون غلطاً منه . فلا حول ولا قوة إلا بالله . وذلك : أن ما أخبر الله أن  
يكون فلا بد أن يكون . ولو سأله أهل السموات والأرض أن لا يكون : لم  
يجبهم ، مثل إقامة القيامة ، وأن لا يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، وغير ذلك .  
بل كل ما علم الله أنه يكون فلا يقبل الله دعاء أحد في أن لا يكون .  
لكن الدعاء سبب يقضى الله به ما علم الله : أنه سيكون بهذا السبب ، كما  
يقضى بسائر الأسباب ما علم : أنه سيكون بها .

من دعا من الأنبياء فلم يستجب له  
وقد سأل الله تعالى - من هو أفضل من كل من في البصرة بكثير - ما هو دون  
هذا فلم يجابوا . لما سبق الحكم بخلاف ذلك ، كما سأله إبراهيم عليه الصلاة  
والسلام أن يغفر لأبيه . وكما سأله نوح عليه السلام سأله نجاة ابنه . فقيل له ( ١١ ) :

٤٦ يا نوح ، إنه ليس من أهلك . إنه عمل غير صالح . فلا تسألني ما ليس لك به علم ) .  
وأفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم : قيل له في شأن عمه أبي طالب  
( ٩ : ١١٣ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرابي )  
وقيل له في المنافقين ( ٦٣ : ٦ ) سواء عليهم أستغفرت لهم ، أم لم تستغفر لهم . لن  
يفغر الله لهم ) وقد قال تعالى عموماً ( ٢ : ٢٥٥ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟ )  
وقال ( ٣٤ : ٢٢ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ) فمن هذا الذي لو سأل الله  
ما يشاؤه هو أعطاه إياه ؟ ! .

وسيد الشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة أخبر : أنه « يسجد تحت  
العرش ، ويحمد ربه ، ويثنى عليه . فيقال له : أى محمد ، ارفع رأسك ، وقل  
يُسمع . وسل تعط . واشفع تُشفع . قال : فيحُدُّ لى حدًا . فأدخلهم الجنة » وقد  
قال تعالى ( ٧ : ٥٥ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية . إنه لا يحب المعتدين ) .

### الاعتداء في الدعاء

وأى اعتداء أعظم وأشنع من أن يسأل العبد ربه : أن لا يفعل ما قد أخبر أنه  
لا بد أن يفعله ، أو أن يفعل ما قد أخبر : أنه لا يفعله . وهو سبحانه كما أخبر عن  
نفسه ( ٢ : ١٨٦ وإذا سألك عبادى عنى ؟ فإنى قريب . أجيب دعوة الداعى  
إذا دعان ) وقال ( ٤٠ : ٦٠ وقال ربكم : ادعونى أستجب لكم . إن الذين  
يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ) .

وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من داع يدعو الله  
بدعوة ، ليس فيها ظلم ، ولا قطيعة رحم : إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث :  
إما أن يعجل له دعوته . وإما أن يدخر له من الخير مثلها . وإما أن يصرف عنه  
من الشر مثلها » .

فالدعوة التي ليس فيها اعتداء ، يحصل بها المطلوب بها أو مثله . وهذا غاية  
الإجابة . فإن المطلوب بعينه قد يكون ممتنعاً . أو مفسداً للداعى أو لغيره . والداعى

جاهل ، لا يعلم ما فيه المفسدة عليه . والرب قريب مجيب . وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها . والكريم الرحيم : إذا سئل شيئاً بعينه ، وعلم أنه لا يصلح للعبد إعطاؤه : أعطاه نظيره ، كما يصنع الوالد بولده إذا طلب منه ما ليس له . فإنه يعطيه من ماله نظيره . والله المثل الأعلى .

وكما فعل النبي صلى الله عليه وسلم - لما طلبت منه طائفة من بنى عمه أن يوليهم ولاية لا تصلح لهم - فأعطاهم من الخمس ما أغناهم عن ذلك وزوجهم ، كما فعل بالفضل بن عباس ، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .  
وقد روى في الحديث « ليس شيء أكرم على الله من الدعاء » وهذا حق .

## فصل

في الشكر والتوحيد والتوكل والاستغفار

ولما كان الأمر كما أخبر الله به في قوله « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » أوجب هذا : أن لا يطلب العبد الحسنات - والحسنات تدخل فيها كل نعمة - إلا من الله . وأن يعلم أنها من الله وحده ، فيستحق الله عليها الشكر الذي لا يستحقه غيره . ويعلم أنه لا إله إلا هو . كما قال تعالى ( ١٦ : ٥٣ وما بكم من نعمة فمن الله ) .

فهذا يوجب على العبد شكره وعبادته وحده . ثم قال ( وإذا مسكم الضر فإليه تجأرون ) وهذا إخبار عن حالهم ، والجوار : يتضمن رفع الصوت .  
والإنسان إنما يجأر إذا أصابه الضر . وأما في حال النعمة : فهو ساكن ، إما شاكراً وإما كفوراً ( ١٦ : ٥٤ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ) .

وهذا المعنى قد ذكره الله في غير موضع ، يذم من يشرك به بعد كشف البلاء عنه ، وإسباغ النعماء عليه ، فيضيف العبد - بعد ذلك - الإناعام إلى غيره . ويعبد غيره تعالى . ويجعل المشكور غيره على النعم ، كما قال تعالى ( ٣٠ : ٣٣ ، ٣٤ ) وإذا

مس الناس ضر دعوا زبهم منيدين إليه . ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم برهم يشركون . لينكفروا بما آتيناهم . فتمتعوا فسوف تعلمون ) وقال تعالى ( ٦ : ٦٣ ، ٦٤ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجيتنا من هذه لنتكونن من الشاكرين ؟ قل : الله ينجيكم منها ومن كل كرب . ثم أتم تشركون ) وقال تعالى ( ٣٩ : ٨ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه . ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل . وجعل الله أنداداً ليضل عن سبيله . قل تمتع بكفرك قليلاً . إنك من أصحاب النار ) .

وقوله « نسي ما كان يدعو إليه » أى نسي الضر الذى كان يدعو الله لدفعه . إليه ، كما قال فى سورة الأنعام ( ٦ : ٤٠ ، ٤١ قل أرأيتم إن أتكم عذاب الله ، أو أتكم الساعة : أغير الله تدعون ، إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون . فيكشف ماتدعون إليه إن شاء . وتنسون ماتشركون ) .

فدم الله سبحانه حز بين : حزباً لا يدعونه فى الضراء . ولا يتوبون إليه . وحزباً يدعونه ويتضرعون إليه ويتوبون إليه . فإذا كشف الضر عنهم : أعرضوا عنه ، وأشركوا به ما اتخذوهم من الأنداد من دونه .

فهذا الحزب نوعان - كالمعطلة ، والمشركة - حزب إذا نزل بهم الضر لم يدعو الله ولم يتضرعوا إليه ، ولم يتوبوا إليه ، كما قال ( ٦ : ٤٢ ، ٤٣ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك . فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلو لا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ؟ ولكن قست قلوبهم . وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون ) وقال تعالى ( ٢٣ : ٧٦ ولقد أخذناهم بالعذاب . فما استكانوا لزبهم وما يتضرعون ) وقال تعالى ( ٩ : ١٢٦ أو لا يرون : أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ؟ ثم لا يتوبون . ولا هم يذكرون ) وقال تعالى ( ٣٢ : ٢١ ولنديقهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ) وحزب يتضرعون إليه فى حال الضراء : ويتوبون إليه . فإذا كشفها عنهم : أعرضوا عنه ، كما قال تعالى ( ١٠ : ١٢ وإذا



مس الإنسان الضر دعانا لجنبه، أو قاعداً أو قائماً . فلما كشفنا عنه ضُره مَرَّ ، كأن لم يدعنا إلى ضر مسّه . كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) وقال تعالى (٤١: ٥١) وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه . وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) وقال تعالى (١٧ : ٦٧) وإذا مسكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلا إياه . فلما نجاكم إلى البر أعرضتم . وكان الإنسان كفورا) وقال في المشركين ما تقدم « ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون » .

### أهل الصبر والشكر

والممدوح : هو القسم الثالث . وهم الذين يدعونه ، ويتوبون إليه . ويثبتون على عبادته ، والتوبة إليه في حال السراء . فيعبدونه ويطيعونه في السراء والضراء . وهم أهل الصبر والشكر ، كما ذكر ذلك عن أنبيائه عليهم السلام . فقال تعالى ( ٢١ : ٨٧ ، ٨٨ ) وإذا التون إذ ذهب مُغاضبا . فظن أن لن نقدر عليه . فنادى في الظلمات : أن لا إله إلا أنت ، سبحانك ! إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له . ونجينا من الغم . وكذلك نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ) وقال تعالى ( ٣٨ : ٣٤ ، ٣٥ ) ولقد فتنا سليمان ، وألقينا على كرسيه جسداً . ثم أناب . قال : رب اغفر لي ، وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي . إنك أنت الوهاب ) وقال تعالى ( ٣٨ : ٢١ - ٢٥ ) وهل أتاك نبأ الخصم ، إذ تسوّروا المحراب ؟ إذ دخلوا على داود . ففزع منهم . قالوا : لا تخف . خصمان نبى بعضنا على بعض . فاحكم بيننا بالحق ، ولا تُشْطِطْ . واهدنا سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة . ولى نعجة واحدة ، فقال : أ كَفَلْنِيهَا . وَعَزَّيْنِي فِي الْخَطَابِ . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه . وإن كثيراً من الخطاء ليبنى بعضهم على بعض . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات - وقليل ما هم - وظن داود أنما فتناه . فاستغفر ربه . وخرّ راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك . وإن له عندنا لزُلفى وحسن مآب )

وقال تعالى عن آدم وحواء (٧: ٢٢، ٢٣) فَذَلَّاهَا بَغْرُورًا . فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سَوَاتِمَهُمَا . وطفقا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ . وناداهما ربهما : ألمْ أَهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ ؟ وأقل لكما : إن الشيطان لكم عدو مبين ؟ قالا ربنا ، ظلمنا أنفسنا . وإن لم نغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ) وقال (٢: ٣٧) فتلقي آدم من ربه كلمات . فتاب عليه . إنه هو التواب الرحيم .

تفسير آية « وكأين من نبي - الخ »

وقال تعالى عن المؤمنين الذين قتل نبيهم (٣: ١٤٦ - ١٤٨) وكأين من نبي قتل<sup>(١)</sup> معه رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ . فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله . وما ضعفوا وما استكانوا . والله يحب الصابرين . وما كان قولهم ، إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا . وثبت أقدامنا . وانصرنا على القوم الكافرين . فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين .

وقوله « قتل » أى النبي قُتِلَ . هذا أصح القولين . وقوله « معه رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ » جملة في موضع الخبر ، صفة للنبي - صفة بعد صفة - أى كم من نبي معه ربيون كثير قُتِلَ ، ولم يقتلوا معه . فإنه كان يكون المعنى : أنه قتل وهم معه . والمقصود : أنه كان معه ربيون كثير ، وقتل في الجملة . وأولئك الربيون ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا .

و « الربيون » الجموع الكثيرة . وهم الألوف الكثيرة .

وهذا المعنى : هو الذى يناسب سبب النزول ، وهو ما أصابهم يوم أحد ، لما قيل : « إن محمداً قد قتل » وقد قال قبل ذلك « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قُتِلَ : انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً . وسيجزى الله الشاكرين » وهى التى تلاها أبو بكر الصديق رضى الله

(١) قراءة حفص « قاتل » وفي قراءة غيره « قتل » بالبناء للمفعول و « قتل »

عنه يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم . وقال « من كان يعبد محمدا ، فإن محمدا قد مات . ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت » .

فإنه عند قتل النبي وموته : تحصل فتنة عظيمة للناس - المؤمنين والكافرين - وتحصل ردة ونفاق ، لضعف قلوب أتباعه لموته ، ولما يليق الشيطان في قلوب الكافرين : إن هذا قد انقضى أمره ، وما بقى يقوم دينه . وإنه لو كان نبياً لما قتل وغلب . ونحو ذلك . فأخبر الله تعالى : أنه كم من نبي قتل ؟ .

فإن بنى إسرائيل قتلوا كثيراً من الأنبياء . والنبي معه ربيون كثير أتباع له . وقد يكون قتله في غير حرب ولا قتال . بل يقتل وقد اتبعه ربيون كثير . فما وَهَن المؤمنون لما أصابهم بقتله ، وما ضعفوا . وما استكانوا . والله يحب الصابرين . ولكن استغفروا لذنوبهم التي بها تحصل المصائب - فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم - وسألوا الله أن يغفر لهم ، وأن يثبت أقدامهم ، فيثبتهم على الإيمان والجهاد لئلا يرتابوا . ولا ينكلوا عن الجهاد . قال تعالى ( ٤٩ : ١٥ ) إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا . وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . أولئك هم الصادقون ) وسألوه أن ينصرهم على القوم الكافرين . سألوا ربهم ما يفعل لهم في أنفسهم من الثبوت ، وما يعطيهم من عنده من النصر . فإنه هو الناصر وحده . وما النصر إلا من عند الله . وكذا أنزل الملائكة عوناً لهم . قال تعالى لما أنزل الملائكة ( ٨ : ١٠ ) وما جعله الله إلا بشري ولنطمئن به قلوبكم . وما النصر إلا من عند الله . إن الله عزيز حكيم ) وقال تعالى ( ٤٨ : ٣ ) فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين ) وهذا مبسوط في موضع آخر . والمقصود هنا : أنه لما كانت الحسننة من إحسانه تعالى ، والمصائب من نفس الإنسان - وإن كانت بقضاء الله وقدره - وجب على العبد أن يشكر ربه سبحانه ، وأن يستغفره من ذنوبه ، وأن لا يتوكل إلا عليه وحده . فلا يأتي

بالحسنات إلا هو . فأوجب ذلك للعبد : توحيده ، والتوكل عليه وحده ، والشكر له وحده ، والاستغفار من الذنوب .

### جمع النبي صلى الله عليه وسلم كل أمور التوحيد في دعائه

وهذه الأمور كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمعها في الصلاة . كما ثبت عنه في الصحيح « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع ، يقول : ربنا ولك الحمد ، ملء السماء ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد » فهذا حمد ، وهو شكر لله تعالى . وبيان أن حده أحق ما قاله العبد . ثم يقول بعد ذلك « اللهم لا مانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

وهذا تحقيق لوحدايته : لتوحيد الربوبية ، خلقاً ، وقدراً ، وبداية ، وهداية . هو المعطى المانع . لا مانع لما أعطى . ولا معطى لما منع ، ولتوحيد الإلهية - شرعاً وأمراً ، ونهياً - وهو أن العباد ، وإن كانوا يعطون ملكاً وعظمة ، وبجنتا ورياسة في الظاهر أو في الباطن ، كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة « فلا ينفع ذا الجد منك الجد » أى لا ينجيه ولا يخلصه من سؤائك وحسابك حظه وعظمته وغناه .

ولهذا قال « لا ينفعه منك » ولم يقل « لا ينفعه عندك » فإنه لو قيل ذلك : أوهم أنه لا يتقرب به إليك ، لكن قد لا يضره . فيقول صاحب الجد : إذا سلمت من العذاب في الآخرة فما أبالي ، كالذين أوتوا النبوة والملك ، لهم ملك في الدنيا وهم من السعداء . فقد يظن ذو الجد - الذى لم يعمل بطاعة الله من بعده - أنه كذلك . فقال « ولا ينفع ذا الجد منك » ضمّن « ينفع » معنى « ينجى » ويخلص « فبين أن جده لا ينجيه من العذاب . بل يستحق بذنوبه ما يستحقه أمثاله . ولا ينفعه جده منك . فلا ينجيه ولا يخلصه .

## معنى « لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت »

فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد، وتحقيق قوله « إياك نعبد وإياك نستعين » وقوله ( ١١ : ١٢٣ ) فاعبده وتوكل عليه ) وقوله ( ١١ : ٨٨ ) عليه توكلت وإليه أنيب ) وقوله ( ٧٣ : ٨ ، ٩ ) واذكر اسم ربك وتبتلَّ إليه تبتيلاً . رب المشرق والمغرب ، لا إله إلا هو . فاتخذه وكيلاً ) .

فقوله « لا مانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت » توحيد الربوبية الذى يقتضى : أنه سبحانه : هو الذى يُسأل ويُدعى ، ويُتوكل عليه .

وهو سبب لتوحيد الإلهية ، ودليل عليه . كما يحتج به فى القرآن على المشركين . فإن المشركين كانوا يقرون بهذا التوحيد - توحيد الربوبية - ومع هذا يشركون بالله . فيجعلون له أنداداً ، يحبونهم كحب الله . ويقولون : إنهم شفعاؤنا عنده ، وإنهم يتقربون بهم إليه . فيتخذونهم شفعاء وقرباناً ، كما قال تعالى ( ١٠ : ١٨ ) ويعبدن من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم . ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ) وقال تعالى ( ٣٩ : ٣ ) والذين اتخذوا من دون الله أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ) وقال تعالى ( ٤٦ : ٢٧ ، ٢٨ ) ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ، وصرفنا الآيات لعلمهم يرجعون . فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قُرْباناً آلهة ؟ بل ضلوا عنهم . وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ) . وهذا التوحيد : هو عبادة الله وحده لا شريك له . وأن لانعبده إلا بما أحبه وما رضىه . وهو ما أمر به وشرعه على ألسن رسله - صلوات الله عليهم - فهو متضمن لطاعته وطاعة رسوله ، وموالاته وأوليائه ، ومعاداة أعدائه ، وأن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد من كل ما سواهما .

وهو يتضمن : أن يحب الله حباً لا يماثله ولا يساويه فيه غيره ، بل يقتضى : أن يكون رسوله صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه .

فإذا كان الرسول - لأجل أنه رسول الله - يجب أن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه ، فكيف بر به سبحانه وتعالى ؟ .

وفي صحيح البخارى أن عمر قال « يارسول الله ، والله إنك لأحب إلى من كل شيء ، إلا من نفسى . فقال : لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . قال : فوالذى بعثك بالحق ، إنك لأحب إلى من نفسى . قال : الآن يا عمر . » .  
وقد قال تعالى ( ٣٣ : ٦ ) النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ) وقال تعالى ( ٩ : ٢٤ ) قل إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها : أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره . والله لا يهدى القوم الفاسقين ) .

فإن لم يكن الله ورسوله ، والجهد فى سبيله : أحب إلى العبد من الأهل والمال - على اختلاف أنواعه - فإنه داخل تحت هذا الوعيد .

### توحيد الإلهية

فهذا التوحيد - توحيد الإلهية - يتضمن فعل المأمور وترك المحذور .

ومن ذلك : الصبر على المقدور ، كما أن الأول يتضمن الإقرار بأنه لاخالق ولا رازق ، ولا معطى ولا مانع ، إلا الله وحده . فيقتضى : أن لا يسأل العبد غيره ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يستعين إلا به ، كما قال تعالى فى النوعين ( إياك نعبد وإياك نستعين ) وقال ( ١١ : ١٢٣ ) فاعبده وتوكل عليه ) .

وهذا التوحيد : هو الفارق بين الموحدين والمشركين . وعليه يقع الجزاء والثواب فى الأولى والآخرة . فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين . فإن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء .

### توحيد الربوبية

أما توحيد الربوبية : فقد أقر به المشركون ، وكانوا يعبدون مع الله غيره ،

ويحبونهم كما يحبونه . فكان ذلك التوحيد - الذى هو توحيد الربوبية - حجة عليهم . فإذا كان الله هو رب كل شيء ومليكه ، ولا خالق ولا رازق إلا هو . فلماذا يعبدون غيره معه ، وليس له عليهم خلق ولا رزق ، ولا بيده لهم منع ولا عطاء ، بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؟ !

### رد شفاعة المشركين بأوليائهم

فإن قالوا « ليشفع » فقد قال الله ( ٢ : ٢٥٥ ) من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ ) فلا يشفع من له شفاعة - من الملائكة والنبين - إلا بإذنه . وأما قبورهم وما نصب عليها من قباب وأنصاب ، أو تماثيلهم - التى مُثِّلت على صورهم ، مجسدة أو مرقومة - فجعل الاستشفاع بها استشفاعاً بهم : فهذا باطل عقلاً وشرعاً . فإنها لا شفاعة لها بحال ، ولا لسائر الأصنام التى عملت للكواكب والجن والصالحين ، وغيرهم .

### بحث فى حقيقة « الشفاعة »

وإذا كان الله لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى : فما بقى الشفعاء شركاء ، كشفاعة المخلوق عند المخلوق . فإن المخلوق يشفع عنده نظيره - أو من هو أعلى منه ، أو دونه - بدون إذن المشفوع إليه . ويقبل المشفوع إليه ، ولا بد شفاعته : إما لرغبته إليه ، أو فيما عنده من قوة أو سبب ينفعه به أو يدفع عنه ما يخشاه ، وإما لرهبته منه ، وإما لمحبهته إياه ، وإما للمعاوضة بينهما والمعاونة ، وإما لغير ذلك من الأسباب .

وتكون شفاعة الشفيع : هى التى حركت إرادة المشفوع إليه ، وجعلته مريداً للشفاعة ، بعد أن لم يكن مريداً لها . كأمر الأمر الذى يؤثر فى الأمور . فيفعل ما أمره به بعد أن لم يكن مريداً لفعله .

وكذلك سؤال المخلوق للمخلوق : فإنه قد يكون محرراً له إلى فعل ما سأل .

فالشفيع : كما أنه شافع للطالب شفاعته في الطلب ، فهو أيضاً قد شفع المشفوع إليه . فبشفاعته صار المشفوع إليه فاعلاً للمطلوب . فقد شفع الطالب والمطلوب . والله تعالى وتر ، لا يشفعه أحد . فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه . فالأمر كله إليه وحده . فلا شريك له بوجه . ولهذا ذكر سبحانه نفى ذلك في آية الكرسي ، التي فيها تقرير التوحيد . فقال ( ٢ : ٢٥٥ ) له مافی السموات ومافی الأرض . من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟ ) .

وسيد الشفعاء صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . إذا سجد وحمد ربه . يقال له « ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع . فيحذُّ له حداً . فيدخلهم الجنة » فالأمر كله لله . كما قال ( ٣ : ١٥٤ ) قل : إن الأمر كله لله ( وقال لرسوله ( ٣ : ١٢٨ ) ليس لك من الأمر شيء ) وقال ( ٧ : ٥٤ ) ألا له الخلق والأمر ) .

### قبول شفاعة الشفيع إكرام من الله له

فإذا كان لا يشفع عند الله أحد إلا بإذنه . فهو يأذن لمن يشاء ، ولكن يكرم الشفيع بقبول الشفاعة . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء » .

وإذا دعاه الداعي ، وشفع عنده الشفيع . فسمع الدعاء ، وقبل الشفاعة : لم يكن هذا مؤثراً فيه . كما يؤثر الخلق في الخلق . فإنه سبحانه هو الذي جعل هذا يدعو وهذا يشفع ، وهو الخالق لأفعال العباد . فهو الذي وفق العبد للتوبة ، ثم قبلها . وهو الذي وفقه للعمل ، ثم أثابه عليه . وهو الذي وفقه للدعاء ، ثم أجابه . فما يؤثر فيه شيء من الخلق . بل هو سبحانه الذي جعل ما يفعله سبباً لما يفعله . وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر ، وأن الله خالق كل شيء وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن . ولا يكون شيء إلا بمشيئته . وهو خالق أفعال العباد ، كما هو خالق سائر الخلق . قال يحيى بن سعيد القطان : ما زلت أسمع أصحابنا يقولون : إن الله خالق أفعال العباد .



ولكن هذا يناقض قول القدرية . فإنهم إذا جعلوا العبد هو الذى يحدث ، ويخلق أفعاله ، بدون مشيئة الله وخلقته : لزمهم أن يكون العبد قد جعل ربه فاعلاً لما لم يكن فاعلاً له . فبدعائه جعله مجيباً له ، وبتوابعه جعله قابلاً للتوبة ، وبشفاعته جعله قابلاً للشفاعة .

### معنى « إذن الله »

وهذا يشبه قول من جعل المخلوق يشفع عند الله بغير إذنه . فإن « الإذن » نوعان : إذن بمعنى المشيئة والمخلوق ، بمعنى الإباحة والإجازة . فمن الأول : قوله فى السحر ( ٢ : ١٠٢ ) وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ( فإن ذلك بمشيئة الله ، وقدرته . وإلا فهو لم يبيح السحر . والقدرية تنكر هذا « الإذن » وحقيقة قولهم : إن السحر يضر بدون إذن الله وكذلك قوله ( ٣ : ١٦٦ ) وما أصابكم يوم النقي الجمعان فبإذن الله ( فإن الذى أصابهم من القتل والجراح ، والتمثيل ، والهزيمة : إذا كان بإذنه فهو خالق لأفعال الكفار ولأفعال المؤمنين .

والنوع الثانى : قوله ( ٣٣ : ٤٥ ، ٤٦ ) إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه ) وقوله ( ٥٩ : ٥ ) ما قطعتم من لينةٍ أو تركتموها قائمةً على أصولها . فبإذن الله ( فإن هذا يتضمن إباحته لذلك ، وإجازته له ، ورفع الجناح والخرج عن فاعله ، مع كونه بمشيئته وقضائه .

فقوله « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ » هو هذا الإذن الكائن بقدره وشرعه . ولم يرد بمجرد المشيئة والقدر . فإن السحر وانتصار الكفار على المؤمنين كان بذلك الإذن .

فمن جعل العباد يفعلون أفعالهم بدون أن يكون الله خالقاً لها ، وقادراً عليها ، ومشيئاً لها ، فعنده : كل شافع وداع قد فعل ما فعل بدون خلق الله وقدرته ، وإن كان قد أباح الشفاعة .

وأما الكفر ، والسحر ، وقتال الكفار : فهو عندهم بغير إذنه . لا هذا الإذن ولا هذا الإذن . فإنه لم يبيح ذلك باتفاق المسلمين . وعندهم : أنه لم يشأه ولم يخلقه . بل كان بدون مشيئته وخلقته .

والمشركون المقرون بالقدر ، يقولون : إن الشفعاء يشفعون بالإذن القدرى ، وإن لم يأذن لهم بإباحة وجوازاً .

ومن كان مكذباً بالقدر - مثل كثير من النصارى - يقولون : إن شفاعة الشفعاء بغير إذن ، لا قدرى ولا شرعى .

والقدرية من المسلمين يقولون : يشفعون بغير إذن قدرى .

ومن سأل الله بغير إذنه الشرعى : فقد شفع عنده بغير إذن قدرى ولا شرعى فالداعى المأذون له فى الدعاء : مؤثر فى الله عندهم . لكن بإباحته .

والداعى غير المأذون له : إذا أجاب دعاءه ، فقد أثر فيه عندهم ، لا بهذا الإذن ولا بهذا الإذن ، كدعاء بلعام بن باعوراء وغيره . والله تعالى يقول « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ »

فإن قيل : فمن الشفعاء من يشفع بدون إذن الله الشرعى ، وإن كان خالقاً لفعله - كشفاعة نوح لابنه ، وشفاعة إبراهيم لأبيه ، وشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أبي بن سلول ، حين صلى عليه بعد موته . وقوله « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ » قد قلتم : إنه يعم النوعين . فإنه لو أراد الإذن القدرى : لكان كل شفاعة داخلية فى ذلك ، كما يدخل فى ذلك كل كفر وسحر . ولم يكن فرق بين ما يكون بإذنه ، وما لا يكون بإذنه . ولو أراد الإذن الشرعى فقط : لزم قول القدرية . وهؤلاء قد شفَعُوا بغير إذن شرعى ؟ .

### الشفاعة التامة المقبولة

قيل : المنفى من الشفاعة بلا إذن : هى الشفاعة التامة ، وهى المقبولة ، كما فى قول المصلي « سمع الله لمن حمده » أى استجاب له . وكما فى قوله تعالى ( ٢ : ٣ هُدَى

للمتقين) وقوله ( ٧٩ : ٤٥ ) إنما أنت منذر من يخشاها ) وقوله ( ٥٠ : ٤٥ ) فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ) ونحو ذلك .

فإن الهدى ، والإِنذار ، والتذكير ، والتعليم : لا بد فيه من قبول المتعلم . فإذا تعلم حصل له التعليم المقصود . وإلا قيل : علمته فلم يتعلم . كما قيل ( ٤١ : ١٧ ) وأما ثمود : فهديناهم . فاستحبوا العمى على الهدى ) فكذلك الشفاعة .

### مقصود الشفاعة

فالشفاعة : مقصودها قبول المشفوع إليه . وهي الشفاعة التامة . فهذه هي التي لا تكون إلا بإذنه . وأما إذا شفع شفيع فلم تقبل شفاعته : كانت كعدمها ، وكان على صاحبها التوبة والاستغفار منها . كما قال نوح ( ١١ : ٤٧ ) رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم . وإلا تغرلى وترحنى أكن من الخاسرين ) وكانهى الله النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على المنافقين . وقال له ( ٩ : ٨٤ ) ولا تصل على أحد منهم مات أبداً . ولا تقم على قبره . إنهم كفروا بالله ورسوله . وماتوا وهم فاسقون ) وقال له ( ٦٣ : ٦ ) سواهم عليهم ، أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم ) . ولهذا قال على لسان المشركين ( ٣٦ : ١٠٠ ، ١٠١ ) فما لنا من شافعين . ولا صديق حميم ) .

فالشفاعة المطلوبة : هي شفاعة المطاع الذي تقبل شفاعته . وهذه ليست لأحد عند الله إلا بإذنه ، قدرأ وشرعاً . فلا بد أن يأذن فيها . ولا بد أن يجعل العبد شافعاً . فهو الخالق لفعله ، والمبيح له ، كما في الداعى : هو الذى أمره بالدعاء ، وهو الذى يجعل الداعى داعياً . فالأمر كله لله ، خلقاً وأمرأ . كما قال ( ألا له الخلق والأمر ) .

وقد روى في حديث - ذكره ابن أبى حاتم وغيره - أنه قال « فمن يثق به ، فليدعه » أى فلم يبق لغيره لا خلق ولا أمر .

## الشفاعة المنفية

ولما كان المراد بالشفاعة المنفية : هي الشفاعة المطلقة ، وهي المقصود بالشفاعة وهي المقبولة ، بخلاف المردودة . فإن أحداً لا يريد لها ، لا الشافع ولا المشفوع له ، ولا المشفوع إليه . ولو علم الشافع والمشفوع له ، أنها ترد : لم يفعلوها . والشفاعة المقبولة : هي النافعة . بين ذلك في مثل قوله ( ٣٤ : ٢٢ ) ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ( وقوله ( ٢٠ : ١٠٩ ) يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً ) فنفي الشفاعة المطلقة . وبين أن الشفاعة لا تنفع عنده إلا لمن أذن له . وهو الإذن الشرعي . بمعنى : أباح له ذلك . وأجازه . كما قال تعالى ( ٢٢ : ٣٩ ) أذن للذين يُقاتلون بأنهم ظلموا ) وقوله ( ٣٣ : ٥٣ ) لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم ) وقوله ( ٢٤ : ٥٨ ) ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ) ونحو ذلك . وقوله « إلا لمن أذن له » هو إذن للمشفوع له . فلا يأذن في شفاعة مطلقة لأحد . بل إنما يأذن في أن يشفعوا لمن أذن لهم في الشفاعة فيه . قال تعالى ( ٢٠ : ١٠٨ ، ١٠٩ ) يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له . وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً . يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً ) وفيه قولان :

قيل : إلا شفاعة من أذن له الرحمن .

وقيل : لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن . فهو الذي تنفعه الشفاعة .

وهذا هو الذي يذكره طائفة من المفسرين . لا يذكرون غيره . لأنه لم يقل « لا تنفع إلا من أذن له » ولا قال « لا تنفع الشفاعة إلا فيمن أذن له » بل قال ( لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له ) فهي لا تنفع ، ولا ينتفع بها ، ولا تكون نافعة إلا للمأذون لهم . كما قال تعالى في الآية الأخرى ( ٣٤ : ٢٢ ) ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ) .

ولا يقال : لا تنفع إلا لشفيع مأذون له . بل لو أريد هذا ، لقيل : لا تنفع

الشفاعة عنده إلا من أذن له . وإنما قال « لمن أذن له » وهو المشفوع له ، الذي تنفعه الشفاعة .

وقوله « حتى إذا فُزِعَ عن قلوبهم » لم يعد إلى « الشفعاء » بل عاد إلى المذكورين في قوله « وما لهم فيهما من شريك . وماله منهم من ظهير » ثم قال « ولا تنفع الشفاعة عنده » ثم بين أن هذا منتفٍ « حتى إذا فُزِعَ عن قلوبهم . قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق » فلا يعلمون ماذا قال ، حتى يُفَزَعَ عن قلوبهم فكيف يشفعون بلا إذنه ؟ .

وهو سبحانه إذا أذن للمشفوع له فقد أذن للشافع . فهذا الإذن هو الإذن المطلق ، بخلاف ما إذا أذن للشافع فقط . فإنه لا يلزم أن يكون قد أذن للمشفوع له . إذ قد يأذن له إذناً خاصاً . وهكذا قال غير واحد من المفسرين . قالوا : وهذا يدل على أن الشفاعة لا تنفع إلا المؤمنين . وكذلك قال السلف في هذه الآية .

قال قتادة في قوله « ٢٠ : ١٠٩ » إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً » قال : كان أهل العلم يقولون : إن المقام الحمود الذي قال الله تعالى ( ١٧ : ٧٩ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ) هو شفاعته يوم القيامة . وقوله « إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً » إن الله يُشَفِّعُ المؤمنين بعضهم في بعض . قال البغوي « إلا من أذن له الرحمن » أذن الله له أن يشفع له « ورضى له قولاً » أى ورضى قوله . قال ابن عباس : يعنى قال « لا إله إلا الله » قال البغوي : فهذا يدل على أنه لا يشفع لعير المؤمن .

وقد ذكروا القولين في قوله تعالى « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » وقد طائفة هناك : أن المستثنى هو الشافع ، دون المشفوع له ، بخلاف ما قدموه هنا . منهم البغوي . فإنه لم يذكر هنا في الاستثناء إلا المشفوع له . وقال هناك : « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » في الشفاعة ، قاله تكذيباً لهم ، حيث قالوا

( ١٠ : ١٨ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ) قال : ويجوز أن يكون المعنى : إلا لمن أذن له أن يشفع له .

وكذلك ذكروا القولين في قوله ( ٤٣ : ٨٦ ) ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ، إلا من شهد بالحق ) وسنتكلم على هذه الآية إن شاء الله تعالى ، ونبين أن الاستثناء فيها يعم الطائفتين ، وأنه منقطع .

ومعنى هاتين الآيتين مثل معنى تلك الآية . وهو يعم النوعين .

وذلك : أنه سبحانه قال « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً » و « الشفاعة » مصدر شفع شفاعته . والمصدر يضاف إلى الفاعل تارة ، وإلى محل الفعل تارة . ويمثله الذى يسمى لفظه « المفعول به » تارة ، كما يقال : أعجبنى دقّ الثوب ودق القصار . وذلك مثل لفظ « العلم » يضاف تارة إلى العلم ، وتارة إلى المعلوم . فالأول كقوله ( ٢ : ٢٥٥ ) ولا يحيطون بشيء من علمه ) وقوله ( ٤ : ١٦٥ ) أنزله بعلمه ) وقوله ( ١١ : ١٤ ) إنما أنزل بعلم الله ) ونحو ذلك .

والثانى : كقوله ( ٣١ : ٣٤ ) إن الله عنده علم الساعة ) فالساعة هنا : معلومة ، لا عالمة . وقوله حين قال فرعون ( ٢٠ : ٥١ ) فما بال القرون الأولى ؟ ) قال موسى ( ٢٠ : ٥٢ ) علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ) ومثل هذا كثير . فالشفاعة مصدر ، لا بد لها من شافع ومشفوع له .

والشفاعة : تعم شفاعته كل شافع ، وكل شفاعة لمشفوع له .

فإذا قال « يومئذ لا تنفع الشفاعة » نفي النوعين : شفاعة الشفعاء . والشفاعة للمذنبين . فقوله « إلا من أذن له الرحمن » يتناول النوعين : من أذن له الرحمن ورضى له قولاً من الشفعاء . ومن أذن له الرحمن ورضى له قولاً من المشفوع له . وهى تنفع المشفوع له ، فتخلصه من العذاب . وتنفع الشافع ، فتقبل منه ، ويكرم يقبولها ، ويثاب عليه .

والشفاعة يومئذ لا تنفع لشافعاً ولا مشفوعاً له ( ٧٨ : ٣٨ ) إلا من أذن له

الرحمن وقال : صواباً ) فهذا الصنف المأذون لهم ، المرضى قولهم : هم الذين يحصل لهم نفع الشفاعة . وهذا موافق لسائر الآيات .

فإنه تارة يشترط في الشفاعة إذنه . كقوله ( من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟ ) وتارة يشترط فيها الشهادة بالحق . كقوله ( ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ) ثم قال ( إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ) .

وهنا اشترط الأمرين : أن يأذن له الرحمن ، وأن يقول صواباً . والمستثنى يتناول مصدر الفاعل والمفعول ، كما تقول : لا ينفع الزرع إلا في وقته . فهو يتناول زرع الحارث ، وزرع الأرض ، لكن هنا قال « إلا من أذن له الرحمن » والاستثناء مفرغ . فإنه لم يتقدم قبل هذا من يُستثنى منه هذا . وإنما قال « لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن » فإذا لم يكن في الكلام حذف ، كان المعنى : لا تنفع الشفاعة إلا هذا النوع ، فإنهم تنفعهم الشفاعة . ويكون المعنى : أنها تنفع الشافع والمشفوع له .

وإن جعل فيه حذف - تقديره : لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن - كان المصدر مضافاً إلى النوعين ، كل واحد بحسبه ، يضاف إلى بعضهم ، لكونه شافعاً ، وإلى بعضهم لكونه مشفوعاً له ، ويكون هذا كقوله ( ٢ : ١٧٧ ) ولكن البرّ من آمن بالله ( أى من يؤمن . و ( ٢ : ١٧١ ) مثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق ( أى مثل داعى الذين كفروا كمثل الناقى ، أو مثل الذين كفروا كمثل منعوق به ، أى الذى ينعق به . والمعنى فى ذلك كله ظاهر معلوم .

فهذا كان من أفصح الكلام : إيجازه ، دون الإطناب فيه .

وقوله « يومئذ لا تنفع الشفاعة » إذا كان من هذا الباب ، لم يحتاج : أن الشافع تنفعه الشفاعة . وإن لم يكرمه ، كان الشافع ممن تنفعه الشفاعة .

وفى الآية الأخرى « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » من هؤلاء

وهؤلاء .

لكن قد يقال : التقدير : لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له أن يشفع فيه فيؤذن لغيره أن يشفع فيه . فيكون الإذن للطائفتين ، والمنفع للمشفوع له ، كأحد الوجهين ، أو ولا تنفع إلا لمن أذن له من هؤلاء وهؤلاء . فكما أن الإذن للطائفتين ، فالنفع أيضاً للطائفتين . فالشافع ينتفع بالشفاعة . وقد يكون انتفاعه بها أعظم من انتفاع المشفوع له . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « اشفعوا تؤجروا . ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء » .

ولهذا كان من أعظم ما يكرم به الله عبده محمداً صلى الله عليه وسلم : هو الشفاعة التي يختص بها . وهي المقام المحمود ، الذي يحمده به الأولون والآخرون . وعلى هذا لا تحتاج الآية إلى حذف ، بل يكون معناها : يومئذ لا تنفع الشفاعة لا شافعاً ولا مشفوعاً إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً .

ولذلك جاء في الصحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يا بني عبد مناف ، لا أملك لكم من الله من شيء . يا صفية عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أملك لك من الله من شيء . يا عباس عم رسول الله ، لا أملك لك من الله من شيء » . وفي الصحيح أيضاً « لا أفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رقبته بغير له رُغاء أو شاة لها يعار ، أو رفاع تحفُّق . فيقول : أغنتي ، أغنتي . فأقول : قد أبلغتكَ . لا أملك لك من الله من شيء » .

فيعلم من هذا : أن قوله « ولا يملكون من دونه الشفاعة » و « لا يملكون منه خطاباً » على مقتضاه . وأن قوله في الآية « لا يملكون منه » كقوله صلى الله عليه وسلم « لا أملك لكم من الله من شيء » وهو كقول إبراهيم لأبيه ( ٦٠ : ٤ ) وما أملك لك من الله من شيء .

وهذه الآية تشبه قوله تعالى ( ٣٧ : ٣٨ ) رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن . لا يملكون منه خطاباً . يوم يقوم الروح والملائكة صفاً . لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن ، وقال صواباً ) فإن هذا مثل قوله « يومئذ لا تنفع الشفاعة



إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً « في الموضوعين : اشترط إذنه . فهناك ذكر « القول الصواب » وهنا ذكر « أن يرضى قوله » ومن قال الصواب رضى الله قوله . فإن الله إنما يرضى بالصواب .

لا يملك أحد من الخلق من دون الله شفاعته ولا غيرها

وقد ذكر وافي تلك الآية قولين .

أحدهما : أنه الشفاعة أيضاً ، كما قال ابن السائب : لا يملكون شفاعته إلا بإذنه والثاني : لا يقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلا بإذنه . قال مقاتل : كذلك قال مجاهد « لا يملكون منه خطاباً » قال : كلاماً . هذا من تفسيره الثابت عنه . وهو من أعلم - أو أعلم - التابعين بالتفسير .

قال الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد ، فحسبك به . وقال : عرضت المصحف على ابن عباس : أوقفه عند كل آية وأسأله عنها . وعليه اعتمد الشافعي وأحمد والبخاري في صحيحه .

وهذا يتناول « الشفاعة » أيضاً .

وفي قوله « لا يملكون منه خطاباً » لم يذكر استثناء . فإن أحداً لا يملك من الله خطاباً مطلقاً . إذ الخلق لا يملك شيئاً يشارك فيه الخالق ، كما قد ذكرناه في قوله « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » أن هذا عام مطلق . فإن أحداً - ممن يدعى من دونه - لا يملك الشفاعة بحال . ولكن الله إذا أذن لهم شفعا من غير أن يكون ذلك مملوكاً لهم . وكذلك قوله « لا يملكون منه خطاباً » هذا قول السلف وجهور المفسرين .

وقال بعضهم : هؤلاء هم الكفار . لا يملكون مخاطبة الله في ذلك اليوم . قال ابن عطية : قوله « لا يملكون » الضمير للكفار . أى لا يملكون - من إفضاله وإكماله - أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها . وهذا مبتدع . وهو خطأ محض . والصحيح : قول الجمهور والسلف : أن هذا عام ، كما قال في آية أخرى

(٢٠: ١٠٨) وخشعت الأصوات للرحمن . فلا تسمع إلا همساً ) وفي حديث التجلي الذي في الصحيح - لما ذكر مرورهم على الصراط - قال صلى الله عليه وسلم « ولا يتكلم أحد إلا الرسل . ودعوى الرسل : اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ » فهذا في وقت المرور على الصراط . وهو بعد الحساب والميزان . فكيف بما قبل ذلك ؟ .

وقد طلبت الشفاعة من أكبر الرسل ، وأولى العزم ، وكل يقول « إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله . ولن يغضب بعده مثله . وإني فعلت كذا وكذا ، نفسى ، نفسى ، نفسى » فإذا كان هؤلاء لا يتقدمون إلى مخاطبة الله تعالى بالشفاعة ، فكيف بغيرهم ؟ .

وأيضاً فإن هذه الآية مذكورة بعد ذكر المتقين وأهل الجنة ، وبعد أن ذكر الكافرين . فقال ( ٧٨ : ٣١ - ٣٨ ) إن للمتقين مغازا . حداثق وأعتابا . وكواعب أترابا . وكأساً دهاقا . لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً . جزاء من ربك عطاء حسابا . رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا ) ثم قال ( يوم يقوم الروح والملائكة صفاً . لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن ، وقال : صوابا ) فقد أخبر : أن « الروح والملائكة » يقومون صفاً ، لا يتكلمون . وهذا هو تحقيق قوله « لا يملكون منه خطابا » والعرب تقول : ما أملك من أمر فلان ، أو من فلان شيئاً : أى لا أقدر من أمره على شيء . وغاية ما يقدر عليه الإنسان من أمر غيره : خطابه ، ولو بالسؤال .

فهم في ذلك الموطن لا يملكون من الله شيئاً ، ولا الخطاب . فإنه لا يتكلم أحد إلا بإذنه . ولا يتكلم إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا . قال تعالى ( ٦٠ : ٤ ) إنا قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك . وما أملك لك من الله من شيء ) فقد أخبر الخليل : أنه لا يملك لأبيه من الله من شيء . فكيف غيره ؟ .

وقال مجاهد أيضاً « إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » قال : حقاً في الدنيا ، وعملاً به . رواه - والذي قبله - عبد بن حميد . وروى عن عكرمة « وقال صواباً » قال : الصواب قول لا إله إلا الله .

فعلى قول مجاهد : يكون المستثنى : من أتى بالكلم الطيب والعمل الصالح .  
وقوله في سورة طه « لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا »  
فإذا جعلت هذه مثل تلك : فتكون الشفاعة هي الشفاعة المطلقة . وهي الشفاعة  
في الحسنات وفي دخول الجنة ، كما في الصحيحين « أن الناس يهتمون يوم القيامة .  
فيقولون : لو استشفعنا على ربنا ، حتى يرحمنا من مقامنا هذا ؟ » فهذا طلب الشفاعة  
للفصل بينهم .

وفي حديث الشفاعة « أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب  
الأيمن » فهذه شفاعة في أهل الجنة . ولهذا قيل : إن هاتين الشفاعتين مختصتان  
بمحمد صلى الله عليه وسلم . ويشفع غيره في العصاة .

فقوله « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » يدخل  
فيها الشفاعة في أهل الموقف عموماً ، وفي أهل الجنة ، وفي المستحقين للعذاب .  
وهو سبحانه في هذه وتلك : لم يذكر العمل . إنما قال « وقال صواباً » وقال  
« ورضى له قولا » لكن قد دل الدليل على أن « القول الصواب المرضي »  
لا يكون صاحبه محموداً إلا مع العمل الصالح . لكن نفس القول مرضى . فقد قال  
الله ( ٣٥ : ١٠ ) إليه يصعد الكلم الطيب ) .

وقد ذكر البغوى وأبو الفرج ابن الجوزى وغيرها في قوله « ولا يملك الذين  
يدعون من دون الشفاعة إلا من شهدنا بالحق وهم يعلمون » قولين . أحدهما : أن  
المستثنى هو الشافع . ومحل « من » الرفع . والثاني : هو المشفوع له .

قال أبو الفرج : في معنى الآية قولان . أحدهما : أنه أراد بـ « الذين يدعون  
من دونه » آلهتهم . ثم استثنى عيسى وعزيراً والملائكة . فقال « إلا من شهد  
بالحق » وهو شهادة أن لا إله إلا الله « وهم يعلمون » بقلوبهم ماشهدوا به بألسنتهم .  
قال : وهذا مذهب الأكثرين ، منهم قتادة .

والثاني : أن المراد بـ « الذين يدعون » عيسى وعزيراً والملائكة ، الذين عبدهم

المشركون ، لا يملك هؤلاء الشفاعة لأحد « إلا من شهد بالحق » وهي كلمة الإخلاص « وهم يعلمون » أن الله خلق عيسى وعزيراً والملائكة . وهذا مذهب قوم ، منهم مجاهد .

وقال البغوى « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق » هم عيسى وعزير والملائكة . فإنهم عُبدوا من دون الله . ولهم الشفاعة . وعلى هذا تكون « من » فى محل رفع . وقيل « من » فى محل خفض . وأراد بالذين يدعون : عيسى وعزيراً والملائكة . يعنى : أنهم لا يملكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق . قال : والأول أصح .

قلت : قد ذكر جماعة قول مجاهد وقتادة ، منهم ابن أبى حاتم . روى بإسناده المعروف عن مجاهد - على شرط الصحيح - عن مجاهد قوله « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » عيسى وعزير والملائكة ، يقول : لا يشفع عيسى وعزير والملائكة « إلا من شهد بالحق » يعلم الحق . هذا لفظه . جعل « شفيع » متعدياً بنفسه وكذلك لفظ . . . . . (١)

وعلى هذا فيكون منصوباً ، لا يكون مخفوضاً ، كما قاله البغوى . فإن الحرف الخافض إذا حذف انتصب الاسم . ويكون على هذا يقال : شفعت له ، وشفعت له ، كما يقال : نصحته ، ونصحت له . و « شفيع » أى صار شفيعاً للطالب . أى لا يشفعون طالباً ولا يعينون طالباً « إلا من شهد بالحق هم يعلمون » أن الله ربههم .

وروى بإسناده عن قتادة « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » الملائكة وعيسى وعزير . أى إنهم قد عُبدوا من دون الله ، ولهم شفاعة عند الله ومنزلة .

قلت : كلا القولين معناه صحيح . لكن التحقيق فى تفسير الآية : أن الاستثناء منقطع . ولا يملك أحد من دون الله الشفاعة مطلقاً . لا يستثنى من ذلك أحد عند الله . فإنه لم يقل : ولا يشفع أحد . ولا قال : لا يشفع لأحد ، بل قال

(١) يياض بالأصل قدر أربع كلمات .

« ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » وكل من دُعي من دون الله لا يملك الشفاعة البتة .

والشفاعة بإذن ليست مختصة بمن عبد من دون الله .  
وسيد الشفعاء صلى الله عليه وسلم لم يعبد كما عبد المسيح<sup>(١)</sup> . وهو - مع هذا - له شفاعة ، ليست لغيره . فلا يحسن أن تثبت الشفاعة لمن دُعي من دون الله دون من لم يدع .

فمن جعل الاستثناء متصلاً ، فإن معنى كلامه : أن من دُعي من دون الله لا يملك الشفاعة ، إلا أن يشهد بالحق . وهو يعلم ، أو لا يشفع إلا لمن شهد بالحق وهو يعلم . ويبقى الذين لم يدعوا من دون الله ، لم تذكر شفاعتهم لأحد . وهذا المعنى لا يليق بالقرآن ولا يناسبه . وسبب نزول الآية يبطله أيضاً .

تحقيق معنى « لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة »

وأيضاً فقوله « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » يتناول كل معبود من دونه . ويدخل في ذلك الأصنام . فإنهم كانوا يقولون : هم يشفعون لنا . قال

(١) بل عبد كما عبد المسيح سواء . فقد أطرى - على لسان البوصيري وغيره من الشعراء المشركين - كما أطرى عيسى . وقيل عنه : إنه النور الأول الذي انشق من الله ، كما قيل عن عيسى سواء . وقيل : إن الحقيقة المحمدية هي الدرجة الثانية في تعين الحقيقة الإلهية ، كما قال النصارى في عيسى . وأقيمت على قبره القبة الخضراء تقديساً وتبركاً بها ، كما تبرك النصارى بأثار عيسى والقسس سواء . وهو صلى الله عليه وسلم - وبرأه الله - يدعى ويستغاث به من دون الله ، كما قال البوصيري :

فإن من جودك الدنيا وضررتها  
ومن علومك علم اللوح والقلم  
يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به  
سواك عند حدوث الحادث العم

والذين روجوا عبادة البشر من الأنبياء والأولياء - عيسى ومن قبل عيسى - هم الصوفية الذين روجوا وروجون الشرك بجميع ألوانه في كل وقت إلى يوم القيامة وهم يزخرفونه للعامة بنسبته إلى الأنبياء والأولياء . محادة للرسول ، واتباعاً لغير سبيل المؤمنين .

تعالى ( ١٠ : ١٨ ) ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم . ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ؟ قل : أتنبثون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ؟ ( فإذا قيل : إنه استثنى الملائكة والأنبياء ، كان في هذا إطاع لمن عندهم أن معبوديهم من دون الله يشفعون لهم . وهذا مما يبين فساد القول المذكور عن قتادة فإنه إذا كان المعنى : أن المعبودين لا يشفعون إلا إذا كانوا ملائكة أو أنبياء كان في هذا إثبات شفاعاة المعبودين لمن عبدوهم ، إذا كانوا صالحين . والقرآن كله يبطل هذا المعنى . ولهذا قال تعالى ( ٥٣ : ٢٦ ) وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ) وقال تعالى ( ٢٦ : ٢١ ) - ٢٨ وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً . سبحانه ! بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول . وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . ولا يشفعون إلا لمن ارتضى . وهم من خشيته مشفقون ) فبين أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الرب . فعلم : أنه لا بد أن يؤذن لهم فيمن يشفعون فيه ، وأنهم لا يؤذن لهم إذن مطلق .

### تحقيق معنى « من دونه »

وأيضاً فإن في القرآن : إذا نفي الشفاعاة من دونه : نفاها مطلقاً . فإن قوله « من دونه » إما أن يكون متصلاً بقوله « يملكون » أو بقوله « يدعون » أو بهما . فالتقدير : لا يملك الذين يدعونهم الشفاعاة من دونه . أو لا يملك الذين يدعونهم من دونه أن يشفعوا . وهذا أظهر . لأنه قال « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعاة » فأخر « الشفاعاة » وقدم « من دونه » .

ومثل هذا كثير في القرآن « يدعون من دون الله » و « يعبدون من دون الله » كقوله ( ١٠ : ١٨ ) ويعبدون دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ( وقوله ( ١٠ : ١٠٦ ) ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ) .

بخلاف ما إذا قيل : لا يملك الذين يدعون الشفاعاة من دونه . فإن هذا لا نظير له في القرآن . واللفظ المستعمل في مثل هذا أن يقال : لا يملك الذين يدعون

الشفاعة إلا بإذنه، أو لمن ارتضى، ونحو ذلك. لا يقال في هذا المعنى « من دونه » فإن الشفاعة هي من عنده. فكيف تكون من دونه؟ لكن قد تكون بإذنه، وقد تكون بغير إذنه.

وأيضاً، فإذا قيل « الذين يدعون » مطلقاً. دخل فيه الرب تعالى. فإنهم كانوا يدعون الله، ويدعون معه غيره. ولهذا قال (٢٥ : ٦٨) والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر).

والتقدير الثالث: لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة من دونه. وهذا أجود من الذى قبله. لكن يرد عليه ما يرد على الأول.

### لا يملك أحد من دون الله الشفاعة

ومما يضعفهما: أن « الشفاعة » لم تذكر بعدها صلة لها. بل قال « لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » فنفي ملكهم الشفاعة مطلقاً. وهذا هو الصواب. وأن كل من دُعي من دون الله: لا يملك الشفاعة. فإن المالك للشيء: هو الذى يتصرف فيه بمشيئته وقدرته. والرب تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه. فلا يملك أحد من المخلوقين الشفاعة بحال. ولا يقال في هذا « إلا بإذنه » إنما يقال ذلك في الفعل. فيقال (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه؟).

وأما في الملك: فلا يمكن أن يكون غيره مالكا لها. فلا يملك مخلوق الشفاعة بحال، ولا يتصور أن يكون نبي فمن دونه مالكا لها. بل هذا ممتنع، كما يمتنع أن يكون خالقاً ورباً. وهذا كما قال (٣٤ : ٢٢) قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض. وما لهم فيهما من شرك. وما له منهم من ظهير) فنفي الملك مطلقاً. ثم قال (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فنفي نفع الشفاعة إلا لمن استثناه. لم يثبت أن مخلوقاً يملك الشفاعة. بل هو سبحانه له الملك وله الحمد. لا شريك له في الملك. قال تعالى (٢٥ : ١ - ٣) تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً. الذى له ملك السموات والأرض.

ولم يتخذ ولداً . ولم يكن له شريك في الملك . وخلق كل شيء فقدره تقديراً ( ولهذا - لما نفى الشفعاء من دونه - نفاهم نفياً مطلقاً بغير استثناء . وإنما يقع الاستثناء : إذا لم يقيدهم بأنهم من دونه . كما قال تعالى ( ٦ : ٥١ ) وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم . ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ) وكما قال تعالى ( ٦ : ٧٠ ) وذكر به أن تُبَسَّلَ نفس بما كسبت . ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ) وكما قال تعالى ( ٣٢ : ٤ ) ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ) فلما قال « من دونه » نفى الشفاعة مطلقاً . وإذا ذكر « بإذنه » لم يقل « من دونه » كقوله ( من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟ ) وقوله ( ١٠ : ٣ ) ما من شفيع إلا من بعد إذنه ) .

### معنى قوله في وصف القرآن « متشابهاً ، ومثاني »

فمن تدبر القرآن : تبين له أنه كما قال تعالى ( ٣٩ : ٢٣ ) الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً ، مثاني ) يشبه بعضه بعضاً . ويصدق بعضه بعضاً . ليس بمختلف ولا بمتناقض ٤ : ٨٢ . ولو كان من عند غير الله : لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ) .

وهو « مثاني » يُدْنَى اللهُ فِيهِ الْأَقْسَامُ ، وَيَسْتَوْفِيهَا .

والحقائق : إما مماثلة . وهو « المتشابه » وإما مماثلة . وهي : الأصناف والأقسام والأنواع . وهي « المثاني » .

و « التثنية » يراد بها : جنس التعديد ، من غير اقتصار على اثنين فقط . كما في قوله تعالى ( ٦٧ : ٤ ) ارجع البصر كرتين ) يراد به : مطلق العدد ، كما تقول : قلت له مرة بعد مرة . تريد : جنس العدد . وتقول : هو يقول كذا ، ويقول كذا . وإن كان قد قال مرات ، كقول حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه « جعل يقول بين السجدين : رب اغفر لي . رب اغفر لي » لم يرد :



أن هذا قاله مرتين فقط ، كما يظنه بعض الناس الغالطين . بل يريد : أنه جعل يثنى هذا القول ، ويعدده ، ويكرره ، كما كان يثنى لفظ التسبيح .

وقد قال حذيفة رضى الله عنه في الحديث الصحيح الذى رواه مسلم « إنه ركع نحواً من قيامه ، يقول فى ركوعه : سبحان ربي العظيم . سبحان ربي العظيم » وذكر « أنه سجد نحواً من قيامه ، يقول فى سجوده : رب اغفرلى . رب اغفرلى . » وقد صرح فى الحديث الصحيح « أنه أطال الركوع والسجود بقدر البقرة والنساء وآل عمران » فإنه قام بهذه السور كلها . وذكر « أنه كان يقول : سبحان ربي العظيم ، سبحان ربي العظيم . سبحان ربي الأعلى ، سبحان ربي الأعلى » فعلم أنه أراد بتثنية اللفظ : جنس التعداد والتكرار ، لا الاختصار على مرتين . فإن « الاثنين » أول العدد الكثير . فذكر أول الأعداد ، يعنى أنه عدد هذا اللفظ ، لم يقتصر على مرة واحدة . فالتثنية التعديد . والتعديد : يكون للأقسام المختلفة . وليس فى القرآن تكرار محض ، بل لابد من فوائد فى كل خطاب .

و « المتشابه » فى النظائر المتماثلة . و « المثنى » فى الأنواع . وتكون التثنية فى المتشابه ، أى هذا المعنى قد تثنى فى القرآن لفوائد آخر . و « المثنى » تعم هذا وهذا . وفاتحة الكتاب : هى « السبع المثنى » لتضمنها هذا وهذا . وبسط هذا له موضع آخر .

### لا يملك أحد من الخلق الشفاعة ألبتة

والمقصود هنا : أن قوله « ولا يملك الذين من يدعون من دونه الشفاعة » قد تم الكلام هنا . فلا يملك أحد من المعبودين من دون الله الشفاعة ألبتة . ثم استثنى « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » فهذا استثناء منقطع . والمنقطع يكون فى المعنى المشترك بين المذكورين . فلما نفى ملكهم الشفاعة ، بقيت الشفاعة بلا مالك لها كأنه قد قيل : فإذا لم يملكوها ، هل يشفعون فى أحد ؟ فقال : نعم « من شهد بالحق وهم يعلمون » .

وهذا يتناول الشافع والمشفوع له . فلا يشفع إلا من شهد بالحق وهم يعلمون .  
فالملائكة والأنبياء والصالحون - وإن كانوا لا يملكون الشفاعة - لكن إذا  
أذن الرب لهم شفَعوا . وهم لا يؤذن لهم إلا في الشفاعة للمؤمنين ، الذين يشهدون  
أن لا إله إلا الله . فيشهدون بالحق وهم يعلمون . لا يشفعون لمن قال هذه الكلمة  
تقليداً للآباء والشيوخ . كما جاء الحديث الصحيح : أن الرجل يسأل في قبره ؟  
« ما تقول في هذا الرجل ؟ فأما المؤمن ، فيقول : هاه هاه ، لا أدري . سمعت الناس  
بالبينات والهدى . وأما المرتاب ، فيقول : هاه هاه ، لا أدري . سمعت الناس  
يقولون شيئاً فقلته » فهذا قال « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » .  
وقد تقدم قول ابن عباس : يعنى من قال « لا إله إلا الله » يعنى : خالصاً  
من قلبه .

والأحاديث الصحيحة الواردة في الشفاعة كلها تبين : أن الشفاعة إنما تكون  
في أهل « لا إله إلا الله » .

وقد ثبت في صحيح البخارى : أن أبا هريرة قال لرسول الله صلى الله عليه  
وسلم « من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : يا أبا هريرة ، لقد ظننتُ  
أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيتُ من حرصك على  
الحديث . أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة : من قال « لا إله إلا الله » خالصاً من  
قبل نفسه » .

فبين أن الخالص لها من قبل نفسه : هو أسعد بشفاعته صلى الله عليه وسلم من  
غيره ممن يقولها بلسانه ، وتكذبها أقواله وأعماله .

فهؤلاء هم الذين شهدوا بالحق ، شهدوا « أن لا إله إلا الله » كما شهد الله  
لنفسه بذلك وملائكته وأولو العلم ( ٣ : ١٨ ) شهد الله أنه لا إله إلا هو ،  
والملائكة وأولو العلم ، فأتمماً بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم ) .

فإذا شهدوا - وهم يعلمون - كانوا من أهل الشفاعة ، شافعين ، ومشفوعا لهم .

فإن المؤمنين أهل التوحيد يشفع بعضهم في بعض ، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة . كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال - في الحديث الطويل ، حديث التجلي والشفاعة - « حتى إذا خلص المؤمنون من النار . فوالذى نفسى بيده ، مامنكم من أحد بأشدم مناشدة لله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار . يقولون : ربنا ، كانوا يصومون معنا ، ويصلون ، ويحجون . فيقال لهم : أخرجوا من عرقم . فتحرم صورهم على النار - وذكر تمام الحديث » .

وسبب نزول الآية - على ما ذكره - مؤيد لما ذكره .

قال أبو الفرج ابن الجوزى : سبب نزولها : أن النضر بن الحرث ونفراً معه قالوا « إن كان مايقول محمد حقاً . فنحن نتولى الملائكة . فهم أحق بالشفاعة من محمد . فبرلت هذه الآية » قاله مقاتل .

وعلى هذا : فيقصد أن الملائكة وغيرهم لا يملكون الشفاعة . فليس توليكم إياهم ، واستشفاعكم بهم : بالذى يوجب أن يشفعوا لكم . فإن أحداً ممن يدعى من دون الله لا يملك الشفاعة . ولكن « من شهد بالحق وهم يعلمون » فإن الله يُشَفِّعُ فِيهِ .

فالذى تنال به الشفاعة : هى الشهادة بالحق . وهى شهادة أن لا إله إلا الله . لا تنال بتولى غير الله ، لا الملائكة ، ولا الأنبياء ، ولا الصالحين .

### من تشفع بغير الله

فمن والى أحداً من هؤلاء ودعاه ، وحج إلى قبره ، أو موضعه ، ونذر له ، وحلف به ، وقرب له القرابين ليشفع له : لم يغن ذلك عنه من الله شيئاً . وكان من أبعء الناس عن شفاعته وشفاعة غيره . فإن الشفاعة إنما تكون : لأهل توحيد الله ، وإخلاص القلب والدين له . ومن تولى أحداً من دون الله فهو مشرك . فهذا القول والعبادة الذى يقصد به المشركون الشفاعة : يحرم عليهم الشفاعة .

فالذين عبدوا الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين - ليشفَعوا لهم - كانت عبادتهم إياهم وإشراكهم بربهم ، الذي به طلبوا شفاعتهم : به حُرِّموا شفاعتهم ، وعوقبوا بنقيض قصدهم . لأنهم أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا .

### عبادة المشركين للموتى بزعم أنهم يشفَعون لهم

وكثير من أهل الضلال : يظن أن الشفاعة تنال بهذه الأمور التي فيها شرك ، أو هي شرك خالص ، كما ظن ذلك المشركون الأولون . وكما يظنه النصراني ، ومن ضل من المتسبين إلى الإسلام . الذين يدعون غيره الله ، ويحجون إلى قبره أو مكانه ، وينذرون له ، ويحلفون به . ويظنون : أنه بهذا يصير شفيعا لهم . قال تعالى ( ١٧ : ٥٦ ، ٥٧ ) قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله . فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب . ويرجون رحمته . ويخافون عذابه . إن عذاب ربك كان محذورا .

قال طائفة من السلف : كان أقوام يعبدون المسيح والعزير والملائكة . فبين الله أنهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويله . كما بين أنهم لا يملكون الشفاعة . وهذا لا استثناء فيه ، وإن كان الله يجيب دعاءهم . ثم قال « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب . ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا » فبين : أن هؤلاء المزعومين ، الذين يدعونهم من دون الله كانوا يرجون رحمة الله ، ويخافون عذابه ، ويتقربون إليه بالأعمال الصالحة ، كسائر عباده المؤمنين . وقد قال تعالى ( ٣ : ٨٠ ) ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا . أيا أمركم بالكفر بعد إذ أتمم مسامون ؟ ) .

### ضلال الناس في أنواع الشفاعة

وللناس في الشفاعة أنواع من الضلال ، قد بسطت في غير هذا الموضوع . فكثير منهم : يظن أن الشفاعة هي بسبب اتصال روح الشافع بروح المشفوع له ، كما ذكر ذلك أبو حامد الغزالي وغيره . ويقولون : من كان أكثر صلاة على

النبي صلى الله عليه وسلم ، كان أحق بالشفاعة من غيره . وكذلك من كان أحسن ظنا بشخص ، وأكثر تعظيماً له : كان أحق بشفاعته .

وهذا غلط . بل هذا هو قول المشركين الذين قالوا : تتولى الملائكة ليشفعوا لنا . يظنون أن من أحب أحداً - من الملائكة والأنبياء والصالحين وتولاه - كان ذلك سبباً لشفاعته له . وليس الأمر كذلك .

بل الشفاعة : سببها توحيد الله ، وإخلاص الدين والعبادة بجميع أنواعها له . فكل من كان أعظم إخلاصاً كان أحق بالشفاعة ، كما أنه أحق بسائر أنواع الرحمة . فإن الشفاعة : من الله مبدؤها ، وعلى الله تمامها . فلا يشفع أحد إلا بإذنه . وهو الذى يأذن للشافع . وهو الذى يقبل شفاعته فى المشفوع له .

### الشفاعة سبب من أسباب الرحمة

وإنما الشفاعة سبب من الأسباب التى بها يرحم الله من يرحم من عباده . وأحق الناس برحمته : هم أهل التوحيد والإخلاص له ، فكل من كان أكمل فى تحقيق إخلاص « لا إله إلا الله » علماً وعقيدة ، وعملاً وبراءة ، وموالة ومعاودة : كان أحق بالرحمة .

والمذنبون - الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم ، فحقت موازينهم ، فاستحقوا النار - : من كان منهم من أهل « لا إله إلا الله » فإن النار تصيبه بذنوبه . ويميته الله فى النار إماتة . فتحرقه النار إلا موضع السجود . ثم يخرج الله من النار بالشفاعة . ويدخله الجنة ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة .

فبين أن مدار الأمر كله : على تحقيق كلمة الإخلاص ، وهى « لا إله إلا الله » لاعلى الشرك بالتعلق بالموتى وعبادتهم ، كما ظنه الجاهليون . وهذا مبسوط فى غير هذا الموضوع .

ما كان يقول صلى الله عليه وسلم في الرفع من الركوع

والمقصود هنا : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين « الحمد » الذي هو رأس الشكر ، وبين « التوحيد والاستغفار » إذا رفع رأسه من الركوع فيقول « ربنا ولك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بيننا ، وملء ما شئت من شيء بعد . أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد . وكلنا لك - : لا مانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت . ولا ينفع ذا الجدم منك الجدم » ثم يقول « اللهم طهرني بالثلج والبرد ، والماء البارد . اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس » كما رواه مسلم في الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - إذا رفع رأسه من الركوع - قال : اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد - وكلنا لك عبد - لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت . ولا ينفع ذا الجدم منك الجدم » .

وروى مسلم أيضاً عن عبد الله بن أبي أوفى رضى الله عنه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - إذا رفع رأسه من الركوع - قال : سمع الله لمن حمده . اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد . اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد . اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ » .

وقد روى مسلم في صحيحه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول « اللهم لك الحمد » وقال « وملء الأرض ، وملء ما بينهما » .

ولم يذكر في بعض الروايات . لأن « السموات والأرض » قد يراد بهما : العلو والسفل مطلقاً . فيدخل في ذلك الهواء وغيره . فإنه عال بالنسبة إلى ماتحته ، وسافل بالنسبة إلى ما فوقه . فقد يجعل من السماء ، كما يجعل السحاب سماء ، والسقف سماء . وكذا قال في القرآن ( ٥٧ : ٤ ) هو الذى خلق السموات والأرض في ستة

أيام ثم استوى على العرش) ولم يقل « وما بينهما » كما يقول ( ١٠ : ٣ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش . ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع ) .

فتارة يذكر قوله « وما بينهما » فيما خلقه فى ستة أيام . وتارة لا يذكره . وهو مراد . فإن ذكره كان إيضاحاً وبياناً ، وإن لم يذكره دخل فى لفظ « السموات والأرض » ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم تارة يقول « ملء السموات وملء الأرض » ولا يقول « وما بينهما » وتارة يقول « وما بينهما » وفيها كلها « وملء ما شئت من شىء بعد » وفى رواية أبى سعيد « أحق ما قال العبد » إلى آخره . وفى رواية ابن أبى أوفى « الدعاء بالطهارة من الذنوب » .

### فى الحمد رأس الشكر والاستغفار

فى هذا الحمد رأس الشكر والاستغفار . فإن ربنا غفور شكور . فالحمد بإزاء النعمة . والاستغفار : بإزاء الذنوب .

وذلك تصديق قوله تعالى ( ٧٩ : ٤ ) ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ) .

فى سيد الاستغفار « أبوه لك بنعمتك عليّ ، وأبوه بذنبي » وفى حديث أبى سعيد « الحمد رأس الشكر ، والتوحيد » كما جمع بينهما فى أم القرآن . فأولها : تمجيد ، وأوسطها : توحيد ، وآخرها : دعاء . وكافى قوله ( ٤٠ : ٦٥ ) هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين ) .

وفى حديث الموطأ « أفضل ما قلت ، أنا والنبيون من قبل : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد . وهو على كل شىء قدير . من قالها : كتب الله له ألف حسنة . وحط عنه ألف سيئة . وكانت له حِرْزاً من الشيطان يومه ذلك . ولم يأت أحد ، بأفضل مما جاء به إلا رجل قال مثلها ، أو زاد عليه .

ومن قال في يوم مائة مرة : سبحان الله وبحمده ، حُطَّتْ خطاياها ، ولو كانت مثل زبد البحر .

### فضائل وأدعية

وفضائل هذه الكلمات في أحاديث كثيرة . وفيها : التوحيد والتحميد .  
فقوله « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له » توحيد . وقوله « له الملك وله الحمد » تحميد . وفيها معان أخرى شريفة .

وقد جاء الجمع بين التوحيد ، والتحميد ، والاستغفار ، في مواضع . مثل حديث كفارة المجلس « سبحانك اللهم وبحمدك . أشهد أن لا إله إلا أنت . أستغفرك وأتوب إليك » فيه : التسبيح ، والتحميد ، والتوحيد ، والاستغفار . من قالها في مجلس ، إن كان مجلس لفظ ، كانت كفارة له ، وإن كان مجلس ذكر : كانت كالطابع له . وفي حديث أيضاً « إن هذا يقال عقب الوضوء » .

وفي الحديث الصحيح في مسلم وغيره من حديث عقبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء » وفي حديث آخر أنه يقول « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » .

وقد روى عن طائفة من السلف ، في الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ، نحو هذه الكلمات .

روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال « اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي . إنك خير الغافرين » « اللهم لاله إلا أنت . سبحانك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي فارحمي . فأنت خير الراحمين » « لا إله



إلا أنت . سبحانك و بحمدك . رب إني ظلمت نفسي ، فتاب عليّ . إنك أنت التواب الرحيم . »

فهذه الكلمات من جنس خاتمة الوضوء . وخاتمة الوضوء : فيها التسبيح ، والتحميد ، والتوحيد ، والاستغفار .

فالتسبيح ، والتحميد ، والتوحيد لله . فإنه لا يأتي بالحسنات إلا هو .  
والاستغفار : من ذنوب النفس ، التي منها تأتي السيئات .

وقد قرن الله في كتابه بين التوحيد ، والاستغفار في غير موضع . كقوله ( ٤٧ : ١٩ ) فاعلم أنه لا إله إلا الله ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ) وفي قوله ( ١١ : ٢ ) أن لا تعبدوا إلا الله . إنني لكم نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ) وفي قوله ( ٤١ : ٦ ) قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما ألهمكم إلهٌ واحدٌ . فاستقيموا إليه ، واستغفروا ) .

وفي حديث رواه ابن أبي عاصم وغيره « يقول الشيطان : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكني بالاستغفار ؛ و بلا إله إلا الله . فلما رأيت ذلك بثنتُ فيهم الأهواء . فهم يذنبون ولا يستغفرون . لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

ما تقتضيه « لا إله إلا الله »

و « لا إله إلا الله » تقتضى الإخلاص والتوكل . والإخلاص : الشكر .  
فهى أفضل الكلام . وهى أعلى شعب الإيمان . كما ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال « الإيمان بضع وستون - أو بضع وسبعون - شعبة . أعلاها : قول لا إله إلا الله . وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق ، والحياة شعبة من الإيمان » .

و « لا إله إلا الله » هى قطب رضى الإيمان ، وإليها يرجع الأمر كله .

والكتب المنزلة : مجموعة فى قوله تعالى ( إياك نعبد وإياك نستعين ) وهى

معنى « لا إله إلا الله » و « لا حول ولا قوة إلا بالله » هي من معنى « لا إله إلا الله » و « الحمد لله » في معناها ، و « سبحان الله ، والله أكبر » من معناها . لكن فيها تفصيل بعد إجمال .

## فصل

وقد ظن بعض المتأخرين : أن معنى قوله « فمن نفسك » أى أفن نفسك ؟ وأنه استفهام ، على سبيل الإنكار . ومعنى كلامه : إن الحسنات والسيئات ، كلها من الله ، لامن نفسك .

وهذا القول يبين معنى الآية . فإن الآية بيئت أن السيئات من نفس الإنسان . أى بذنوبه . وهؤلاء يقولون : ليست السيئات من نفسه .

وممن ذكر ذلك : أبو بكر بن فورك . فإنه قال : معناه : أفن نفسك ؟ يدل عليه قول الشاعر :

ثم قالوا : تحبها ؟ قلت : بهزاً عدد الرمل والحصى والتراب  
قلت : وإضمار الاستفهام - إذا دل عليه الكلام - لا يقتضى جواز إضماره  
في الخبر المخصوص من غير دلالة . فإن هذا يناقض المقصود . ويستلزم أن كل  
من أراد أن ينفي ما أخبر الله به يقدر أن ينفيه ، بأن يُقدر في خبره استفهاماً .  
ويجعله استفهام إنكار .

وهذا من جهة العربية نظير ما زعمه بعضهم في قول إبراهيم عليه السلام  
« ٦ : ٧٦ هذا ربي » أهذا ربي ؟ .

قال ابن النباري : هذا القول شاذ . لأن حرف الاستفهام لا يضم إذا  
كان فارقاً بين الإخبار والاستخبار .

وهؤلاء استشهدوا بقوله ( ٢١ : ٣٤ أفان ميت فهم الخالدون ؟ ) .

وهذا لاحجة فيه . لأنه قد تقدم الاستفهام في أول الجملة ، في الجملة الشرطية

( ٢١ : ٣٤ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ) فلم يحتاج إلى ذكره ثانية . بل ذكره

يفسد الكلام . ومثله قوله ( ٣ : ١٤٤ أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ )  
وقوله ( ٢ : ٨٧ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ؟ ) وقوله  
( ٢ : ١٠٠ أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ؟ ) وهذا من فصيح الكلام  
وبليغه . واستشهدوا بقوله :

لعمرك لا أدري ، وإن كنت داريًا بسبع رمين الحجر ، أم بثمان ؟  
وقوله :

كذبتك عينك ، أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالاً ؟  
تقديره : أ كذبتك عينك ؟ .

وهذا لا حجة فيه . لأن قوله فيما يُعدّ « أم بثمان » و « أم رأيت » يدل  
على الألف المحذوفة في البيت الأول . وأما الثاني : فإن كانت « أم » هي المتصلة ،  
فكذلك . وإن كانت هي المنفصلة . فالخبر على بابه .

وهؤلاء مقصودهم : أن النفس لا تأثير لها في وجود السيئات . وليست سبباً  
فيها . بل قد يقولون : إن المعاصي علامة محضة على العقوبة ، لاقرانها بها . لا أنها  
سبب لها . وهذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف ، وللعقل .

والقرآن يبين في غير موضع : أن الله لم يهلك أحداً ولم يعذبه إلا بذنب .  
فقال هنا ( وما أصابك من سيئة فمن نفسك ) وقال لهم في شأن أحد ( ٣ : ١٦٥ )  
أو لما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها . قلتم : أئى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم )  
وقال تعالى ( ٤٢ : ٣٠ ) وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم . ويعفو عن  
كثير ) وقال تعالى في سورة الشورى أيضاً ( ٤٢ : ٤٨ ) وإن تصبهم سيئة بما قدمت  
أيديهم فإن الإنسان كفور ) وقال تعالى ( ١٠ : ٥٠ ) قل أرأيتم إن أتاكم عذابه  
بياتاً أو نهاراً . ماذا يستعجل منه المجرمون ؟ ) وقال تعالى ( ٣٦ : ٢٠٨ ، ٢٠٩ )  
وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى . وما كنا ظالمين ) وقال تعالى  
( ٢٨ : ٥٩ ) وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم

آياتنا . وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ) وقال تعالى ( ٣٠ : ٤١ ) ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ليزيقهم بعض الذي عملوا . لعلمهم يرجعون ) وقال تعالى ( ٣٢ : ٢١ ) ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر . لعلمهم يرجعون ) وقال تعالى ( ٤٢ : ٣٤ ) أو يؤيقنهم بما كسبوا . ويعفوا عن كثير ) وقال تعالى في سورة القلم عن أهل الجنة الذين ضرب بهم المثل لما أهلكها بذلك العذاب ( ٦٨ : ٣٣ ) وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ) وقال تعالى ( ٣ : ١١٧ ) مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح يهب فيه صرير أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته . وما ظلمهم الله . ولكن أنفسهم يظلمون ) وقال تعالى عن أهل سبأ ( ٣٤ : ١٦ ، ١٧ ) فأعرضوا فأرسلنا عليهم سليل العريم - إلى قوله - ذلك جزيناهم بما كفروا . وهل نجازي إلا الكفور ؟ ) وقال تعالى ( ١١ : ١٠٢ ) وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أخذهاليم شديد ) وقال تعالى ( ١٧ : ١٥ ) وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا )

وفي الحديث الصحيح الإلهي « يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً : فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك : فلا يلومن إلا نفسه » .

وفي سيد الاستغفار « أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي » وقال تعالى ( ٥٢ : ٤٧ ) وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك . ولكن أكثرهم لا يعلمون ) .  
والحمد لله وحده ، وصلى الله على عبد الله ورسوله محمد وآله وصحبه وسلم .  
ورضى الله عن الصحابة أجمعين ، وعن التابعين وتابعي التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

# الطلاق الثلاث

وما يترتب عليه

من درر

شيخ الإسلام ابن تيمية

رحمه الله وغفر لنا وله وللمؤمنين

---

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رضى الله عنه وأرضاه :  
هل يحل لمن طلق امرأته ثلاثاً أن يراجعها بدون نكاح زوج ثانٍ؟ وما هو  
هذا النكاح؟ وهل نكاح المحلل يعتبر في الشرع نكاحاً تحل به لزوجها الأول؟.  
أجاب رضى الله عنه :  
الحمد لله رب العالمين .

إذا وقع بالمرأة الطلاق الثلاث : فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره ،  
بالكتاب والسنة ، وإجماع الأمة . ولم يقل أحد من علماء المسلمين : إنها تباح بعد  
وقوع الطلاق الثلاث بدون زوج ثانٍ . ومن نقل هذا عن أحد منهم فقد كذب .  
ومن قال ذلك ، واستحل وطئها ، بعد وقوع الطلاق الثلاث بدون نكاح  
رغبة صحيح ، وزوج ثانٍ : فإن كان جاهلاً يعذر بجهله - مثل أن يكون قد نشأ  
في ناس ومكان لا يعرفون فيه شرائع الإسلام ، أو يكون حديث عهد بالإسلام ،  
ونحو ذلك - فإنه يُعرّف دين الإسلام . فإن أصرّ على القول بأنها تباح ، بعد وقوع  
الثلاث ، بدون نكاح ثانٍ ، وعلى استحلال هذا الفعل : فإنه يستتاب . فإن  
تاب ، وإلا قتل ، كأمثاله من المرتدين الذين يجحدون وجوب الواجبات ، وتحريم  
المحرمات ، وحل المباحات ، التي علم ضرورة : أنها من دين الإسلام . وثبت ذلك  
بنقل الأمة المتواتر عن نبيها عليه أفضل الصلاة والسلام . وظهر ذلك بين الخاص  
والعام . كمن يجحد وجوب مباني الإسلام : من الشهادتين ، والصلوات الخمس .  
وصيام شهر رمضان . وحج البيت الحرام . أو يجحد تحريم الظلم وأنواعه : كالربا ،  
والميسر . أو تحريم الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن . وما يدخل في ذلك : من  
تحريم نكاح الأقارب ، سوى بنات العمومة والخوالة . وتحريم المحرمات

بالمصاهرة . وهن أمهات النساء وبناتهن ، وحلائل الآباء والأبناء ، ونحو ذلك من الحرمات . أو حل الخبز واللحم ، والنكاح واللباس ، وغير ذلك مما علمت إباحته بالاضطرار من دين الإسلام .

فهذه المسائل لم يتنازع فيها المسلمون : لا سُئِيهِمْ ، ولا بِدَعِيهِمْ .  
ولكن تنازعوا في مسائل كثيرة من مسائل الطلاق والنكاح . وغير ذلك من الأحكام ، كتنازع الصحابة - والفقهاء بعدهم - في لفظة « الحرام » هل هي طلاق ، أو يمين ، أو غير ذلك ؟ .

وكتنازعهم في الكنايات الظاهرة : كَالْخَلِيَّةِ ، وَالْبَرِيَّةِ ، وَالْبَتَّةِ : هل يقع بها واحدة رجعية ، أو بائن ، أو ثلاث ، أو يفرق بين حال وحال ؟

وكتنازعهم في المُولَى : هل يقع بإيلائه الطلاق عند انقضاء المدة ، إذا لم ينفى فيها ، أم يوقف إلى ما بعد انقضائها ، حتى ينفى أو يطلق ؟

وكتنازع العلماء في طلاق السكران والمسكره . وفي الطلاق بالخط . وطلاق الصبي المميز . وطلاق الأب على ابنه . وطلاق الحكيم الذي هو من أهل الزوج بدون توكيله . كما تنازعوا في بذل أجر العوض في الخلع بدون توكيلها . وغير ذلك من المسائل التي يعرفها العلماء .

وتنازعوا أيضاً في مسائل تعليق الطلاق بالشرط . ومسائل الحلف بالطلاق والعتاق ، والظهار ، والحرام ، والنذر . كقوله : إن فعلت كذا فعلى الحج ، أو صوم شهر ، أو الصدقة بألف .

وتنازعوا أيضاً في كثير من مسائل الأيمان مطلقاً في موجب اليمين . وهذا كتنازعهم في تعليق الطلاق بالنكاح . هل يقع أو لا يقع ؟ أو يفرق بين العموم والخصوص ؟ أو بين ما يكون فيه مقصود شرعى ، أو ليس فيه ؟ وبين أن يقع في نوع ملك ، أو في غير ملك ؟

وتنازعوا في الطلاق المعلق بالشرط بعد النكاح : على ثلاثة أقوال .

ف قيل : يقع مطلقا . وقيل : لا يقع . وقيل : يفرق بين الشرط الذى يقصد وقوع الطلاق عند وجوده . وبين الشرط الذى يقصد عدمه وعدم الطلاق عنده . فالأول ، كقوله : إن أعطيتنى ألفاً فأنت طالق . والثانى كقوله : إن فعلت كذا فعبدى أحرار ، ونسأى طواق ، وعلى الحج .

وأما النذر المعلق بالشرط : فاتفقوا على أنه : إذا كان مقصوده وجود الشرط ، كقوله : إن شفى الله مريضى ، أو سلمّ مالى الغائب ، فعلى صوم شهر ، أو الصدقة بمائة : أنه يلزمه .

وتنازعوا فيما إذا لم يكن مقصوده وجود الشرط ، بل مقصوده عدم الشرط ، وهو حالف بالنذر . كما إذا قال : لا أسافر ، وإن سافرت فعلى الصوم ، أو الحج ، أو الصدقة ، أو على عتق رقبة ، ونحو ذلك : على ثلاثة أقوال .

فالصحابة وجمهور السلف : على أنه يجزئه كفارة يمين . وهو مذهب الشافعى وأحمد . وهو آخر الروایتين عن أبى حنيفة . وقول طائفة من المالكية ، كابن وهب ، وابن أبى العمر وغيرهما .

وهل يتعين ذلك ، أم يجزئه الوفاء ؟ على قولين فى مذهب الشافعى وأحمد .

وقيل : عليه الوفاء . كقول مالك ، وإحدى الروایتين عن أبى حنيفة . وحكاه بعض المتأخرين : قولاً للشافعى . ولا أصل له فى كلامه .

وقيل : لا شيء عليه بحال . كقول طائفة من التابعين . وهو قول داود وابن حزم .

وهكذا تنازعوا - على هذه الأقوال الثلاثة - فىمن حلف بالعتاق ، أو الطلاق : أن لا يفعل شيئاً . كقوله : إن فعلت كذا فعبدى حر ، أو امرأتى طالق . هل يقع ذلك إذا حنث ، أو تجزئه كفارة يمين ، أو لا شيء عليه ؟ على ثلاثة أقوال . ومنهم من فرّق بين الطلاق والعتاق .

واتفقوا على أنه إذا قال : إن فعلت كذا فعلى أن أطلق امرأتى : لا يقع به



الطلاق . بل ولا يجب عليه أن يفعله ، إذا لم يكن قربة . ولكن هل عليه كفارة يمين ؟ على قولين .

أحدهما : يجب عليه كفارة يمين . وهو مذهب أحمد في المشهور عنه . ومذهب أبي حنيفة فيما حكاه ابن المنذر ، والخطابي ، وابن عبد البر ، وغيرهم . وهو الذي وصل إلينا في كتب أصحابه .

وحكى القاضى أبو يعلى وغيره عنه : أنه لا كفارة فيه .  
والثانى : لا شيء عليه . وهو مذهب الشافعى .

### فصل

وأما إذا قال : إن فعلته فعليّ إذا عتق عبدى . فاتفقوا على أنه لا يقع العتق لمجرد الفعل . لكن يجب عليه العتق . وهو مذهب مالك ، وإحدى الروايتين عن أبي حنيفة .

وقيل : لا يجب عليه شيء . وهو قول طائفة من التابعين . وقول داود ، وابن حزم .

وقيل : عليه كفارة يمين . وهو قول الصحابة ، وجمهور التابعين . ومذهب الشافعى وأحمد . وهو مخير بين التكفير والإعتاق ، على المشهور عنهما .

وقيل : يجب التكفير عيناً .

ولم ينقل عن الصحابة شيء فى الحلف بالطلاق - فيما بلغنا ، بعد كثرة البحث وتتبع كتب المتقدمين والمتأخرين - بل المنقول عنهم : إما ضعيف - بل كذب من جهة النقل - وإما أن لا يكون فيه دليل على وقوع الحلف بالطلاق . فإن الناس لم يكونوا يحلفون بالطلاق فى عهدهم . ولكن نقل عن طائفة منهم فى الحلف بالعتق : أنه تجزئته كفارة يمين . كما إذا قال : إن فعلت كذا فعبدى حر .

وقد نقل عن بعض هؤلاء نقيض هذا القول ، وأنه يعتق .

وقد تكلمنا على أساسيد ذلك في غير هذا الموضوع .  
ومن قال من الصحابة والتابعين : إنه لا يقع العتق . فإنه لا يوقع الطلاق  
بطريق الأولى . كما صرح بذلك من صرح به من التابعين .  
وبعض العلماء : ظن أن الطلاق لانزاع فيه . فاضطره ذلك إلى أن عكس  
موجب الدليل . فقال : يقع الطلاق ، دون العتاق .  
وقد بسط الكلام على هذه المسائل - وبيّن ما فيها من مذاهب الصحابة  
والتابعين لهم بإحسان . والأئمة الأربعة ، وغيرهم من علماء المسلمين ، وحبّة كل  
قول - في غير هذا الموضوع .

وتنازع العلماء : فيما إذا حلف بالله ، أو بالطلاق ، أو بالظهار ، أو الحرام ،  
أو النذر : أنه لا يفعل شيئاً ، ففعله ناسياً ليمينه ، أو جاهلاً بأنه الحلوف عليه :  
فهل يحنث ؟ كقول أبي حنيفة ومالك ، وأحد القولين للشافعي ، وإحدى الروايات  
عن أحمد . أو لا يحنث بحال ؟ كقول المسكين : والقول الآخر للشافعي ، والرواية  
الثانية عن أحمد . أو يفرق بين اليمين بالطلاق والعتاق وغيرها ؟ كالرواية الثالثة  
عن أحمد . وهو اختيار القاضى والخرقى وغيرها من أصحاب أحمد . والفتال من  
أصحاب الشافعي .

وكذلك لو اعتقد : أن امرأته بانت بفعل الحلوف عليه . ثم تبين له : أنها لم  
تبين . ففيه قولان .

وكذلك إذا حلف بالطلاق ، أو غيره ، على شيء يعتقدده كما حلف عليه ،  
فتبين بخلافه . ففيه ثلاثة أقوال كما ذكر .

ولو حلف على شيء يشك فيه ، ثم تبين صدقه . ففيه قولان : عند مالك يقع .  
وعند الأكثرين لا يقع . وهو المشهور من مذهب أحمد . والمنصوص عنه في رواية  
حرب : التوقف في هذه المسألة . فيخرج على وجهين . كما إذا حلف ليفعلن اليوم  
كذا . ومضى اليوم ، وشك في فعله . هل يحنث ؟ على وجهين .

واتفقوا على أنه يرجع في اليمين إلى نية الخالف . إذا احتملها لفظه ، ولم يخالف الظاهر ، أو خالفه وكان مظلوما .

وتنازعوا : هل يرجع إلى سبب اليمين وبساطها وما يصحبها ؟ على قولين . فذهب المدنيين - كالكلا وأحمد وغيره - أنه يرجع إلى ذلك . والمعروف في مذهب أبي حنيفة والشافعي : أنه لا يرجع . لكن في مسائلهما ما يقتضى خلاف ذلك . وإن كان السبب أعم من اليمين : عمل به عند من يرى السبب . وإن كان خاصاً : فهل يقصر اليمين عليه ؟ فيه قولان في مذهب أحمد وغيره .

وإن حلف على معين يعتقد على صفة ، فتبين خلافها : ففيه أيضاً قولان . وكذلك لو طلق امرأته لصفة . ثم تبين بخلافها . مثل أن يقول : أنت طالق أن دخلت الدار - بالفتح - أى لأجل دخولك الدار ، ولم تكن دخلت : فهل يقع به الطلاق ؟ على قولين في مذهب أحمد وغيره . وكذلك إذا قال : أنت طالق لأنك فعلت كذا ، ونحو ذلك . ولم تكن فعلته .

ولو قيل له : امرأتك فعلت كذا . فقال : هي طالق . ثم تبين أنهم كذبوا عليها . ففيه قولان .

الطلاق في الحيض ، ولفظ « الثلاث » ولفظ « الحرام »

وتنازع الناس في الطلاق المحرم ، كالطلاق في الحيض . وكجمع الثلاث عند الجمهور الذين يقولون : إنها حرام . ولكن الأربعة وجمهور العلماء يقولون : كونه حراماً لا يمنع وقوعه . كما أن الظهار محرم ، وإذا ظاهر : ثبت عليه حكم الظهار . وكذلك النذر : قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عنه . ومع هذا يجب عليه الوفاء به بالنص والإجماع .

والذين قالوا : لا يقع ، اعتقدوا أن كل مانهى الله تعالى عنه فإنه يقع فاسداً . لا يترتب عليه حكمه .

والجمهور : فرقوا بين أن يكون الحكم نعمة لاتناسب فعل المحرم ، كحل الأموال ، والأبضاع ، وإجزاء العبادات . وبين أن يكون عقوبة تناسب فعل المحرم ، كالأيمان والتحرير . فإن المنهى عن شيء ، إذا فعله : قد يلزمه بفعله كفارة ، أو حدّ ، أو غير ذلك من العقوبات .

فكذلك قد ينهى عن فعل شيء . فإذا فعله : لزمه به واجبات ومحرمات . ولكن لا ينهى عن شيء إذا فعله : أحلت له - بسبب فعله المحرم - الطيبات ، فبرئت ذمته من الواجبات . فإن هذا من باب الإكرام والإحسان . والمحرمات لا تكون سبباً محضاً للإكرام والإحسان ، بل هي سبب للعقوبات ، إذا لم يعف الله تبارك وتعالى . كما قال تعالى ( ٤ : ١٦٠ ) فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ) وقال تعالى ( ٦ : ١٤٦ ) وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظُفْرٍ - إلى قوله تبارك وتعالى - ذلك جزيناهم بغيرهم ) .

وكذلك ما ذكره ربنا سبحانه وتعالى في قصة البقرة ، من كثرة لجأجتهم وتنطعهم في سؤالهم ، وتوقفهم عن امتثال أمره : فقد كان سبباً لزيادة التشديد عليهم فيما أوجب . ومنه قوله تعالى ( ٥ : ١٠١ ) لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ) .

وحديث النبي صلى الله عليه وسلم « إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً : من سأل عن شيء لم يحرم ، فحرم من أجل مسألته » .

ولما سأله عن الحج « أفي كل عام ؟ قال : لا . ولو قلت : نعم لوجب . ولو وجب لم تطيقوه . ذروني ، ما تركتكم . فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم . فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه . وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

ومن هنا قال طائفة من العلماء : إن الطلاق الثلاث حُرمت به المرأة ، عقوبة للرجل حتى لا يطلق هذا الطلاق . فإن الله يبغض الطلاق . وإنما تأمر به الشياطين

والسحرة ، كما قال تعالى في السحر ( ٢ : ١٠٢ ) فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ) وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الشيطان ينصب عرشه على البحر . ويبعث جنوده ، فأقربهم إليه منزلة : أعظمهم فتنة . فيأتى أحدهم ، فيقول : ما زلتُ به حتى شرب الخمر . فيقول : الساعة يتوب . ويأتى الآخر ، فيقول : ما زلتُ به حتى فعل كذا وكذا . فيقول : الساعة يتوب . ويأتى الآخر ، فيقول : ما زلتُ به حتى فرقت بينه وبين امرأته . فيقبله بين عينيه ، ويقول : أنتَ ، أنتَ ، أنتَ » .

### حكمة قصر الطلاق على ثلاث

وقد روى أهل التفسير والحديث والفقهاء : أنهم كانوا في أول الإسلام يطلقون بغير عدد . يطلق الرجل المرأة . ثم يدعها ، حتى إذا شارفت انقضاء العدة راجعها . ثم يطلقها ضراراً . فقصرهم الله على الطلقات الثلاث . فإن الثلاث أول حدِّ الكثرة ، وآخر حدِّ القلة .

ولولا أن الحاجة داعية إلى الطلاق : لكان الدليل يقتضى تحريره ، كما دلت عليه الآثار والأصول . ولكن الله تعالى أباحه رحمة منه بعباده ، لحاجتهم إليه أحياناً . وحرمه في مواضع باتفاق العلماء . كما إذا طلقها في الحيض ، ولم تكن سألته الطلاق . فإن هذا الطلاق حرام باتفاق العلماء . والله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بأفضل الشرائع ، وهي الخنيفية السمحة . كما قال صلى الله عليه وسلم « أحب الدين إلى الله : الخنيفية السمحة » فأباح لعباده المؤمنين الوطء بالنكاح والوطء بملك اليمين .

واليهود والنصارى : لا يطاقون إلا بالنكاح . لا يطاقون بملك اليمين . وأصل ابتداء الرق : إنما يقع من السبي والغنائم . والغنائم لم تحل إلا للأمة محمد صلى الله عليه وسلم . كما ثبت في الحديث الصحيح : أنه قال « فَضَّلْنَا عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِمَخْسٍ : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة . وجعلت لى الأرض مسجداً

وطهورا . وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد كان قبلنا . وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى الناس عامة . وأُعطيَت الشفاعة .

فأباح الله سبحانه للمؤمنين أن ينكحوا ، وأن يطلقوا ، وأن يتزوجوا المرأة المطلقة ، بعد أن تزوج بغير زوجها .

والنصارى يحرمون النكاح على بعضهم . ومن أباحوا له النكاح : لم يبيحوا له الطلاق .

واليهود يبيحون الطلاق . لكن إذا تزوجت المطلقة بغير زوجها : حرمت عليه عندهم .

والنصارى لا طلاق عندهم . واليهود لا مُراجعة عندهم ، بعد أن تزوج غيره . والله تعالى أباح للمؤمن هذا وهذا .

ولو أبيع الطلاق بغير عدد - كما كان في أول الأمر - كان الناس يطلقون دائماً ، إذ لم يكن أمر يزرهم عن الطلاق : ففي ذلك من الضرر والفساد ما أوجب تحريم ذلك .

ولم يكن فساد الطلاق لمجرد حق المرأة فقط ، كالطلاق في الحيض ، حتى يباح دائماً بسؤالها . بل نفس الطلاق ، إذ لم تدع إليه الحاجة : منهي عنه باتفاق العلماء ، إما نهى تحريم ، وإما نهى تنزيه .

وما كان مباحاً للحاجة : يقدر بقدر الحاجة . والثلاث : هي مقدار ما أبيع للحاجة . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يخل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال . يلتقيان ، فيعرض هذا ، ويعرض هذا . وخيرهما الذي يبدأ بالسلام . »

وكما قال « لا يخل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر : أن تُحدّ على ميت فوق ثلاث ، إلا على زوج . فإنها تُحدّ عليه أربعة أشهر وعشرا . »

وكما رخص للمهاجر : أن يقيم بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثاً .

وهذه الأحاديث في الصحيح . وهذا مما احتج به من لا يرى وقوع الطلاق

الإمع القصد . ولا يرى وقوع طلاق المكره . كما لا يكفر من تكلم بكلمة من الكفر مكرهاً ، بالنص والإجماع . ولو تكلم بالكفر مستهزئاً بآيات الله . وبالله ورسوله : كفر . كذلك من تكلم بالطلاق هازلاً : وقع به <sup>(١)</sup> .

ولو حلف بالكفر ، فقال : إن فعل كذا فهو بريء من الله ورسوله . أو فهو يهودى أو نصرانى : لم يكفر بفعل المحلوف عليه ، وإن كان هذا حكماً معلقاً بشرط في اللفظ . لأن مقصوده الحلف به ، بغضاً له ونفوراً عنه . لا إرادة له . بخلاف من قال : إن أعطيتموني ألفاً كفرت . فإن هذا يكفر .

وهكذا يقول من يفرق بين الحلف بالطلاق وتعليقه بشرط لا يقصد وجوده . وبين الطلاق المقصود عند وقوع الشرط .

### هل الخلع فسخ أو طلاق ؟

ولهذا ذهب كثير من السلف والخلف إلى أن الخلع فسخ للنكاح . وليس هو من الطلقات الثلاث . كقول ابن عباس . والشافعى وأحمد ، فى أحد قوليهما . لأن المرأة افتدت نفسها من الزوج ، كافتداء الأسير . ليس هو من الطلاق المكره فى الأصل . ولهذا يباح فى الحيض ، بخلاف الطلاق .

وأما إذا عدل هو عن الخلع ، وطلقها إحدى الثلاث بعوض : فالتفريط منه . وذهب طائفة من السلف - كعثمان بن عفان وغيره - إلى أنه لا يجب فى الخلع عدة إلا استبرأؤها . وهو مذهب إسحاق وغيره . ورووا فى ذلك حديثاً مرفوعاً . وبعض المتأخرين من أصحاب الشافعى وأحمد : جعلوه مع الأجنبية فسخاً كالإقالة . والصواب : أنه مع الأجنبية كما هو مع المرأة . فإنه إذا كان افتداءً للمرأة ، كما يفدى الأسير ، فقد يفدى الأسير بمال منه وبمال من غيره . وكذلك العبد

---

(١) لاسواء . فإنما كفر لاتخاذ آيات الله هزواً . وإذا هزل أو سخر بقول لا يقصده ولا يخطر له معناه على بال . فما بال الزوجة والأولاد والزوجة التى لا غبار عليها تفصم عراها ؟ وهل ما يروى فى هذا من القوة والثبوت بحيث يقوى على فصمها ؟ !

يعتق بمال يبذله هو ، وبمال يبذله الأجنبي . وكذلك الصلح يصح مع المدعى عليه ، ومع أجنبي . فإن هذا جميعه من باب الإسقاط والإزالة .  
وإذا كان الخلع رفعاً للنكاح ، وليس هو من الطلاق الثلاث : فلا فرق بين أن يكون المال المبذول من المرأة ، أو من أجنبي .

وتشبيه فسخ النكاح بفسخ البيع : فيه نظر . فإن البيع لا يزول إلا برضى المتبايعين . لا يستقل أحدهما بإزالته ، بخلاف النكاح . فإن المرأة ليس لها إزالته . بل الزوج يستقل بذلك . لكن افتداؤها نفسها منه كافتداء الأجنبي لها .  
ومسائل الطلاق ، وما فيها من الإجماع والنزاع : مبسوطة في غير هذا الموضوع .

\* \* \*

والمقصود هنا : أنه إذا وقع به الثلاث : حرمت عليه المرأة بإجماع المسلمين . كما دل عليه الكتاب والسنة . ولا تباح له إلا بنكاح ثانٍ مقصود به قصد النكاح الأول ، وبوطئه لها ، عند عامة السلف والخلف . فإن النكاح المأمور به : يؤمر فيه بالعقد وبالوطء ، بخلاف المنهى عنه . فإنه نهى فيه عن كلٍّ من العقد والوطء . ولهذا كان النكاح الواجب والمستحب : يؤمر فيه بالوطء مع العقد . والنكاح المحرم : يحرم فيه مجرد العقد .

وقد ثبت في الصحيح « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لامرأة رفاة القرظى - لما أرادت أن ترجع إلى رفاة بدون الوطاء - لا ، حتى تذوق عسيلته ، ويذوق عسيلتك » .

وليس في هذا خلاف إلا عن سعيد بن المسيب ، فإنه - مع أنه أعلم التابعين - لم تبلغه السنة في هذه المسألة .

والنكاح المبيح : هو النكاح المعروف عند المسلمين . وهو النكاح الذي جعل الله فيه بين الزوجين سكونا ومودة ورحمة . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه « حتى تذوق عسيلته ، ويذوق عسيلتك » .



فأما نكاح المحلل : فإنه لا يحلها للأول عند جماهير السلف .  
وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لعن الله المحلل والمحلل له »  
وقال عمر بن الخطاب « لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتها » .  
وكذلك قال عثمان ، وعلي ، وابن عباس ، وابن عمر رضى الله عنهم وغيرهم  
« إنه لا يبيحها إلا نكاح رغبة ، لا نكاح تحليل » ولم يُعرف عن أحد من  
الصحابة : أنه رخص في نكاح التحليل .  
ولكن تنازعوا في نكاح «المتعة» فإن نكاح المتعة خير من نكاح التحليل  
من ثلاثة أوجه .

أحدها : أنه كان مباحاً في أول الإسلام ، بخلاف التحليل .  
الثاني : أنه رخص فيه ابن عباس ، وطائفة من السلف ، بخلاف التحليل .  
فإنه لم يرخص فيه أحد من الصحابة .

الثالث : أن الممتع له رغبة في المرأة ، وللرأة رغبة فيه إلى أجل . بخلاف  
المحلل . فإن المرأة ليس لها رغبة فيه بحال . وهو ليس له رغبة فيها كذلك . بل  
رغبته في أخذ ما يُعطاه . وإن كان له رغبة : فهي من رغبته في الوطاء ، وقضاء  
الشهوة فقط ، لا في اتخاذها زوجةً . فهي رغبة من جنس رغبة الزاني . ولهذا قال  
ابن عمر « لا يزالان زانيين ، وإن مكثا عشرين سنة . إذا الله علم من قلبه : أنه  
يريد أن يحلها له » ولهذا انعدمت فيه خصائص النكاح . فإن النكاح المعروف :  
كما قال الله تعالى ( ٣٠ : ٢١ ) ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا  
إليها . وجعل بينكم مودةً ورحمةً ) والتحليل فيه : البغضة والنفرة ولهذا لا يظهره  
أصحابه . بل يكتمونونه ما استطاعوا كما يُكتم السِّفاح .

ومن شعائر النكاح : إعلانه . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « أعلنوا  
النكاح ، واضربوا عليه بالدف » ولهذا يكفي في إعلانه : الشهادة عليه . عند طائفة  
من العلماء . وطائفة أخرى : توجب الإشهاد والإعلان . فإذا تواصلوا بكتانه : بطل  
٢٠ - مجموعة

ومن ذلك : الوليمة عليه ، والنثار ، والطيب ، والشراب . ونحو ذلك مما جرت به عادة الناس في النكاح .

وأما التحليل : فإنه لا يفعل فيه شيء من هذا . لأن أهله لم يريدوا أن يكون المحلل زوج المرأة . ولا أن تكون المرأة زوجه . وإنما المقصود عندهم : استعارته لينزو عليها . كما جاء في الحديث المرفوع : تسميته « بالتيس المستعار » ولهذا شبه بحمار العشرين ، الذي يكثرى للتفيز على الإناث . ولهذا لا تبقى المرأة مع زوجها إذا عادت إليه بعد التحليل كما كانت قبله . بل لا بد أن يحصل بينهما نوع من النفرة . ولهذا لم يكن في التحليل مقصود صحيح يأمر به الشارع . وصار الشيطان يشبه فيه بأشياء مخالفة للاجماع ، بل للفطرة .

فصار طائفة من عامة الناس : يظنون أن ولادتها لذكر يحلها ، أو أن وطئها بالرَّجُل على قدمها ، أو رأسها ، أو فوق سقف ، أو سُمِّ هي تحته : يحلها . ومنهم : من يظن أنهما إذا التقيا بعرفات ، كما التقى آدم وامرأته : أحلها ذلك ومنهن : من إذا تزوجت بالمحلل : لم تمكنه من نفسها . بل تمكنه من أمة لها .

ومنهن : من تعطيه شيئاً ، وتوصيه بأن يقرَّ بوطئها . ومنهم : من يحلل الأم وبناتها . إلى أمور آخر ، قد بسطت في غير هذا الموضوع بينها في كتاب « بيان الدليل على بطلان التحليل » .

ولا ريب : أن المنسوخ من الشريعة ، وما تنازع فيه السلف : خير من مثل هذا . فإنه لو قدر أن الشريعة تأتي بأن الطلاق لا عدد له : لكان هذا ممكناً . وإن كان هذا منسوخاً .

وأما إن يقال : إن من طلق امرأته : فإنها لا تحل له حتى يستكبرى أو تستكبرى هي من يطؤها ، فهذا لا تأتي به شريعة . وكثير من أهل التحليل يفعلون أشياء محرمة باتفاق المسلمين . فإن المرأة المعتدة :

لا يحل لغير زوجها أن يصرّح بخطبتها . سواء كانت معتدة من عدة طلاق ، أو عدة وفاة . قال تعالى ( ٢ : ٢٣٥ ) ولا جناح عليكم فيما عرّضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم . علم الله أنكم ستذكروهن . ولكن لا تواعدوهن سراً ، إلا أن تقولوا قولاً معروفاً . ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ) .

فهى الله سبحانه وتعالى عن المواعدة سراً ، وعن عزم عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله . وإذا كان هذا في عدة الموت : فهو في عدة الطلاق أشد باتفاق المسلمين . فإن المطلقة قد ترجع إلى زوجها بخلاف من مات عنها . وأما التعريض : فإنه يجوز في عدة التوفى عنها ، ولا يجوز في عدة المطلقة الرجعية . وفيما سواهما نزاع .

فهذه المطلقة ثلاثاً : لا تحل لأحد أن يواعدها سراً ، ولا يعزم عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله باتفاق المسلمين .

وإذا تزوجت بزواج ثان ، وطلقها ثلاثاً : لم يحل للأول أن يواعدها سراً . ولا يعزم عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ، باتفاق المسلمين . وذلك أشد وأشد . وإذا كانت مع زوجها : لم يحل لأحد أن يخطبها ، لا تصريحاً ولا تعريضاً باتفاق المسلمين . فإذا كانت لم تزوج بعد : لم يحل للمطلق ثلاثاً أن يخطبها ، لا تصريحاً ولا تعريضاً باتفاق المسلمين .

وخطبتها في هذه الحال : أعظم من خطبتها بعد أن تزوج بالثاني . وهو أن أهل التحليل : قد يواعد أحدهم المطلقة ثلاثاً ويعزمان - قبل أن تنقض عتها . وقبل نكاح الثاني - على عقدة النكاح ، بعد النكاح الثاني - نكاح المحلل - ويعطيها ما تنفقه على شهود عقد التحليل والمحلل . وما تنفقه على نفسها عليها في عدة التحليل . والزوج المحلل لا يعطيها مهراً ولا نفقة عدة ولا متعة طلاق .

فإن كان المسلمون متفقين على أنه لا يجوز في عدة نكاحها بالثاني : أن يخطبها الأول ، لا تصریحاً ولا تعريضاً . فكيف إذا خطبها قبل أن تزوج بالثاني ؟ .  
وإذا كان بعد أن يطلقها الثاني : لا يحل للأول أن يواعدها سرّاً ، ولا أن يعزم عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله . فكيف إذا فعل ذلك من قبل أن تطلق ؟ بل قبل أن تزوج ؟ بل قبل أن تنقضي عدتها منه ؟

فهذا كله : يحرم باتفاق المسلمين . وكثير من أهل التحليل يفعله .  
وليس في التحليل صورة اتفق المسلمون على حلها . ولا صورة أباحها النص .  
بل من صور التحليل : ما أجمع المسلمون على تحريمه .  
ومنها ما تنازع فيه العلماء .

وأما الصحابة : فلم يثبت عن أحد منهم : أنه أباح شيئاً من صور التحليل .  
وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه « لعن المحلل والمحلل له » .  
وهذا - وغيره - يبين : أن من التحليل ما هو شر من نكاح المتعة وغيره من الأُنكحة التي تنازع فيها السلف .

وعلى كل حال : فالصحابة أفضل هذه الأمة ، وبعدهم التابعون ، كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « خير القرون : القرن الذي بعثت فيهم . ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

فنكاح : تنازع السلف في جوازه : أقرب من نكاح أجمع السلف على تحريمه . وإن تنازع فيه الخلف . فإن أولئك أعظم علماً وديناً .

وما اشتبه على بعضهم تحريمه : كان أمره أحق مما اتفقوا على تحريمه . وإن اشتبه تحريمه على من بعدهم . والله تعالى أعلم .

والحمد لله رب العالمين ، وصلواته وسلامه على محمد وآله أجمعين .

شرع الإسلام في

# الفرق بين الطلاق الحلال والمحرام

من درر

شيخ الإسلام ابن تيمية

رحمه الله وغفر لنا وله وللمؤمنين

٦٦١ - ٧٢٨

---

---

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وما توفيقى إلا بالله

قال الشيخ الإمام العالم العلامة ، شيخ الإسلام تقي الدين : أحمد بن تيمية  
رضى الله عنه وأرضاه . وجعل الجنة مثقله ومثواه :

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن  
سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادي له . ونشهد أن  
لا إله إلا الله وحده لا شريك له . ونشهد أن محمداً عبده ورسوله . صلى الله عليه  
وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً .  
أما بعد ، فهذا :

### فصل

مختصر فيما يحل من الطلاق وما يحرم . وهل يلزم الطلاق المحرم ، أو لا يلزم ؟ .  
فنقول : الطلاق منه ما هو محرم بالكتاب والسنة والإجماع .  
ومنه ما ليس بمحرم .

فالطلاق المباح باتفاق العلماء : أن يطلق الرجل امرأته طلقة واحدة ، إذا  
طهرت من حیضها ، بعد أن تغتسل ، وقبل أن يطأها . ثم يدعها ، فلا يطلقها حتى  
تنقضي عدتها . وهذا الطلاق : يسمى طلاق السنة . فإن أراد أن يرجعها في العدة  
فله ذلك بدون رضاها ، ولأرضى وليها ، وبلامهر جديد . وإن تركها حتى تنقضي  
العدة : فعليه أن يسرحها بإحسان . فقد بانث منه .

فإن أراد أن يتزوجها ، بعد انقضاء العدة : جاز له ذلك ، لكن لا بد أن يكون  
بعقد جديد ، كما تزوجها ابتداءً ، أو يتزوجها غيره .

ثم إذا ارتجعها في العدة ، أو تزوجها بعد العدة ، وأراد أن يطلقها : فإنه  
يطلقها كما تقدم .

ثم إذا ارتجعا ، أو تزوجها مرة ثانية ، وأراد أن يطلقها : فإنه يطلقها كما تقدم .  
فإذا طلقها الطلقة الثالثة : حرمت عليه حتى تنكح زوجاً غيره ، كما حرم الله  
ذلك ورسوله . فحينئذ لا يباح له أن يتزوجها ويعقد عليها إلا عقد النكاح  
المعروف ، الذى يفعله الناس إذا كان الرجل راغباً فى نكاح المرأة ليعاشرها ،  
لا لأجل أن يفارقها .

وأما إن تزوجها بقصد أن يحلها لغيره : فإنه محرم عند أكثر العلماء ، كما نقل  
عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وغيرهم ، كما دل على ذلك النصوص النبوية  
والأدلة الشرعية .

ومن العلماء من رخص فى ذلك ، كما قد بين ذلك فى غير هذا الموضع .  
وإن كانت المرأة ممن لا تحيض ، لصغرها ، أو كبرها : فإنه يطلقها متى شاء .  
وسواء كان وطئها أو لم يكن وطئها . فإن هذه عدتها ثلاثة أشهر . ففى أى وقت  
طلقها فقد طلقها لعدتها . فإنها لا تعتد بقروء ولا بحمل .

لكن من العلماء من يسمى ذلك « طلاق سنة » ومنهم من لا يسميه طلاق  
سنة ولا بدعة .

وإن طلقها فى الحيض ، أو طلقها بعد أن يطأها ، وقبل أن يتبين حملها :  
فهذا الطلاق محرم . ويسمى « طلاق البدعة » وهو حرام بالكتاب والسنة والإجماع .  
وإن كان قد تبين حملها ، وأراد أن يطلقها : فله أن يطلقها . وهل يسمى هذا  
« طلاق سنة » أو لا يسمى طلاق سنة ولا بدعة ؟ فيه نزاع لفظى .

وهذا الطلاق المحرم فى الحيض ، وبعد الوطء ، وقبل تبين الحمل : هل يقع  
أو لا يقع ؟ سواء كانت واحدة ، أو ثلاثاً ؟ فيه قولان معروفان للسلف والخلف .  
وإن طلقها ثلاثاً فى طهر واحد بكلمة أو كلمات ، مثل أن يقول : أنت  
طالق ثلاثاً ، أو طالق وطاق وطاق ، أو أنت طالق ثم طالق ثم طالق ، أو  
يقول : عشر تطليقات ، أو مائة طلقة ، أو ألف طلقة ، ونحو ذلك من العبارات .

فهذا للعلماء - من السلف والخلف - فيه ثلاثة أقوال ، سواء كانت مدخولا  
بها أو غير مدخول بها .

ومن السلف من قرّق بين المدخول بها وغير المدخول بها .

وفيه قول رابع محدث مبتدع .

أحد الأقوال : أنه طلاق مباح لازم . وهو قول الشافعي وأحمد في الرواية  
القديمية عنه . اختارها الخرقى .

والثاني : أنه طلاق محرم . وهو قول مالك وأبي حنيفة ، وأحمد في الرواية  
المتأخرة . اختارها أكثر أصحابه .

وهذا القول منقول عن كثير من السلف من الصحابة والتابعين . والذي قبله  
منقول عن بعضهم .

والثالث : أنه محرم . ولا يلزم منه إلا طلاق واحدة . وهذا القول منقول عن  
طائفة من السلف والخلف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثل الزبير  
ابن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف . ويروى عن علي ، وابن مسعود ، وابن عباس  
رضى الله عنهم القولان . وهو قول داود وأكثر أصحابه . ويروى ذلك عن  
أبي جعفر محمد بن علي بن حسين ، وابنه جعفر بن محمد . ولهذا ذهب إلى ذلك من  
ذهب من الشيعة . وهو قول بعض أصحاب أبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل .  
وأما القول الرابع - وهو المحدث المبتدع ، الذي قاله بعض المعتزلة والشيعة -  
ولا يعرف عن أحد من السلف : فهو أنه لا يلزمه شيء .

الطلاق المشروع : هو الرجعى

والقول الثالث : هو الذى يدل عليه الكتاب والسنة . فإن كل طلاق شرعه  
الله في القرآن لمدخول بها : إنما هو الطلاق الرجعى . لم يشرع الله لأحد أن  
يطلق الثلاث جميعاً . ولا شرع له أن يطلق المدخول بها طلاقاً بائناً .

لكن إذا طلقها قبل الدخول بها بانت منه . فإذا انقضت عدتها بانت منه .



فالطلاق ثلاثة أنواع : باتفاق المسلمين .

الطلاق الرجعى . وهو الذى يمكن للزوج أن يرجعها فيه بغير اختيارها . وإذا مات أحدهما فى العدة ورثه الآخر .

والطلاق البائن : وهو ما يبقى المطلق فيه خاطباً من الخطاب . لا تباح له إلا

بعقد جديد .

والطلاق المحرم لها : لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره . وهو ما إذا طلقها ثلاث تطليقات متفرقات ، كما أذن الله ورسوله . وهو أن يطلقها ، ثم يراجعها فى العدة ، أو يتزوجها ثم يطلقها ثم يرجعها . أو يتزوجها . ثم يطلقها الطلقة الثالثة . فهذا الطلاق المحرم لها ، حتى تنكح زوجاً غيره باتفاق العلماء .

وليس فى كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم طلاق بائن يحسب من الثلاث .

### الخلع فسخ لا طلاق

ولهذا كان مذهب فقهاء الحديث - كالإمام أحمد فى ظاهر مذهبه ، والشافعى فى أحد قوليه ، وإسحق بن راهويه ، وأبى ثور ، وابن المنذر ، وداود ، وغيرهم - : أن الخلع فسخ للنكاح ، وفرقه بائنة بين الزوجين . لا يحسب من الثلاث . وهذا هو الثابت عن الصحابة رضى الله عنهم كابن عباس . ولذلك ثبت عن عثمان بن عفان ، وابن عباس وغيرهما : أن المختلعة ليس عليها أن تعتد بثلاثة قروء . إنما عليها الاستبراء بحیضة .

وهو قول إسحق بن راهويه وابن المنذر . وهو إحدى الروايتين عن أحمد . وروى فى ذلك أحاديث معروفة فى السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم يصدق بعضها بعضاً . وتبين أن ذلك ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد روى عن طائفة من الصحابة رضى الله عنهم : أنهم جعلوا الخلع طلاقاً .

لكن ضعف أئمة الحديث - كالإمام أحمد بن حنبل ، وابن خزيمة ، وابن المنذر ، والبيهقي ، وغيرهم - ماروى في ذلك عنهم .

### فصل

والخلع : أن تبذل المرأة عوضاً لزوجها ليفارقها . قال الله تعالى ( ٢ : ٢٢٧-٢٣١ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء . ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ، إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر . وبعولتهن أحق بردهن في ذلك ، إن أرادوا إصلاحاً . ولنهن مثل الذى عليهن بالمعروف . وللرجال عليهن درجة . والله عزيز حكيم . الطلاق مرتان . فإمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان . ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله . فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله : فلا جناح عليهما فيما افتدت به . تلك حدود الله . فلا تعتدوها . ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون . فإن طلبها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره . فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا . إن ظنا أن يقيما حدود الله . وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون . وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف . أو سرحوهن بمعروف . ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا . ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه . ولا تتخذوا آيات الله هزواً . واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به . واتقوا الله . واعلموا أن الله بكل شىء عليم ) .

فبين الله سبحانه أن المطلقة بعد الدخول تربص ، أى تنتظر ثلاثة قروء . و«القرء» عند أكثر الصحابة - كعثمان ، وعلى ، وابن مسعود ، وأبي موسى ، وغيرهم - الحيض . ولا تزال في العدة حتى تنقضى الحيضة الثالثة . وهذا مذهب أبي حنيفة وأحمد في أشهر الروايتين عنه . وذهب ابن عمر وعائشة وغيرهما : إلى أن العدة تنقضى بطعنها في الحيضة الثالثة . وهو مذهب مالك والشافعى .

فأما المطلقة قبل الدخول : فيقول الله تعالى فيها ( ٣٣ : ٤٩ يا أيها الذين

آمنوا إذا نسكحتم المؤمنات . ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، فالكم عليهن من عِدَّةٍ تعتدونها . فتمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً ) .

ثم قال « وبعولتهن أحق بردهن في ذلك » أى في ذلك التربص .

ثم قال « الطلاق مرتان » فبين أن الطلاق الذى ذكره ، وهو الطلاق الرجعى الذى يكون فيه الزوج أحق بردها : هو مرتان ، مرة بعد مرة ، كما إذا قيل للرجل : سبح مرتين ، أو سبح ثلاث مرات ، أو مائة مرة . فلا بد أن يقول : سبحان الله ، سبحان الله . حتى يستوفى العدد . فلو أراد أن يُجمل ذلك ، فيقول « سبحان الله » ويقول « مرتين » أو « مائة مرة » لم يكن قد سبح إلا مرة واحدة . والله تعالى لم يقل : الطلاق طلقتان . بل قال « مرتان » فإذا قال الرجل لامرأته : أنت طالق ثلاثين ، أو ثلاثاً ، أو عشرأ ، أو ألفاً . لم يكن قد طلقها إلا مرة واحدة .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم لأُم المؤمنين جويرية رضى الله عنها « لقد قلتُ بعدك أربعَ كلمات ، لو وزنتُ بما قُلْتِيه لوزتتهن : سبحان الله عدد خلقه . سبحان الله زينةَ عرشه . سبحان الله رضى نفسه . سبحان الله مداد كلماته » معناه : أن الله سبحانه يستحق التسبيح بعدده . وذلك : كقوله صلى الله عليه وسلم « اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شىء بعد » ليس المراد : أنه يسبح تسبيحاً بقدر ذلك .

فالمقدار : تارة يكون وصفاً لفعل العبد ، وفعله محصور . وتارة يكون لما يستحقه الرب سبحانه . فذاك الذى يعظم قدره . وإلا فلو قال المصلى فى صلاته « سبحان الله عدد خلقه » لم يكن قد سبح إلا مرة واحدة .

ولمّا شرع النبي صلى الله عليه وسلم للمصلى : أن يسبح دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، ويمجد ثلاثاً وثلاثين ، ويكبر ثلاثاً وثلاثين . فلو قال « سبحان الله والحمد لله والله أكبر عدد خلقه » لم يكن قد سبح إلا مرة واحدة .

ولا نعرف أحداً طلق على عهد النبي صلى الله عليه وسلم امرأته ثلاثاً بكلمة واحدة فألزمه النبي صلى الله عليه وسلم بالثلاث . ولا روى في ذلك حديث صحيح ولا حسن . ولا نقل أهل الكتب المعتمد عليها في ذلك شيئاً . بل رويت في ذلك أحاديث كلها ضعيفة باتفاق علماء الحديث ، بل موضوعة . بل الذي ثبت في صحيح مسلم وغيره - من السنن والمسانيد - عن طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال « كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر : طلاق الثلاث واحدة . فقال عمر رضي الله عنه : إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة . فلو أمضيناه عليهم؟! فأمضاه عليهم » .

وفي رواية لمسلم وغيره عن طاوس أن أبا الصهباء قال لابن عباس « أتعلم أنما كانت الثلاث تجعل واحدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر ، وثلاثاً من إمارة عمر؟ فقال ابن عباس : نعم » .

وفي رواية : أن أبا الصهباء ، قال لابن عباس « هات من هَنَاتِكَ . ألم يكن الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر واحدة؟ قال : قد كان ذلك . فلما كان في زمن عمر : تتابع الناس في الطلاق . فأجازه عليهم » وروى الإمام أحمد في مسنده : حدثنا سعيد بن إبراهيم حدثنا أبي عن محمد بن إسحاق حدثني داود بن الحصين عن عكرمة مولى ابن عباس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال « طلق رُكَّانَةُ بن عبد يزيد - أخو بني المطلب - امرأته ثلاثاً في مجلس واحد . فحزن عليها حزناً شديداً . قال فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف طلقتها؟ قال : طلقتها ثلاثاً . قال فقال : في مجلس واحد؟ قال : نعم . قال : فإنما تلك واحدة . فأرجعها إن شئت . قال : فارجعها » فكان ابن عباس يرى أن الطلاق عند كل طهر . وقد أخرجه أبو عبد الله الضياء المقدسي في كتابه « المختارة » الذي هو أصح من صحيح الحاكم . وهكذا روى أبو داود وغيره من حديث ابن جريح عن بعض ولد أبي رافع عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما

وهذا موافق لما رواه طاووس عن ابن عباس .  
وعكرمة أعلم الناس بابن عباس . فإن عكرمة كان مولاه وصاحباً له . وكان  
طاووس خاصاً عند ابن عباس ، يجتمع به مع خاصة ابن عباس ، لتعظيم ابن عباس  
له . وعطاء وغيره - من أصحابه - كانوا يجتمعون به مع العامة . ولهذا كان طاووس ،  
وعكرمة : يفتيان بأن الثلاث واحدة . وكذلك ابن إسحاق لما روى هذا الحديث  
أخذ به لصحته عنده . وكان يقول : رجل جهل السنة فرد إليها .  
وقول النبي صلى الله عليه وسلم لركانة « في مجلس واحد ؟ قال : نعم » يتناول  
ما إذا طلقها بكلمة واحدة ، أو كلمات متفرقات في مجلس واحد . فإنه لم يقل :  
بكلمة أو كلمات .

وهذا مما لا أعرف فيه نزاعاً بين العلماء . فإن الأصل : أن جمع الثلاث في  
الطهر الواحد محرّم عند الجمهور . فليس له أن يردف الطلاق الطلاق .  
ولكن تنازع هؤلاء : هل له أن يطلقها واحدة ثانية في الطهر الثاني ،  
وثالثة في الطهر الثالث من غير رجعة ؟ على قولين . هما روايتان عن أحمد .  
إحداها : له ذلك . وهو قول أبي حنيفة .  
والثانية : ليس له ذلك . وهو مذهب مالك ، وظاهر مذهب أحمد المشهور  
عنه . وعليه أكثر الأصحاب .

وذلك : أن الله أمر المطلق - إذا بلغت المطلقة أجلها - أن يمسكها بمعروف ،  
أو يسرحها بإحسان . فلم يجعل له قسماً ثالثاً يفعله ، وطلاقه مرة بائنة : ليس  
إمساكاً لها بمعروف ، أو تسريحاً بإحسان . فإن التسريح بالإحسان : هو أن  
يسببها إذا انقضت العدة . فلا يحبسها .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم لركانة « في مجلس واحد ؟ » مفهومه : أنه لو  
لم يكن في مجلس واحد ، لم يكن الأمر كذلك . وذلك : لأنها لو كانت في مجالس  
لأمكن في العادة : أن يكون قد ارتجعها . فإنها عنده . والطلاق بعد الرجعة يقع .

والمفهوم لا عموم له في جانب المسكوت عنه . بل قد يكون فيه تفصيل ،  
كقوله « إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث » أو لم « ينجسه شيء » وهو إذا بلغ  
قلتین فقد يحمل الخبث ، وقد لا يحمله .

وقوله « في الإبل السائمة : الزكاة » وهي إذا لم تكن سائمة قد تكون فيها  
الزكاة ، زكاة التجارة . وقد لا يكون فيها .

وكذلك قوله « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً ، غفر له ما تقدم من ذنبه »  
فان من لم يقمها فقد يغفر له بسبب آخر .

وكقوله « من صام رمضان إيماناً واحتساباً . غفر له ما تقدم من ذنبه » .  
وقوله تعالى ( ٢ : ٢١٨ ) إلا الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله . أولئك  
يرجون رحمة الله ) ومن لم يكن كذلك فقد يعمل عملاً آخر . يرجو به رحمة الله  
مع الإيمان . وقد لا يكون كذلك .

فلو كان في مجالس : فقد يكون له فيها رجعة . وقد لا يكون كذلك ،  
بخلاف المجلس الواحد ، الذي جرت عادة صاحبه بأن لا يراجعها فيه . فإن له فيه  
الرجعة . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم . فإنه قال « ارجعها إن شئت » لم يقل -  
كما قال في حديث ابن عمر « مره فليراجعها » فأمره بالمراجعة . والرجعة : يستقل  
بها الزوج . بخلاف المراجعة .

وقد روى أبو داود وغيره « أن ركانة طلق امرأته ألبتة ، فقال له النبي  
صلى الله عليه وسلم : ما أردت بها إلا واحدة ؟ فقال : والله ما أردتُ بها إلا واحدة .  
فردها إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم » وأبو داود : لما لم يرو في سننه الحديث  
الذي في مسند أحمد . قال : حديث « ألبتة » أصح من حديث ابن جريج « أن  
ركانة طلق امرأته ثلاثاً » لأن أهل بيته أعلم .

لكن الأئمة الأكابر ، العارفون بعلم الحديث والتفقه - كالإمام أحمد بن  
حنبل ، والبخاري ، وغيرهما ، وأبي عبيد ، وأبي محمد بن حزم ، وغيره - ضعفوا

حديث « ألبتة » و بينوا أن رواته قوم مجاهيل . لم تعرف عدالتهم ولا ضبطهم ، وأحمد أثبت حديث « الثلاث » و بين : أنه الصواب . مثل قوله : حديث ركانة لا يثبت « أنه طلق امرأته ألبتة » وقال أيضا : حديث ركانة في « ألبتة » ليس بشيء ، لأن ابن إسحاق يرويه عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس « أن ركانة طلق امرأته ثلاثاً » وأهل المدينة يسمون من طلق ثلاثاً « طلق ألبتة » . وأحمد إنما عدل عن حديث ابن عباس ، لأنه كان يرى : أن الثلاث جائزة ، موافقةً للشافعي .

فأمكن أن يقال : حديث ركانة منسوخ . ثم لما رجع عن ذلك ، وتبين أنه ليس في القرآن والسنة طلاق مباح إلا الرجعي : عدل عن حديث ابن عباس . لأنه أفتى بخلافه . وهذا علة عنده في إحدى الروايتين . لكن الرواية الأخرى ، التي عليها أصحابه : أنه ليس بعله .

فيلزم أن يكون مذهبه : العمل بحديث ابن عباس .

وقد بينا في غير هذا الموضوع أعذار الأئمة المجتهدين رضى الله عنهم ، الذين أزموا من أوقع الثلاث بلفظ واحد جملة : بها ، مثل عمر رضى الله عنه . فإنه لما رأى الناس قد أكثروا مما حرمه الله عليهم ، من جمع الثلاث ، ولا ينتهون عن ذلك إلا بعقوبة ، رأى عقوبتهم بالزامهم إياها ، لئلا يفعلوها : إما من نوع التعزير العارض ، الذى يفعل عند الحاجة . كما كان يضرب في الحجر ثمانين ، ويحلق الرأس وينفى ، وكما منع النبي صلى الله عليه وسلم الثلاثة الذين خلفوا عن الاجتماع بنسأهم . وإما أن عمر رضى الله عنه ظن : أن جعلها واحدة : كان مشروطاً بشرط ، وقد زال . كما ذهب إلى مثل ذلك في متعة الحج . إما مطلقاً ، وإما متعة فسخ الحج إلى العمرة .

والإلزام بالفرقة لمن لم يقم بالواجب : مما يسوغ فيه الاجتهاد . لكن تارة

تكون حقاً للمرأة . كما في العنّين والمُولى . عند جمهور العلماء ، والعاجز عن النفقة ، عند من يقول به .

وتارة يقال : إنه حق لله . كما في الحكمين بين الزوجين ، عند الأكثرين ، إذا لم يجعلوا وكيلين .

وكما في وقوع الطلاق على المولى عند من يقول بذلك من السلف والخلف ، إذا لم ينفى في مدة التربص .

وكما قال من قال من الفقهاء ، من أصحاب أحمد وغيره : إنهما إذا تطاوعا في الإتيان في الدبر فُرق بينهما .

وكما في الأب الصالح : إذا أمر ابنه بالطلاق ، لما رآه من مصلحة الولد . فعلى الولد أن يطيعه . كما قال أحمد وغيره . كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمر أن يطيع أباه ، لما أمره أبوه عمر بطلاق امرأته .

فالإلزام - إما من الشارع ، وإما من الإمام - بالفرقة : إذا لم يقيم الزوج بالواجب هو من موارد الاجتهاد .

فلما كان الناس ، إذا لم يلتزموا بالثلاث مفرقة كما أمر الله : يفعلون المحرم . رأى عمر : إلزامهم بذلك . لأنهم لم يلتزموا طاعة الله ورسوله مع بقاء النكاح .

واسكن كثير من الصحابة والتابعين نازعوا من قال ذلك . إما لأنهم لم يروا التعزير بمثل ذلك . وإما لأن الشارع لم يعاقب بمثل ذلك .

وهذا فيمن يستحق العقوبة . وأما من لم يستحقها ، لجهل أو تأويل : فلا وجه لإلزامه بالثلاث .

وهذا شرع شرعه النبي صلى الله عليه وسلم . كما شرع نظائره لا تحصى . ولهذا قال من قال من السلف والخلف : إن ما شرعه النبي صلى الله عليه وسلم من التمتع وفسخ الحج إلى العمرة - كما أمر به أصحابه في حجة الوداع - هو شرع مطلق ، كما أخبر صلى الله عليه وسلم به لما سئل « أعمرتنا هذه لعامتنا هذا ؟



أم للأبد؟ فقال: لا. بل للأبد الأبدي. دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة». .  
فهذا يبين أن قول من قال: إنما شرع الفسخ لمعنى يختص بهم. مثل شأن  
جواز العمرة في أشهر الحج: قول فاسد. لوجوه مبسوطة في غير هذا الموضوع.  
وقد قال الله تعالى (٤: ٥٩) يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول  
وأولى الأمر منكم. فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول. إن كنتم  
تؤمنون بالله واليوم الآخر. ذلك خير وأحسن تأويلاً).

فأمر المؤمنين - عند تنازعهم - برد ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول.  
فما تنازع فيه السلف والخلف: وجب رده إلى الكتاب والسنة.  
وليس في الكتاب والسنة ما يوجب الإلزام بالثلاث، لمن أوقعها جملة  
بكلمة أو كلمات، بدون رجعة أو عقد. بل إنما في الكتاب والسنة: الإلزام  
بذلك لمن طلق الطلاق الذي أباحه الله ورسوله.

وعلى هذا يدل القياس والاعتبار بسائر أصول الشرع.  
فإن كل عقد يبسط تارة، ويحرم تارة. كالبيع أو النكاح إذا فعل على  
الوجه المحرم: لم يكن لازماً نافذاً. كما يلزم الحلال الذي أباحه الله ورسوله.  
ولهذا اتفق المسلمون على أن ما حرمه الله من نكاح المحارم، ومن النكاح  
في العدة، ونحو ذلك: يقع باطلاً غير لازم.

وكذلك ما حرمه الله من بيع المحرمات، كالخمر والخنزير والميتة.  
وهذا بخلاف ما كان محرم الجنس - كالظهار، والقذف، والكذب،  
وشهادة الزور ونحو ذلك - فإن هذا يستحق من فعله العقوبة بما شرعه الله من  
الأحكام. فإنه لا يكون تارة حلالاً وتارة حراماً، حتى يكون تارة صحيحاً وتارة  
فاسداً.

وما كان محرماً من أحد الجانبين مباحاً من الجانب الآخر، كافتداء الأسير،  
واشتراء المجهود عتقه، ورشوة الظالم لدفع ظلمه، أو لبذل الحق الواجب. وكاشتراء

الإنسان الشاة المضراة وما دلس عثبه ، وإعطاء المؤلفة قلوبهم ليفعل الواجب ، أو ليترك الحرم ، وكبيع الجالب لمن تلقى منه ، ونحو ذلك . فإن المظلوم يباح له مافعله وله أن يفسخ العقد . وله أن يمضيه . بخلاف الظالم ، فإن ما فعله ليس بلازم . والطلاق : هو مما أباحه الله تارة . وحرمه أخرى . وإذا فعل على الوجه الذى حرمه الله ورسوله : لم يكن لازماً نافذاً ، كما يلزم ما أحله الله ورسوله . كما فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » .

وقد قال الله تعالى ( ٢ : ٢٢٩ الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ) فبين سبحانه أن الطلاق الذى شرعه للمدخل بها - وهو الطلاق الرجعى - مرتان ، وبعد المرتين : إما إمساك بمعروف ، بأن يراجعها . فتبقى زوجته . وتبقى معه على طلقة واحدة . وإما تسريح بإحسان ، بأن يرسلها إذا انقضت العدة ، كما قال تعالى ( ٣٣ : ٤٩ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، فما لكم عليهن من عدة تعتدونها . فتمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً ) .

ثم قال بعد ذلك ( ٢ : ٢٢٩ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ، إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله . فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ) .

وهذا هو الخلع . سماه « افتداء » لأن المرأة تفتدى نفسها من أسر زوجها ، كما يفتدى الأسير من أسرهِ ، والعبد نفسه من سيده بما يبذله .

ثم قال ( ٢ : ٢٣٠ فإن طلقها ) يعنى هذا الزوج الثانى ( فلا جناح عليهما ) يعنى عليهما وعلى الزوج الأول ( أن يتراجعا . إن ظنا أن يقيما حدود الله ) .

## الطلاق للعدة

وكذلك قال الله تعالى ( ٦٥ : ١ - ٣ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن . وأحصوا العدة . واتقوا الله ربكم . لا تخرجنوهن من بيوتهن . ولا يخرجن ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . وتلك حدود الله . ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً . فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف . أو فارقوهن بمعروف . وأشهدوا ذوى عدل منكم . وأقيموا الشهادة لله . ذلكم يُوعَظُ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر . ومن يتق الله يجعل له مخرجا \* ويرزقه من حيث لا يحتسب \* ومن يتوكل على الله فهو حسبه . إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شيء قدراً ) .

وفي الصحيحين والسنن والمسائيد عن عبد الله بن عمر رضی الله عنهما « أنه طلق امرأته ، وهي حائض . فذكر ذلك عمر للنبي صلى الله عليه وسلم . فقال : مُرَّه فليراجعها ، حتى تحيض ثم تطهر . ثم تحيض ، ثم تطهر . ثم إن شاء بعد أمسكها . وإن شاء طلقها قبل أن يجامعها . فتلك العدة التي أمر الله أن يُطَلَّقَ لها النساء » وفي رواية في الصحيح « أنه أمره : أن يطلقها طاهراً أو حاملاً » . وفي رواية أخرى في الصحيح « وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم ( إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبيل عدتهن ) » .

وعن ابن عباس وغيره من الصحابة رضی الله عنهم « الطلاق على أربعة أوجه . وجهان حلال . ووجهان حرام . فأما اللذان هما حلال : فأن يطلق الرجل امرأته طاهراً في غير جماع ، أو يطلقها حاملاً قد استبان حملها . وأما اللذان هما حرام : فأن يطلقها حائضاً ، أو يطلقها بعد الجماع . لا يدرى اشتمل الرحم على ولد أم لا ؟ » رواه الدارقطني وغيره .

فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم : أنه لا يحل له أن يطلقها إلا إذا طهرت من الحيض . فيطلقها قبل أن يجامعها . وهذا هو الطلاق للعدة ، أى لاستقبال العدة .

فإن ذلك الطهر : أول العدة . فإن طلقها قبل العدة : يكون طلاقها قبل الوقت الذى أذن الله فيه . ويكون قد طوّل عليها التربص . وطلقها من غير حاجة به إلى طلاقها .

### الطلاق مما يبغضه الله

والطلاق فى الأصل : مما يبغضه الله . وهو أبغض الحلال إلى الله . وإنما أباح منه ما يحتاج إليه الناس ، كما تباح الحرمات للحاجة . فلهذا حرمها بعد الطلقة الثالثة ، حتى تنكح زوجاً غيره ، عقوبة . لينتهى الإنسان عن إكثار الطلاق . فإذا طلقها لم تزل فى العدة متربصة ثلاثة قروء ، وهو مالك لها ، يرثها وترثه . وليس له فائدة فى تعجيل الطلاق قبل وقته . كما لا فائدة له فى مسابقة الإمام فى الصلاة . ولهذا لا يعتد له بما فعله من الصلاة قبل الإمام . بل تبطل صلاته إذا تعمد ذلك فى أحد قولى العلماء . وهو لا يزال معه فى الصلاة حتى يسلم .

ولهذا جوزأ أكثر العلماء الخلع فى الحيض . لأنه — على قول فقهاء الحديث — ليس بطلاق ، بل هو فرقة بائنة ، وفى أحد قولهم : تستبرأ منه بحيضه ، لعدة عليها ولأنها تملك نفسها بالاختلاع . فلها فائدة فى تعجيل الإبانة ، لدفع الشر الذى بينهما . بخلاف الطلاق الرجعى . فإنه لا فائدة فى تعجيله قبل وقته . بل ذلك شر بلا خير .

وقد قيل : إنه طلاق فى وقت لا يرغب فيها . وقد لا يكون محتاجاً إليه ، بخلاف الطلاق وقت الرغبة . فإنه لا يكون إلا عن حاجة .

وقول النبى صلى الله عليه وسلم لعمر « مره فليراجعها » مما تنازع فيه العلماء فى مراد النبى صلى الله عليه وسلم .

ففهم منه طائفة من العلماء : أن الطلاق قد لزمه . فأمره : أن يرتجعها . ثم يطلقها فى الطهر إن شاء .

وتنازع هؤلاء : هل الارتجاع واجب ، أو مستحب ؟ وهل له أن يرتجعها فى

الطهر الأول ، أو الثاني ؟ وفي حكمة هذا النهى ، على أقوال ذكرناها . وذاكرنا مأخذها في غير هذا الموضع .

وفهم طائفة أخرى : أن الطلاق لم يقع . ولكنه لما فارقتها بيده - كما جرت العادة من الرجل إذا طلق امرأته . اعتزلها بيده ، واعتزلته بيدها - فقال لعمر « مره فليراجعها » ولم يقل « فليرتجعها » و « المراجعة » مفاعلة من الجانبين ، أى ترجع إليه بيدها . فيجتمعان كما كانا . لأن الطلاق لن يلزمه . فإذا جاء الوقت الذى أباح الله فيه الطلاق : طلقها حينئذ إن شاء .

قال هؤلاء : ولو كان الطلاق قد لزم ، لم يكن فى الأمر بالرجعة - ليطلقها طلقه ثانية - فائدة . بل فيه مضرة عليهما . فإن له أن يطلقها بعد الرجعة بالنص والإجماع . وحينئذ يكون فى الطلاق - مع الأول - تكثير الطلاق ، وتطويل العدة ، وتعذيب الزوجين جميعاً . فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوجب عليه أن يطأها قبل الطلاق . بل إذا وطئها لم يحل له أن يطلقها حتى يبين حملها ، أو تطهر الطهر الثانى . وقد يكون زاهداً فيها فيكره أن يطأها ، فتعلق منه . فكيف يجب عليه وطؤها ؟ ولهذا لم يوجب الوطء أحد من الأئمة الأربعة ، وأمثالهم من أئمة المسلمين . ولكن آخر الطلاق إلى الطهر الثانى . ولولا أنه طلقها أولاً لكان له أن يطلقها فى الطهر الأول . لأنه لو أبيض له الطلاق فى الطهر الأول : لم يكن له فى إمساكها فائدة مقصودة بالنكاح . إذا كان لا يمسكها إلا لأجل الطلاق . فإنه لو أراد أن يطلقها فى الطهر الأول : طلقها قبل الوطء . فإن طلقها بعد الوقت لا يجوز بالنص والإجماع . فلا يكون فى إمساكها - إذا طلقها فى الطهر الأول - إلا زيادة ضرر عليهما . والشارع لا يأمر بذلك . فإذا كان ممنوعاً من طلاقها فى الطهر الأول ليكون متمكناً من الوطء الذى لا يتعقبه طلاق . فإن لم يطأها ، أو وطئها ، أو حاضت بعد ذلك : فله أن يطلقها . ولأنه إذا امتنع من وطئها فى ذلك الطهر ، ثم

طلقها في الطهر الثاني : دل على أنه محتاج إلى طلاقها . لأنه لارغبة له فيها . إذ لو كانت له فيها رغبة لجامعها في الطهر الأول .

قالوا : ولأنه لم يأمر عمر بالإشهاد على الرجعة ، كما أمر الله ورسوله . ولو كان الطلاق قد وقع - وهو يرتجعها - لأمره بالإشهاد على الرجعة . ولأن الله لما ذكر الطلاق في غير آية لم يأمر أحداً بالرجعة ، لاسيما الرجعة عقيب الطلاق ، بل قال ( ٢ : ٢٣٠ ) فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ( خير الزوج - إذا قارب انقضاء العدة - بين أن يمسكها بمعروف ، وهو الرجعة . وبين أن يسيبها ، فيخلى سبيلها إذا انقضت العدة ، ولا يحبسها بعد انقضاء العدة ، كما كانت محبوسة عليه في العدة . قال الله تعالى ( لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ) .

وأيضاً : فلو كان الطلاق المحرم قد لزم : لكان قد حصل الفساد الذي كرهه الله ورسوله . وذلك الفساد لا يرتفع برجعة يباح له الطلاق بعدها .

### الطلاق المحرم لا يلزم

والأمر برجعة لا فائدة فيها : مما ينزه عنه الله ورسوله . فإنه إن كان راغباً في المرأة : فله أن يرتجعها . وإن كان راغباً عنها : فليس له أن يرتجعها . فليس في أمره برجعتها - مع لزوم الطلاق له - مصلحة شرعية ، بل فيه زيادة مفسدة . ويجب تنزيه الرسول صلى الله عليه وسلم عن الأمر بما يستلزم زيادة الفساد . والله ورسوله إنما نهى عن الطلاق البدعي لمنع الفساد . فكيف يأمر بما يستلزم زيادة الفساد ؟ . وقول الطائفة الثانية أشبه بالأصول والنصوص . فإن هذا القول الأول متناقض . إذ الأصل الذي عليه السلف والفقهاء : أن العبادات والعقود المحرمة إذا فعلت على الوجه المحرم : لم تكن لازمة صحيحة . وهذا - وإن نازع فيه طائفة من أهل الكلام - فالصواب : مع السلف ، وأئمة الفقهاء . لأن الصحابة

والتابعين لهم بإحسان كانوا يستدلون على فساد العبادات والعقود بتحريم الشارع لها .  
وهذا متواتر عنهم .

وأيضاً : فإن لم يكن ذلك دليلاً على فسادها : لم يكن قد جاء عن الشارع  
ما يبين الصحيح من الفاسد .

فإن الذين قالوا : النهى لا يقتضى الفساد . قالوا : نعم صحة العبادات والعقود  
وفسادها يجعل الشارع هذا شرطاً أو مانعاً ، ونحو ذلك . وقوله : هذا صحيح .  
وليس بصحيح ، من خطاب الوضع والإخبار .

ومعلوم : أنه ليس في كلام الله ورسوله هذه العبارات . مثل قوله : الطهارة  
شرط في الطلاق . والكفر مانع من صحة الحج . وهذا العقد لا يصح . وهذه  
العبادة : لا تصح ، ونحو ذلك . بل إنما في كلامه : الأمر والنهى ، والتحليل  
والتحريم . ونفي القبول والصلاح ، كقوله صلى الله عليه وسلم « لا يقبل الله  
صلاة بغير طهور . ولا صدقة من غلول » وقوله « هذا لا يصلح » وفي كلامه « إن  
الله يكره كذا » وفي كلامه : الوعد والوعيد ، ونحو ذلك من العبارات .

فلو لم تستفد الصحة والفساد إلا بما ذكره - وهو لا يلزم أن يكون قد بين  
ذلك - فهذا مما يعلم فساد قطعاً .

وأيضاً : فالشارع يحرم الشيء لما فيه من المفسدة الخالصة ، أو الراجعة .  
ومقصوده بالتحريم : المنع من ذلك الفساد ، وبقاؤه معدوماً .

فلو كان - مع التحريم - يرتب عليه من الأحكام ما يرتب على الحلال .  
فجعله لازماً نافذاً كالحلال . لسكان ذلك إلزاماً منه بالفساد الذى قصد عدمه  
فيلزم أن يكون ذلك الفساد قد أراد عدمه ، مع أنه ألزم الناس به . وهذا متناقض  
ينزه عنه الشارع صلى الله عليه وسلم .

## قاعدة أصولية

وقد قال بعض هؤلاء : إنه لما حرم الطلاق الثالث ، لثلا يلزم المطلق : دل على لزوم الندم له إذا فعله . وهذا يقتضى صحته .  
فيقال له : هذا يتضمن أن كل مانهى الله عنه يكون صحيحاً ، كالجمع بين المرأة وعمتها ، لثلا يفضى إلى قطيعة الرحم .  
فيقال : هذا دليل على صحة العقد . إذ لو كان فاسداً لم تحصل القطيعة . وهذا جهل .

وذلك : أن الشارع بين حكمته في منعه مما نهى عنه . وأنه لو أباحه للزوم الفساد . فقوله ( لا تدرى ، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ؟ ) وقوله صلى الله عليه وسلم « لا تنكح المرأة على عمتها ولا خالتها . فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » ونحو ذلك .

فبين أن الفعل لو أبيض لحصل به الفساد ، فخرم منعاً من هذا الفساد . ثم إن الفساد إنما ينشأ من إباحته ومن فعله ، إذا اعتقد الفاعل له : أنه مباح ، أو أنه صحيح . فأما مع اعتقاد أنه محرم باطل ، والتزام أمر الله ورسوله : فلا تحصل المفسدة . وإنما تحصل المفسدة من مخالفة أمر الله ورسوله . والمفاسد فتنة وعذاب . وقد قال الله تعالى ( ٢٤ : ٦٣ ) فليحذر الذين يخالفون عن أمره : أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ) .

وقول القائل : لو كان الطلاق غير لازم ، والجمع غير لازم : لم يحصل الفساد . ويقال : هذا هو مقصود الشارع صلى الله عليه وسلم ، فنهى عنه وحكم ببطلانه ليزول الفساد . ولولا ذلك لفعله الناس ، واعتقدوا صحته . فيلزم الفساد .

وهذا نظير قول من يقول : النهى عن الشيء يدل على أنه مقصود ، وأنه شرعى ، وأنه يسمى بيعاً ، ونكاحاً ، وصوماً ، كما يقولون في نهيه عن نكاح



الشغار ، ولعنه المحلل والمحلل له ، ونهيه عن بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها ، ونهيه عن صوم يومى العيدين ونحو ذلك .

فيقال : أما تصوره حساً ، فلا ريب فيه . وهذا كنهيه عن نكاح الأمهات والبنات ، وعن بيع الخمر والميتة ولحم الخنزير والأصنام ، كما فى الصحيحين عن جابر رضى الله عنه « إن النبي صلى الله عليه وسلم قال أن الله حرم بيع الخمر والميتة ولحم الخنزير والأصنام . فقيل : يارسول الله ، أرأيت شحوم الميتة ؟ فإنه يطلى بها السفن ، وتدهن بها الجلود ، ويستصبح بها الناس . فقال : لا . هو حرام . ثم قال : قاتل الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم . فجملواها فباعوها وأكلوا أثمانها » .  
فتسميته لهذا نكاحاً وبيعاً ، لم يمنع أن يكون فاسداً باطلاً . بل دل على إمكانه حساً .

وقول القائل « إنه شرعى » إن أراد : أنه يسمى بما سماه به الشارع . فهذا صحيح . وإن أراد : أن الله أذن فيه . فهذا خلاف النص والإجماع . وإن أراد : أنه رتب عليه حكمه ، وجعله يحصل المقصود ، ويلزم الناس حكمه ، كما فى المباح - فهذا باطل بالإجماع فى أكثر الصور . وسائر الصور هى من موارد النزاع . ولا يمكنه أن يدعى ذلك فى صورة مجمع عليها . فإن أكثر ما يحتاج به هؤلاء : بنهيه عن الطلاق فى الحيض ، ونحو ذلك مما هو من موارد النزاع .

فليس معهم صورة قد ثبت فيها مقصودهم ، لا بنص ولا إجماع . وكذلك المحلل الملعون ، لعنه لأنه قصد التحليل للأول بعقده . لا لأنه أحلها فى نفس الأمر . فإنه لو تزوجها بنكاح رغبة ، لكان قد أحلها بالإجماع . وهذا غير ملعون بالإجماع . فعلم أن اللعنة إنما هى لمن قصد التحليل . فعلم أن الملعون لم يحللها فى نفس الأمر . وقد دلت اللعنة على تحريم فعله . والمنازع يقول : فعله مباح . فتبين أنه لا حجة معهم . بل الصواب مع السلف وأئمة الفقهاء .

ومن خرج عن هذا الأصل - من العلماء المشهورين في بعض المواضع - فإن لم يكن له جواب صحيح ، وإلا فقد تناقض في مواضع غير هذه .  
والأصول لا تناقض فيها ، إذا ما ثبتت بنص أو إجماع . وما سوى ذلك :  
فالتناقض موجود فيه . فليس هو حجة على أحد .  
والقياس الذي لا يتناقض : هو موافق للنص والإجماع . بل ولا بد أن يكون النص قد دل على الحكم ، كما قد بسط في موضع آخر .  
وهذا معنى « العصمة » فإن كلام المعصوم لا يتناقض .  
فلا نزاع بين المسلمين أن الرسول صلى الله عليه وسلم معصوم فيما بلغه عن الله تعالى .

وكذلك الأمة أيضاً : معصومة أن تجتمع على ضلالة . بخلاف ما سوى ذلك .

### كل بشر يؤخذ من قوله إلا رسول الله

ولهذا كان مذهب أئمة الدين : أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإنه الذي فرض الله على جميع الخلائق : الإيمان به وطاعته ، وتحليل ما حله ، وتحريم ما حرمه . وهو الذي فرق الله به بين المؤمنين والكافر ، وأهل الجنة وأهل النار ، والهدى والضلالة ، والغي والرشاد . فالؤمنون أهل الجنة أهل الهدى والرشاد هم الذين اتبعوه .

والكفار : أهل النار ، أهل الغي والضلال : الذين لم يتبعوه .

فمن آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم باطناً وظاهراً ، واجتهد في متابعتة : فهو من المؤمنين السعداء ، وإن كان قد أخطأ وغلط في بعض ما جاء به . فلم يبلغه أو لم يفهمه . قال الله تعالى عن المؤمنين ( ٢ : ٢٨٦ ) ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ) وقد ثبت في بعض الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن الله قال : قد فعلت » .

وفي السنن عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « العلماء ورثة الأنبياء . إن

الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما . وإنما ورثوا العلم . فمن أخذ به أخذ بحظ وافر .  
وقد قال تعالى ( ٢١ : ٧٨ ، ٧٩ ) وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ  
نفثت فيه غم القوم . وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان . وكلا آتينا حكماً  
وعلماً ) فقد خص أحد النبيين الكريمين بالفهم ، مع ثنائه على كل منهما بأنه  
آتاه حكماً وعلماً .

### خطأ المجتهد لا يوجب ذمه

فهكذا إذا خص الله أحد العالمين بعلم أمر وفهمه : لم يوجب ذلك ذم من لم  
يحصل له ذلك من العلماء . بل كل من اتقى الله ما استطاع فهو من أولياء الله  
المؤمنين ، وإن كان قد خفي عليه من الدين ما علمه غيره .

وقد قال وثلة ابن الأستق - وبعضهم يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم -  
« من طلب علماً فأدرکه فله أجران . ومن طلب علماً فلم يدركه فله أجر واحد » .  
وهذا يوافق ما في الصحيح عن عمرو بن العاص وعن أبي هريرة رضي الله  
عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران . وإذا  
اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر » .  
وليسط هذه الأصول موضع آخر .

وإنما المقصود هنا : التنبيه على هذا . لأن الطلاق المحرم مما يقول فيه كثير  
من الناس : إنه لازم . والسلف - أئمة الفقهاء والجمهور - يسلّمون أن النهي  
يقتضى الفساد . ولا يذكرون في الاعتذار عن هذه الصورة فرقاً صحيحاً .

وهذا مما تسلط به عليهم من نازعهم في أن النهي يقتضى الفساد . واحتج  
بما سلموه له من الصورة . وهذه حجة جدلية . لا تنفيد العلم بصحة قوله . وإنما تنفيد  
أن منازعيه أخطأوا : إما في صورة النقص ، وإما في محل النزاع . وخطوهم في  
إحداها لا يوجب نقض ما ثبت بالكتاب . والسنة : أن الله لم يشرع لعباده قط  
إلا طلاقاً رجعيّاً .

بل هذا الأصل أصل عظيم ، عليه مدار كثير من الأحكام الشرعية . فلا يمكن نقضه بقول بعض العلماء الذين ليس معهم نص ولا إجماع . بل الأصول والنصوص تناقض قولهم .

### الطلاق المحرم لا يقع

ومن تدبر الكتاب والسنة : تبين له أن الله لم يشرع الطلاق المحرم جملة قط . وأما الطلاق البائن : فإنه شرعه قبل الدخول ، وبعد انقضاء العدة . وطائفة من العلماء يقولون : لمن لم يجعل الثلاث المجموعة إلا واحدة : أتم خالفتم عمر . وقد استقر الأمر على الالتزام بذلك في زمن عمر . وبعضهم يجعل ذلك إجماعاً .

فيقال لهم : أتم خالفتم عمر في الأمر المشهور عنه ، الذي اتفق عليه الصحابة . بل وفي الأمر الذي معه فيه الكتاب والسنة . فإن منكم من يجوز التحليل . وقد ثبت عن عمر أنه قال « لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجعتما » . وقد اتفق الصحابة على النهي عنه - مثل عثمان ، وعلى ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وابن عمر ، وغيرهم - ولا يعرف عن أحد من الصحابة : أنه أعاد المرأة إلى زوجها بنكاح تحليل .

وعمر وسائر الصحابة معهم الكتاب والسنة ، كلعن النبي صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلل له . وقد خالفهم من خالفهم في ذلك اجتهاداً . والله يرضى عن جميع علماء المسلمين .

وأيضاً فقد ثبت عن عمر : أنه كان يقول في الخلية والبرية ونحو ذلك « إنها طلقة رجعية » وأكثرهم يخالفون عمر في ذلك .

وقد ثبت عن عمر رضى الله عنه : أنه خير المفقود إذا رجع فوجد امرأته تزوجت « خَيْرَه بين امرأته وبين المهر » وهذا أيضاً معروف عن غيره من الصحابة

كعثمان وعلى . وذكره أحمد عن ثمانية من الصحابة رضى الله عنهم . وقال : إلى أى شىء يذهب الذى يخالف هؤلاء ؟ .

ومع هذا فأكثرهم يخالفون عمر وسائر الصحابة فى ذلك . ومنهم من ينقض حكم من حكم به .

وعمر والصحابة رضى الله عنهم جعلوا الأرض المفتوحة عنوة - كأرض الشام ومصر والعراق وخراسان والمغرب - فيئناً للمسلمين . ولم يقسم عمر ولا عثمان أرضاً فتحها المسلمون عنوة . ولم يستطب عمر أنفس جميع الغانمين فى هذه الأرضين . فإن ظن بعض العلماء : أنه استطاب أنفسهم فى سواد العراق : فهو غالط . بل طلب منه بلال والزبير وغيرها قسمة الأرض المفتوحة عنوة . فلم يجبهم .

ومع هذا فطائفة منهم تخالف عمر والصحابة فى مثل هذا الأمر العظيم ، الذى استقر الأمر عليه من زمنهم . بل منهم من ينقض حكم من حكم بحكمهم أيضاً فأبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم : لم يخمسوا قط مال فىء ، ولا خمسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا جعلوا خمس الغنيمة خمسة أقسام متساوية ومع هذا فكثير منهم يخالف ذلك . ونظائر هذا متعددة .

والأصل الذى اتفق عليه علماء المسلمين : أن ما تنازعوا فيه وجب رده إلى الله والرسول ، كما قال تعالى ( ٤ : ٥٩ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلاً ) .

ولا يجوز لأحد أن يظن بالصحابة : أنهم - بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم - أجمعوا على خلاف شريعته . بل هذا من أقوال أهل الاتحاد والإلحاد .

## لا ينسخ ما شرع الرسول أحد بعده

ولا يجوز دعوى نسخ ما شرعه الرسول صلى الله عليه وسلم بإجماع أحد بعده ، كما تظنه طائفة من الغالطين . بل كل ما أجمع المسلمون عليه فلا يكون إلا موافقا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . لا يكون مخالفاً له ألبتة .

بل كل نص منسوخ بإجماع الأمة : فمع إجماع الأمة النص الناسخ له . تحفظ الأمة النص الناسخ كما تحفظ النص للمنسوخ . وحفظ الناسخ أهم عندها وأوجب عليها من حفظ المنسوخ .

وتمنع أن يكون عمر والصحابة معه أجمعوا على خلاف نص النبي صلى الله عليه وسلم . ولكن قد يجتهد الواحد من الصحابة ، وينازعه غيره . وهذا موجود في مسائل كثيرة - هذا منها - كما بسط في موضع غير هذا .

## اجتهاد الصحابة ، ومخالفة بعضهم بعضا

ولهذا لما رأى عمر رضى الله عنه : أن المبتوتة لاتفقة لها ولا سكنى ، وظن أن القرآن يدل عليه : نازعه فيه أكثر الصحابة . فمنهم من قال : لها السكنى فقط . ومنهم من قال : لاتفقة لها ولا سكنى . وكان من هؤلاء ابن عباس ، وجابر بن عبد الله ، وفاطمة بنت قيس . وهى التى روت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لها « ليس لك نفقة ولا سكنى » فلما احتجوا عليها بحجة عمر ، وهى قوله تعالى (٦٥ : ١) لا تخرجوهن من بيوتهن . ولا يخرجن ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ) قالت هى وغيرها من الصحابة - كابن عباس وجابر وغيرهما - « هذا فى الرجعية . لقوله تعالى (٦٥ : ١) لا تدرى : لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ؟ ) فأى أمر يحدث بعد الثلاث ؟ » . وفقهاء الحديث مع فاطمة بنت قيس .

وكذلك أيضاً فى الطلاق ، لما قال الله تعالى ( لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ) قال غير واحد من الصحابة والتابعين والعلماء : هذا يدل على أن الطلاق

الذى ذكره الله : هو الطلاق الرجعى ، فإنه لو شرع إيقاع الثلاث عليه : كان المطلق يندم إذا فعل ذلك ، ولا سبيل له إلى رجعتها . فيحصل له ضرر بذلك . والله قد أمر العباد بما ينفعهم . ونهاهم عما يضرهم . ولهذا قال تعالى أيضاً - بعد ذلك - ( ٦٥ : ٢ ) فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف ) وهذا إنما يكون فى الطلاق الرجعى . لا يكون فى الثلاث ، ولا فى البائن . وقال تعالى ( ٦٥ : ٢ ) وأشهدوا ذوى عدل منكم ) فأمر بالإشهاد على الرجعة . والإشهاد عليها مأمور به باتفاق الأمة . قيل : أمر بإيجاب . وقيل : أمر استحباب .

### الإشهاد على الرجعة ، لا على الطلاق

وقد ظن بعض الناس : أن الإشهاد هو على الطلاق . وظن أن الطلاق الذى لا يشهد المطلق عليه : لا يقع . وهذا خلاف إجماع السلف ، وخلاف الكتاب والسنة . ولم يقل أحد من العلماء المشهورين به . فإن الطلاق قد أذن فيه أولاً ، ولم يأمر فيه بالإشهاد . وإنما أمر بالإشهاد حين قال « فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقهن بمعروف » والمراد هنا بالمفارقة : تخلية سبيلها . إذا انقضت العدة . وهذا ليس بطلاق ولا رجعة ولا نكاح . ولا إشهاد فى هذا باتفاق المسلمين . فعلم أن الإشهاد : إنما هو على الرجعة .

ومن حكمة ذلك : أنه قد يطلقها ويرتجعها . فيزين له الشيطان كتمان ذلك حتى يطلقها بعد ذلك طلاقاً محرماً ، ولا يدري أحد به . فتكون معه حراماً . فأمره الله أن يشهد على الرجعة ، ليظهر أنه قد وقعت منه طلقة . كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم من وجد اللقطة « أن يشهد عليها » لئلا يزين له الشيطان كتمان اللقطة .

وهذا بخلاف الطلاق . فإنه إذا طلقها ولم يراجعها ، بل خلى سبيلها . فإنها تظهر للناس أنها ليست امرأته . بل هى مطلقة . بخلاف ما إذا بقيت زوجة عنده . فإنه لا يدري الناس : أطلقها ، أم لم يطلقها .

وأما النكاح : فلا بد من التمييز بينه وبين السفاح ، واتخاذ الأخدان . كما أمر الله تعالى . ولهذا نصت السنة على إعلانه . فلا يجوز أن يكون كالسفاح مكتوماً لكن هل الواجب مجرد الإشهاد ، أو مجرد الإعلان ، وإن لم يكن إسهاداً؟ ويكفي أيهما كان؟ هذا فيه نزاع بين العلماء ، كما قد ذكر في موضعه .  
وقال الله تعالى ( ٦٥ : ٢ ، ٣ ) ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . ويرزقه من حيث لا يحتسب ) .

### من يتق الله في الطلاق

وهذه الآية عامة في كل من يتق الله . وسياق الآية يدل على التقوى المرادة من هذا النص العام .

فمن اتقى الله في الطلاق ، فطلق كما أمر الله تعالى : جعل الله له مخرجاً مما ضاق على غيره « ومن يتعد حدود الله » فيفعل ما حرم الله عليه « فقد ظلم نفسه » ومن كان جاهلاً بتحريم طلاق البدعة ، فلم يعلم أن الطلاق في الحيض محرم ، أو أن جمع الثلاث محرم : فهذا إذا عرف التحريم وتاب ، صار ممن اتقى الله . فاستحق أن يجعل الله له مخرجاً .

ومن كان يعلم أن ذلك حرام ، وفعل الحرام ، وهو يعتقد أنها تحرم عليه ، ولم يكن عنده إلا من يفتيه بأنها تحرم عليه : فإنه يعاقب على ظلمه لنفسه ، عقوبةً بقدر الله ، كعاقبة أهل السبت بمنع الحيتان أن تأتيهم يوم سبتهم . فإنه ممن لم يتق الله . فعوقب بالضيق . وإن هداه الله ، فعرفه الحق ، وألهمه التوبة ، فتاب . فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له . وحينئذ فقد دخل فيمن يتقى الله . فيستحق أن يجعل الله له فرجاً ومخرجاً . فإن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة ، ونبي الملحمه . فكل من تاب فله فرج في شرعه ، بخلاف شرع من قبلنا . فإن التائب منهم كان يعاقب بعقوبات ، كقتل أنفسهم وغير ذلك .

ولهذا كان ابن عباس رضي الله عنهما إذا سئل عن طلاق امرأته ثلاثاً؟ يقول



له « لو اتقيت الله لجعل الله لك فرجاً ومخرجاً » وكان تارة يوافق عمر رضى الله عنه في الإلزام بذلك للكثيرين من فعل البدعة المحرمة عليهم ، مع علمهم بأنها محرمة عليهم . وروى عنه : أنه كان تارة لا يلزم إلا بواحدة .

وكان ابن مسعود رضى الله عنه يغضب على أهل هذه البدعة ، ويقول « أيها الناس ، من أتى الأمر على غير وجهه ، عوقب بتركه ، وإلا فوالله ما لنا طاقة بكل ما تحلفون » .

### لم يكن نكاح تحليل في الصدر الأول

ولم يكن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا أبى بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولا علي رضى الله عنهم نكاح تحليل ظاهر ، تعرفه الشهود والمرأة والأولياء . ولم ينقل أحد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا خلفائه الراشدين : أنهم أعادوا المرأة على زوجها بنكاح تحليل . فإنهم إنما كانوا يطلقون - في الغالب - طلاق السنة . ولم يكونوا يحلفون بالطلاق ولا يعرفونه . ولهذا لم ينقل عن الصحابة نقل خاص في الحلف بالطلاق . وإنما نقل عنهم الكلام في إيقاع الطلاق ، لا في الحلف به .

### الحلف بالطلاق و بالنذر ، وأيمان البيعة

والفرق ظاهر بين الطلاق وبين الحلف به . كما يعرف الفرق بين النذر وبين الحلف بالنذر .

فإذا كان الرجل يطلب من الله حاجة . فقال : إن شفى الله مريضى - أو قضى دينى ، أو خلصنى من هذه الشدة - فله على أن أصدق بألف درهم ، أو أن أصوم شهراً ، أو أعتق رقبة . فهذا تعليق نذر يجب عليه الوفاء به بالكتاب والسنة والإجماع .

وإذا علق النذر على وجه اليمين . فقال : إن سافرت معكم ، أو إن زوجت

فلاناً ، أو إن لم أضرب فلاناً ، أو إن لم أسافر من عنديكم : فعلى الحج ، أو فإلى صدقة ، أو فعلى العتق : فهذا عند الصحابة وجمهور العلماء : هو حالفٌ بالنذر . ليس بناذرٍ . فإذا لم يف بما التزمه أجزاءه كفارة يمين .

وكذلك أفتى الصحابة فيمن قال : إن فعلت كذا فكل مملوك لي حرّاً : أنه يمين ، يجزئه فيها كفارة اليمين . وكذلك قال كثير من التابعين في هذا كله ، لما أحدث الحجاج بن يوسف تحليف الناس بأيمان البيعة . وهو التحليف بالطلاق والعتاق والتحليف باسم الله وصدقة المال . وقيل : كان منها التحليف بالحج ماشياً . فتكلم حينئذ التابعون ومن بعدهم في هذه الأيمان . وتكلموا في بعضها على ذلك . فمنهم من قال : إذا حنث بها لزمه ما التزمه .

ومنهم من قال : لا يلزمه إلا الطلاق والعتاق .

ومنهم من قال : بل هذا من جنس أيمان أهل الشرك . لا يلزم بها شيء .

ومنهم من قال : بل هي من أيمان المسلمين . يلزم بها ما يلزم بسائر أيمان

المسلمين .

واتبع هؤلاء ما نقل في هذا الجنس عن الصحابة ، وما دل عليه الكتاب والسنة . كما قد بسط في موضع آخر .

### نكاح التحليل

والمقصود هنا : أنه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه الراشدين رضی الله عنهم : لم تكن امرأة ترد إلى زوجها بنكاح تحليل . ولعله كان إنما يفعل سراً . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « لعن الله آكل الربا وموكله ، وشاهديه ، وكاتبه . ولعن المحلل والمحلل له » قال الترمذی : حديث صحيح . ولعن صلى الله عليه وسلم في الربا « الآخذ والمعطى ، والشاهدين ، والكاتب » لأنه دين يكتب ويشهد عليه .

ولعن في التحليل « المحلل والمحلل له » ولم يلعن الشاهدين ، والكاتب . لأنه لم يكن على عهده تكتب الصّدقات في كتاب . فإنهم كانوا يقدمون الصداق في العادة العامة قبل الدخول . ولا يبقى ديناً في ذمة الزوج . فلا يحتاج إلى كتاب وشهود . وكان المحلل يكتم ذلك ، هو والزوج - المحلل له - والمرأة والأولياء والشهود ، لا يدرون بذلك .

ولعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلل له . إذ كانوا هم الذين فعلوا المحرم ، دون هؤلاء .

والتحليل : لم يكونوا يحتاجون إليه في الأمر الغالب . إذ كان الرجل إنما يقع به الطلاق الثلاث - إذا طلق - بعد رجعة أو عقد . فلا يندم بعد الثلاث إلا نادراً من الناس . وكان يكون ذلك بعد عصيانه ، وتعديه لحدود الله . فيستحق العقوبة . فيلعن من يقصد تحليل المرأة له . ويلعن هو أيضاً . لأنهما تعاونا على الإثم والعدوان .

### المحدثات أوقعت الناس في الحرام

فلما حدث الحلف بالطلاق ، واعتقد كثير من الفقهاء : أن الحانث يلزمه ما ألزمه نفسه . وأنه لا تجزئه كفارة يمين . واعتقد كثير منهم : أن الطلاق المحرم يلزم . واعتقد كثير منهم : أن جمع الثلاث ليس بمحرم . واعتقد كثير منهم : أن طلاق السكران يقع . واعتقد كثير منهم : أن طلاق المسكر يقع . وكان بعض هذه الأقوال مما تنازع فيه الصحابة ، وبعضها مما قيل بعدهم : كثر اعتقاد الناس بوقوع الطلاق المحرم ، مع ما يقع من الضرر العظيم ، والفساد في الدين والدنيا بمفارقة الرجل امرأته .

فصار المزمون بالطلاق المحرم في هذه المواضع المتنازع فيها حزينين : حزبا أتبعوا ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، والصحابة رضی الله عنهم في تحريم التحليل . فحرموا هذا ، مع تحريمهم لما لم يحرمه الرسول صلى الله عليه وسلم في تلك

الصور . فصار في قولهم من الأغلال والآصار ، والخرج العظيم ، المفضى إلى مفسد  
عظيمة في الدين والدنيا أمور :

منها : ردة بعض الناس عن الإسلام ، حين أفتى بإلزامه ما التزمه .

ومنها : سفك الدم للمعصوم .

ومنها : زوال العقل .

ومنها : العداوة بين الناس .

ومنها : تنقيص شريعة الإسلام .

إلى كثير من الآثام ، إلى غير ذلك من الأمور .

وحزباً رأوا أن يزيلوا ذلك الحرج العظيم بأنواع من الحيل التي بها تعود

للرأة إلى زوجها .

ما أحدث من الحيل كان سبباً في الطعن على الإسلام

وكان مما أحدث أولاً : نكاح التحليل . ورأى طائفة من العلماء أن فاعله

يثاب ، لما رأى في ذلك من إزالة تلك المفسد بإعادة المرأة إلى زوجها . وكان هذا

حيلة للتخلص من جميع صور وقوع الطلاق .

ثم أحدثت في الأيمان حيل أخرى .

فأحدث أولاً الاحتيال في لفظ اليمين . ثم أحدث الاحتيال بخلع اليمين . ثم

أحدث الاحتيال بدور الطلاق . ثم أحدث الاحتيال بطلب إفساد النكاح .

وقد أنكر جمهور السلف والعلماء وأتمتهم هذه الحيل وأمثالها . ورأوا أن في

ذلك إبطال حكمة الشريعة ، وإبطال حقائق الأيمان المودعة في آيات الله . وجعل

ذلك من جنس الخداعة ، والاستهزاء بآيات الله . حتى قال أيوب السخيتاني في

مثل هؤلاء « يخادعون الله كأنما يخادعون الصبيان . لو أتوا الأمر على وجهه لكان

أهون على » .

ثم تسلط الكفار والمنافقون بهذه الأمور على القدح في الرسول صلى الله

عليه وسلم . وجعلوا ذلك من أعظم ما يحتجون به على من أمر به ، ونصره وعزره ،  
ومن أعظم ما يصدون به عن سبيل الله ، ويمنعون من أراد الإيمان به . ومن أعظم  
ما يمتنع الواحد منهم به عن الإيمان ، كما أخبر من أمر منهم بذلك عن نفسه .  
وذكر : أنه كان يتبين له محاسن الإسلام ، إلا ما كان من جنس التحليل . فإنه  
الذى لا يجد فيه ما يشفي الغليل .

### الإيمان المحدثه ، والتحليل : من الخبائث والآصار

التي تنافي شريعة رسول الله

وقد قال تعالى ( ٧ : ١٥٦ ، ١٥٧ ) ورحمتي وسعت كل شيء . فسأ كتبها  
للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول  
النبي الأمي ، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل . يأمرهم بالمعروف .  
وينهاهم عن المنكر . ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث . ويضع عنهم  
إصرهم والأغلال التي كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا  
النور الذي أنزل معه ، أولئك هم المفلحون ) .

فوصف الله رسوله بأنه يأمر بكل معروف . وينهى عن كل منكر . ويحل  
كل طيب . ويحرم كل خبيث . ويضع الآصار والأغلال التي كانت على من  
قبله . وكل من خالف ما جاء به من الكتاب والحكمة - من الأقوال الموجودة -  
فهى من الأقوال المبتدعة ، التي أحسن أحوالها : أن تكون من الشرع المنسوخ ،  
الذى رفعه الله بشرع محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن كان قائله من أفضل الأمة  
وأجلها . وهو في ذلك القول مجتهد قد اتقى الله ما استطاع . وهو مثاب على اجتهاده  
وتقواه . مغفور له خطؤه . فلا يلزم الرسول بقوله غيره باجتهاده .

وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيحين أنه قال « إذا اجتهد الحاكم  
فأصاب ، فله أجران . وإذا اجتهد الحاكم فأخطأ ، فله أجر » .

وثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح : أنه كان يقول - لمن بعثه أميراً على سرية أو جيش - « وإذا حاصرت أهل حصن ، فسألوك : أن تُنزلهم على حكم الله . فلا تنزلهم على حكم الله . فإنك لا تدري ما حكم الله فيهم . ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك » .

وهذا يوافق ما ثبت في الصحيح « أن سعد بن معاذ لما حكمه النبي صلى الله عليه وسلم في بني قريظة - وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد حاصرهم ، ونزلوا على حكمه ، فأنزلهم على حكم سعد بن معاذ ، لما طلب منه حلفاؤهم من الأنصار : أن يحسن إليهم . وكان سعد بن معاذ على خلاف ما ظن به بعض قومه ، مقدماً لرضى الله ورسوله على رضى قومه . ولهذا لما مات اهتز له عرش الرحمن ، فرحاً بقدم روحه - فحكّم فيهم : أن تقتل مقاتلتهم ، ويسبي حريمهم ، وتقسّم أموالهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد حكمت فيهم بحكم الملك - وفي رواية : لقد حكمت فيهم بحكم الله - من فوق سبع سموات » .

### اجتهاد العلماء ورثة الأنبياء

والعلماء ورثة الأنبياء . وقد قال تعالى ( ٢١ : ٧٨ ، ٧٩ ) وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرت . إذ نفشت فيه غم القوم . وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان . وكلا آتينا حكماً وعلماً ) فهذان نبيان كريمان حكما في حكومة واحدة ، فخص الله أحدهما بفهمها ، مع ثنائه علي كل منهما بأنه آتاه حكماً وعلماً .

فكذلك العلماء المجتهدون رضى الله عنهم ، للمصيب منهم أجران ، وللآخر أجر . وكل منهم مطيع لله بحسب استطاعته . ولا يكلفه الله ما عجز عن عمله .

ومع هذا فلا يلزم الرسول صلى الله عليه وسلم بقول غيره . ولا يلزم ما جاء به من الشريعة شيء من الأقوال المحدثه ، لاسيما إن كانت شنيعة .

ولهذا كان الصحابة رضى الله عنهم إذا حكموا باجتهادهم ينزهون شرع الرسول صلى الله عليه وسلم عن خطأهم وخطأ غيرهم ، كما قال عبد الله بن مسعود

رضى الله عنه - في المفوضة - « أقول فيها برأى ، فإن يكن صواباً فمن الله . وإن يكن خطأ فمضى ومن الشيطان . والله ورسوله بريثان منه » وكذلك روى عن الصديق رضى الله عنه في الكلالة . وكذلك عن عمر رضى الله عنه في بعض الأمور . وهذا مع أنهم كانوا يصيبون فيما يقولونه على هذا الوجه ، حتى ليجد النص موافقاً لاجتهادهم . كما وافق النص اجتهاد ابن مسعود وغيره .

وإنما كانوا أعلم بالله وبرسوله وبما يجب من تعظيم شرع الرسول صلى الله عليه وسلم : أن يضيفوا إليه إلا ما علموه منه .

وما أخطأوا فيه - وإن كانوا مجتهدين - قالوا : إن الله ورسوله بريثان منه . وقد قال الله تعالى ( ٥ : ٩٩ ) ما على الرسول إلا البلاغ . والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ) وقال ( ٢٤ : ٥٤ ) قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول . فإن تولوا : فإنما عليه ما حُمِّل وعليكم ما حُمِّلتم . وإن تطيعوه تهتدوا . وما على الرسول إلا البلاغ المبين ) وقال ( ٧ : ٦ ) فلنسلن الذين أرسل إليهم ولنسلن المرسلين ) .

ولهذا توجد المسائل التي تنازعت فيها الأمة على أقوال . وإنما القول الذى بعث به الرسول صلى الله عليه وسلم واحد منها ، وسائرهما خطأ مغفور ، إذا كان أهلها من أهل الاجتهاد - أهل العلم والدين - فهم مطيعون لله ورسوله ، مأجورون غير مأزورين كما إذا خفيت جهة القبلة في السفر : اجتهد كل قوم . فصلوا إلى جهة من الجهات الأربع . فإن الكعبة ليست إلا في جهة واحدة منها ، وسائر المصلين مأجورون على صلاتهم ، حيث اتقوا الله ما استطاعوا .

ومن آيات ما بعث به الرسول صلى الله عليه وسلم : أنه إذا ذكر مع غيره - على الوجه المبين - ظهر النور والهدى على ما بعث به ، وعلم أن القول الآخر دونه . فإن خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد قال الله سبحانه وتعالى ( ١٧ : ٨٨ ) قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله . ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ) وهذا

التحدى والتعجيز ثابت في لفظه ونظمه ومعناه ، كما هو مذکور في غير هذا الموضوع .  
ومن أمثال ذلك : ماتنازع المسلمون فيه من مسائل الطلاق . فإنك تجد الأقوال  
فيها ثلاثة : قول فيه آصار وأغلل ، وقول فيه خداع واحتيال ، وقول فيه علم  
واعتدال . فقول يتضمن نوعاً من الظلم والفاحشة والعار . وقول يتضمن سبيل  
المهاجرين والأنصار .

وتجدهم في مجالس الأيمان بالنذر والطلاق والعناق على ثلاثة أقوال :

قول : يسقط حرمة أيمان المسلمين ، ويجعلها بمنزلة أيمان المشركين .

وقول : يجعل الأيمان لازمة . ليس فيها كفارة ولا تحية ، كما كان شرع  
غير أهل القبلة .

وقول : يقيم حرمة أيمان التوحيد والإيمان . ويفرق بينها وبين أيمان أهل  
الشرك والأوثان . ويجعل فيها من الكفارة والتحليل ، ما جاء به نص التنزيل .  
واختص به أهل القرآن ، دون أهل التوراة والإنجيل .

وهذا هو الشرع الذي جاء به خاتم المرسلين وإمام المتقين ، أفضل الخلق  
أجمعين . صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كبيراً .  
آخره والحمد لله رب العالمين .



# الأمر بالمعروف . والنهي عن المنكر

من درر

شيخ الإسلام ابن تيمية

رحمه الله وغفر لنا وله وللمؤمنين

٦٦١ - ٧٢٨

---

---

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فصل فى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : هو الذى أنزل الله به كتبه . وأرسل به رسله . وهو من الدين .

فإن رسالة الله : إما إخبار ، وإما إنشاء . فالإخبار : عن نفسه ، وعن خلقه مثل التوحيد ، والقصص الذى يندرج فيه الوعد والوعيد . والإنشاء : الأمر والنهى والإباحة .

وهذا كما ذكر فى الحديث أن « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن » لتضمنها الثلث الذى هو التوحيد . إذ القرآن : قصص ، وتوحيد ، وأمر .

وقوله سبحانه فى صفة نبينا صلى الله عليه وسلم ( ٧ : ١٥٧ ) يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . ويُحِلُّ لهم الطيبات . ويحرم عليهم الخبائث ) هو بيان لكمال رسالته . فإنه صلى الله عليه وسلم هو الذى أمر الله على لسانه بكل معروف . ونهى عن كل منكر . وأحل كل طيب . وحرم كل خبيث .

ولهذا روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنما بعثت لأتم مكارم الأخلاق » وقال فى الحديث المتفق عليه « إنما مثلى ومثل الأنبياء : كمثل رجل بنى داراً . فآتمها وأكملها ، إلا موضع لبنة ، فكان الناس يُطيفون بها ، ويعجبون من حسنها ، ويقولون : لولا موضع اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة » .

فيه أكمل الله الدين المتضمن للأمر بكل معروف ، والنهى عن كل منكر ، وإحلال كل طيب ، وتحريم كل خبيث .

وأما من كان قبله من الرسل : فقد كان يحرم على أممهم بعض الطيبات . كما قال الله تعالى ( ٤ : ١٦٠ ) فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم .

وربما لم يحرم عليهم جميع الخبائث ، كما قال تعالى ( ٣ : ٩٣ كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل ، إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه ، من قبل أن تنزل التوراة ) .  
وتحريم الخبائث : يندرج في معنى النهي عن المنكر ، كما أن إحلال الطيبات : يندرج في الأمر بالمعروف . لأن تحريم الطيبات ممانهى الله عنه . وكذلك الأمر بجميع المعروف ، والنهى عن كل منكر : مما لم يتم إلا لرسول الله الذى تم الله به مكارم الأخلاق المندرجة في المعروف . وقد قال الله تعالى ( ٥ : ٣ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى . ورضيت لكم الإسلام ديناً ) فقد أكمل الله لنا الدين . وأتم علينا النعمة . ورضى لنا الإسلام ديناً .

وكذلك وصف الأمة بما وصف به نبيها ، حيث قال ( ٣ : ١١٠ ) كنتم خير أمة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف . وتنهون عن المنكر . وتؤمنون بالله ) وقال تعالى ( ٩ : ٧١ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ) .

ولهذا قال أبو هريرة رضى الله عنه « كنتم خير الناس للناس . تأتون بهم في القيود والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة » .

فبين الله سبحانه : أن هذه الأمة خير الأمم للناس . فهم أنفعهم لهم . وأعظمهم إحساناً إليهم . لأنهم كلوا كل خير ونفع للناس بأمرهم بالمعروف ونهيبهم عن المنكر من جهة الصفة والقدر ، حيث أمروا بكل معروف ، ونهوا عن كل منكر لكل أحد ، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم . وهذا كمال النفع للخلق .

وسائر الأمم لم يأمرها كل أحد بكل معروف ، ولا نهوا كل أحد عن كل منكر ، ولا جاهدوا على ذلك ، بل منهم من لم يجاهد . والذين جاهدوا - كبنى إسرائيل - فعامة جهادهم : كان لدفع عدوهم عن أرضهم ، كما يُقاتل الصائل الظالم ، للدعوة المجاهدين إلى الهدى والخير . ولأمرهم بالمعروف ، ونهيبهم عن

المسكر، كما قال موسى لقومه (٥ : ٢١ - ٢٤) يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم . ولا تتردوا على أديباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا : يا موسى ، إن فيها قوماً جبارين ، وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها . فإن يخرجوا منها فإننا داخلون - إلى قوله - قالوا : يا موسى ، إننا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها . فاذهب أنت وربك فقاتلا . إنا ههنا قاعدون ) .

وقال تعالى ( ٢ : ٢٤٦ ) ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى ؟ إذ قالوا لنبي لهم : ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله . قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا ؟ قالوا : وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله ؟ وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ( ففعلوا القتال : بأنهم أخرجوا من ديارهم وأبنائهم . ومع هذا كانوا ناكثين عما أمروا به من ذلك . ولهذا لم تحل لهم الغنائم ، ولم يكونوا يظنون بملك اليمين .

ومعلوم أن أعظم الأمم المؤمنين قبلنا : هم بنو إسرائيل ، كما جاء في الحديث المتفق على صحته في الصحيحين عن ابن عباس رضی الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « عُرِضَتْ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ الْأَنْبِيَاءُ بِأَمْمِهِمْ . فجعل النبي يمر ومعه الرجل ، والنبي ومعه الرجلان . والنبي ومعه الرهط . والنبي وليس معه أحد . ورأيت سواداً كثيراً - وفي رواية : فإذا الظُّرَابُ ممتلئة بالرجال - فقلت : هذه أمتي ؟ فقيل : هؤلاء بنو إسرائيل . ولكن انظر هكذا وهكذا . فرأيت سواداً كثيراً قد سَدَّ الأفق . قيل : هؤلاء أممك . ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب فتفرق الناس . ولم يبين لهم . فتذاكر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : أما نحن فولدنا في الشرك ، ولكننا آمننا بالله ورسوله . ولكن هؤلاء أبناؤنا ؟ فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم . فقال : هم الذين لا يكتون . ولا يسترقون . ولا يتطيرون . وعلى ربهم يتوكلون . فقام عكاشة بن محصن . فقال : أمنهم أنا يا رسول الله ؟ قال : نعم . فقام آخر ، فقال : أمنهم أنا ؟ فقال : سبقك بها عكاشة » .

ولهذا كان إجماع هذه الأمة حجة . لأن الله تعالى قد أخبر : أنهم يأمرون بكل معروف . وينهون عن كل منكر . فلو اتفقوا على إباحة محرم ، أو إسقاط واجب ، أو تحريم حلال ، أو إخبار عن الله تعالى أو خلقه بباطل : كانوا متصفين بالأمر بالمنكر ، والنهي عن المعروف . والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ليس من الكلم الطيب والعمل الصالح . بل الآية تقتضي : أن ما لم تأمر به الأمة : فليس من المعروف ، وما لم تنه عنه : فليس من المنكر . إذ كانت أمرة بكل معروف ، ناهية عن كل منكر . فكيف يجوز أن تأمر كلها بمنكر ، أو تنهى كلها عن معروف ؟ والله سبحانه وتعالى - كما أخبر بأنها تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر - فقد أوجب ذلك على الكفاية منها بقوله ( ٣ : ١٠٤ ) ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . وأولئك هم المفلحون ) .

وإذا أخبر الله بوقوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منها ، لم يكن من شرط ذلك : أن يصل أمر الأمر ونهي الناهي منها إلى كل مكلف في العالم . إذ ليس هذا من شرط تبليغ الرسالة . فكيف يشترط فيما هو من توابعها ؟ بل الشرط : أن يتمكن المكلفون من وصول ذلك إليهم . ثم إذا فرطوا فلم يسعوا في وصوله إليهم - مع قيام فاعله بما يجب عليه - كان التفريط منهم لامنه .

وكذلك وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا يجب على كل أحد بعينه . بل هو على الكفاية ، كما دل عليه القرآن .

ولما كان الجهاد من تمام ذلك : كان الجهاد أيضاً كذلك . فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه : أثم كل قادر بحسب قدرته . إذ هو واجب على كل إنسان بحسب قدرته . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه . فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان » .

وإذا كان كذلك ، فعلوم : أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإتمامه

بالجهاد : هو من أعظم المعروف الذى أمرنا به . ولهذا قيل « ليكن أمرك بالمعروف بالمعروف ، ونهيك عن المنكر غير منكر » .

### الأمر بالمعروف لا يكون إلا بالمعروف

وإذا كان هو من أعظم الواجبات أو المستحبات . فالواجبات والمستحبات لا بد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة . إذ بهذا بُعثت الرسل ، ونزلت الكتب . والله لا يجب الفساد . بل كل ما أمر الله به فهو صلاح . وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات . وذم الفساد والمفسدين فى غير موضع .

فحيث كانت مفسدة الأمر والنهى أعظم من مصلحته : لم يكن مما أمر الله به ، وإن كان قد ترك واجباً وفعل محرم . إذ المؤمن عليه أن يتقى الله فى عباد الله وليس عليه هداهم .

وهذا من معنى قوله تعالى ( ١٠٥ : ٥ ) يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم ) والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب . فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - كما قام بغيره من الواجبات - لم يضره ضلال الضال . وذلك يكون تارة بالقلب . وتارة باللسان . وتارة باليد .

فأما القلب : فيجب بكل حال . إذ لا ضرر فى فعله . ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « وذلك أدنى - أو أضعف - الإيمان » وقال « ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » وقيل لابن مسعود رضى الله عنه « من ميت الأحياء ؟ فقال : الذى لا يعرف معروفًا ، ولا ينكر منكرًا » وهذا هو المفتون الموصوف بأن قلبه « كالكوزِ مُجْحِيًّا »<sup>(١)</sup> فى حديث حذيفة بن اليمان

(١) المجحى - بفتح الجيم وكسر الحاء مشدداً - المائل عن الاستقامة والاعتدال . شبه القلب الذى لا يعى الخير بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شيء

رضى الله عنهما في الصحيحين « تعرض الفتن على القلوب عرض الحصر -  
الحديث » .

### من هم الآمرون بالمعروف !!؟

وهنا يغلط فريقان من الناس .

فريق يترك ما يجب عليه من الأمر والنهي ، تأويلا لهذه الآية . كما قال  
أبو بكر الصديق رضى الله عنه في خطبته « أيها الناس ، إنكم تقرؤون هذه الآية  
( ١٠٥ : ٥ ) عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ) وإنكم تضعونها على  
غير موضعها . وإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس إذا رأوا  
المنكر فلم يغيروه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » .

والفريق الثانى : من يريد أن يأمر وينهى - إما بلسانه ، وإما بيده - مطلقاً  
من غير فقه ، ولا حلم ولا صبر ، ولا نظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح ، وما يقدر  
وعليه وما لا يقدر ، كما فى حديث أبى ثعلبة الخشنى سألت عنها - يعنى الآية -  
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « بل اثمروا بالمعروف ، وانهاوا عن المنكر .  
حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى  
برأيه . ورأيت أمراً لا يدان لك به ، فعليك بنفسك . ودع عنك أمر العوام . فإن  
من ورائك أيام الصبر . الصبر فيهن مثل قبض على الحجر . للعامل فيهن كأجر  
خمسين رجلاً يعملون مثل عمله » .

فيأتى بالأمر والنهى معتقداً أنه مطيع لله ورسوله . وهو معتد فى حدوده ،  
كما نصب كثير من أهل البدع والأهواء نفسه للأمر والنهى ، كالخوارج والمعتزلة  
والرافضة وغيرهم ممن غلط فيما أتاه من الأمر والنهى والجهاد على ذلك . وكان  
فساده أعظم من صلاحه .

ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم « بالصبر على جور الأئمة . ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة » وقال « أدوا إليهم حقوقهم . وسلوا الله حقوقكم » .  
وقد بسطنا القول في ذلك في غير هذا الموضوع .  
لزوم السنة والجماعة

ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة : لزوم الجماعة ، وترك قتال الأئمة ، وترك ، القتال في الفتنة .

وأما أهل الأهواء - كالمعتزلة - فيرون القتال للأئمة من أصول دينهم .  
وتجعل المعتزلة أصول دينهم خمسة « التوحيد » الذى هو سلب الصفات .  
و « العدل » الذى هو التكذيب بالقدر . و « المنزلة بين المنزلتين » و « إنفاذ الوعيد » و « الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر » الذى فيه قتال الأئمة .  
وقد تكلمتُ على قتال الأئمة في غير هذا الموضوع .

وجماع ذلك : داخل في القاعدة العامة ، فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد ،  
والحسنيات والسيئات ، أو تراحت . فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت  
المصالح والمفاسد ، وتعارضت المصالح والمفاسد .

فإن الأمر والنهى - وإن كان متضمنا لتحصيل مصلحة ، ودفع مفسدة -  
فينظر في المعارض له . فإن كان الذى يفوت من المصالح ، أو يحصل من المفاسد :  
أكثر . لم يكن مأموراً به ، بل يكون محرماً ، إذا كانت مفسدته أكثر من  
مصلحته .

### الاعتبار بالمصالح والمفاسد

لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة .  
فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص : لم يعدل عنها ، وإلا اجتهد رأيه  
لمعرفة الأشباه والنظائر . وقُلَّ إن تُعَوِّزَ النصوص من يكون خبيراً بها وبدلالاتها  
على الأحكام .



وعلى هذا : إذا كان الشخص والطائفة جامعين بين معروف ومنكر ، بحيث لا يفرقون بينهما ، بل إما أن يفعلوها جميعاً ، أو يتركوها جميعاً : لم يحز أن يؤمروا بـمعروف ، ولا أن ينهوا عن منكر ، بل ينظر . فإن كان المعروف أكثر : أمر به . وإن استأزم ماهو دونه من المنكر . ولم ينه عن منكر يستلزم تقويت معروف أعظم منه ، بل يكون النهى حينئذ من باب الصد عن سبيل الله ، والسعى في زوال طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وزوال فعل الحسنات .

وإن كان المنكر أغلب : نهى عنه . وإن استأزم فوات ماهو دونه من المعروف ويكون الأمر بذلك المعروف ، المستأزم للمنكر الزائد عليه : أمراً بمنكر ، وسعياً في معصية الله ورسوله .

وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان : لم يأمر بهما . ولم ينه عنهما . فتارة يصلح الأمر ، وتارة يصلح النهى ، وتارة لا يصلح لأمر ولا نهى ، حيث كان المعروف والمنكر متلازمين . وذلك في الأمور المعينة الواقعة .

وأما من جهة النوع : فيؤمر بالمعروف مطلقاً ، وينهى عن المنكر مطلقاً . وفي الفاعل الواحد والطائفة الواحدة : يؤمر بمعرفها ، وينهى عن منكرها . ويحمد محمودها . ويذم مذمومها ، بحيث لا يتضمن الأمر بمعروف فوات معروف أكبر منه ، أو حصول منكر فوقه . ولا يتضمن النهى عن المنكر حصول ماهو أنكر منه ، أو فوات معروف أرجح منه .

وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن ، حتى يتبين له الحق . فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونية . وإذا تركها كان عاصياً . فترك الأمر الواجب معصية . وفعل ما نهى عنه من الأمر معصية . وهذا باب واسع . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

هدى رسول الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ومن هذا الباب : ترك النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أبي ابن سلول وأمثاله من أئمة النفاق والفجور ، لما لهم من أعوان . فإزالة منكره بنوع من عقابه

مستلزمة إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحميتهم ، وبنفور الناس إذا سمعوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل أصحابه . ولهذا لما خطب الناس في قضية الإفك بما خطبهم به ، واعتذر عنه ، وقال له سعد بن معاذ قوله الذي أحسن فيه : حمى له سعد بن عبادة - مع حسن إيمانه وصدقه - وتعصب لكل منهم قبيلة حتى كادت تكون فتنة .

وأصل هذا : أن تكون محبة الإنسان للمعروف وبغضه ، وإرادته لهذا وكرهاته لهذا : موافقاً لحب الله وبغضه ، وإرادته وكرهاته الشرعيين . وأن يكون فعله للمحبوب ، ودفعه للمكروه ، بحسب قوته وقدرته . فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها . وقد قال ( ٦٤ : ١٦ ) فاتقوا الله ما استطعتم )

### الموالاتة والمعاداة القلبية

فأما حب القلب وبغضه ، وإرادته وكرهاته : فينبغي أن تكون كاملة جازمة ، لا توجد نقص ذلك إلا بنقص الإيمان . وأما فعل البدن : فهو بحسب قدرته .

ومتى كانت إرادة القلب وكرهاته كاملة تامة ، وفعل العبد معها بحسب قدرته . فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل ، كما قد بيناه في غير هذا الموضوع .

فإن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكرهاته بحسب محبة نفسه وبغضها ، لا بحسب محبة الله ورسوله ، وبغض الله ورسوله . وهذا من نوع الهوى . فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه ( ٢٨ : ٥٠ ) ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ ) فإن أصل الهوى : هو محبة النفس . ويتبع ذلك بغضها .

### حقيقة الهوى

ونفس الهوى - وهو الحب والبغض الذي في النفس - لا يلام العبد عليه . فإن ذلك قد لا يملكه . وإنما يلام على اتباعه ، كما قال تعالى ( ٣٨ : ٢٦ ) يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض . فاحكم بين الناس بالحق . ولا تتبع الهوى فيضلك

عن سبيل الله ) وقال تعالى ( ٢٨ : ٥٠ ) ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « ثلاث منجيات : خشية الله في السر والعلانية ، والقصد في الفقر والغنى . وكلمة الحق في الغضب والرضى . وثلاث مهلكات : شح مطاع . وهوى متبع . وإعجاب المرء بنفسه » .

والحب والبغض يتبعه ذوق عند وجود المحبوب والمبغوض ، ووجد وإرادة وغير ذلك . فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله : فهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله . بل قد يتبادى به الأمر إلى أن يتخذ إلهه هواه .

واتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في المشتبهات .

فإن الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، كما قال الله تعالى ( ٢٨ : ٥٠ ) فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله . والله لا يهدي القوم الظالمين ) وقال تعالى ( ٣٠ : ٢٨ ، ٢٩ ) ضرب لكم مثلا من أنفسكم . هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم . فأنتم فيه سواء ، تخافونهم كيخفتم أنفسكم ؟ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون . بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم . فمن يهدي من أضل الله ؟ وما لهم من ناصرين ) وقال تعالى ( ٦ : ١١٩ ) وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه . وإن كثير ليضلون بأهوائهم بغير علم . إن ربك هو أعلم بالمعتدين ) وقال تعالى ( ٥ : ٧٧ ) قل : يا أهل الكتاب ، لاتعولوا في دينكم غير الحق . ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيرا . وضلوا عن سواء السبيل ) وقال تعالى ( ٢ : ١٢٠ ) ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملثهم . قل : إن هدى الله هو الهدى . ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير ) وقال في الآية الأخرى ( ٢ : ١٤٥ ) ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ) وقال تعالى ( ٥ : ٤٩ ) وأن أحكم بينهم بما أنزل الله . ولا تتبع أهواءهم . واحذروهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ) .

ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة - من المنسويين إلى العلماء والعباد - يجعل من أهل الأهواء ، كما كان السلف رحمهم الله يسمونهم « أهل الأهواء » .

وذلك : أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه . والعلم بالدين لا يكون إلا بهدى الله الذي بعث به رسوله صلى الله عليه وسلم . ولهذا قال تعالى في موضع (٦ : ١١٩) وإن كثيراً يضلون بأهوائهم بغير علم) وقال في موضع آخر (٢٨ : ٥٠) ومن أضل ممن تتبع هواه بغير هدى من الله ؟ .

فالواجب على العبد : أن ينظر في نفس حبه وبغضه . ومقدار حبه وبغضه : هل هو موافق لأمر الله ورسوله ؟ وهو هدى الله الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، بحيث يكون مأموراً بذلك الحب والبغض . لا يكون متقدماً فيه بين يدي الله ورسوله . فإن الله تعالى قد قال (٤٩ : ١) يا أيها الذين آمنوا لا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

ومن أحب أو أبغض قبل أن يأمره الله ورسوله : ففيه نوع من التقدم بين يدي الله ورسوله . ومجرد الحب والبغض هووى . لكن المحرم منه : اتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله . ولهذا قال لنبيه داود (٣٨ : ٢٦) ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد) . فأخبر : أن من اتبع هواه : أضله ذلك عن سبيل الله . وسبيل الله هو هداه الذي بعث به رسوله ، وهو السبيل إليه .

### الإخلاص واتباع السنة شرط قبول العمل

وتحقيق ذلك : أن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر : هو من أوجب الأعمال وأفضلها وأحسنها . وقد قال تعالى (٦٧ : ٢) ليلوكم : أيكم أحسن عملاً ؟) وهو كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله : أخلصه وأصوبه . فإن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صواباً : لم يقبل . وإذا كان صواباً ، ولم يكن خالصاً : لم

يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص : أن يكون لله . والصواب : أن يكون على السنة .

فالعمل الصالح : لا بد أن يراد به وجه الله تعالى . فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه وحده . كما في الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء . وهو كله للذي أشرك »<sup>(١)</sup> .

### التوحيد الذي بعث الله به رسوله

وهذا هو التوحيد الذي هو أصل الإسلام . وهو دين الله الذي بعث به جميع رسله . وله خلق الخلق ، وهو حقه على عباده : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . ولا بد - مع ذلك - أن يكون العمل صالحاً ، وهو ما أمر الله به ورسوله ، وهو الطاعة . فكل طاعة عمل صالح ، وكل عمل صالح طاعة . وهو العمل المشروع المسنون : إذ العمل المشروع المسنون : هو الأمور به أمر إيجاب ، أو استحباب . وهو العمل الصالح . وهو الحسن . وهو البر . وهو الخير . وضده : المعصية . والعمل الفاسد . والسيئة . والفجور . والظلم .

ولما كان العمل لا بد فيه من شيئين : النية ، والحركة . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « أصدق الأسماء حارث ، وهام » فكل أحد حارث هام : له عمل ونية . لكن النية المحمودة التي يقبلها الله ، ويثيب عليها : هي أن يراد الله وحده بذلك العمل .

والعمل المحمود : هو الصالح ، وهو الأمور به . ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول في دعائه « اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » .

(١) رواه ابن ماجه ، واللفظ له ، وابن خزيمة في صحيحه والبيهقي .

وإذا كان هذا حدًّا كل عمل صالح ، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :  
يجب أن يكون كذلك ، هذا في حق الأمر الناهي نفسه .

### العلم والفقہ شرط في الأمر الناهي

ولا يكون عمله صالحاً إن لم يكن بعلم وفقه . كما قال عمر بن عبد العزيز  
رضي الله عنه « مَنْ عَبَدَ اللَّهَ بغير علم : كان ما يفسد أكثر مما يصلح » وكما في  
حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه « العلم أمام العمل ، والعمل تابعه » وهذا  
ظاهر . فإن القصد والعمل : إن لم يكن بعلم كان جهلاً ، وضلالاً ، واتباعاً للهوى ،  
كما تقدم . وهذا هو الفرق بين أهل الجاهلية ، وأهل الإسلام . فلا بد من العلم  
بالمعروف والمنكر ، والتمييز بينهما . ولا بد من العلم بحال الأمور وحال المنهى .

### الصراط المستقيم في الأمر بالمعروف

ومن الصلاح : أن يأتي بالأمر والنهي على الصراط المستقيم . والصراط  
المستقيم : أقرب الطرق الموصل إلى حصول المقصود .

ولا بد في ذلك من الرفق . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « ما كان الرفق  
في شيء إلا زانه . ولا كان العنف في شيء إلا شانه » وقال صلى الله عليه وسلم  
« إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله ، ويُعطى عليه ما لا يُعطى على العنف »  
ولا بد أيضاً أن يكون حليماً ، صبوراً على الأذى . فإنه لا بد أن يحصل له  
أذى . فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، كما قال لقمان لابنه  
( ٣١ : ١٧ ) وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر . واصبر على ما أصابك . إن ذلك من  
عزم الأمور ) .

ولهذا أمر الله الرسل - وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - بالصبر ،  
كقوله لخاتم الرسل صلى الله عليه وسلم ، بل ذلك مقرون بتبليغ الرسالة . فإن  
أول ما أرسل أنزلت عليه سورة (يا أيها المدثر) بعد أن أنزلت عليه سورة « اقرأ »  
التي بها نبي . فقال الله تعالى ( ٧٤ : ١ - ٧ ) يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك

فكبر . وثيابك فطهر . والرُّجْزَ فَاهْجُرْ . ولا تَمُنُّنْ تَسْتَكْثِرْ . ولربك فاصبر .  
فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالندارة . وختمها بالأمر بالصبر . ونفس  
الإنداز أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر . فَعَلِمَ أَنَّهُ يَجِبُ بَعْدَ ذَلِكَ الصَّبْرُ . وقال  
تعالى ( ٥٢ : ٤٨ ) واصبر لحكم ربك . فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ) وقال تعالى ( ٧٣ : ١٠ )  
فاصبر على ما يقولون واهجرم هجرًا جميلًا ) وقال ( ٤٦ : ٣٠ ) فاصبر كما صبر أولو  
العزم من الرسل ) وقال ( ٦٨ : ٤٨ ) فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب  
الحوت ) وقال ( ١٦ : ١٢٧ ) واصبر وما صبرك إلا بالله ) وقال ( ١١ : ١١٦ ) واصبر  
فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ) .

فلا بد من هذه الثلاثة : العلم ، والرفق ، والصبر . العلم قبل الأمر والنهي .  
والرفق معه . والصبر بعده .

وإن كان كل من الثلاثة لا بد أن يكون مستصحبًا في هذه الأحوال .

وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف - ورووه مرفوعاً - ذكره القاضي  
أبو يعلى في المعتمد « لا يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر : إلا من كان فقيهاً  
فيما يأمر به . فقيهاً فيما ينهى عنه . رفيقاً فيما يأمر به . رفيقاً فيما ينهى عنه . حليماً  
فيما يأمر به . حليماً فيما ينهى عنه » .

لا ينبغي ترك الأمر بالمعروف لصعوبته

وليعلم : أن الأمر بهذه الخصال في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر : مما  
يوجب صعوبته على كثير من النفوس . فيظن أنه بذلك يسقط عنه فידعه . وذلك  
مما يضره أكثر مما يضره الأمر بدون هذه الخصال ، أو أقل . فإن ترك الأمر  
الواجب معصية ، وفعل ما نهى الله عنه في الأمر معصية . فالمنتقل من معصية إلى  
معصية أكبر منها كالمستجير من الرمضاء بالنار . والمنتقل من معصية إلى معصية  
كالمنتقل من دين باطل إلى دين باطل ، قد يكون الثاني شرًّا من الأول . وقد  
يكون دونه ، وقد يكونان سواء . فهكذا تجد المقصر في الأمر والنهي ، والمعتدى  
فيه . قد يكون ذنب هذا أعظم ، وقد يكون ذنب هذا أعظم ، وقد يكونان سواء .

### سبب المصائب : السيئات . وسبب النعم : الطاعة

ومن المعلوم - بما أَرانا الله من آياته في الآفاق ، وفي أنفسنا ، وبما شهد به في كتابه - : أن المعاصي سبب المصائب . فسيئات المصائب والجزاء : من سيئات الأعمال . وأن الطاعة سبب النعمة . فإحسان العبد العمل سبب لإحسان الله . قال تعالى ( ٤٢ : ٣٠ ) وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم . ويعفو عن كثير ) وقال تعالى ( ٤ : ٧٩ ) ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ) وقال تعالى ( ٣ : ١٥٥ ) إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا . ولقد عفا الله عنهم ) وقال تعالى ( ٣ : ١٦٥ ) أَوْ لَمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها . قلتم : أئى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم ) وقال ( ٤٢ : ٣٤ ) أَوْ يُؤْتِيَهُنَّ بما كسبوا ويعف عن كثير ) وقال ( ٤٢ : ٤٨ ) وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ) وقال تعالى ( ٨ : ٣٣ ) وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم . وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ) .

وقد أخبر الله سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم - كقوم نوح وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وقوم فرعون - في الدنيا . وأخبر بما سيعاقبهم به في الآخرة . ولهذا قال مؤمن آل فرعون ( ٤٠ : ٣٠ - ٣٣ ) يا قوم ، إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم . وما الله يريد ظالماً للعباد . ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ، ما لكم من الله من عاصم . ومن يضل الله فما له من هاد ) .

وقال تعالى ( ٦٨ : ٣٣ ) كذلك العذاب . ولعذاب الآخرة أكبر ) وقال ( ٩ : ١٠١ ) سنعذبهم مرتين ، ثم يردون إلى عذاب عظيم ) وقال ( ٣٢ : ٢١ ) ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ) وقال ( ٤٤ : ١٠ - ١٦ ) فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين - إلى قوله - يوم نبطش البطشة الكبرى . إنا منتقمون ) .



ولهذا يذكر الله في عامة سور الإنذار ما عاقب به أهل السيثات في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة . وقد يذكر في السورة وعد الآخرة فقط . إذ عذاب الآخرة أعظم ، وثوابها أعظم . وهي دار القرار . وإنما يذكر ما يذكره من الثواب والعقاب في الدنيا تبعاً . كقوله في قصة يوسف ( ١٢ : ٥٦ ، ٥٧ ) وكذلك مَكَّنَّا ليوسف في الأرض . يتبوءاً منها حيث يشاء . نصيب برحمتنا من نشاء . ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ) وقال ( ٣ : ١٤٨ ) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ) وقال ( ١٦ : ٤١ ، ٤٢ ) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبُوأَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ . وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ) وقال عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ( ١٦ : ١٢٢ ) وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا . وَإِنَّ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ الصَّالِحِينَ ) .

وأما ذكره لعقوبة الدنيا والآخرة في سورة النازعات ، إذ قال ( ٧٩ : ١ - ٤٦ ) وَالنَّازِعَاتُ غُرُقًا وَالنَّاشِطَاتُ نَشْطًا - ثُمَّ قَالَ - يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ يَتَّبِعُنَا الرَّادِفَةُ ) فذكر القيامة مطلقاً . ثم قال ( هل أتاك حديث موسى ؟ إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى . اذهب إلى فرعون إنه طغى - إلى قوله - إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ) ثم ذكر المبدأ والمعاد مفصلاً . فقال ( أأنتم أشد خلقاً ، أم السماء ؟ بناها - إلى قوله - فإذا جاءت الطامة الكبرى - إلى قوله - فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ) إلى آخر السورة .

وكذلك في سورة المزمل ذكر قوله ( ٧٣ : ١١ - ١٦ ) وَذُرِّيِّ الْمَكِيدِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا . إِنْ لَدِينَا نُنكَالُكُمْ وَإِجْحَامًا . وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا - إلى قوله - كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول . فأخذناه أخذًا وَيْلًا ) .

وكذلك في سورة الحاقة ذكر قصص الأمم - كشمود ، وعاد ، وفرعون -

ثم قال تعالى ( ٦٩ : ١٢-٣٦ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، ومُحِلَّتِ الْأَرْضُ والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً واحدة ) إلى تمام ما ذكره من أمر الجنة والنار .

وكذلك في سورة « ن والقلم » ذكر قصة أهل البستان الذين منعوا حق أموالهم وما عاقبهم به . ثم قال ( ٦٨ : ٣٣ كذلك العذاب . ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ) .

وكذلك في سورة « النغبان » قال ( ٦٤ : ٥-٧ ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل ، فذاقوا وبال أمرهم ؟ ولهم عذاب أليم . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات . فقالوا : أبشر يهدوننا ؟ فكفروا وتولوا . واستغنى الله . والله غنى حميد ) ثم قال تعالى ( زعم الذين كفروا : أن لن يبعثوا . قل : بلى ، وربى لتبعثن ) ثم لَتُنَبِّؤُنَّ بما علمتم ، وذلك على الله يسير .

وكذلك في سورة « ق » ذكر حال المخالفين للرسول ، وذكر الوعد والوعد في الآخرة .

وكذلك في سورة « القمر » ذكر هذا وهذا . وكذلك في آل حم مثل « حم غافر » و « السجدة » و « الزخرف » و « الدخان » وغير ذلك ، إلى غير ذلك مما لا يحصى .

فإن التوحيد والوعد والوعد من أول ما أنزل ، كما في صحيح البخارى عن يوسف بن ماهك قال « إني عند عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، إذ جاءها عراقي . فقال : أى الكفن خير ؟ قالت : ويحك ، وما يضرك ؟ قال : يأثم المؤمنين ، أرىنى مصحفك . قالت : لم ؟ قال : لعلي أولف القرآن عليه . فإنه يُقرأ غير مؤلف . قالت : وما يضرك أيتها قرأت قبل ؟ إنما نزل أول ما نزل منه : سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام . ثم نزل الحلال والحرام . ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً . ولو نزل : لا تزنا ، لقالوا : لا ندع الزنا أبداً . لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم - وإني لجارية

حديثه السن العَبُّ - ( ٥٤ : ٤٦ بل الساعة مَوْعِدُهُمُ والساعةُ أَدَهَى وأمرٌ )  
وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده . قال : فأخرجت له المصحف ، فأملت  
عليه آى السورة .

وإذا كان الكفر والفسوق والمعصيان سبب الشر والعدوان ، فقد يذنب  
الرجل والطائفة ، ويسكت آخرون عن الأمر والنهى . فيكون ذلك من ذنوبهم .  
وينكر عليهم آخرون إنكاراً منهياً عنه ، فيكون ذلك من ذنوبهم . فيحصل  
التفرق والاختلاف والشر . وهذا من أعظم الفتن والشُرور قديماً وحديثاً . إذ  
الإنسان ظلوم جهول . والظلم والجهل أنواع . فيكون ظلم الأول وجهله من نوع ،  
وظلم كل من الثانى والثالث وجهلهما من نوع آخر وآخر .

### أسباب الفتن

ومن تدبر الفتن الواقعة رأى سببها ذلك . ورأى أن ما وقع بين أمراء الأمة  
وعلمائها ، ومن دخل فى ذلك من ملوكها ومشايخها ، ومن تبعهم من العامة من  
الفتن هذا أصلها . ويدخل فى ذلك أسباب الضلال والنهى : الأهواء الدينية  
والشهوانية ، البدع فى الدين ، والفجور فى الدنيا .

وذلك أن أسباب الضلال والنهى ، التى هى البدع فى الدين والفجور فى  
الدنيا : مشتركة ، تعم بنى آدم ، لما فيهم من الظلم والجهل . فيذنب بعض الناس  
بظلم نفسه وغيره - بفعل الزنا أو التلوط أو غيره ، أو بشرب خمر . أو ظلم فى المال  
بخيانة أو سرقة ، أو غضب ونحو ذلك .

ومعلوم أن هذه المعاصى - وإن كانت مستقبحة مذمومة فى العقل والدين -  
فهى مشتبهة فى الطباع أيضاً . ومن شأن النفوس : أنها لا تحب اختصاص غيرها  
بشئ ، وزيادته عليها ، لكن تريد أن يحصل لها ما حصل له . وهذا هو الغبطة  
التى هى أدنى نوعى الحسد . فهى تريد الاستعلاء على الغير ، والاستئثار دونه ،  
أو تحسده وتمنى زوال النعمة عنه ، وإن لم يحصل . ففيتها من إرادة العلو والفساد

والاستكبار والحسد ما يتقاضاها : أن تختص عن غيرها بالشهوات . فكيف إذا  
رأت الغير قد استأثر عليها بذلك ، واختص به دونها ؟ فالمعتدل منهم في ذلك :  
الذي يحب الاشتراك والتساوى . وأما الآخر : فظلوم حسود .  
وهذان يقعان في الأمور المباحة والأمور المحرمة لحق الله .

فما كان جنسه مباحاً - من أكل وشرب ، ونكاح ، ولباس ، وركوب ،  
وأموال - إذا وقع فيها الاختصاص : حصل بسببه الظلم والبخل والحسد .

وأصلها الشح . كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إياكم  
والشح . فإنه أهلك من كان قبلكم . أمرهم بالبخل فبخلوا . وأمرهم بالظلم فظلموا .  
وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » ولهذا قال الله تعالى في وصف الأنصار ( ٥٩ : ٩ ) والذين  
تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ( أى من قبل المهاجرين ) يحبون من هاجر إليهم  
ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ( أى لا يجدون الحسد مما أوتى إخوانهم  
من المهاجرين ) ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ( ثم قال ) ومن  
يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ) .

وسمع عبد الرحمن بن عوف وهو يطوف بالبيت يقول « رَبِّ قِنِي شَحَّ  
نَفْسِي . رب قني شح نفسي » فقيل له في ذلك . فقال « إذا وقيت شح نفسي فقد  
وقيت البخل والظلم والقطيعة » أو كما قال .

فهذا الشح - الذى هو شدة حرص النفس - : يوجب البخل بمنع ما عليه ،  
والظلم يأخذ مال الغير . ويوجب قطيعة الرحم . ويوجب الحسد . وهو كراهة  
ما اختص به الغير وتمنى زواله والحسد فيه بخل ، وظلم . فإنه بخل بما أعطيه عن  
غيره . وظلم بطلب زوال ذلك عنه .

فإذا كان هذا في جنس الشهوات المباحة ، فكيف بالحرمة ، كالزنا وشرب الخمر  
ونحو ذلك ؟ وإذا وقع فيها اختصاص ، فإنه يصير فيها نوعان .

أحدها : بغضها لما في ذلك من الاختصاص والظلم ، كما يقع في الأمور المباحة الجنس .

والثاني : بغضها لما في ذلك من حق الله .

### الذنوب ثلاثة أقسام

ولهذا كانت الذنوب ثلاثة أقسام .

أحدها : ما فيه ظلم للناس ، كالظلم بأخذ الأموال ، ومنع الحقوق ، والحسد ونحو ذلك .

والثاني : ما فيه ظلم للنفس فقط ، كشرب الخمر والزنا ، إذا لم يتعد ضررها .

والثالث : ما يجتمع فيه الأمران . مثل أن يأخذ المتولى أموال الناس ليزني

بها ويشرب بها الخمر . ومثل أن يزني بمن يرفعه على الناس بذلك السبب ويضرمه ،

كما يقع ممن يحب بعض النساء والصبيان . وقد قال الله تعالى ( ٧ : ٣٣ ) قل إنما حرم

ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله

ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ) .

### إنما تستقيم أمور الناس بالعدل

وأموار الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي قد يكون فيه الاشتراك في

بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق ، وإن لم تشترك في إثم .

ولهذا قيل : إن الله يقيم الدولة العادلة ، وإن كانت كافرة . ولا يقيم الظالمة ،

وإن كانت مسلمة .

ويقال : الدنيا تدوم مع العدل والكفر . ولا تدوم مع الظلم والإسلام <sup>(١)</sup> .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « ليس ذنب أسرع عقوبة من البغى وقطيعة

الرحم » فالباغى يصرع في الدنيا ، وإن كان مغفورا له مرحوما في الآخرة .

(١) يقصد الظاهر من شرائع الإسلام . أما الإسلام الصادق - علما وعقيدة

وعملا : فلا يكون معه ظلم .

وذلك : أن العدل نظام كل شيء . فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت ، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق . ومتى لم تقم بالعدل لم تقم . وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة .

### طبيعة النفس حب العلو

فالنفس فيها داعي الظلم لغيرها بالعلو عليه ، والحسد له ، والتعدى عليه في حقه . وفيها داعي الظلم لنفسها بتناول الشهوات القبيحة - كالزنا وأكل الخبائث - فهي قد تظلم من لا يظلمها . وتؤثر هذه الشهوات ، وإن لم يفعلها غيرها . فإذا رأيت نظراءها قد ظلموا ، أو تناولوا هذه الشهوات : صار داعي هذه الشهوات أو الظلم فيها أعظم بكثير .

وقد يصير ويهيج ذلك لها من بغض ذلك الغير وحسده ، وطلب عقابه ، وزوال الخير عنه ، ما لم يكن فيها قبل ذلك . ولها حجة عند نفسها من جهة العقل والدين ، يكون ذلك الغير قد ظلم نفسه والمسلمين . وأن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر والجهاد على ذلك من الدين .

والناس هنا ثلاثة أقسام : قوم لا يقومون إلا في أهواء نفوسهم . فلا يرضون إلا بما يعطونه ، ولا يفضنون إلا لما يجرمونه . فإذا أعطى أحدهم ما يشتهي من الشهوات الحلال أو الحرم : زال غضبه . وحصل رضاه . وصار الأمر الذي كان عنده منكراً - ينهى عنه ويعاقب عليه ، ويذم صاحبه ، ويفضض عليه - صار فاعلاً له ، وشريكاً فيه ، ومعاوناً عليه ، ومعادياً لمن ينهى عنه وينكر عليه .

وهذا غالب في بني آدم . ترى الإنسان يسمع من ذلك ما لا يحصيه إلا الله . وسببه : أن الإنسان ظلم جهول . فلذلك لا يعدل ، بل ربما كان ظالماً في الحالين . يرى قوماً ينكرون على المتولى ظلمه لرعيته ، واعتدائه عليهم . فيرضى أولئك المنكرين ببعض الشيء ، فينقلبون أعواناً له . وأحسن أحوالهم : أن يسكتوا عن الإنكار عليه . وكذلك تراهم على من يشرب الخمر ويؤذي ، ويسمع الملامى ،

حتى يدخلوا أحدهم معهم في ذلك ، أو يرضوه ببعض ذلك . فتراه حينئذ قد صار عوناً لهم .

وهؤلاء قد يعودون بإنكارهم إلى أفبح من الحال التي كانوا عليها . وقد يعودون إلى ما هو دون ذلك أو نظيره .

وقوم يقومون قومة ديانة صحيحة ، يكونون في ذلك مخلصين لله ، مصلحين فيما عملوه ، ويستقيم لهم ذلك ، حتى يصبروا على ما أودوا . فهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وهم من خير أمة أخرجت للناس . يأمرهم بالمعروف . وينهون عن المنكر . ويؤمنون بالله .

وقوم يجتمع فيهم هذا وهذا . وهم من غالب المؤمنين . فمن فيه دين وله شهوة يجتمع في قلبه إرادة الطاعة وإرادة المعصية . وربما غلب هذا تارة وهذا تارة .

وهذه القسمة الثلاثية كما قيل : الأنفس ثلاث : أمارة ، ولوامة ، ومطمئنة . فالأولون : هم أهل النفس الأمارة التي تأمر بالسوء . والوسط : هم أهل النفس المطمئنة التي يقال لها ( ٨٩ : ٢٧ - ٣٠ ) يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي ) وهؤلاء هم أهل النفس اللوامة ، التي تفعل الذنب ثم تلوم عليه . وتتلون . تارة كذا وتارة كذا . وتخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

ولهذا لما كان الناس في زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما - وهما اللذان أمر المسلمون بالاعتداء بهما - كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « اقتدوا بالذين من بعدي : أبي بكر وعمر » لما كان الناس أقرب عهداً بالرسالة ، وأعظم إيماناً وصلاًحاً ، وأتمتهم أقوم بالواجب ، وأثبت في الطمأنينة : لم تقع فتنة . إذ كانوا في حكم القسم الوسط .

ولما كان في آخر خلافة عثمان ، وفي خلافة علي رضي الله عنهما كثر القسم

الثالث . فصار فيهم شهوة وشبهة ، مع الإيمان والدين . قد صار ذلك في بعض الولاة وبعض الرعايا . ثم كثر ذلك بعد . فنشأت الفتنة التي سببها ماتقدم - من عدم تمحيص التقوى والطاعة في الطرفين ، واختلاطهما بنوع من الهوى والمعصية في الطرفين - وكل منهما متناول : أنه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وأنه مع الحق والعدل . ومع هذا التأويل نوع من الهوى . ففيه نوع من الظن وماتهوى الأنفس ، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحق من الأخرى .

فهذا يجب على المؤمن أن يستعين بالله ، ويتوكل عليه في أن يعمر قلبه بالإيمان والتقوى ، ولا يزيغه ، ويثبتته على الهدى والتقوى ، ولا يتبع الهوى ، كما قال تعالى ( ٤٢ : ١٥ ) فلذلك فادع . واستقم كما أمرت . ولا تتبع أهواءهم . وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب . وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم ) وهذا أيضاً حال الأمة فيما تفرقت فيه ، واختلفت في المقالات والعبادات .

وهذه الأمور مما تعظم بها الحنة على المؤمنين . فإنهم محتاجون إلى شينين : إلى دفع الفتنة التي ابتلى بها نظراؤهم - من فتنة الدين والدنيا - عن نفوسهم ، مع قيام المقتضى لها . فإن معهم نفوساً وشياطين ، كما مع غيرهم . فمع وجود ذلك من نظائرهم يقوى المقتضى عندهم ، كما هو الواقع . فيبقى الداعى الذى فى نفس الشيطان وشيطانه . ودواعى الخير كذلك ، وما يحصل من الداعى بفعل الغير والنظير .

فكم من الناس من لم يرد خيراً ولا شراً ، حتى رأى غيره - لاسيما إن كان نظيره - يفعله ، ففعله . فإن الناس كأسراب القطا ، مجبولون على تشبه بعضهم ببعض . ولهذا كان المبتدئ بالخير وبالشر له من الأجر والوزر مثل من تبعه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « من سنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً . ومن سنَّ سنة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً »



وذلك لاشتراكهم في الحقيقة . وأن حكم الشيء حكم نظيره . وشبيه الشيء .  
منجذب إليه .

### دواعي الخير والشر

فإذا كان هذان داعيين قويين ، فكيف إذا انضم إليهما داعيان آخران .  
وذلك : أن كثيراً من أهل المنكر يحبون من يوافقهم على ما هم فيه ، ويبغضون  
من لا يوافقهم . وهذا ظاهر في الديانات الفاسدة : من موالاته كل قوم لموافقهم ،  
ومعاداتهم لمخالفهم . وكذلك في أمور الدنيا والشهوات : كثيراً ما يختار أهلها  
ويؤثرون من يشاركهم في أمورهم وشهواتهم ، إما للمعاونة على ذلك ، كما في  
المتغلبين من أهل الرياسات وقطاع الطريق ونحو ذلك . وإما لتلذذهم بالموافقة ،  
كما في المجتمعين على شرب خمر - مثلاً - فإنهم يحبون أن يشرب كل من حضر  
عندهم . وإما لكرهاتهم امتيازه عنهم بالخير : إما حسداً له على ذلك ، وإما لثلا  
يعلو عليهم بذلك ، ويحمله الناس دونهم . وإما لثلا يكون له عليهم حجة . وإما  
لخوفهم من معاقبته لهم بنفسه ، أو بمن يرفع ذلك إليهم ، أو لثلا يكونوا تحت منته  
وخطره ، ونحو ذلك من الأسباب . قال الله تعالى ( ٢ : ١٠٩ ) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ  
الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ - من بعد إيمانكم - كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم ، من  
بعد ما تبين لهم الحق ) وقال تعالى في المنافقين ( ٤ : ٨٩ ) وَذُؤا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا  
كَفَرُوا . فتكونون سواء ) وقال عثمان بن عفان رضی الله عنه « ودت الزانية لوزني  
النساء كلهن » .

والمشاركة : قد يختارونها في نفس الفجور ، كالأشتراك في الشرب ، والكذب  
والاعتقاد الفاسد . وقد يختارونها في النوع ، كالزاني الذي يود أن يزني غيره ،  
والسارق الذي يود أن يسرق غيره أيضاً ، لكن في غير العين التي زنى بها والتي  
سرقها .

وأما الداعي الثاني : فقد يأمرون الشخص بمشاركتهم فيما هم عليه من المنكر

فإن شاركهم وإلا عادوه ، وآذوه على وجه قد ينتهي إلى حد الإكراه ، أو لا ينتهي إلى حد الإكراه .

ثم إن هؤلاء الذين يختارون مشاركة الغير لهم في قبيح فعلهم ، أو يأمرونه بذلك ويستعينون به على ما يريدونه . فإنهم متى شاركهم وعاونهم وأطاعهم : انتقصوه واستخفوا به . وجعلوا ذلك حجة عليه في أمور أخرى . وإن لم يشاركهم عادوه وآذوه . وهذه حال غالب الظالمين القادرين .

وهذا الموجود في المنكر نظيره موجود في المعروف ، وأبلغ منه ، كما قال الله تعالى ( ٢ : ١٦٦ ) والذين آمنوا أشد حبا لله ) فإن داعي الخير أقوى . فإن الإنسان فيه داع يدعو إلى الإيمان والعلم ، والصدق والعدل ، وأداء الأمانة . فإذا وجد من يعمل ذلك مثله : صار له داع آخر ، لا سيما إذا كان نظيره . لاسيما مع المنافسة . وهذا محمود حسن .

فإن وجد من يحب موافقته على ذلك ، ومشاركته له ، من المؤمنين والصالحين ، ومن يبغضه إذا لم يفعل ذلك : صار له داع ثالث . فإذا أمره بذلك ووالوه على ذلك ، وعادوه وعاقبوه على تركه : صار له داع رابع .

### مقابلة السيئات بالحسنات

ولهذا يؤمر المؤمنون أن يقابلوا السيئات بضدها من الحسنات ، كما يقابل الطبيب المرض بضده . فيؤمر المؤمن بأن يصلح نفسه . وذلك بشيئين : بفعل الحسنات وترك السيئات ، مع وجود ما ينفي الحسنات ، ويقتضى السيئات . وهذه أربعة أنواع . ويؤمر أيضاً بإصلاح غيره بهذه الأنواع الأربعة ، بحسب قدرته وإمكانه . قال تعالى ( والعصر . إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق . وتواصوا بالصبر ) روى عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال « لو فكر الناس كلهم في سورة العصر لكفَّتْهم » وهو كما قال . فإن الله تعالى أخبر

فيها : أن جميع الناس خاسرون إلا من كان في نفسه : مؤمناً صالحاً ، ومع غيره :  
موصياً بالحق ، موصياً بالصبر .

وإذا عظمت المحنة كان ذلك للمؤمن الصالح سبباً لعلو الدرجة ، وعظيم الأجر .  
كما سئل النبي صلى الله عليه وسلم « أى الناس أشد بلاءاً ؟ قال : الأنبياء . ثم  
الصلحون . ثم الأمتل فالأمتل . يُبْتَلَى الرجل على حسب دينه . فإن كان في  
دينه صلابة : زيدَ في بلاءه . وإن كان في دينه رِقَّةٌ : خُفِّفَ عنه . وما يزال البلاء  
بالمؤمن حتى يمشى على وجه الأرض وليس عليه خطيئة » وحينئذ فيحتاج من  
إلى الصبر ما لا يحتاج إليه غيره . وذلك هو سبب الإمامة في الدين ، كما قال تعالى  
( ٣٢ : ٢٤ ) وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا . وكانوا بآياتنا يوقنون ( فلا بد  
من الصبر على فعل الحسن المأمور به ، وعلى ترك السيء المحظور المنهى عنه .

### الصبر على الأذى

ويدخل في ذلك : الصبر على الأذى ، وعلى ما يقال . والصبر على ما يصيبه  
من المكروه ، والصبر عن البطر عند النعم ، وغير ذلك من أنواع الصبر .  
ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به ، ويتنعم به ، ويتغذى به .  
وهو اليقين . كما في الحديث الذى رواه أبو بكر الصديق رضى الله عنه عن النبي  
صلى الله عليه وسلم أنه قال « أيها الناس ، سلوا الله اليقين والعافية . فإنه لم يعط  
أحد - بعد اليقين - خيراً من العافية . فسلوها الله » .

وكذلك إذا أمر غيره بحسن ، أو أحب موافقته له على ذلك ، أو نهى غيره  
عن سيء : فيحتاج أن يحسن إلى ذلك الغير إحساناً يحصل به مقصوده : من حصول  
الحبوب ، واندفاع المكروه . فإن النفوس لا تصبر على المر إلا بنوع من الخلو .  
لا يمكن غير ذلك . ولهذا أمر الله تعالى بتأليف القلوب ، حتى جعل للمؤلفة قلوبهم  
نصيبةً في الصدقات . وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ( ٧ : ١٩٩ ) خذ العفو  
وأمرٌ بالمعروف ، وأعرض عن الجاهلين ( وقال تعالى ( ٩٠ : ١٧ ) وتواصوا بالصبر

وتواصوا بالمرحمة) فلا بد أن يصبر وأن يرحم . وهذا هو الشجاعة والكرم .  
ولهذا يقرب الله بين الصلاة والزكاة تارة ، وهي الإحسان إلى الخلق . وبينها  
وبين الصبر تارة .

ولا بد من الثلاثة : الصلاة ، والزكاة ، والصبر . لا تقوم مصلحة المؤمنين  
إلا بذلك في صلاح نفوسهم ، وإصلاح غيرهم . لا سيما كلما قويت الفتنة والمحنة  
فإن الحاجة إلى ذلك تكون أشد .

### الحاجة إلى السماحة والصبر

فالحاجة إلى السماحة والصبر عامة لجميع بني آدم . لا تقوم مصلحة دينهم  
ولا دنياهم إلا بهما . ولهذا فإن جميعهم يتمادون بالشجاعة والكرم ، حتى إن ذلك  
عامة ما يمدح به الشعراء ومدوحهم في شعرهم . وكذلك يتذامون بالبخل والجبن .  
والقضايا التي يتفق عليها عقلاء بني آدم لا تكون إلا حقاً ، كانفاقهم على  
مدح الصدق والعدل ، وذم الكذب والظلم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم - لما  
سأله الأعراب ، حتى اضطروه إلى سمررة . فتعلقت بردائه - فالتفت إليهم ، وقال  
« والذي نفسى بيده ، لو أن عندي عدد هذا العِضاه نَعَمًا لقسمته فيكم . ثم  
لا تجدونى بخيلاً ، ولا جباناً ، ولا كذوباً » لكن يتنوع ذلك بتنوع المقاصد  
والصفات . فإما الأعمال بالنيات . وإما لكل امرئ ما نوى .

ولهذا جاء الكتاب والسنة بزم البخل والجبن ، ومدح الشجاعة والسماحة  
في سبيل الله ، دون ما ليس في سبيله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « شر ما في  
المرء : شُحُّ هَالع ، وجبن خالغ » وقال « من سيدكم يا بنى سلمة ؟ » فقالوا : الجُدُّ  
بن قيس ، على أنا نَزَرُنه بالبخل . فقال : « وأى داء أدوى من البخل ؟ » وفي  
رواية « إن السيد لا يكون بخيلاً . بل سيدكم : الأبيض الجعد ، البراء بن معرور »  
وكذلك في الصحيح قول جابر بن عبد الله لأبي بكر الصديق رضي الله عنهم

« إما أن تعطيني ، وإما أن تبخل عني . فقال : تقول : وإما أن تبخل عني ؟ وأى داء أدوى من البخل ؟ » فجعل البخل من أعظم الأمراض .  
 وفي صحيح مسلم عن سليمان بن ربيعة قال قال عمر رضى الله عنه « قسم النبي صلى الله عليه وسلم قنماً . فقلت : يا رسول الله ، والله لغير هؤلاء أحق به منهم . فقال : إنهم خيرونى بين أن يسألونى بالفحش وبين أن يُبخلونى . ولست بباخل » يقول : إنهم سألونى مسألة لا تصلح . فإن أعطيتهم وإلا قالوا : هو بجيل . فقد خيرونى بين أمرين مكرهين ، لا يتركونى من أحدهما : المسألة الفاحشة ، والتبخل . والتبخل أشد . فأدفع الأشد بإعطائهم .

### البخل وأنواعه

والبخل جنس تحته أنواع : كبار وغير كبار . قال تعالى ( ٣ : ١٨٠ )  
 ولا يحسن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم . بل هو شرٌّ لهم . سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا به يوم القيامة ) وقال ( ٦٤ : ٣ ، ٣٧ ) واعبدوا الله . ولا تشركوا به شيئاً . وبالوالدين إحساناً - إلى قوله - إن الله لا يحب من كان مختالاً فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ) وقال تعالى ( ٩ : ٥٤ ) وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله . ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ) وقال ( ٩ : ٧٦ ، ٧٧ ) فلما آتاهم من فضله بخلوا به . وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يَلْقَوْنَهُ ) وقال ( ٤٧ : ٣٨ ) ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ) وقال ( فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون ) وقال ( ٩ : ٢٤ ، ٢٥ ) والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعباب اليم . يوم يُحْمَى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم - الآية ) وكثير من الآي فى القرآن من الأمر بالإيتاء والإعطاء ، وذم من ترك ذلك كله ذمٌ للبخل .

## بحث في الجبن

وكذلك ذمه للجبن كثير في مثل قوله (١٦: ٨) ومن يؤمّن يومئذ دُبُرُه إلا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ، أو متحيزاً إلى فئة . فقد باء بغضب من الله . وماواه جهنم وبئس المصير) وقوله عن المنافقين (٩ : ٥٧) ويخلفون بالله إنهم لمنكم . وما هم منكم . ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأً أو مَفَارَاتٍ أو مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ) وقوله (٤٧ : ٢٠) فإذا أنزلت سورة مُحْكَمَةً وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ : رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) وقوله (٤ : ٧٧) ألم تر إلى الذين قيل لهم : كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ؟ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ ، أو أشد خشية . وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟ قل : متاع الدنيا قليل . والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فيها) .

وما في القرآن من الحض على الجهاد والترغيب فيه ، وذم الناكين عنه والتاركين له : كله ذم للجبن .

ولما كان صلاح بني آدم لا يتم - في دينهم ودنياهم - إلا بالشجاعة والكرم : بين الله سبحانه : أنه من تولى عنه - بترك الجهاد بنفسه - أبدل الله به من يقوم بذلك ومن تولى عنه - بانفاق ماله - أبدل الله به من يقوم بذلك . فقال (٩ : ٣٨ ، ٣٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَنَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ؟ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِنَّا نَنْفِرُوا بَعَذَابِكُمْ غَذَابًا آلِيمًا . وَيَسْتَبَدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ . وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا . وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وقال تعالى (٤٧ : ٣٨) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لَتَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ . فَمَنْكُمْ مَن يَبْخُلُ . وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ . وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ، وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ . وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ . ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالِكُمْ) . وبالشجاعة والكرم في سبيل الله فضل الله السابقين . فقال (٥٧ : ١٠)

لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا . وكلا وعد الله الحسنى ) وقد ذكر الجهاد بالنفس والمال في سبيله ، ومدحه في غير آية من كتابه . وذلك هو الشجاعة والسماحة في طاعته سبحانه . فقال ( ٢ : ٢٤٩ ) كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ؟ والله مع الصابرين ) وقال تعالى ( ٨ : ٤٥ ، ٤٦ ) يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا . واذكروا الله كثيراً لعكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله . ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم . واصبروا إن الله مع الصابرين ) .

والشجاعة ليست هي قوة البدن . فقد يكون الرجل قوى البدن ضعيف القلب . وإنما هي قوة القلب وثباته . فإن القتال مداره على قوة البدن وصنعتة للقتال ، وعلى قوة القلب وخبرته به . والحمود منهما ما كان بعلم ومعرفة ، دون التهور الذي لا يفكر صاحبه . ولا يميز بين الحمود والمذموم .

ولهذا كان القوى الشديد : هو الذى يملك نفسه عند الغضب حتى يفعل ما يصلح دون مالا يصلح . فأما المغلوب حين غضبه : فليس هو بشجاع ولا شديد . وقد تقدم : أن جماع ذلك هو الصبر . فإنه لا بد منه .

### الصبر صبران

والصبر صبران : صبر عند الغضب ، وصبر عند المصيبة . كما قال الحسن رحمه الله « ما تجرع عبد جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب ، وجرعة صبر عند المصيبة » وذلك لأن أصل ذلك : هو الصبر على المؤلم . وهذا هو الشجاع الشديد الذى يصبر على المؤلم .

والمؤلم إن كان مما يمكن دفعه : أثار الغضب . وإن كان مما لا يمكن دفعه : أثار الحزن . ولهذا يحمر الوجه عند الغضب ، لثوران الدم عند استشعار القدرة . ويصفراً عند الحزن ، لغور الدم عند استشعار العجز .

ولهذا جمع النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذى رواه مسلم عن

ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « ماتعدون الرقوب فيكم ؟ قالوا : الرقوب الذى لا يولد له . قال : ليس ذلك بالرقوب ، ولكن الرقوب : الرجل الذى لم يقدم من ولده شيئاً . ثم قال : ماتعدون الصرعة فيكم ؟ قلنا : الذى لا يصرعه الرجال . فقال : ليس بذلك . ولكن الصرعة : هو الذى يملك نفسه عند الغضب . »

فذكر ما يتضمن الصبر عند المصيبة ، والصبر عند الغضب .

قال الله تعالى فى المصيبة ( ٣ : ١٥٥ ، ١٥٦ ) وبشر الصابرين . الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون - الآية ) .  
وقال تعالى فى الغضب ( ٤١ : ٣٥ ) وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا . وما يُلَقَّاها إلا ذو حظ عظيم ) .

وهذا الجمع بين صبر المصيبة ، وصبر الغضب : نظير الجمع بين صبر المصيبة ، وصبر النعمة ، كما فى قوله تعالى ( ١١ : ٩ - ١١ ) ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤثوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عني . إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ) وقال ( ٥٧ : ٢٣ ) لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ) .  
وبهذا وصف كعب بن زهير من وصفه من الصحابة المهاجرين رضى الله عنهم . حيث قال :

لا يفرحون إذا نالت سيوفهم قوماً وليسوا مجازيعا إذا نيلوا  
وكذلك قال حسان بن ثابت فى صفة الأنصار رضى الله عنهم .  
لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع  
وقال بعض العرب ، فى صفة النبي صلى الله عليه وسلم « يَغْلِبُ فلا يبَطِرُ .  
ويُغْلَبُ فلا يبْضِرُ » .



## ما يدعو إلى تعدى الحدود

ولما كان الشيطان يدعو الناس - عند هذين النوعين - إلى تعدى الحدود يقولونهم ، وأصواتهم ، وأيديهم : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك . فقال - لما قيل له : وقد بكى لما رأى إبراهيم في النزاع - « أتبكي ، وأنت تهى عن البكاء ؟ فقال : إنما نهيت عن صوتين أحقن فاجرين : صوت عند نعمة : هو ولعب ، ومزامير شيطان . وصوت عند مصيبة : لطم حدود ، وشق جيوب ، ودعاء بدعوى الجاهلية » فجمع بين الصوتين .

وأما نهيه عن ذلك في المصائب : فمثل قوله صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لطم الحدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية » وقال « أنا بريء من الحالقة ، والصائقة ، والشاقة » وقال « ما كان من العين والقلب : فمن الله . وما كان من اليد واللسان : فمن الشيطان » وقال « إن الله لا يؤاخذ على دمع العين ، ولا حزن القلب ، ولكن يعذب بهذا أو يرحم - وأشار إلى لسانه » وقال « من يُنح عليه ، فإنه يعذب بما نيح عليه » واشترط على النساء في البيعة « أن لا ينحن » وقال « إن النائحة - إذا لم تنب قبل موتها - فإنها تلبس يوم القيامة درعاً من جرب ، وميربألاً من قطران » وقال في القتلة ، والمصائب ، والفرح « إن الله كتب الإحسان على كل شيء . فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة . وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة . ولْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، ولْيُرِحْ ذَيْبِحَتَهُ » وقال « إن أعف الناس قتلة : أهل الإيمان » وقال « لا تمشوا ، ولا تغدروا . ولا تقتلوا وليدًا » .

إلى غير ذلك مما أمر صلى الله عليه وسلم به في الجهاد : من العدل ، وترك العدوان ، اتباعاً لقوله تعالى ( ٥ : ٨ ) ولا يجز منكم شأن قوم على أن لا تعدلوا . أعدلوا ، هو أقرب للتقوى ) ولقوله تعالى ( ٢ : ١٩٠ ) وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين ) .

ونهى عن لباس الحرير، والتختم بالذهب، والشرب في آنية الذهب والفضة، وإطالة الثياب. إلى غير ذلك من أنواع السرف، والخيلاء في النعم.

وذم الذين يستحلون الخبز، والحَرَ، والحرير، والنخِر، والمعازف، وجعل فيهم الخسف والمسوخ، إن هم ارتكبوا ذلك.

وقد قال تعالى (٤ : ٣٦) إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً) وقال عن قارون (٢٨ : ٧٦) إذ قال له قومه : لا تفرح . إن الله لا يحب الفرحين ) .

وهذه الأمور الثلاثة - مع الصبر عن الاعتداء في الشهوة - هي جوامع هذا الباب . وذلك : أن الإنسان بين ما يحبه ويشتميه ، وبين ما يبغضه ويكرهه . فهو يطلب الأول بمحبته وشهوته . ويدفع الثاني يبغضه ونفرته . وإذا حصل الأول ، أو اندفع الثاني : أوجب له فرحاً وسروراً . وإن حصل الثاني ، أو اندفع الأول : حصل له حزن . فهو محتاج - عند المحبة والشهوة - أن يصبر عن عدوانها ، وعند الغضب والنفرة : أن يصبر عن عدوانها ، وعند الفرح : أن يصبر عن عدوانه ، وعند المصيبة : أن يصبر عن الجزع منها .

فالنبي صلى الله عليه وسلم ذكر الصوتين الأحمقين الفاجرين : الصوت الذى يوجب الاعتداء في الفرح ، حتى يصير الإنسان فرحاً فخوراً . والصوت الذى يوجب الجزع عند الحزن ، حتى يصير الإنسان هالوعاً جزوعاً .

وأما الصوت الذى يثير الغضب لله : فكالأصوات التى تقال في الجهاد من الأشعار المنشدة . فذلك لم تكن بآلات . وكذلك أصوات الشهرة في الفرح . فرخص منها فيما وردت به السنة : من الضرب بالدف في العرس ، والأفراح للنساء والصبيان . وعامة الأشعار التى تنشُد بالأصوات لتحريك النفوس : هى من هذه الأقسام الأربعة . وهى التشبيب . وأشعار الغضب . والحمية . وهى الحماسة ، والهجاء . وأشعار المصائب ، كالمراثى . وأشعار النعم ، والفرح ، وهى المدائح .

والشعراء جرت عادتهم أن يشوا مع الطبع . كما قال تعالى ( ٣٦ : ٢٢٥ ،  
٢٢٦ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون ) ولهذا أخبر : أنهم  
يتبعهم الغاوون . والغاوى : هو الذى يتبع هواه بغير علم . وهذا هو الغى . وهو  
خلاف الراشد . كما أن الضال : هو الذى لا يعلم مصلحته : هو خلاف المهتدى .  
قال سبحانه ( ٥٣ : ١ ، ٢ والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى ) .  
ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين  
المهتدين من بعدى » .

فهذا تجدهم يمدحون جنس الشجاعة ، وجنس السماحة . إذ كان عدم هذين  
مذموماً على الإطلاق . وأما وجودهما : ففيه تحصيل مقاصد النفوس على الإطلاق .  
لكن العاقبة فى ذلك للمتقين . وأما غير المتقين : فلهم عاجلة لا عاقبة .  
والعاقبة - وإن كانت فى الآخرة - فتكون فى الدنيا أيضاً . كما قال تعالى لما  
ذكر قصة نوح ، ونجاته بالسفينة ( ١١ : ٤٨ ، ٤٩ قيل : يا نوح اهبط بسلام منا  
وبركات علينا ، وعلى أمم ممن معك . وأمم سننتهم . ثم يسهم منا عذاب أليم -  
إلى قوله - فاصبر إن العاقبة للمتقين ) وقال تعالى ( ٢ : ١٩٤ فمن اعتدى عليكم  
فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم . واتقوا الله . واعلموا أن الله مع المتقين ) .

### المحمود من الحمية والشجاعة

والفرقان : أن يحمى من ذلك ما حمده الله ورسوله . فإن الله تعالى هو الذى  
حمده زين ، وذمه شين ، دون غيره من الشعراء والخطباء وغيرهم . ولهذا - لما قال  
القائل من بنى تميم للنبي صلى الله عليه وسلم « إن حمدي زين وذمي شين » قال له -  
« ذاك الله » .

والله سبحانه حمد الشجاعة والسماحة فى سبيله . كما فى الصحيح عن أبى موسى  
الأشعري رضى الله عنه قال « قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : الرجل يقاتل  
شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء . فأى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : من

قاتل لتكون كلمة الله هي العليا . فهو في سبيل الله » وقد قال سبحانه ( ٨ : ٣٩ )  
وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله )  
وذلك : أن هذا هو المقصود الذي خلق الله الخلق له كما قال تعالى ( ٥٦ : ٥١ )  
وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ) .

فكل ما كان لأجل الغاية التي خلق لها الخلق : كان محموداً عند الله . وهو  
الذي يبقى لصاحبه وينفعه الله به . وهذه هي الأعمال الصالحات . ولهذا كان الناس  
أربعة أصناف :

من يعمل لله بشجاعة وسماحة . فهو لاء هم المؤمنون المستحقون للجنة .  
ومن يعمل لغير الله بشجاعة وسماحة . فهذا ينتفع بذلك في الدنيا . وليس له  
في الآخرة من خلاق .  
ومن يعمل لله ، لكن لا بشجاعة ولا بسماحة : فهذا فيه من النفاق ونقص  
الإيمان بقدر ذلك .

ومن لا يعمل لله ولا فيه شجاعة ولا سماحة . فهذا ليس له دنيا ولا آخرة .

### ما يحتاج إليه المؤمن

فهذه الأخلاق والأعمال يحتاج إليها المؤمن عموماً ، وخصوصاً في أوقات  
الحزن والفتن الشديدة . فإنهم يحتاجون إلى صلاح نفوسهم ، ودفع الذنوب  
والمصائب عن نفوسهم عند المقتضى للفتنة عندهم .

ويحتاجون أيضاً إلى أمر غيرهم ونهيه ، بحسب قدرتهم .

وكل من هذين الأمرين فيه من الصعوبة ما فيه ، وإن كان يسيراً على من  
يسره الله عليه .

وهذا لأن الله أمر المؤمنين بالإيمان والعمل الصالح . وأمرهم بدعوة الناس  
وجهادهم على الإيمان والعمل الصالح . ولسكنهم كما قال الله تعالى ( ٤٠ : ٢٢ ، ٤١ )  
ولينصرن الله من ينصره . إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا

الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . والله عاقبة الأمور ) وكما قال ( ٤٠ : ٥١ ) إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ) وكما قال ( ٥٨ : ٢١ ) كتب الله لأغلبينَّ أنا ورسلي . إن الله قوي عزيز ) وكما قال ( ٣٧ : ١٧٣ ) وإن جندنا لهم الغالبون ) .

ولما كان في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله : من الابتلاء ، والحن ما يتعرض به المرء للفتنة : صار في الناس من يتعلل لترك ماوجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة . كما قال الله تعالى عن المنافقين ( ٩ : ٤٩ ) ومنهم من يقول : ائذن لي ولا تفتني . ألا في الفتنة . سقطوا - الآية ) وقد ذكروا في التفسير : أنها نزلت في الجد بن قيس لما أمره النبي صلى الله عليه وسلم بالتجهز لغزو الروم . وأظن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له « هل لك في نساء بني الأصفر ؟ فقال : يا رسول الله ، إني رجل لا أصبر على النساء . وإني أخاف الفتنة بنساء بني الأصفر . فأذن لي . ولا تفتني » .

وهذا الجد : هو الذي تخلف عن بيعة الرضوان تحت الشجرة . واستتر بمجمل أحر . وجاء فيه الحديث « إن كلهم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر » فأنزل الله تعالى فيه ( ومنهم من يقول : ائذن لي ولا تفتني . ألا في الفتنة سقطوا ) . يقول : إنه طلب القعود ليسلم من فتنة النساء ، فلا يفتن بهن . فيحتاج إلى الاحتراز من المحذور ، ومجاهدة نفسه عنه . فيتعذب بذلك ، أو يواقعه فيأثم . فإن من رأى الصور الجميلة وأحبها . فإن لم يتمكن منها - إما لتحريم الشارع ، وإما للعجز عنها - : يعذب قلبه . وإن قدر عليها وفعل المحذور : هلك . وفي الحلال من ذلك من معالجة النساء مافيه بلاء .

فهذا وجه قوله « ولا تفتني » قال الله تعالى ( ألا في الفتنة سقطوا ) يقول : إن نفس إعراضه عن الجهاد الواجب ، ونكوله عنه ، وضعف إيمانه ، ومرض قلبه الذي زين له ترك الجهاد : فتنة عظيمة قد سقط فيها . فكيف يطلب التخلص من

فتنة صغيرة لم تصبه ، بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابته ؟ والله تعالى يقول ( ٨ : ٢١ )  
وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

فمن ترك القتال الذي أمر الله به لثلاث تكون فتنة : فهو في الفتنة ساقط ، بما وقع فيه من ريب قلبه ، ومرض فؤاده ، وترك ما أمره الله به من الجهاد .

فتدبر هذا . فإن هذا مقام خطر . فإن الناس هنا ثلاثة أقسام :

قسم يأمررون وينهون ويقاتلون ، طلباً لإزالة الفتنة - زعموا - ويكون فعلهم

ذلك أعظم فتنة . كالمقاتلين في الفتن الواقعة بين الأمة ، مثل الخوارج .

وأقوام ينكثون عن الأمر والنهي والقتال الذي يكون به الدين كله لله .

وتكون كلمة الله هي العليا ، لثلاث يفتنوا ، وهم قد سقطوا في الفتنة .

وهذه الفتنة المذكورة في سورة « براءة » دخل فيها الافتتان بالصور الجميلة .

فإنها سبب نزول الآية . وهذه حال كثير من المتدنية ، يتركون ما يجب عليهم من

أمر ونهي وجهاد ، يكون به الدين كله لله . وتكون به كلمة الله هي العليا ، لثلاث

يفتنوا بجنس الشهوات . وهم قد وقعوا في الفتنة التي هي أعظم مما زعموا أنهم

فروا منها .

وإنما الواجب عليهم : القيام بالواجب من الأمر والنهي ، وترك المحظور .

والقيام بالواجب وترك المحظور متلازم ، لسكون نفوسهم لانطواعهم إلا على فعلهما

جميعاً ، أو تركهما جميعاً ، مثل كثير ممن يحب الرياسة ، أو المال ، أو شهوات النوى .

فإذا فعل ماوجب عليه : من أمر ، ونهي ، وجهاد ، وإمارة ، ونحو ذلك . فلا بد

أن يفعل معها شيئاً من المحظورات .

فالواجب عليه حينئذ : أن ينظر أغلب الأمرين . فإن كان المأمور أعظم أجراً

من ترك ذلك المحظور : لم يترك ذلك ، لما يخاف من أن يقتن به ما هو دونه في

المفسدة . وإن كان ترك المحظور أعظم أجراً : لم يفوت ذلك برباءة ثواب فعل

واجب يكون دون ذلك . فذلك يكون بما يجتمع له من الأمرين : من الحسنات

والسيئات . فهذا هذا . وتفصيل ذلك يطول .

## الأمر والنهي في كل شيء

وكل بشر على وجه الأرض : فلا بد له من أمرٍ ونهى . ولا بد أن يؤمر ويُنهى . حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها : إما بمعروف ، وإما بمنكر . كما قال تعالى ( ١٢ : ٥٣ ) إن النفس لأتارة بالسوء .

فإن الأمر : هو طلب الفعل وإرادته . والنهي : طلب الترك وإرادته . ولا بد لكل حيٍّ من إرادة وطلب في نفسه . يقتضى بها فعل نفسه ، ويقتضى بها فعل غيره إذا أمكن ذلك . فإن الإنسان حي يتحرك بإرادته . وبنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض .

وإذا اجتمع اثنان فصاعداً ، فلا بد أن يكون بينهما اثنان بأمر ، وتناه عن أمر . ولهذا كان أقل الجماعة في الصلاة : اثنان . كما قيل « الاثنان فما فوقهما جماعة » لكن لما كان ذلك اشتراكاً في مجرد الصلاة : حصل باثنين . أحدهما : إمام والآخر مأموم . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للمالك بن الحويرث وصاحبه رضى الله عنهما « إذا حضرت الصلاة فأذنا وأقما . وليؤتمكما أكبركما » وكانا متقاربين في القراءة .

وأما في الأمور العادية ، ففي السنن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يحل لثلاثة يكونون في سفر إلا أمروا عليهم أحدهم » .

## الأمر بالمعروف من لوازم بني آدم

وإذا كان الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم . فمن لم يأمر بالمعروف ، الذى أمر الله به ورسوله . وينهى عن المنكر ، الذى نهى الله عنه ورسوله . ويؤمر بالمعروف الذى أمر الله به ورسوله . وينهى عن المنكر الذى نهى الله عنه ورسوله . وإلا فلا بد أن يأمر وينهى ، ويؤمر وينهى : إما بما يصاد ذلك . وإما بما يشترك فيه الحق الذى أنزله الله بالباطل الذى لم ينزله الله . وإذا اتخذ ذلك

دينياً : كان ديناً مبتدعاً ضالاً باطلاً : وهذا كما أن كل بشر فإنه حى متحرك يارادته ، همام حارث . فمن لم تكن نيته وعمله عملاً صالحاً لوجه الله . وإلا كان عمله عملاً فاسداً ، أو لغير وجه الله . وهو الباطل . كما قال تعالى ( ٩٢ : ٤ إن سعيكم لَشَتَّى ) .

وهذه الأعمال كلها باطلة من جنس أعمال الكفار ( ٤٧ : ١ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، أضل أعمالهم ) وقال تعالى ( ٢٤ : ٣٩ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . ووجد الله عنده فوفاه حسابه . والله سريع الحساب ) وقال ( ٢٥ : ٢٣ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثواً ) .

وقد أمر الله تعالى في كتابه بطاعته وطاعة رسوله ، وطاعة أولى الأمر من المؤمنين . كما قال تعالى ( ٤ : ٥٩ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلاً ) .

و « أولو الأمر » أصحاب الأمر وذووه . وهم الذين يأمرون الناس وينهونهم . وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة ، وأهل العلم والكلام .

فلهذا كان « أولو الأمر » صنفين : العلماء ، والأمراء . فإذا صلحوا : صلح ، الناس . وإذا فسدوا : فسد الناس . كما قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه للأخمية لما سأله « ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح ؟ قال : ما استقامت لكم أمتكم » ويدخل فيهم : الملوك والمشايخ ، وأهل الديوان . وكل من كان متبوعاً : فهو من أولى الأمر .

وعلى كل واحد من هؤلاء : أن يأمر بما أمر الله به ، وينهى عما نهى الله عنه . وعلى كل واحد من عليه طاعته : أن يطيعه في طاعة الله ، ولا يطيعه في معصية الله . كما قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه - حين تولى أمر المسلمين وخطبهم - فقال



في خطبته « أيها الناس ، القوي فيكم ، الضعيف عندي . حتى آخذ منه الحق .  
والضعيف فيكم : القوي عندي ، حتى آخذله الحق . أطيعوني ما أطعت الله  
ورسوله . فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » .

### فصل

كل الحسنات لا بد فيها من الإخلاص والموافقة للشريعة

وإذا كانت جميع الحسنات ، لا بد فيها من شيئين : أن يراد بها وجه الله ،  
وأن تكون موافقة للشريعة . فهذا في الأقوال والأفعال . في الكلام الطيب ، والعمل  
الصالح . في الأمور العلمية ، والأمور العملية العبادية . ولهذا ثبت في الصحيح عن  
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن أول ثلاثة تُسَجَّر بهم جهنم : رجل تعلم العلم  
وعلمه . وقرأ القرآن وأقرأه ، ليقول الناس : هو عالم وقارىء . ورجل قاتل وجاهد ،  
ليقول الناس : هو شجاع وجريء . ورجل تصدق وأعطى ، ليقول الناس : هو  
جواد وسخي » فإن هؤلاء الثلاثة ، الذين يريدون الرياء والسمعة : هم بإزاء الثلاثة  
الذين بعد النبيين : من الصديقين ، والشهداء ، والصالحين .

فإن من تعلم العلم - الذي بعث الله به رسله - وعلمه لوجه الله : كان صديقا .  
ومن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وقتل : كان شهيدا .

ومن تصدق يبتغي بذلك وجه الله : كان صالحا .

ولهذا يسأل المفرد في ماله الرجعة وقت الموت . كما قال ابن عباس رضي الله  
عنهما « من أعطى مالا فلم يحيح منه ، ولم يُزكَّ : سأل الرجعة وقت الموت . وقرأ  
قوله تعالى ( ٦٣ : ١٠ ) وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت .  
فيقول : رب ، لولا أخرتني إلى أجل قريب ، فأصدق وأكن من الصالحين ) .

فهذه الأمور العلمية الكلامية : يحتاج أن يكون ما يخبر به - عن الله ، واليوم  
الآخر . وما كان ويكون - حقا صوابا ، وما يأمر به ، وما ينهى عنه ، كما جاءت به  
الرسول عن الله .

فهذا هو الصواب الموافق للسنة والشريعة ، المتبع لكتاب الله وسنة رسوله .  
كما أن العبادات التي تتعبد بها : إذا كانت مما شرعه الله ، وأمر الله به ورسوله :  
كانت حقا صوابا ، موافقا لما بعث الله به رسله . وما لم يكن كذلك من القسمين :  
كان من الباطل والبدع المضلة والجهل ، وإن كان يسميه من يسميه : علوماً  
ومعقولات ، وعبادات ، ومجاهدات ، وأذواقا ، ومقامات .

ويحتاج أيضاً : أن يؤمر بذلك لأمر الله ، ويُنهى عنه لنهى الله . ويخبر بما  
أخبر الله به . لأنه حق وإيمان وهدى ، كما أخبرت به الرسل . كما تحتاج العبادة  
إلى أن يقصد بها وجه الله .

فإذا قيل ذلك لاتباع الهوى والحمية ، أو لإظهار العلم والفضيلة ، أو لطلب  
السمعة والرياء : كان بمنزلة المقاتل شجاعة وحمية ورياء .

وكثير من أهل العلم والعبادة : ما يقولون ويفعلون خلاف الحق

ومن هنا يتبين لك ما وقع فيه كثير من أهل العلم والمقال ، وأهل العبادة  
والحال . فكثيراً ما يقول هؤلاء من الأقوال ما هو خلاف الكتاب والسنة .  
أو ما يتضمن خلاف السنة ووقاها . وكثيراً ما يتعبد هؤلاء بعبادات لم يأمر الله بها .  
بل قد نهى عنها . أو ما يتضمن مشروعاً ومحظوراً . وكثيراً ما يقاتل هؤلاء قتالاً  
مخالفاً للقتال المأمور به . أو متضمناً لمأمور به ومحظور .

ثم كل من الأقسام الثلاثة - المأمور ، والمحظور ، والمشتغل على الأمرين - :  
قد يكون لصاحبه نية حسنة . وقد يكون متبعاً لهواه . وقد يجتمع له هذا وهذا .  
فهذه تسعة أقسام في هذه الأمور . وفي الأموال المنفقة عليها من الأموال  
السلطانية : النية وغيره . والأموال الموقوفة ، والأموال الموصى بها ، والمنذورة .  
وأشكال العطايا ، والصدقات ، والصلوات .

وهذا كله من لبس الحق بالباطل . وخلط عمل صالح وآخر سيء .  
والسوء : من ذلك قد يكون صاحبه مخطئاً ، أو ناسياً : مغفور له ، كالمتجهد

المخطيء الذى له أجر ، وخطؤه مغفور له . وقد يكون صغيراً مُكفراً باجتناب  
الكبائر . وقد يكون مغفوراً بتوبة ، أو بحسنات تمحو السيئات . أو مكفراً  
بمصائب الدنيا . ونحو ذلك .  
ألا إن دين الله الذى أنزل به كتبه ، وبعث به رسله ، ماتقدم : من إرادة  
الله وحده بالعمل الصالح .

### الإسلام الذى لا يقبل الله من أحد غيره

وهذا هو الإسلام العام الذى لا يقبل الله من أحد غيره . قال تعالى ( ٣ : ٨٥ )  
ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه . وهو فى الآخرة من الخاسرين ) وقال  
تعالى ( ٣ : ١٨ ، ١٩ ) شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً  
بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام )  
و « الإسلام » يجمع معنيين . أحدهما : الاستسلام والاقبياد ، فلا يكون  
متكبراً .

والثانى : الإخلاص من قوله تعالى ( ٢٩ : ٣٩ ) ورجلاً سَلماً لرجل ) فلا يكون  
مشتزكاً ، وهو أن يسلم العبد لله رب العالمين . كما قال تعالى ( ٢ : ١٣٢ ، ١٣٣ ) ومن  
يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه . ولقد اصطفيناه فى الدنيا . وإنه فى  
الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه : أسلم . قال : أسلمت لرب العالمين . ووصى  
بها إبراهيم بنيه ويعقوب : يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين . فلا تموتنَّ إلا وأنتم  
مسلمون ) وقال تعالى ( ٦ : ١٦١ ، ١٦٢ ) قل : إني هَداني ربي إلى صراط  
مستقيماً . ديناً قِيماً ملة إبراهيم حنيفاً . وما كان من المشركين . قل : إن صلاتي  
ونسكى ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له . وبذلك أمرت . وأنا أول  
المسلمين ) .

و « الإسلام » يستعمل لازماً معدى بحرف اللام ، مثلما ذكر فى هذه  
الآيات . ومثل قوله تعالى ( ٣٩ : ٥٤ ) وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن

يأتيكم العذاب ، ثم لاتنصرون ) ومثل قوله تعالى ( ٧ : ٤٤ ) قالت : رب إنى ظلمت نفسى . وأسألت مع سليمان لله رب العالمين ) ومثل قوله تعالى ( ٣ : ٨٣ ) أفغير دين الله يبغون ؟ وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً . وإليه يرجعون ) ومثل قوله تعالى ( ٦ : ٧١ ، ٧٢ ) قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ، ونزد على أعقابنا ، بعد إذ هدانا الله ؟ كاذبى استهوته الشياطين فى الأرض حيران . له أصحاب يدعونه إلى الهدى : انثبنا . قل إن هدى الله هو الهدى . وأمرنا لنسلم لرب العالمين . وأن أقيموا الصلاة واتقوه . )

ويستعمل متعدياً مقروناً بالإحسان . كقوله تعالى ( ٢ : ١١١ ، ١١٢ ) وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، أو نصارى . تلك أمانيتهم . قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى . من أسلم وجهه لله وهو محسن . فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) وقوله تعالى ( ٤ : ١٢٥ ) ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، واتخذ الله إبراهيم خليلاً ) فقد أنكر الله أن يكون دين أحسن من هذا الدين . وهو إسلام الوجه لله مع الإحسان . وأخبر : أن كل من أسلم وجهه لله وهو محسن : فله أجره عند ربه . ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

أثبت هذه الكلمة الجامعة ، والقضية العامة ، رداً لمزاعم من زعم : أنه لا يدخل الجنة إلا متهود أو متنصر .

### إسلام الوجه والإحسان هما الأصلان

وهذان الوصفان - وهما إسلام الوجه لله ، والإحسان - هما الأصلان المتقدمان وهما كون العمل خالصاً لله صواباً ، موافقاً لسنة والشرعة .

وذلك : أن إسلام الوجه لله هو متضمن القصد والنية لله . كما قال بعضهم : أستغفر الله ذنباً ، لستُ محصيه ربُّ العبادِ إليه الوجهُ والعملُ وقد استعمل هنا أربعة أفاظ : إسلام الوجه ، وإقامة الوجه ، كقوله تعالى

( ٧ : ٢٩ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ) وقوله تعالى ( ٣٠ : ٣٠ فأقم وجهك للدين حنيفا . فطرة الله التي فطر الناس عليها ) .

وتوجيه الوجه : كقول الخليل عليه السلام ( ٦ : ٧٩ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين ) .

وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء الاستفتاح في صلاته من الليل «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين الخ» وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضى الله عنهما . أن النبي صلى الله عليه وسلم علمه أن يقول إذا أوى إلى فراشه « اللهم أسلمت نفسى إليك . ووجهت وجهى إليك - الحديث » .

### معنى « الوجه » و « التوجه »

فالوجه : يتناول التوجهَ والتوجهَ إليه . ويتناول التوجه نحوه . كما يقال : أى وجه تريد ؟ أى : أى وجهة وناحية تقصد ؟ .

وذلك أنهما متلازمان . فحيث توجه الإنسان : توجه وجهه ، ووجهه مستلزم لتوجهه . وهذا فى باطنه وظاهره جميعاً . فهى أربعة أمور . والباطن : هو الأصل . والظاهر : هو الكمال والشعار . فإذا توجه قلبه إلى شىء : تبعه وجهه الظاهر .

فإذا كان العبد قصده ومراده وتوجهه إلى الله : فهذا صلاح إرادته وقصده . فإذا كان مع ذلك محسناً ، فقد اجتمع له : أن يكون عمله صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً . وهو قول عمر رضى الله عنه « اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » .

### العمل الصالح

والعمل الصالح : هو الإحسان ، وهو فعل الحسنات . وهو ما أمر الله به . والذى أمر الله به : هو الذى شرعه الله . وهو الموافق لسنة الله وسنة رسوله .

فقد أخبر الله تعالى : أن من أخلص قصده لله ، وكان محسناً في عمله : فإنه مستحق للثواب ، سالم من العقاب .  
ولهذا كان أئمة السلف - رحمهم الله - يجمعون هذين الأصلين ، كقول الفضيل بن عياض في قوله تعالى ( ليلوكم أيكم أحسن عملاً ؟ ) قال : أخلصه وأصوبه . فقيل : يا أبا علي ، ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان صواباً ، ولم يكن خالصاً : لم يقبل ، وإذا كان خالصاً ، ولم يكن صواباً : لم يقبل . حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص : أن يكون لله . والصواب : أن يكون على السنة .

وقد روى ابن شاهين واللالكائي ، عن سعيد بن جبير . قال « لا يقبل قول إلا بعمل . ولا يقبل قول وعمل : إلا بنية . ولا يقبل قول وعمل ونية : إلا بموافقة السنة » . « وروى عن الحسن البصري مثله . ولفظه « لا يصلح » مكان « لا يقبل » .

### الرد على المرجئة

وهذا فيه رد على المرجئة الذين يجعلون مجرد القول كافياً . فأخبر أنه لا بد من قول وعمل . إذ الإيمان : قول وعمل . لا بد من هذين ، كما قد بسطناه في غير هذا الموضع . وبيننا أن مجرد تصديق القلب ونطق اللسان ، مع بغض الله ولشرائعه والاستكبار على الله وعلى شرائعه : لا يكون إيماناً باتفاق المؤمنين . حتى يقترن بالتصديق عمل صالح .  
وأصل العمل : عمل القلب . وهو الحب ، والتعظيم المنافي للبغض والاستكبار . ثم قالوا « لا يقبل قول وعمل : إلا بنية » وهذا ظاهر . فإن القول والعمل إذا لم يكن خالصاً لله تعالى : لم يقبله الله .  
ثم قالوا « ولا يقبل قول وعمل ونية : إلا بموافقة السنة » وهي الشريعة . وهي ما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم . لأن القول والعمل والنية الذي

لا يكون مسنوناً مشروعاً قد أمر الله به : يكون بدعة « وكل بدعة ضلالة » ليس مما يحبه الله فلا يقبله الله . ولا يصلح . مثل أعمال المشركين وأهل الكتاب .  
ولفظ « السنة » في كلام السلف : يتناول السنة في العبادات ، وفي الاعتقادات .  
وإن كان كثير من صنف في السنة : يقصدون الكلام في الاعتقادات . وهذا كقول ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وأبي الدرداء ، رضى الله عنهم « اقتصاد في سنة ، خير من اجتهاد في بدعة » وأمثال ذلك .  
والله سبحانه وتعالى أعلم . وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد  
ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

---





# رسالة في حروف القرآن وأصواتنا به

وما وقع في ذلك من النزاع

من درر

شيخ الإسلام ابن تيمية

رحمه الله وغفر لنا وله وللمؤمنين

٧٢٨ - ٦٦١

---

---

## بين الله الحرف الخفي

هذه رسالة في حروف القرآن وأصوات القارئ وما وقع في ذلك من النزاع ،  
وبيان الحق وما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع .

لشيخ الإسلام والمسلمين ، عمدة المفتين ، وإمام المحققين بحر العلوم ، الصدر  
الكامل . ناصر السنة ، وقامع البدعة . أبي العباس أحمد بن تيمية ، الحرفاني  
الحنبلي السلفي ، قدس الله روحه .

سئل الشيخ - رحمه الله - عن رجلين تباحثا .

فقال أحدهما : القرآن حرف وصوت . وقال الآخر : ليس هو بحرف  
ولا صوت .

وقال أحدهما النقط التي في المصحف والشكل من القرآن . وقال الآخر :  
ليس ذلك من القرآن . فما الصواب في ذلك ؟ .

فأجاب رضى الله عنه :

الحمد لله رب العالمين .

هذه المسألة : يتنازع فيها كثير من الناس . ويخلطون الحق بالباطل .

فالذى قال « إن القرآن حرف وصوت » إن أراد بذلك : أن هذا القرآن  
الذى يقرؤه المسلمون : هو كلام الله الذى نزل به الروح الأمين على قلب محمد  
خاتم النبيين والمرسلين . وأن جبريل سمعه من الله ، والنبي صلى الله عليه وسلم سمعه  
من جبريل . والمسلمون : سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم . كما قال تعالى  
(١٦ : ١٠٢ قل نزله روح القدس من ربك بالحق) وقال تعالى (٦ : ١١٤) والذين  
آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) فقد أصاب في ذلك . فإن  
هذا مذهب سلف الأمة وأئمتها رحمهم الله . والدلائل على ذلك كثيرة من  
الكتاب والسنة والإجماع .

ومن قال « إن القرآن العربي لم يتكلم الله به . وإنما هو كلام جبريل ، أو كلام محمد ، عبَّر به عن المعنى القائم بذات الله » كما يقول ذلك ابن كلاب والأشعري ومن وافقهما : فهو قول باطل من وجوه كثيرة .

فإن هؤلاء يقولون : إن كلام الله معنى واحد قائم بالذات . وإن معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحد . وأنه لا يتعدد ، ولا يتبعض . وإنه إن عبر عنه بالعربية : كان قرآناً . وبالعبرانية : كان توراة . وبالسريانية : كان إنجيلاً . فيجعلون معنى آية الكرسي ، وآية الدين ، ( قل هو الله أحد ) و ( تبتَّ يدا أبي لهب ) والتوراة والإنجيل ، وغيرها : معنى واحداً .

وهذا قول فاسد بالعقل والشرع . وهو قول أحدثه ابن كلاب ، لم يسبقه إليه غيره من السلف .

وإن أراد القائل « بالحرف والصوت » أن الأصوات المسموعة من القراء . والمداد الذي في المصاحف قديم أزل : فقد أخطأ وابتدع . وقال ما يخالف العقل والشرع . فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال « زينوا القرآن بأصواتكم » فبين أن الصوت صوت القاري . . والكلام كلام الباري . كما قال تعالى ( ٩ : ٦ ) وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ) .

والقرآن الذي يقرؤه المسلمون : كلام الله . لا كلام غيره . كما ذكر الله ذلك . وفي السنن : عن جابر بن عبد الله ، أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان يعرض نفسه على الناس بالموسم . فيقول : ألا رجل يحملي إلى قومه لأبلغ كلام ربي . فإن قر يشأ قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » وقالوا الأبي بكر الصديق - لما قرأ عليهم ( آلم . غلبت الروم ) - « أهذا كلامك ، أم كلام صاحبك ؟ فقال « ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ، ولكنه كلام الله تعالى » .

والناس إذا بلغوا كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، كقوله « إنما الأعمال بالنيات » يعلمون : أن الحديث الذي يبلغون هو كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والسامعون يعلمون أن الحديث الذي يسمعون : كلام النبي صلى الله عليه وسلم .  
تكلم به بصوته وبحروفه ومعانيه . والحديث : إنما بلغه عنه بصوت نفسه ، لا بصوت  
النبي صلى الله عليه وسلم .

فالقرآن : أولى أن يكون كلام الله ، إذا بلغه الرسول عنه ، وقرأه الناس  
بأصواتهم . والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه بصوت نفسه . ونادى موسى  
بصوت نفسه . كما ثبت بالكتاب والسنة ، وإجماع السلف .

وصوت العبد : ليس هو صوت الرب ، ولا مثل صوته . فإن الله ليس كمثل  
شيء ، لا في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أفعاله .

وقد نص أئمة الإسلام - أحمد ومن قبله من الأئمة رحمهم الله - على ما نطق  
به الكتاب والسنة . من أن الله ينادى بصوت ، وأن القرآن كلامه تكلم بحروف  
وصوت ، ليس منه شيء كلاماً لغيره ، لا جبريل ، ولا غيره . وأن العباد يقرءونه  
بأصوات أنفسهم وأفعالهم . فالصوت المسموع من العبد : صوت القارئ .  
والكلام : كلام الباري .

وكثير من الخائضين في هذه المسألة : لا يميز بين صوت العبد وصوت الرب .  
بل يجعل هذا هو هذا ، فينفيهما جميعاً ، ويشبتهما جميعاً . فإذا نفي الحرف والصوت :  
نفي أن يكون القرآن العربي كلام الله . وأن يكون الله منادياً لعباده بصوته الذي  
ليس كصوت العبد . وأن يكون القرآن الذي يقرؤه المسلمون : هو كلام الله . كما  
نفي أن يكون صوت العبد صفة لله ، ثم جعل كلام الله المتنوع شيئاً واحداً . لا فرق  
بين القديم والحادث .

وهو مصيب في هذا الفرق ، دون ذلك الثاني الذي فيه نوع من الإلحاد  
والتعطيل . حيث جعل الكلام المتنوع شيئاً واحداً ، لا حقيقة له عند التحقيق .  
وإذا جعل صوت الرب هو صوت العبد ، أو سكت عن التمييز بينهما - مع قوله :  
إن الحروف متعاقبة في الوجود ، مقترنة في الذات ، قديمة أزلية الأعيان . فجعل

عين صفة الرب تحل في العبد ، أو تتحد بصفته - فقد قال بنوع من الحلول والاتحاد يفضى إلى نوع من التعطيل .

وقد علم أن نفي الفرق والمباينة بين الخالق وصفاته ، والمخلوق وصفاته : خطأ وضلال ، لم يذهب إليه أحد من سلف الأمة وأئمتها . بل هم متفقون على التمييز بين صوت الرب ، وصوت العبد . ومتفقون : أن الله تكلم بالقرآن الذى أنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، حروفه ومعانيه . وأنه ينادى عباده بصوته . ومتفقون على أن الأصوات المسموعة من القراء : هى أصوات العباد ، وعلى أنه ليس شىء من أصوات العباد ، ولا مداد المصاحف : قديما . بل القرآن مكتوب فى مصاحف المسلمين ، مقروءة بألسنتهم ، محفوظ بقلوبهم . وهو كله كلام الله . والصحابة كتبوا المصاحف ، كما كتبوها ، بغير شكل ولا نقط ، لأنهم كانوا عرباً لا يلحنون . ثم لما حدث اللحن : نقط الناس المصاحف وشكلوها . فإن كتبت بغير شكل ولا نقط : جاز . وإن كتبت بنقط وشكل : جاز ولم يكره . فى أظهر قول العلماء ، وإحدى الروایتين عن أحمد . وحكم النقط والشكل : حكم الحروف . فإن الشكل يبين إعراب القرآن ، كما يبين النقط الحروف .

والمداد الذى تكتب به الحروف ، ويكتب به الشكل والنقط : مخلوق . وكلام الله العربى الذى أنزله ، وكتب فى المصاحف بالشكل والنقط ، وبغير شكل ونقط : ليس بمخلوق . وحكم الإعراب حكم الحروف ، لكن الإعراب لا يستقل بنفسه ، بل هو تابع للحروف المنقوطة . والشكل والنقط لا يستقل بنفسه ، بل هو تابع للحروف المرسومة . فلهذا لا يحتاج لتجريدتها وإفرادها بالكلام ، بل القرآن الذى يقرؤه المسلمون : هو كلام الله ، معانيه وحروفه ، وإعرابه .

والله تكلم بالقرآن العربى الذى أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . والناس يقرءونه بأفعالهم وأصواتهم . والمكتوب فى مصاحف المسلمين هو كلام الله . وهو القرآن العربى الذى أنزله على نبيه ، سواء كتب بشكل ونقط ، أو بغير

شكل ونقط . والمداد الذى كتب به القرآن ليس بقديم ، بل هو مخلوق . والقرآن الذى كتب فى المصحف بالمداد : هو كلام الله ، منزل غير مخلوق . والمصاحف يجب احترامها باتفاق المسلمين . لأن كلام الله مكتوب فيها ، واحترام النقط والشكل - إذا كتب المصحف مشكلاً منقوطةً - كاحترام الحروف . باتفاق علماء المسلمين ، كما أن حرمة إعراب القرآن كحرمة حروفه المنقوطة باتفاق المسلمين . ولهذا قال أبو بكر وعمر « حفظ إعراب القرآن : أحب إلينا من حفظ بعض حروفه » . والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه ، فجميعه كلام الله . فلا يقال : بعضه كلام الله ، وبعضه ليس بكلام الله .

وهو سبحانه قد نادى موسى بصوت سمعه موسى . فإنه سبحانه قد أخبر : أنه نادى موسى فى غير موضع من القرآن . كما قال تعالى ( ٧٩ : ١٥ ، ١٦ هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالوادى المقدس طوى ) .

والنداء لا يكون إلا صوتاً ، باتفاق أهل اللغة . وقد قال تعالى ( ٤ : ١٦٣ ، ١٦٤ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده . وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان . وآتينا داود زبوراً . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل . ورسلاً لم نقصصهم عليك . وكلم الله موسى تكليماً ) .

فقد فرق الله بين إيحائه إلى النبيين . وبين تكليمه لموسى . فمن قال : إن موسى لم يسمع صوتاً ، بل ألهم معناه : لم يفرق بين موسى وغيره . وقد قال الله تعالى ( ٢ : ٢٥٣ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض . منهم من كلم الله . ورفع بعضهم درجات ) وقال تعالى ( ٤٢ : ٥١ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً . فيوحى بإذنه ما يشاء ) .

فقد فرق بين الإيحاء والتكليم من وراء حجاب . كما كلم الله موسى . فمن سَوَّى بين هذا وهذا : كان ضالاً .

وقد قال الإمام أحمد وغيره : لم يزل الله متكلمًا إذا شاء . وهو يتكلم بمشيئته وقدرته ، يتكلم بشيء بعد شيء ، كما قال تعالى ( ٢٠ : ١١ فلما أتاهم نودي ياموسى ) فناداه حين أتى الشجرة ، ولم يناده قبل ذلك . وقد قال تعالى ( ٧ : ٢٢ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما . وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما : ألم أنهيكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ ) فهو سبحانه نادى آدم وزوجه حين أكلا من الشجرة ، ولم ينادهما قبل ذلك . وكذلك قال تعالى ( ٧ : ١١ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ) فهو سبحانه قال للملائكة وأمرهم بالسجود بعد أن خلق آدم وصوّره ، ولم يأمرهم قبل ذلك . وكذا قوله ( ٣ : ٥٩ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم . خلقه من تراب . ثم قال له : كن فيكون ) فأخبر : أنه قال له « كن فيكون » بعد أن خلقه من تراب .

ومثل هذا الخبر فى القرآن كثير ، يخبر تعالى : أنه تكلم فى وقت معين ، ونادى فى وقت معين .

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه لما خرج إلى الصفا . قرأ قوله تعالى ( ٢ : ١٥٨ إن الصفا والمروة من شعائر الله ) ثم قال : نبأ بما بدأ الله به » فأخبر : أن الله بدأ بالصفا قبل المروة . والسلف اتفقوا على أن كلام الله منزل . غير مخلوق . منه بدأ وإليه يعود ، فظن بعض الناس : أن مرادهم أنه قديم العين .

ثم قالت طائفة : هو معنى واحد ، وهو الأمر بكل مأمور ، والنهى عن كل منهى ، والخبر بكل مخبر . إن عبر عنه بالعربية : كان قرآنًا . وإن عبر عنه بالعبرانية : كان تورا . وإن عبر عنه بالسريانية : كان إنجيلًا .

وهذا القول مخالف للشرع والعقل .

وقالت طائفة : هو حروف وأصوات قديمة الأعيان ، لازمة لذات الله . لم تزل

لازمة لذاته ، وأن الباء والسين والميم ، موجودة مقترنة بعضها ببعض معاً ، أزلاً وأبداً ، لم تزل ولا تزال . لم يسبق منها شيء شيئاً .

وهذا أيضاً مخالف للشرع ، والعقل .

وقالت طائفة : إن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وإنه في الأزلى كان متكلماً بالنداء الذى سمعه موسى عليه السلام . وإنما تجدد استماع موسى ، لا أنه ناداه حين أتى الوادى المقدس ، بل ناداه قبل ذلك بما لا يتناهى ، ولكن موسى عليه السلام تلك الساعة سمع النداء .

وهؤلاء وافقوا الذين قالوا : إن القرآن مخلوق فى أصل قولهم . فإن أصل قولهم : إن الرب لا تقوم به الأمور الاختيارية . فلا يقوم به كلام ولا فعل ، باختياره ومشيئته .

وقالوا : هذه حوادث . والرب تعالى لا تقوم به الحوادث .

فخالفوا صحيح المنقول ، وصريح المعقول . واعتقدوا : أنهم بهذا يردون على الفلاسفة ، ويثبتون حدوث العالم .

وأخطأوا فى ذلك . فلا الإسلام نصرنا ، ولا الفلاسفة كسروا .

وادعوا : أن الرب لم يكن قادراً فى الأزلى على كلام يتكلم به ، ولا فعل يفعله ، وأنه صار قادراً بعد أن لم يكن قادراً ، بغير أمر حدث . أو يغيرون العبارة ، فيقولون : لم يزل قادراً ، لكن يقولون : إن المقدور كان ممتنعاً ، وإن الفعل صار ممكناً له ، بعد أن كان ممتنعاً عليه ، من غير تجدد شيء .

وقد يعبرون عن ذلك ، بأن يقولوا : كان قادراً فى الأزلى على ما يمكن فيما لا يزال ، لا على ما لا يمكن فى الأزلى .

فيجمعون بين النقيضين حيث يثبتونه قادراً فى حال كون المقدور عليه ممتنعاً عندهم . ولم يفرقوا بين نوع الكلام والفعل ، وبين عينه ، كما لم يفرق الفلاسفة



بين هذا وهذا. إن الفلاسفة ادعوا: أن مفعوله المعين قديم بقدمه. فضلوا في ذلك، وخالفوا صريح المقول، وصحيح المنقول.

فإن الأدلة لا تدل على قدم شيء بعينه من العالم، بل تدل على أن ماسوي الله مخلوق حادث، بعد أن لم يكن. إذ الله تعالى فاعل بقدرته ومشيئته. كما تدل على ذلك الدلائل القطعية.

والفاعل بمشيئته: لا يكون شيء من مفعوله لازماً له بصريح العقل واتفاق عامة العقلاء، بل وكل فاعل لا يكون شيء من مفعوله لازماً لذاته. ولا يتصور مقارنة مفعوله المعين له، ولو قدر أنه فاعل بغير إرادة. فكيف بالفاعل بالإرادة؟ وما يذكر بأن المعلول يقارن علته: فإِنما يصح فيما كان من العلة يجري مجرى الشروط. فإن الشرط لا يجب أن يتقدم على المشروط. بل قد يقارنه، كما تقارن الحياة العلم. وأما ما كان فاعلاً - سواء سمي علة، أو لم يسم علة - فلا بد أن يتقدم على الفعل المعين. والفاعل المعين لا يجوز أن يقارنه شيء من مفعولاته، ولا يعرف العقلاء فاعلاً قط يلزمه مفعول معين. وقول القائل: حركت يدي، فتحرك الخاتم: هو من باب الشروط، لامن باب الفاعلية.

ولأنه لو كان العالم قديماً، لكان فاعله موجباً بذاته في الأزل. ولم يتأخر عنه موجبه ومقتضاه. ولو كان كذلك لم يحدث شيء من الحوادث، وهذا خلاف المشاهد.

فقد ثبت أن الله سبحانه لم يزل قادراً على الكلام والفعل، بل لم يزل متكهماً إذا شاء، فاعلاً لما يشاء، ولم يزل موصوفاً بصفات الكمال، منعوفاً بنعوت الجلال والإكرام.

والعالم فيه من الإحكام والإتيان: ما يدل على علم الرب. وفيه من الاختصاص: ما يدل على مشيئته. وفيه من الإحسان: ما يدل على رحمته. وفيه من العواقب الحميدة: ما يدل على حكمته. وفيه من الحوادث: ما يدل على قدرة الرب تعالى، مع

أن الرب مستحق لصفات الكمال لذاته . فإنه مستحق لكل كمال ممكن للوجود لا تنقص فيه . منزّه عن كل نقص .

وهو سبحانه ليس له كُفٌّ في أى صفة من صفاته ، ولا فى أى أمر من أموره . فهو موصوف بصفات الكمال على وجه التفصيل ، منزّه فيها عن التشبيه والتمثيل . ومنزّه عن النقائص مطلقاً . فإن وصفه بالنقائص من أعظم الأباطيل . وكاله من لوازم ذاته المقدسة ، لا يستفيدة من غيره . بل هو المنعم على خلقه بالخلق والإنشاء . وما جملة فيهم من صفات الأحياء . وخالق صفات الكمال أحق بها من لا كُفَّ له فيها .

وأصل اضطراب الناس فى مسألة كلام الله : أن الجهمية والمعتزلة لما ناظرت الفلاسفة فى مسألة حدوث العالم ، اعتقدوا أن مايقوم به من الصفات والأفعال المتعاقبة : لا يكون إلا حادثاً ، بناء على أن مالا يتناهى لا يمكن وجوده . والتزموا أن الرب كان فى الأزل غير قادر على الفعل والكلام ، بل كان ذلك ممتنعاً عليه وكان معطلا عن ذلك .

وقد يعبرون عن ذلك : بأنه كان قادراً فى الأزل على الفعل فيما لا يزال ، مع امتناع الفعل عليه فى الأزل . فيجمعون بين النقيضين . حيث يصفونه بالقدرة فى حال امتناع المقدور لذاته ، إذ كان الفعل يستلزم أن يكون له أول . والأزل لا أول له . والجمع بين إثبات الأولية ونفيها : جمع بين النقيضين . ولم يهتدوا إلى الفرق بين ما يستلزم الأولية والحدوث . وهو الفعل المعين والمفعول المعين . وبين مالا يستلزم ذلك . وهو نوع الفعل والكلام . بل هذا يكون دائماً ، وإن كان كل من آحاده حادثاً ، كما يكون دائماً فى المستقبل ، وإن كان كل من آحاده قائماً . بخلاف خالق يلزمه مخلوقه المعين دائماً . فإن هذا هو الباطل فى صريح العقل وصحيح النقل . ولهذا اتفقت فطر العقلاء على إنكار ذلك ، لم ينازع فيه إلا شذمة

من المتفلسفة . كابن سينا وأمثاله الذين زعموا : أن الممكن المفعول قد يكون قديماً واجب الوجود بغيره .

خالفوا في ذلك جماهير العقلاء ، مع مخالفتهم لسلفهم : إرسطو وأتباعه ، فإنهم لم يكونوا يقولون ذلك ، وإن قالوا : بدم الأفلاك .

وإرسطو أول من قال : بدمها من الفلاسفة المشائين ، بناء على إثبات علة غائية ، كحركة الفلك . يتحرك الفلك للتشبه بها . لم يثبتوا له فاعلاً مبدعاً ، ولم يثبتوا ممكناً قديماً واجباً بغيره ، وهم - وإن كانوا : أجهل بالله ، وأكفر من متأخريهم - فهم يسمون لجمهور العقلاء : أن ما كان ممكناً بذاته ، فلا يكون إلا محدثاً مسبوقاً بالعدم . فاحتاجوا أن يقولوا : كلامه مخلوق ، منفصل عنه .

وطائفة وافقتهم على امتناع وجود ما لا نهاية له . لكن قالوا : تقوم به الأمور الاختيارية . فقالوا : إنه في الأزل لم يكن متكلاً . بل ولا كان الكلام مقدوراً له ، ثم صار متكلاً بلا حدوث حادث بكلام يقوم به . وهو قول الهاشمية ، والكرامية وغيرهم .

وطائفة قالت : إذا كان القرآن غير مخلوق ، فلا يكون إلا قديماً العين لازماً لذات الرب ، فلا يتكلم بمشيئته وقدرته .

ثم منهم من قال : هو معنى واحد قديم . فجعل آية الكرسي وآية الدين ، وسائر آيات القرآن ، والتوراة والإنجيل ، وكل كلام يتكلم الله به : معنى واحداً لا يتعدد ولا يتبعض .

ومنهم من قال : إنه حروف وأصوات مقترنة لازمة للذات ، وهؤلاء أيضاً وافقوا الجهمية والمعتزلة في أصل قولهم : إنه متكلم بكلام لا يقوم بنفسه ومشيئته وقدرته . وأنه لا تقوم به الأمور الاختيارية . وأنه لم يستَوِ على عرشه ، بعد أن خلق السموات والأرض . ولا يأتي يوم القيامة ، ولم يناد موسى حين ناداه . ولا تغضبه المعاصي ، ولا ترضيه الطاعات ، ولا تفرحه توبة التائبين .

وقالوا في قوله (١٠٥:٩) وقل: اعملوا. فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) ونحو ذلك: أنه لا يراها إذا وجدت. بل إما أنه لم يزل رائيًا لها. وإما أنه لم يتجدد له شيء موجود، بل تعلق معدوم. إلى أمثال هذه المقالات التي خالفوا فيها نصوص الكتاب والسنة، مع مخالفة صريح العقل.

والذي أجازهم إلى ذلك: موافقتهم للجهمية، على أصل قولهم: في أنه سبحانه لا يقدر في الأزل على الفعل والكلام. وخالفوا السلف والأئمة في قولهم: لم يزل الله متكلمًا إذا شاء.

ثم افترقوا أحزاباً أربعة - كما تقدم - : الخلقية، والحدوثية، والاتحادية، والاقترانية. وشر من هؤلاء: الصابئة والفلاسفة، الذين يقولون: إن الله لم يتكلم، لا بكلام قائم بذاته، ولا بكلام يتكلم به بمشيئته وقدرته. لا قديم النوع، ولا قديم العين، ولا حادث ولا مخلوق. بل كلامه عندهم ما يفيض على نفوس الأنبياء. ويقولون: إنه كلم موسى من سماء عقله.

وقد يقولون: إنه تعالى يعلم الكلليات دون الجزئيات. فإنه إنما يعلمها على وجه كلي. ويقولون، مع ذلك: إنه يعلم نفسه، ويعلم ما يفعله. وقولهم: يعلم نفسه ومفعولاته حق. كما قال تعالى (٦٧: ١٤) ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟) لكن قولهم - مع ذلك - إنه لا يعلم الأعيان المعينة جهل وتناقض. فإن نفسه المقدسة معينة والأفلاك معينة، وكل موجود معين. فإن لم يعلم المعينات: لم يعلم شيئاً من الموجودات. إذ الكلليات إنما تكون كلييات في الأذهان، لافي الأعيان. فمن لم يعلم إلا الكلليات، لم يعلم شيئاً من الموجودات. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وهم إنما أجازهم إلى هذا الإلحاد: فرارهم من تجدد الأحوال للبارى تعالى. مع أن هؤلاء يقولون: إن الحوادث تقوم بالقديم، وإن الحوادث لا أول لها. لكن نفوا ذلك عن البارى، لاعتقادهم: أنه لا صفة له. بل هو وجود مطلق.

وقالوا : إن العلم نفس عين العالم ، والقدرة نفس عين القادر . والعلم والعالم شيء واحد . والمريد والإرادة شيء واحد . فجعلوا هذه الصفة هي الأخرى ، وجعلوا الصفات هي الموصوف .

ومنهم من يقول : بل العلم كل العلوم ، كما يقوله الطوسي صاحب « شرح الإشارات » فإنه أنكر على ابن سينا إثباته لعلمه بنفسه ، وما يصدر عن نفسه . وابن سينا أقرب إلى الصواب . لكنه تناقض مع ذلك حيث نفي قيام الصفات به . وجعل الصفة عين الموصوف ، وكل صفة هي عين الأخرى .

ولهذا كان هؤلاء أوغل - في الاتحاد والإلحاد - ممن يقول : معاني الكلام شيء واحد . لكنهم أزموا قولهم لأوائك ، فقالوا : إذا جاز أن تكون المعاني المتعددة شيئاً واحداً : جاز أن يكون العلم هو القدرة ، والقدرة هي الإرادة . فاعترف حذاق أوائك : بأن هذا الإلزام لا جواب عنه .

ثم قالوا : وإذا جاز أن تكون هذه الصفة هي الأخرى : جاز أن تكون الصفة هي الموصوف . فجاء ابن عربي الحاتمي ، وابن سبعين ، والقونوي ، ونحوهم من الملاحظة . فقالوا : إذا جاز أن تكون هذه الصفة هي الأخرى ، والصفة هي الموصوف : جاز أن يكون الموجود الواجب القديم الخالق هو الموجود الممكن المحدث الخلق . فقالوا : إن وجود كل مخلوق : هو عين وجود الخالق . وقالوا : الوجود واحد ، ولم يفرقوا بين الواحد بالنوع ، والواحد بالعين . كما لم يفرق أوائك بين الكلام الواحد بالعين ، والكلام الواحد بالنوع .

وكان منتهى أمر أهل الإلحاد في الكلام : إلى هذا التعطيل والكفر والاتحاد الذي قال به أهل الوحدة والحلول والاتحاد في الخالق والمخلوقات . كما أن الذين لم يفرقوا بين نوع الكلام وعينه . وقالوا : هو يتكلم بحرف وصوت قديم . قالوا - أولاً - إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا تسبق الباء السين . بل لما نادى موسى فقال ( ٢٠ : ١٤ ) إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ( ٢٨ : ٣٠ ) إني أنا الله رب

العالمين) كانت الهمزة والنون وما بينهما موجوداً في الأزل، يقارن بعضها بعضاً. لم تزل ولا تزال لازمة لذات الله.

ثم قال فريق منهم: إن ذلك القديم هو نفس الأصوات المسموعة من القرآن. وقال بعضهم: بل المسموع صوتان: قديم، ومحدث. وقال بعضهم: أشكال المداد قديمة أزلية. وقال بعضهم: محل المداد قديم أزلي.

وحكى عن بعضهم أنه قال: المداد قديم أزلي.

وأكثرهم يتكلمون بلفظ القديم ولا يفهمون معناه.

بل منهم من يظن: أنه قديم في علمه.

ومنهم من يظن: أن معناه متقدم على غيره.

ومنهم من يظن: أن معنى اللفظ غير مخلوق.

ومنهم من لا يميز بين ما يقول. فصار هؤلاء حلولية اتحادية في الصفات.

ومنهم من يقول بالحلول والاتحاد في الذات والصفات. وكان منتهى أمر

هؤلاء وهؤلاء إلى التعطيل.

والصواب في هذا الباب وغيره - مذهب سلف الأمة وأئمتها - : أنه سبحانه

لم يزل متكلماً إذا شاء، وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته. وأن كلماته لا نهاية لها. وأنه

نادى موسى بصوت سمعه موسى، وإيما ناداه حين أتى. لم يناده قبل ذلك، وأن

صوت الرب لا يماثل أصوات العباد. كما أن علمه لا يماثل علمهم، وقدرته لا تماثل

قدرتهم، وأنه سبحانه بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته. ليس في مخلوقاته شيء من

ذاته وصفاته القائمة بذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته. وأن أقوال أهل

التعطيل والاتحاد، الذين عطلوا الذات، أو الصفات، أو الكلام، أو الأفعال:

باطلة، وأقوال أهل الحلول - الذين يقولون بالحلول في الذات أو الصفات -

باطلة. وهذه الأمور مبسوسة في غير هذا الموضع وقد بسطناها في الواجب الكبير

والله أعلم بالصواب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مسألة : ما يقول السادة العلماء الجهابذة أئمة الدين . رضى الله عنهم أجمعين .  
فيمين يقول : الكلام غير المتكلم . والقول غير القائل . والقرآن ، والمقروء  
والقارىء ، كل واحد منها له معنى ؟

بينوا لنا ذلك بياناً شافياً ليصل إلى ذهن الحاذق والبليد ، أثابكم الله بئنه .  
الجواب : صورة ، ما أجاب الشيخ الإمام ، العالم العلامة ، شيخ الإسلام  
أبى العباس ، تقى الدين أحمد بن تيمية الحرانى الحنبلى ، رضى الله عنه .  
الحمد لله رب العالمين .

من قال : إن الكلام غير المتكلم ، والقول غير القائل وأراد : أنه مبين له ،  
ومنفصل عنه : فهذا خطأ وضلال . وهو قول من يقول : إن القرآن مخلوق . فإنهم  
يزعمون : أن الله لا تقوم به صفة من الصفات ، لا القرآن ولا غيره . ويوهمون  
الناس بقولهم : إن العلم غير العالم ، والقدرة غير القادر ، والكلام غير المتكلم . ثم  
يقولون : وما كان غير الله : فهو مخلوق . وهذا تليس منهم . فإن لفظ « الغير »  
يراد به ما يجوز مباينته للآخر ومفارقته له .

وعلى هذا فلا يجوز أن يقال : علم الله غيره . ولا كلامه غيره . ولا يقال : إن  
الواحد من العشرة غيرها ، وأمثال ذلك . وقد يقال بلفظ « الغير » ما ليس هو الآخر  
وعلى هذا ، فتكون الصفة غير الموصوف . لكن على هذا المعنى : لا يكون  
ما هو غير ذات الله الموصوفة بصفاته مخلوقاً . لأن صفاته ليست هى الذات . لكن  
هى قائمة بالذات . والله سبحانه وتعالى هو الذات المقدسة ، الموصوفة بصفات كما  
له . وليس الاسم أسماً لذات لا صفات لها . بل يتمتع وجود ذات لا صفات لها .  
والصواب فى مثل هذا ، أن يقال : الكلام صفة المتكلم ، والقول صفة القائل .  
وكلام الله ليس مبايناً له ، بل اسمه لجبريل . ونزل به على محمد صلى الله عليه وسلم  
كما قال تعالى (٦ : ١١٤) والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق)

ولا يجوز أن يقال : إن كلام الله فارق ذاته ، وانتقل إلى غيره . بل يقال كما قال السلف : إن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود . فقولهم « منه بدأ » رد على من قال : إنه مخلوق في بعض الأجسام . ومن ذلك المخلوق ابتداء . فبينوا أن الله هو المتكلم به . منه بدأ . لا من بعض المخلوقات . وقولهم « إليه يعود » فلا يبقى في الصدور منه آية ، ولا في المصاحف حرف .

وأما القرآن : فهو كلام الله . فمن قال : إن القرآن الذي هو كلام الله غير الله : فخطؤه وتليسه كخطأ من قال : إن الكلام غير المتكلم . وكذلك من قال : إن الله له مقروء غير القرآن الذي تكلم به : فخطؤه ظاهر . وكذلك من قال : إن القرآن الذي يقرؤه المسلمون : غير القرآن المقروء الذي يقرؤه المسلمون ، فقد أخطأ . وإن أراد بالقرآن : مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآنا ، وقال : أردت أن القرآن غير المقروء .

فلفظ « القراءة » مجمل : قد يراد بالقراء القرآن ، وقد يراد بالقراءة المصدر . فمن جعل « القراء » التي هي المصدر . قال : القارئ غير المقروء ، كما يجعل المتكلم الذي فعله غير الكلام الذي هو يقول له وأراد بالغير أنه ليس هو إياه ، فقد صدق . فإن الكلام الذي يتكلم به الإنسان يتضمن فعلا ، كالحركة . ويتضمن مايقترن بالفعل من الحروف والمعاني . ولهذا يجعل القول قسيما للفعل تارة ، وقسيما منه أخرى .

فالأول ، كما يقال : الإيمان قول وعمل . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به » ومنه قوله تعالى (٣٥ : ١٠) إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه ) وقوله تعالى ( ١٠ : ٦١ وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل )  
وأمثال ذلك فيما يفرق فيه بين « القول ، والعمل » وأما دخول القول في العمل



ففي مثل قوله تعالى ( ١٥ : ٩٢ ، ٩٣ فلذنا لنهم أجمعين عما كانوا يعملون ) وقد فسروه بقول « لا إله إلا الله » .

ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى الأعمال أفضل ؟ قال : الإيمان بالله » مع قوله صلى الله عليه وسلم « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها : قول لا إله إلا الله . وأدناها : إمطة الأذى عن الطريق » .

ونظائر ذلك متعددة . وقد تنوزع فيمن حلف لا يعمل عملا ، إذا قال قولا كالقراءة ونحوها . هل يحنث ؟ على قولين في مذهب أحمد وغيره .  
بناء على هذا : فهذه الألفاظ التي فيها إجمال واشتباه ، إذا فصلت معانيها وإلا وقع فيها نزاع واضطراب . والله سبحانه وتعالى أعلم .

والحمد لله وحده وصلى الله وسلم وبارك على عبد الله ورسوله إمام المهتدين ، والقدوة الحسنة للمؤمنين ، وعلى آله أجمعين . وأسأل الله أن يجعلني من آلِهِ وحزبه المفلحين في الدنيا والآخرة .

وكان الفراغ من طبع وتصحيح هذا المجموع المشتمل على :

شذرات البلاتين ، من طيبات كلمات سلفنا الصالحين

رضى الله عنهم أجمعين وحشرنا في زميرتهم تحت لواء خاتم المرسلين وإمام المحسنين المتقين .

وذلك بمطبعة السنة المحمدية في النصف من شهر شوال سنة ١٣٧٥ هجرية .  
الموافق ٢٥ من شهر مايو سنة ١٩٥٦ ميلادية . والله المستعان على كل خير .  
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . سبحان ربك رب العزة عما يصفون  
وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين .

وكتبه فقير عفو الله ومغفرته

محمد حامد النقي